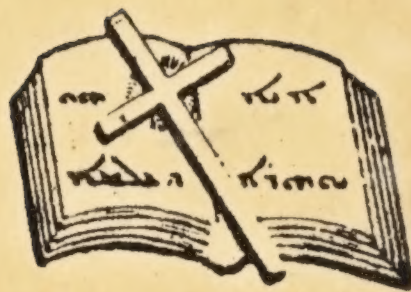


ܐܝܬܝܩܘܢ ܕܒܪ ܥܒܪܝܐ

ETHICON

CHRISTIAN ETHICS (MORALS)

WRITTEN IN SYRIAC BY

THE GREAT SYRIAN PHILOSOPHER AND AUTHOR
OF SEVERAL CHRISTIAN WORKS

MAR GREGORIUS BARHEBRAEUS CATHOLICOS OF THE EAST
(1226 - 1286)

TRANSLATED INTO ARABIC BY

MAR GREGORIUS PAULOS BEHNAM
ARCHBISHOP OF BAGHDAD AND BASRAH — IRAQ

1967

Printed by
CHABAB Press of Kamishly - Syria

ܐܝܬܝܩܘܢ

الإيثيقون

فلسفة الآداب الخلقية

ألفه بالسريانية

العلامة الكبير والفيلسوف السرياني الشهير

مار غريغوريوس ابن العبري مفريان المشرق

ترجمه وكتب مقدمته

الملفان مار غريغوريوس بولس بهنام

مطران بغداد والبصرة

مطبعة الشباب - مكتبة دار اللواء - قامشلي

ܡܠܬܐ ܕܡܫܠܡܢܘܬܐ

ܚܒܝ̈ܒܝ ܩܪ̈ܘܝܐ ܡܝ̈ܩܪܐ :

ܒܫܢܝ̈ ܗܠܝܢ ܡܩܘܪ̈ܒܬܐ : ܦܝܫ ܒܢܝܐ ܠܢ ܕܠܡܐ ܐܘܡܬܐ ܩ̈ܢܘܡܘܗܝ ܦܛܪܘ . ܘܝܘ̈ܡܘܗܝ ܒܪܝܟܘ ܒܝܪܘܬ . ܘܗܘܐ ܒܝܬܝ̈ ܡܠ̈ܦܢܝ ܠܡܣܪ̈ܩܘ ܒܠܘ̈ܢܐ ܫܡܝܠܬܐ ܕܝܕܥܬܐ ܘܡܫܪܒܐ ܫܒܝܠܝܢ ܘܬ̈ܠܡܝܕܘܗܝ ܐܝܟ ܗܠܝܢ ܕܠܡܦܩ ܒܪܝܫ ܦܬܓܡܐ ܐܘܒܕܘ ، ܠܐ ܦܨܝܢ . ܘܐܝܟ ܕܠܒܝܬ̈ܐ ܗܠܝܢ ܢܫ̈ܒܬܐ ܕܒܠܗܝܢ ܢܫܪܐ ܠܐ ܥܒܝܕ . ܐܘ ܕܠܫܡܫܝܢ ܒܪܝܫ ܥܒܝܕ . ܘܠܘܗܝ ܩܘܕܫܝ ܢܫ̈ܒܬܐ ܕܩ̈ܢܐ ܒܗܠܠ ܗܕ̈ܝܢ . ܐܝ ܡܫܬܒܠܝܗܘܢ ܠܐ ܡܬܦܢܝܢ ، ܘܡܢ ܒܡܪܘܐ ܠܐ ܡܬܦܢܝܢ ܒܠܝܬܐ ܗܢܐ ܕܠܒܝܬܐ ܗܢܐ ܠܡܫܘܐ ܠܠܫܢܐ ܣܘܪܝܝܐ ܢܒܢܪ . ܘܐܝܬܘܗܝ ܒܝܬܐ ܘܐܝܬܝܗܝ ܡܢ ܣܘܥܪ̈ܢܘܗܝ ܕܪܒܐ ܕܐܝܟ ܠܦܛܪ ܡܪܝ ܓܪܝܓܘܪܝܘܣ ܒܪ ܥܒܪܝܐ ܡܦܪܝܢܐ ܡܫܒܚܐ ܘܡܕܢܚܝܐ ܗܘ ܦܝܠܣܘܦܐ ܪܒܐ ܘܝܠܦ ܒܠܫܢ ܒܝܬ ܒܝܬ̈ܐ ܕܝܘܢ ܘܟܬܒ . ܒܗ ܒܫܢܬܐ ܕܒܬܪܐ ܗܢܐ ܡܢ ܒܬܪ ܫܢܝ̈ ܣܓܝ̈ܐܬܐ .

ܡܛܠ ܚܒܝ̈ܒܝ ܠܡܫܡܫܘܬܐ ܗܕܐ ܠܡܦܩܘܬܐ ܒܝܘܡܬܐ ܗܠܝܢ . ܘܠܐܚܝ̈ܢ ܘܒܢܝ̈ܢ ܠܡܫܡܫܘ ܘܐܡܪܢ ܒܝܬܐ ܘܡܫܒܚܬܐ ܠܢ ܒܟܠ . ܘܡܢܐ ܠܬܘܕܝܬܐ ܕܟܠܗܘܢ ܢܗܘܐ ܕܡܪܐ ܢܗܘܐ . ܘܠܡܫܪܐ ܒܡܫܡܫܢܘܬܐ ܘܐܚ̈ܝܐ ܦܪܝܫܬܐ ܠܟܠܢ ܢܗܘܐ .

ܒܝܪܘܬ : ܠܬܫܪܝܢ ܩܕܝܡ ܕܫܢܬ ܐܪ̈ܗܘ

ܓܪܝܓܘܪܝܘܣ ܦܘܠܘܣ
ܡܝܛܪܘܦܘܠܝܛܐ ܕܒܝܪܘܬ ܘܒܝܪܘܬ

المقدمة

بقلم المترجم

بعد حمد الله تعالى :

كنـا منذ امد بعيد قد اخذنا على عاتقنا دراسة التراث السرياني الجليل ، لما لهذا التراث من منزلة رفيعة في نفسنا وفي نفوس المطلعين على قيمته وغزارته ، وهو غني عن الوصف والتعريف وقد قال الرب « لا تخفى مدينة موضوعة على جبل » .

اما تراث علامتنا ابن العبري فلا شك انه من نفائس ما جرت بـه الاقلام في مختلف العصور المسيحية ، وخاصة من الناحية الروحية ، وقد اخترنا اليوم كتابه الجليل (الايثيقون) فعرّبناه ليطلع عليه الناطقون بالضاد العزيزة عامـة ، وابنـاء الكنيسة السريانية خاصة . وعلى هذا الامل نضع امام القارىء الكريم ـ كمقدمة للايثيقون ـ النقاط التالية :

١ - من هو ابن العبري

نظراً للشهرة الواسعة التي يتمتع بها علامتنا الكبير مارغريغوريوس ابن العبري مفريان المشرق الجليل نورد فقط خلاصة عابرة لتاريخ حياته الخصبة ، و كنا قد درسناها

دراسة وافية في كتابنا (ابن العبري الشاعر) . (١)

ولد هذا العالم الكبير عـــام ١٢٢٦ م في مدينة ملاطية من ابوين مسيحيين فاضلين ، وأبوه هو الطبيب الشهير في عصره الشماس اهرون بن توما الملطي السرياني النازح ابوه او جده من قرية (عبرى) الجاثمة يوماً على نهر الفرات بقرب مدينة ملطية ، وهذا هو السبب في تسميته (ابن العبري) لا ما ذهب اليه بعض الكتاب الذين يجهلون هذه الحقيقة التاريخية الهامة .

احب العلم منذ نعومة اظفاره (٢) فدرس على مهرة اساتذة مدينته ، واتقن اللغة السريانية ، وطقوس الكنيسة ، وقرأ مبادىء الطب على ابيه ، وفي أواخر عـــام ١٢٤٣ رحل والده باهله الى انطاكية ، فاستمر علامتنا في دراساته الواسعة ، ثم انتجع مدينة طرابلس الشام فاتم دراسة الطب والبيان والمنطق على استاذ هناك اسمه يعقوب ، ولم يتوقف عن الدراسة والتتبع حتى تضلع بجميع علوم عصـره ، الفلسفة بجميع فروعها ، والعلوم اللاهوتية ، واللغة العربية ، ولم يـترك شـاردة او واردة الا واطلع عليها وتفهمها تفهما كاملا ، من جميع العلوم المعروفـة في ايامه ، على ان اعظم موضوع عصمه من الزلل هو تتبعه تعاليم اساطين النساك الكبار (٣) ومن المؤكد انه كان يتقن من اللغات ، السريانية والعربية والفارسية والارمنية والاغلب انـــه مطلع على اليونانية اطلاعاً كافياً .

عام ١٢٤٦ رسم اسقفا لبلدة جوباس بجوار ملطية ، ثم نقل الى اسقفيـــة لاقبين ، ثم نصـب مطراناً لحلب ، وفي ١٩ كانون الثاني سنة ١٢٦٤ نصب مفريانا للمشرق ، فاقام اثنتين وعشرين سنة وبعض شهور متنقلا بين الموصل وقراها ودير

---

١ — مجلتنا لسان المشرق . الجزء الممتاز الاعداد ١ و٢ و٣ السنة الثالثة ١٩٥٠ (الموصل)
وابن العبري الشاعر . طبعة القامشلي ١٩٦٥ .

٢ — كتابه السرياني . الحمامة . دير الزعفران ص ٦٦ سنة ١٩١٦ .

٣ — فيه ص ٦٧

مار متى وبغداد وتبريز ، واخيراً لاقى وجه ربه في مدينة مراغة باذربيجان ، بعد عمل شاق وجهاد موفق طويل في ٣٠ تموز عام ١٢٨٦ وهو اخو ستين .

تشمل مؤلفاته جميع العلوم الآلهية والانسانية ، وجاءت بستة وثلاثين مؤلفاً بين موسوعة كبيرة ورسالة صغيرة حوت علم الكتاب العزيز وتفاسيره ومعارضة ترجماته المتعددة ، والالهيات والفلسفة ، والشرع والاخلاق والتاريخ واللغة والفلك والطب والشعر ، وبالاضافة الى طول باعه في الكتابة والتأليف ، كان ذا مقدرة فائقة في الترجمة من العربية الى السريانية ، فقد ترجم في الفلسفة كتاب الاشارات والتنبيهات للشيخ الرئيس ابن سينا ، وفي الطب ترجم قسماً من القانون للشيخ الرئيس نفسه ، وكتاب انتخاب ديوسقوريدس في المفردات الطبية .

كتب كل هذا التراث الضخم بالسريانية ، اما بالعربية فقد كتب تاريخه الشهير مختصر الدول ، ورسالة ضافية في علم النفس ، ولخص كتاب جامع المفردات الطبية اي الادوية لابي جعفر احمد بن خليد الغافقي الاندلسي المتوفي ٦٥٠ هـ ، وكتاب منافع اعضاء الجسد ، وشرح فصول ابيقراط ، وتحرير مسائل حنين وخطبة لعيد الشعانين . (١)

٢ - كتاب الايثيقون

انجز العلامة ابن العبري تأليف كتاب الايثيقون في مراغة في ١٥ تموز سنة ١٢٧٩ قبل وفاته بسبع سنوات ، وانتشر في الخزائن السريانية منذ وجوده انتشاراً واسعاً ، لما حواه من مؤونة روحية سامية ، وفي الخزائن العالمية الكبرى اليوم من هذا السفر الجليل نسخ نفيسة كثيرة اهمها :

١ — الخزانة البطريركية الكلدانية رقم ٩٩ انجزت سنة ١٢٩٢ اي بعد وفاته بست سنوات

---

١ — راجع وصف هذه المؤلفات في اللؤلؤ المنثور . البطريرك افرام الاول برصوم . طبعة حمص ١٩٤٣ ص ٤١٤ — ٤٣٠

٢ — اوكسفورد رقم ٤٩٠ انجزت سنة ١٣٢٣ بخط الراهب صابيا خيرون

٣ — نسخة ثانية في اكسفورد رقم ٦٨١ انجزت سنة ١٣٣٢ بخط الراهب يشوع

٤ — المتحف البريطاني رقم ٧١٩٤ انجزت سنة ١٣٣٥ في دير نوطفا بجوار ماردين

٥ — باريس رقم ٢٤٥ انجزت سنة ١٣٥٣ في اورشليم

٦ — نسخة ثانية في باريس رقم ٢٤٦ انجزت ١٤٠٩ وهي نسخة دير السريان في مصر .

٧ — نسخة ثانية في المتحف البريطاني رقم ٤٤٠٧ انجزت في قرية باخديدة (قره قوش) بجوار الموصل .

٨ — الخزانة البطريركية السريانية بدمشق انجزت سنة ١٥٧٦ بخط الراهب بهنام الاربوي .

٩ — نسخة ثالثة في المتحف البريطاني رقم ١٨٢٩٥ في دير السلام .

نشر الاب بيجان هذا الكتاب الثمين سنة ١٨٩٨ معتمداً على خمس نسخ هامة هي ، نسخة باريس رقم ٢٤٥ ونسخة باريس الثانية رقم ٢٤٦ وثلاث نسخ في المتحف البريطاني رقم ٧١٩٤ و ١٨٢٩٥ ، و ٤٤٠٧ ، ونسخة بيجان هذه هي التي اعتمدنا عليها في تعريب الكتاب .

يقسم المؤلف كتابه هذا الى اربع مقالات كبرى ، تحوي كل منها ابوابا وفصولا شتى ، يبحث فيه المعرفة من ناحيتها العملية التجريبية على حد تعبيره في المقدمة ، او بالاحرى الناحية الخلقية الخاصة بتكوين انسان الله الكامل ، ويشفع بحوثه بآي الكتاب العزيز ، واقوال اساطين الفضيلة المسيحية (العارفين) الذين ظهروا في العصور الاولى واشرقوا كالمصابيح هدى للاجيال المتعاقبة .

يكرس المقالة الاولى لبحث تنظيم حركات الجسد وتقويمها ، واعطاء الاسس

الخلقية الاولى التي تتوقف عليها مبادىء الحياة الروحية لانسان الله الكامل ، ويورد كل ذلك في تسعة ابواب كـــبرى ، يخصص كل باب في ناحيه معينة من نواحي الحياة الروحية العملية ، واول خطوة يجدها في هـذا المضار هي الصلاة ، وموقف العقل البشري بالنسبة الى ربه اثناء الصلاة ، وكيف يتوصل المصلي الى درجة المصلين الكاملين ، ثم تتعاقب الخطوات العملية الباقية التي هي كمالات واجبة متممة لتكوين عقلية روحية قريبة الى الله واعماله ، فهناك اعمال الزهد التي تحيل الانسان الى كائن روحي كامل ، متمرد على نزوات الجسد ورغائبه الفانية ، ومما يكمل ذلك الحرص على اليقظة الدائمة والهذيذ بالامجاد الخالدة المعدة للمتقـــين ، والتصعيد العقلي المتواصل ، والامعان في الترتيل وممارسة الانشاد الروحي ،والترفع عما يغذي شراسة الجسد وينمي غرائزه المتطرفة ، والاخلاد الى الخلوة الروحية ، والاغراق في التأملات الروحية في اوقات خاصة من اليقظة النفسية .

والمقالة الثانية بحث فيها تقويم الاعمال الطبيعية لحياة الجسد وتهذيبها ، واعطاء الجسد حقوقه الطبيعية المعقولة لاستمراره حياً نامياً متكاملا مهذباً نقياً صالحاً لسكنى النفس الكريمة الخالدة ، ويتطرق في هذه المقالة الى تربية الاطفال وتنشئتهم تنشئة صالحة تليق بمجتمع مدني محترم ، ووجوب اعطائهم الفرصة الكافية لارتشاف العلوم على اختلاف انواعها ، لبناء صرح حضاري كامل ، واعـداد اجيال انسانية فاضلة لخلق مجتمع بشري متكامل ، ثم ينتقل الى فضيلة العمل الانساني الحر ، ووجوب ممارسة سائر الاعمال الشريفة التي يحصل الانسان فيها على اوفى الحيـــاة وكيفية سلوك الانسان في الاخذ والعطاء ، والبيع والشـــراء ووجوب اتباع طرق الحق والعدل في سائر تصرفاته ، وعلاقاته مع سائر طبقات البشر ، وتكريس قسم خاص من ربحه الحلال لاسعاف الفقير والبائس والمريض والعاطل ، والتصدق القاني من كد اليمـين وعرق الجبين لمختلف وجوه الخير ، وتكريس هـذا العطاء لوجه الله وصيانة كرامة الانسان ، كل انسان .

المقالة الثالثة ، خصصها لبحث كيفية تنقية النفس من الاهواء المنحرفة الشريرة ، وقد قيل قديماً ، ان النفس لامّارة بالسوء ، فجاء المؤلف العلامة واصفاً الاسس القويمة ، فيجعل هذه النفس لا امّارة بالسوء ، بل معتنقة طرق الخير والصلاح ، وقد اوضح ماهيتها وقواها ومفاعيلها وعواطفها ، وشرح جميع مبادىء الشر التي تتزاحم حول النفس الانسانية فتشوّه جمالها الروحي ، وتقودها الى الانحراف عن طريق الخير التي يريدها لها خالقها ، وهو الخير المطلق والصلاح اللامتناهي .

بعد ان يشرح ماهية النفس وقواها العاقلة ، ينتقل الى المادة عامة ، فيبحث امراض النفس ، وكيفية معالجتها ويضع على طاولة التشريح كل اسقامها ويعطي الطرق الكفيلة بشفاءها التام ، ثم يعود فيضع امام القارىء عناصر تلك الامراض النفسية ، كالشراهة والرذيلة وعثرات اللسان ، والغضب والحقد والحسد واباطيل الشهوات الدنيا ، والامعان في فانيات الحياة ، والمجد الفارغ ، والمراءاة والكبرياء والتفاخر ، وما الى ذلك مما يتعلق بالنفس الانسانية فيحرفها عما خلقت له ، ويصف لكل داء دواء ناجحاً .

في المقالة الرابعة ، وهي مسك الختام لهذا المؤلف النفيس ، يبحث تجميل النفس بالفضائل على اختلاف انواعها ، واول فضيلة يريدها نبراساً للنفس الانسانية هي المعرفة ، والمعرفة يريد بها سائر العلوم الالهية والبشرية ، ويضع امام المتعلم المادة الضرورية ، ويرشده الى كيفية التسامي في معارج العلوم العقلية والنقلية ، ثم يتطرق الى كيفية اهداء الاخرين الى طرق الصواب وبعد ذلك ينتقل الى سائر المعارف الروحية كالايمان والتوبة ، والصبر والتقوى والرجاء وخشية الله ، والتجرد والزهد والتوكل على الله ومحبة القريب ، وذكر الله والهذيذ باعماله العجيبة ، ونقاء الافكار ومحبة الله وذكر الموت .

ان المقالة الرابعة هذه ، هي بحق ذروة التعاليم الروحية التي يعطيها الفيلسوف

لقارئه ، وقد نحا فيها الطريقة الصوفية الصرفة ، وهي تحق القمة العليا لكل ماورد في سائر بحوث الكتاب .

فأنت ترى ان في (الايثيقون) من المبادىء اسماها ، ومن الروحية اصفاها وانقاها ، بل فيه دروس قيمة لابناء عصرنا الذين يجدون حولهم فيوضاً زاخرة من المبادىء الغريبة الوافدة مع تيار المدنية الزائفة ، مناهضة للمبادىء الروحية السامية التي الفتها اجيالنا المتعاقبة ، آملين ان نكون قد قمنا بشيء من واجبنا الروحي نحو ابناء جلدتنا الذين هم بحاجة ماسة الى مثل هذه المبادىء الروحية القيمة.

و (الايثيقون) موسوعة جليلة للمثل الروحية العليا ، وميدان فسيح للطرق المثلى التي اختطها هذا الفيلسوف الجليل استناداً الى خبرته الروحية من جهة ومن جهة ثانية الى المعارف الروحية التي استقاها من (العارفين) الذين نبغوا في عصور المسيحية الاولى ، واصبحت حياتهم وأقوالهم دروساً ثمينة للاجيال المتعاقبة

وقد اتفق السابقون او يسموا هذا النمط من المعرفة بـ(التصوف) والايثيقون بروحيته السامية لاتختص قراءته بعصر من العصور ، ولا برهط خاص من البشر ، بل انما هو دروس ومبادىء ذات صبغة عامة يجدر بكل لبيب ان يدرسها دراسة هادئة حكيمة ، اما التصوف فندرسه في الخطوات التالية .

٣ — نشوء التصوف وانتشار الفكرة في الشرق

افاقت الروح البشرية منذ اجيال كثيرة وفي حناياها وجد وحنين ، وبين جوانحها شوق ولهيب دفين ، افاقت ظمأى ، وقد اعياها المسير في مسالك وعرة مفروشة بالشوك والقرطب ، فماذا يرويها ؟ واية كؤوس مترعة تطفىء فيها ذياك اللهيب ؟ ! وهذه لذات الحياة كلها احلام باطلة ، وخيالات زائلة ، اذن

لتعودن الى الينبوع الاول ، المنساب برقة وهدوء منذ الازل ، لتعودن الى باريها فتتحد فيه ، ففيه السعادة الكاملة ، وهي وحدها تطفىء ظمأها الروحي وتهديها سواء السبيل ، وهكذا نشأت فكرة (العــودة) او فلسفة الوجــد الروحي والفناء في اللامتناهي ، وهذه هي فكرة (التصوف) .

كان ذلك في القرن الخامس ق . م حيث برزت فكرة (الوحدة) في الفلسفة اليونانية نتيجة لدراسـات في حقل الروح طويلة وواسعة ، وهذه النفس البشرية لا يمكن عودتها الى باريها الطاهر الا بتطهيرها من شوائب الجسد واهوائه .

يظهر ان فكرة (المعصية) تقلق الانسان منذ اقــدم العصور ، اذ شعر الانسان ان هناك حائلا يحول دون عودته الى ربه والاتحاد به ، اتحاداً روحياً مناسباً ، وهذا الحائل هو الخطيئة بالذات ، فبدون زوالها لا يمكنه العودة الى حالة البر والقداسة التي خلق فيها ، منذ مطلع وجوده ، وهكذا شــرع يبحث عن افضل السبل المؤدية الى تطهير هذه النفس والعودة بهــا الى خالقها طاهرة كما صدرت عن يده المبدعـة ، ومهما كانت تصورات الاجيال عن سبب تلويث النفس البشرية بادران الخطيئة متباينة متشعبة ، الا انها تدل على شيء واحد هو الشعور بثقل الخطيئة ذاتها من جهة ، والشعور بوجود تطهير النفس من جهة ثانية ، فأخذ الفلاسفة يفكرون بأفضل الطرق المؤدية الى هذين الهدفين بآن واحد ، ومن ذلك نشأت فكرة ثنية القوى الانسانية المتضـادة ، الجسد واعماله واهواؤه من جهة ، والنفس وقواها ورغائبهـا الروحية من جهة ثانية ، واعتبروا الجسد سجناً رهيباً للنفس فكان لابد لها من طريقة فعالة تمكنهـا من تحطيم هذا السجن الرهيب ، فتنطلق حرة الى الله(١) وقد نادى بهذا المبدأ الرواقيون امثال سينيكا (٢) ومرقس او ريليوس (٣) .

---

1 - History Of The Philosopy. Wilhelm Windelband , Voll , New York 1901 pp 237 - 255 *2 - History of The Philosophy p 230*

3 - History of The Philosophy p 230 .

وكان فيثاغوروس [١] قـــد قرر ان تطهير النفس يتم بالعلم والفلسفة والتأمل العميق والنزوع الى الحكمة توصلا الى الحقيقة الواحـــدة المجردة ، وقبل الشروع بذلك يجب إماتة الاهواء الجسدية والترفع عن مغريات الحياة العابرة ، وحصر الفكر وتصويبه الى الواحد [٢] وجاء بعده برمنديدس [٣] فوجـد ان تطهير الروح والتوصل الى السعادة يتم بالمنطق بالاضـافة الى الترفع عن المـادة ، ويقوم المنطق بملاحظة المقدمات والتوصل الى النتائج الاكيدة الواضحة [٤] والحصول على الوحدة ، الامر الذي تجد فيه الروح الانسانية سعادتها الكاملة . وباتحادها مع (الواحدة) تروي ظمأها الروحـي المزمن [٥] .

جاءت المسيحية وتعاليمهـا الهـادفة الى التسامي عن المادة فاعطت الانسان شرعة جديدة في التجرد ضمن حيـاة الرب يسوع وتعاليمه الالهية (لا تـكنزوا لـكم كنوزاً على الارض حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السـارقون ويسرقون ، بل اكنزوا لـكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ ، وحيث لا ينقب السارقون ولا يسرقون . . . لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبمـا تشربون ولا لاجسادكم بما تلبسون ، اليست الحياه افضل من الطعام والجسد افضل من اللباس ؟ انظروا الى طيور السماء انهـا لا تزرع ولا تحصد ولا تجمـــع الى مخازن ، وابوكم السموي يقوتها ، ألستم انتم افضل منها ؟ . . . . ولماذا تهتمون

---

١ ولد في جزيرة ساموس بقرب مالطة زار الشـــرق فتعلم الرياضيات ومبادىء التصوف ، وقضى بقيـــة حياتـــه في كروتونا ـ جنوب ايطاليا ، وتوفي سنة ٤٩٧ ق . م

2 - *Zeller ' op . cit . pp 48 - 49 .*

٣ ـ ولد سنة ٥١٥ ق . م في ايليا احدى مـــدن ايطاليا الغربية واكتسب شهرة فلسفية واسعة وتوفي بعد سنه ٤٥٠ ق . م

4 - *Parmenides - The Truth .* 3 - *History of The Philosopphy pp 30 - 31 .*

بالباس ؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو ، لا تتعب ولا تغزل ، ولكن اقول لكم انه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها - متى ٦ : ١٩ - ٢٩) فكانت هذه التعاليم اساساً جديداً لحياة روحية جديدة ، تستطيع النفس البشرية اتخاذها طريقاً قوياً للتوصل الى اهدافها الروحية ، واتحادها بالله اتحاداً روحياً عاقلاً .

ان فلسفة فيثاغوروس وفكرة برمنيدس مهما كانتا ساميتين الا انهما تقصران عن الوصول الى هذه الذرى الباذخة من التجرد والتسامي عن اوضار المادة ، وعليه فالمسيحية فتحت ابواباً جديدة ، واعطت مفاهيم جديدة لحياة التجرد والنزوع الى عوالم الروح ، ومع ذلك رغب كثيرون من اساطين معلميها استعادة الفلسفة اليونانية وتطبيق المبادىء المسيحية هذه على متونها ، فاستمدوا الفكرة الافلاطونية الجديدة في الاسكندرية واضافوا اليها مبادىء فيثاغوروس وغيره من الفلاسفة الروحيين ، وهكذا كانت فكرة التجرد المطلق فنشأت عنها الفلسفة النسكية ، او هي الطريقة (الصوفية) والمعروف ان السريان بصورة خاصة عنوا بترجمة الفلسفة الخلقية اليونانية ، وهي حكمة فيثاغوروس والافلاطونية الجديدة النازعة الى التصوف (١) .

وعلى هذه الاسس قامت فلسفة التصوف المسيحي منذ العصور الاولى ، الا ان التجرد الانجيلي كان الدعامة الكبرى الوحيدة للنساك المسيحيين ، وكانت فكرة (الفناء) في بادىء الامر غير معروفة بل لم يكن يفكر النساك الاقدمون الذين اعتنقوا هذه الطريقة ، وحققوا انجازات رائعة جداً في هذا الميدان ، وتألب حول الصوامع والديورة الوف من ذوي الفكر الروحية ومحبي الانفراد والتواقين الى الخلوة النفسية ، ضاربين بالدنيا وما فيها من ملاذ زائلة عرض الحائط ، قوّامين صوّامين قانتين لربهم حياتهم كلها .

---

4 -- *History of The Philosobhy, p 237 - 255* ·

بالاضافة الى ذلك نجـــد النساك المسيحيين في القرنين الثالث والرابع والى الخامس يصدرون أقوالا ويقومون باعمـــال تبدو متأثرة بفكرة الفلسفة اليونانية ، ولكن بطريقة مسيحية صرفة ، وقد جمع علامتنا ابن العبري - في موسوعته الجليلة هذه - شتات تلك الفلسفة اخذاً عن النساك المصريين امثال الآباء انطونيوس ، وارسانيوس وسوسايس ، وفومان ، ومقاريس ، وتيودور ، وايسيدور ، ومن المشارقة الاب يوحنا صاحب الدوالي ، ويأونني رئيس الدير ، واسحق النينوي ، وغيرهم ، وقد بنى معظم آرائه النسكية (الصوفية) على تعاليم اساطين النساك المسيحي هؤلاء ، واضاف اليها ما اكتسبه من اختباراته الشخصية وفكرته اللامعة .

٤ - التصوف في الاداب السريانية

في غضون القرن السادس الميلادي نجـــد أثراً صوفياً سريانياً - وهو أول أثر سرياني في هـــذا المضار — يظهر للوجود منحولا ايرثاوس استاذ ديونيسيوس الاريوباغي ، وقد نسبه بعضهم الى اسطفان ابن صوديلي (٥١٠) الا ان المقدمـة التي كتبها العلامة ابن العبري عند تهذيبه هذا الاثر الصوفي تصرّح بانه مترجم عن اليونانية شأنه شأن كثير من ابواب المعرفة التي ترجمت من اليونانية الى السريانية اعتباراً من القرن الرابع الى نهاية القرن التاسع تقريباً .

في هذا الاثر صورة صحيحة للفلسفة اليونانية الصوفية تتخللها عقيدة وحدة الوجود ، وهذا هو مذهب (البانتئست) الذي يعلن ان الاله الواحـــد هو كل الكائنات ، وقد تبنى ابن صوديلي هذا المذهب في الشرق السرياني إبان القرن السادس الامر الذي حدا بالكتّاب السريان الى نسبته الى ابن صوديلي ، ومن المعروف ان الكنيسة اعلنت سخطها على ابن صوديلي لاعلانه اراء تخالف الحقائق المسيحية مخالفة صريحة ، وذلك بالرسائل اللاهوتية التي كتبها العلامة مار فيلكسينوس المنبجي (٥٢٣م)

مشجعاً لتلك الاراء القائلة . ومن دراستنـــا الاثر المنحول ايرثاوس تتجلى لنـــا الحقائق التالية :

١ ـ ان نسبة هذا الأثر الى ايرثاوس لانعتقدها محتملة لان احـــداً من كتاب القرون المسيحية الاولى لم يذكر مؤلفاً بهذا الموضوع لايرثاوس ، ولو وجد لما صمت عنـه علماء الاسكندرية في القرنـــين الثاني والثالث . ابان تفشي اراء الافلاطونية الجديدة والفيثاغورية في المدرســـة الاسكندرية ، وتبني بعض علماء هذه المدرسة مبادىء تلك الفلسفة ودفاعهم عنها وعملهم على انتشارها بشتى الطرق .

٢ ـ اذا كان لاهوتيو الكنيسة السريانية قد شجبوا اراء البانتيئستية عند ابن صوديلي كما شجبوها عند غيره ، فليس ذلك معناه ان ابن صوديلي لم يكن كاتباً كبيراً ومفكراً حراً بالنسبة الى عقيدته هذه ، ومن المعروف ان تبنيه هذه الاراء الغريبة المخالفة للمسيحية ادى الى طمس اثاره منذ وجودها ، اما ان يكون الاثر المنحول ايرثاوس صادراً عن قلم ابن صوديلي فليس لدينـا الدليل الحاسم على ذلك ، كما اننا نعتقد ان ابن صوديلي لم يكن اقل من ان يصدر اثراً من هـــذا القبيل ، لانه يعتقد نفس الاعتقاد ، وقد نادى بعقيدته هذه بكل صراحة متحدياً بذلك كنيسته برمتها مع وجود كبار الكتاب بـــين علمائها عصرئـــذ ، امثال فيلكسينوس المنبجي ، والبطريرك سويريوس الانطاكي (٥٣٨ م) وغيرهما من العباقرة الكبار ، وقد علمنا ان مار فيلكسينوس قاوم هـذا الكاتب وقارعه مقارعة صارمة برسائله وفنّد آراءه ، وهذا ماحمل المتتبع السرياني يومئذ على الاعراض عن كتابات ابن صوديلي فيما اذا وجدت ، بل ادى الى هربه من موطنه الرها والتحاقه ببعض معتنقي مذهبه في فلسطين واستمراره على مراسلة تلاميذه في وطنه ، ومع ذلك لم يكن لفكرته نصيب من الذيوع والانتشار في الاداب السريانية .

ان الاثر المنحول ايرثاوس انتشر في الكنيسة السريانية عن طريق المتصوفـة والنساك فقط ، والمعروف ان طريقة النسك والرهادة انتشرت في الكنيسة السريانية

انتشاراً عظيماً وواسعاً جداً منذ القرن الرابع بشكل لم يسبق له مثيل في الكنيسة المسيحية كما لم يعقب له مثيل ايضاً ، وكان الناسك السرياني بحاجة الى تعاليم روحية تقربه من هدفه الاساسي ، وهو مقارعة قوى الجسد واطفاء اهوائه والتسامي الى الكمال الانجيلي، وقد وجد كل ذلك في هذا الاثر ، بغض النظر عن عقيدته المخالفة المسيحية .

٣ - يظهر ان الآراء الصوفية النسكية الواردة في هذا الاثر نالت اعجاب بعض العلماء السريان رغم ما فيه من تعليم، ناهضه هؤلاء العلماء وشجبوه شجباً كاملاً ، وعلى هذا الاساس نجد البطريرك تيودوسيوس التكريتي المولد (٨٨٧ - ٨٩٦ م) يقدم على تفسيره تفسيراً مسهباً ، اجابة الى طلب لعازر اسقف قوروس فاعطانا بذلك مجلداً ضخماً بانشاء بليغ [١] .

٤ - تُرجمت آراؤه الصوفية الى العربية في مطالع القرن التاسع او قبله بقليل وانتشرت لدى المتصوفة الشرقيين بدليل وجودها كاملة عند الفلاسفة العرب فاخذوا بها بالطريقة التي اختطوها لانفسهم في البحث والابداء ، ولو قابلنا افكاره الصوفية بما نادى به الفيلسوفان العربيان الكبيران ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٤٧ م) والغزالي (١٠٥٩ - ١١١١ م) لوجدنا اتفاقاً كاملاً في التفكير منذ مطلع تطهير النفس البشرية حتى ارتفاع العقل الى الملأ الأعلى ارتفاعاً روحياً واتحاده بالواحد الاحد ، منطلقاً من ربقة المادة .

٥ - استمرت آراؤه الصوفية ذات اهمية كبرى لدى الفلاسفة السريان والعرب بآن واحد ، حتى العصور المتأخرة بدليل التلخيص البليغ الذي اضفاه العلامة ابن العبري على هذا الاثر ، اجابة الى طلب ناسك فاضل معاصر له .

٦ - يظهر ان العلماء السريان ، رغماً عن معرفتهم الاكيدة بالآراء الشاذة

---

(١) - منه نسخة قديمة في الخزانة الزعفرانية بخط الراهب ابي نصر البرطلي سنة ١٢٩٠ م تشمل على نصف الكتاب .

التي يحملها هذا الأثر ، أولوه قيمة نسكية كبرى ، فاخذوا بهذه الآراء وارتموا تلك اذ قطفوا من روضته الازهار وارتموا الاشواك تماماً كما كان يفعل القديس الذهبي الفم بالنسبة الى مؤلفات اوريجانس ، ولما كانت الفكرة الفيثاغورية وغيرها من الفكر الفلسفية تتبوأ درجة عالية لدى المثقفين السريان ، اقدم البطريرك تيودوسيوس نفسه على تفسير حكم الفلاسفة الرمزية ونقلها من اليونانية الى السريانية بما في ذلك رسالة فيثاغوروس الحاوية مئة واثنتي عشرة حكمة ، وقد نشرت بالسريانية والعربية (١) .

٧ - نظراً لوجود هذا الاثر الصوفي الهام منذ مطلع القرن السادس الميلادي - على الاقل - وانتشار آرائه لدى جميع المتصوفة الشرقيين والكتاب المعنيين بهذه الطريقة ، تعتبر آراؤه اساساً وحيداً ومصدراً فريداً لجميع ما انتجته اقلام الفلاسفة الشرقيين من عرب وسريان حتى العصور المتأخرة ، بدليل وجود عناصرها مبثوثةً في جميع البحوث الصوفية العربية والسريانية بغض النظر عن انتهاج كل فيلسوف طريقة خاصة لبحثه (٢) .

بعد استعراضنا هذه النقاط السبع يمكننا إيراد آرائه الصوفية استناداً الى النص الذي هذّبه وفسّره العلامة ابن العبري واتخذه اساساً لفلسفته الصوفية ، شأنه شأن جميع الفلاسفة الشرقيين .

ان العلامة ابن العبري لا يذكر في استعراضه الاثر المنحول ايرثاوس ، ابن صوديلي مطلقاً ، ذلك لانه لا يعتقد اعتقاداً جازماً ان ابن صوديلي هو كتبه ، ومن المعروف ان الكتاب السريان القدامى لم يجزموا ان ابن صوديلي هو

---

(١) - باريس رقم ١٥٧ خطت سنة ١٥٤٠ ، نشرها زوتنبورغ سنة ١٨٧٦ م .

٢ — دليل المخطوطات السريانية لرايت سنة ١٨٧١ ص ٨٩٤ — ٨٩٥ ، ومخطوطات برلين لساخو سنة ١٨٩٩ رقم ٢١١ ص ٦٨٩ ، وراجع ايضاً كتاب ايرثاوس مع تفسير البطريرك تيودوسيوس رقم ٧١٨٩ من مجموعة روزن وفورشال ص ٧٤ وهي النسخة التي اعتمدها ابن العبري في تهذيبه وتفسيره للكتاب (حاشية مجموعة رايت ص ٨٩٤

حقيقة واضع هذا الاثر ، وقد كتب البطريرك قرياقس (في القرن التاسع) في جوابه على السؤال الخامس للشماس يشوع الترمنازي « ان الكتاب المنحول ايرثاوس ، ليس له ، ويحسبه بعضهم من وضع ابن صوديلي المبتدع [1] » وعلى هذا الاساس لم يتطرق ابن العبري بكلمة واحدة الى ذكر ابن صوديلي ، كما ان المستشرقين المعاصرين ايضاً لايرون ذلك ، وعليه لاحاجة الى ذكر ابن صوديلي في هذا المضمار .

ان المقدمة التي كتبها العلامة ابن العبري لهذا الأثر تشعر القارىء ان ابن العبري نفسه يعتبر نسبة الكتاب الى ايرثاوس امراً حقيقياً مفروغاً منه فلا يذكر كلمة واحدة ضد هذا الرأي ، بل يدخل الموضوع مباشرة كأن الكتاب صدر من قلم ايرثاوس بالذات لا من قلم كاتب اخر مجهول الهوية فيقول في مطلع المقدمة : « اعلم ايها الاخ الروحي اني درست بدقة كتاب الحكيم العالم الشهير ايرثاوس زمناً مديداً ، فوجدته كتاباً جليلا وعجيباً . » ومن هنا يتضح ان ابن العبري يجزم في اعتقاده ان الاثر لايرثاوس لا لغيره ، ولكن ملاحظته في الكتاب وردت بقوله : « الا اني لاحظت مقالاته وفصوله مرتبكة مشوشة ، وطويلة ، قلقة وهكذا بعض عباراته . » وينزه ابن العبري ايرثاوس من ذلك ويلقي بالتبعة على المترجم من اليونانية الى السريانية فيقول : « ذلك لم يصدر عن المؤلف المذكور ، بل بداعي الترجمة من اليونانية الى السريانية » ثم يذكر تهذيبه الكتاب بصورة عامة ، فيقول : « وعليه قررنا تهذيب الكتاب ووضع كل شيء في محله اللائق به ، أو حيث يليق هو بذلك المحل ، طبقاً لرأينا واعتقادنا الخاص ، وفي عملنا هذا لم نشوش عبارات المؤلف ولا المترجم ، أي اننا لم نبدل ولم نضف شيئاً من عندنا سوى بعض الالفاظ اليسيرة (كأدوات التوكيد وما إليها) الا اننا حذفنا ما كان عديم الفائدة كعلم التنجيم وما إليه ، واستغنينا عن بعض الابواب والفصول ، وان وقعت فيه بعض

---

١ — اللؤلؤ المنثور — طبعة حمص ص ٢١٦ — ٢١٧

العبارات المتكررة فتلك جاءت بداعي الحاجة او الضرورة ، وطبقنا فصول الكتاب على اعمال الرب الخلاصية ، فابتداءً من العماذ ثم الجهاد ضد قوى الشر ، والصلب والدفن والقيامة والصعود ، ثم تطرقنا الى الجوهر العام فمراتب الملائكة وفقا لنصوص الكتاب المقدس ، وقد اثبتنا فصول التوبة وشجرة الشر أولاً منسوبة الى العقل البشري ، لان العقل البشري بحاجة الى التوبة واستئصال الشر دائماً ، ووسمنا الكتاب باسم (المختار من كتاب ايرثاوس الشهير) وفيه اثنان وعشرون فصلا بعدد الحروف الابجدية (السريانية) و ٣٦٦ عبارة بعدد ايام السنة الكبيسة ، أسأل الله ان يعضدني ويبلغ بي الى حسن النهاية .

من هذه المقدمة نفهم ان علامتنا ابن العبري استعذب ما ورد في الكتاب من روحية سامية ، بعد ان عزل عنه ما كان يشوبه من اشواك وادران ، واتخذه منطلقاً لفلسفته الصوفية ، شأنه شأن غيره من الفلاسفة الشرقيين كما سنعلم فيما بعد .

من كل هذا نعلم ان الاقلام السريانية التي عملت في اثر ايرثاوس ، انما عملت على تنقيته من الاوضار البانتيئستية بصورة مطلقة ، وخاصة منذ تناوله قلم البطريرك تيودوسيوس في القرن التاسع ، كما تناوله قلم العلامة ابن العبري بالتهذيب والتنقية في القرن الثالث عشر ، فانك تجد الان بين يديك نفحات روحية نقية متخلصة تماماً من عقيدة منحرفة طالما رسخت في عقول كثيرة في القرن السادس وهكذا اذا تغلغلت في هذا الاثر تجد فيه آيات بينات منبثقة من كتاب الله العزيز ومطابقة كل المطابقة للروح الصوفية المطلقة ، وكلها تدور حول الاشواق الروحية اللاهبة الصادرة عن العقل البشري ، في حضيض هذه المادة الى التمتع بالالتحاق بالعقل الالهي الاسمى ، والتصاعد الى الملأ الاعلى ناضياً جلباب المادة الكثيفة .

في هذا الاثر الصوفي الجليل اثنتان وعشرون نقطة ، طبقاً لعدد فصوله ،

هي الاسس الكاملة لكل نواحي الفلسفة الصوفية في الشرق ، فكل ما ورد في هذه الفلسفة الواسعة النطاق من العناصر الروحية السامية انما استمدت مبادءها من هذه النقاط بعينها ، ولو جمعنا كل ما جرت به اقلام فلاسفتنا العرب والسريان وعصرناه عصراً ، لما وجدنا بين ايدينا غير هذه العناصر بعينها ، ومعنى ذلك ان هذه النقاط التي اتتنا بها العصور الاولى الآداب السريانية وتبلورت بهذا الشكل في الاثر المنحول ايرثاوس ابان القرن السادس الميلادي ، انما هي المنطلق الوحيد لافكار جميع الفلاسفة الشرقيين في هذا المضمار .

ولنلق الآن نظرات عجلى على بعض هذه النقاط طبقاً لما ورد في الاثر المنحول ايرثاوس الذي هذّبه علّامتنا ابن العبري ، لنوضح للقاريء الكريم انها الاسس الكاملة للفلسفة الصوفية في العصور المتتابعة الى القرن الثالث عشر الميلادي ، واليك ذلك :

١ - حالة العقل الانساني الطبيعية : النفس البشرية العادية مغمورة بالاهواء الشاذة المتضاربة ، وعليه فان العقل في هذه الحالة يشعر وكأنه في سجن رهيب ، وذل وهوان لا ينطق بها ، فتراه يئن مشتاقاً للتخلص من حالته هذه منطلقاً الى الله كغوث للهفته وموئل لغربته ، وحكمة الله لا تقف منه موقف المتفرج بل تسعفه بقوة خاصة للنهوض واعلانها حرباً شعواء ضد القوى الشريرة ، فيتململ رويداً رويداً للنهوض واللحاق بالعقل الأزلي والاتحاد به ، ويدفع (الفلس الاخير) فيحطم ابواب سجنه الرهيب . (خلاصة الفصل الاول وشروحه للعلّامة ابن العبري) .

٢ - الخطوة الاولى : تنطلق خطوة العقل الاولى نحو الحرية الكاملة ، عندما يثور الحب الالهي ، ويتفجر الشعور من الاعماق ، بوجوب الانطلاق ، فمن العقول من تنطلق حالة انبجاس المعرفة والقوة فيها ، ومنها من تبقى رازحة تحت اثقال الهوى ، وتكون سرعة الانطلاق للنوع الأول بالنسبة الى قوة الحب

الثائرة فيه ، والرزوح ايضاً بالنسبة الى تمسك النوع الثاني بحبال الاهواء والشهوات المنحرفة ، وهذه من سعير اتون شهواتها تعلن حرباً شعواء ضد الخير اذ تستطيب المكوث تحت اثقال المادة ، فالكائن الذي لا ينال قوة العقل الاول هــو مساو للبهائم العديمة الحكمة .

والشروع بالتوجه الى الخير الاسمى ، انما هو تصعاد ، وعــدم الشعور بذلك انما هو هبوط ، والعقل الذي يثور فيه هذا الشعور انما هو قد شرع في التصعاد ، والذي لم يثر فيه هذا الشعور انما قد شرع في الهبوط ، وهو الخطوة الاولى للانحدار .

وهناك غيوم دكناء من قوى الشر تتصاعد متلبدة ، وهي لا تضعف شعاع الحقيقة فحسب ، بل تحجبه عن باصرة العقل وبصيرته ، فتخبو كل الاشعة الخيرة ويخيم الظلام ، فيتلاشى فيها العقل ، وكل عقل لا تقبل صفحته المواضيع الروحية انما هو عدو الخير .

واذا تصاعد العقل الى ذروة التشبه بالله ، ونال درجة الكمال ، ولم يحتفظ بيقظته الكبرى ، فانه لم يزل في خطر مستطير ، لانه ما لم يلاحظ ذاته ملاحظة دقيقة وفي اعماقه ولو شيء يسير من جذور الشر لم يزل حياً ، فان هذا الجذر الصغير ينمو بسرعة هائلة وفي لحظات يصبح شجرة كبيرة تعشش على اغصانها طيور السماء ، فترمي خراعيبها الى البحر وغصونها الى الانهار وتلقي بظلال اوراقها على الاسرار الالهية الخيرة بعنف فتطفىء العقول المتألقة الساطعة ، وتستمر بالنمو والانتشار ، وبلحظة اخرى يسيرة تينع ثمارها الرديئة ، وقد حذرت كلمة الله من مرائرها التي تخنق العقول ، اذ تظهر لهذه العقول السامية بعلامة دكناء ، ان ثمارها كريهة واوراقها قذرة ، تخيم على العقول الساطعة فتحجب عنها النعمة الالهية الوضاءة وتظلم بظلامها القاني ألق العقل المتسامي ، تلك هي شجرة الشر ، فلا ظلها في ارضنا ولا خيالها في شعبنا ، وقد حذرت منها كلمة الله فقالت لآدم :

يوم تأكل منها موتاً تموت . وهكذا ترى هذه الشجرة وقد اندفعت اغصانها من تحت اللجج ، وهي لن تموت طالما هناك جذر واحد من جذورها لم يزل حياً .

ان الخير الاول الاسمى ، هو وحده قادر ان يعيد الحق الى نصابه ، فيقل عثرات الساقطين ، ويثير فيهم الشوق العارم للعودة الى الحظيرة الخيرة ، ويتناول التينة العميقة — بعد انتظارها ثلاث سنوات وتسميدها - يتناولها بالقطع والاستئصال لئلا تبطل ارض العقل الصالحة .

انحدرت النفس الانسانية هابطة شيئاً فشيئاً ، كما حدث للأبالسة حيث تجلبيت شرهم وسقطت من عليائها ، وتخبطت في مجاهيل موحشة وتعرضت لالف محنة ، وتجردت عن خيرها فانطفأ كيانها ، وسدرت بتمردها ، وهكذا يجب ان ينحدر العقل البشري الى اعمق الاعماق متعقباً جذور الشر ليعمل على استئصالها .

٣ — معمودية الآلام : لايقطع دابر الشر الى بالألم والجهاد ورغبة العقل وشوقه الى خوض غمرات هذا الجهاد ، وهذه هي معمودية الالام فيقول الفيلسوف : « لايحيا ذو جسد مالم يهبط الى حميم هذه المعمودية ، وقد اشار الرب الى هذه المعمودية — معمودية الآلام — بقوله : لي صبغة اصطبغها وانتم لاتعرفونها ، وهذه هي المعمودية التي تهبط الى اعماقها العقول الراغبة في التألّه ، التي بها يتحد العقل بالواحد الازلي ، وعليه فان الفيلسوف ينصح تلميذه بقوله : وانت يابني ، فانظر الى فوق ، وأعرض عما في الارض ، دع الظل واتحد بالحقيقة ، اعرض عن الطبيعة الفانية واهبط بقوة آلهية الى اردن هذه المعمودية المقدسة المجردة عن الهيولى ، واذا سمعت الرب يقول لابني زبدي — اما كأسي فتشربان واما صبغتي فتصطبغان — فاعلم انه يشير الى هذه المعمودية المطهّرة التي بها يعتمد الكاملون فيطهرون .

ان العقل المتأله ، بعد صعوده الثاني ، يندفع بقوة آلهية الى هذه

المعمودية ، فيعتمد فيها ، ويزداد قداسة وتطهيرا ، فيتجلى له الروح القدس ويحل عليه بشبه جسم حمامة ، فيصبح العقل شبيهاً بالمسيح بكليته ، وترتفع حينئذ منزلة العقل ويدعى (مسيحاً) ويأمر بعذاب الاشرار بسلطان عجيب ، ويفسر ابن العبري هذه الخطوط الجريئة بقوله : لان العقل الكامل تشبّه بالمسيح كلياً ، واصبح نظيره ، ولا فرق بعد بين العابد والمعبود ، وعليه فان العقول الكاملة تقدم لها العبادة من العقول غير الكاملة .

وبناء على هذه الوحدة التي نالها العقل مع الازلي لتشبهه به ، وصيرورته نظيره ، يعود الفيلسوف ويقول لتلميذه : اعلم يابني ان المسيح الان لايعبد ، بل تعبد العقول التي استحقت هذا الاتحاد العجيب ، والمسيح ليس رئيساً للعقول المتحدة به ، لان المسيح (بكر الراقدين) او (رئيس الراقدين) اما الذين استيقظوا فليس المسيح رئيساً لهم . انها طفرة خطرة جداً لايستطيع العقل البشري المجرد ان يقرها ، بل إنما هي أخطر مما يتصوره العقل البشري العادي ، فتتجلى له كفراً صريحاً ، إلا أن العقل المتحد بالمسيح يشعر بهذه الوحدة الروحية الصرفة ، ويفسر العلّامة ابن العبري هذه النقطة الهامة الدقيقة بقوله : ان المسيح ليس رئيساً حينئذ للذين نالوا الحياة الجديدة واتحدوا به ، واصبحوا نظيره ، بل هو رئيس العقول التي لم تزل في طريق التطهير والاتحاد ، والتي لم تزل تعاني من نوم الموت ، والخطيئة لم تزل متسلطة عليها ، والتي تعرف بـ (الراقدين) على حد تعبير الرسول بولس انه — بكر الراقدين —

فالعقل المطهر ينال صفات المسيح ، ويمكنه حينئذ ان يقول : قد دفع الي كل سلطان مما في السماء ومما في الارض . ويمكنه القول ايضاً : ان موسى أؤتمن كعبد ، اما انا فكرب البيت ، ويقول : الاب مجّدني بالمجد الذي كان لي عنده منذ الازل . ويعلق ابن العبري على هذا التعبير بقوله : ان ذلك لايقلل من عظمة المسيح ، بل يعظّم قيمة العقل البشري الطاهر ، الذي ينال الكمال المطلق ،

فلا يبقى اي فرق بينه وبين المسيح ، وكل ما يطلق على المسيح يطلق عليه (خلاصة الفصل الثالث) .

٤ — قوى الشر : ان هذه القوى تعلن حرباً ضروساً ضد القوى الخيّرة ، تريد اعادتها الى حظيرة الشر ، من جديد ، ويقول الفيلسوف : اني اقول بكل قوة ، وبمعونة الله ، ان كل عقل لم يتطهر لم ينل بعد حريته الكاملة من هذه القوى الشريرة ، فالعقول الطاهرة وحدها نالت هذه الحرية . (خلاصة الفصل الرابع)

٥ — جهاد العقل ضد الجسد وكبح جماح الاهواء الجسدية : لما كانت قوى النفس في الانسان تمثّل الخير ، مضادة لقوى الجسد وهي تمثل الشر ، كان لابد من التصادم بينهما ، اذ يقع الخلاف بين هاتين القوتين على حد تعبير الرسول بولس ، وعليه يكون جهاد العقل منصبّاً على خضد قوى الشر الكامنة في الجسد ، والانتصار لقوى الخير الكامنة في النفس ، وبناء على ذلك يقول الفيلسوف : يجب على الذين يرغبون الارتفاع من هذا العالم ان يوحدوا قواهم الخيرة ، فيقتلعوا الشر من أعمق جذوره ، فقد يخشى ان يظهر الشر من حيث لايشعرون ، فالجسد هو بيت النفس ، والنفس رداء العقل ، فيجب على النفس ان تطهر العقل بذاتها ويستصعب العلامة ابن العبري الحصول على التطهير المطلق ، وعنده ان من الصعب على الساقط في الماء الا يتبلل .

ولكن ، اذا انعم الله على الانسان فنال التطهير الكامل واصبح العقل في درجة التصاعد الى الملاء الاعلى ، فهناك تخشع قوى الجسد ، وتذهب ريحه ، يقول الفيلسوف : اذا ماباشر العقل بالتصاعد ، فان الجد يرتمي كالميت ، وهذه الحالة قد شرحها الفلاسفة المتأخرون ، وسنجدها في محلها .

ومع هذه الحالة العجيبة لايسلم العقل ايضاً من الاخطار ، يقول الفيلسوف : اني رأيت عقولا كثيرة صعدت ذروة الصليب (صليب المجد) الا انها سقطت ،

لان ثيابها كانت لم تزل قذرة ، فقد دعت الحكمة الالهية النفس والجسد غـــير الطاهرين ثياباً قذرة .

وهنا يحتاج الكامل او كما يسميه الفلاسفة (العارف) الى الخلوة المطلقة ، وعدم التفريط بما ناله من آلاء ربه ، يقول الفيلسوف : اما أنت يابني ، فادخل مخدعك واغلق بابك ، ولا تشـرب الا من ينبوعك ، وليكن لك وحدك ، فلا يشرب معك غريب ، ولا تنم في القرية وتترك زرعك في الحقل ، لئلا يأتي العدو ويزرع الزؤان في حقلك . هذه امور سامية لايستطيع سماعها الا الكاملون ، وعليه يحذر الفيلسوف تلميذه بقوله : لاتبح بكلماتي هذه امام العقول غير الطاهرة . . . لان الانسان الذي لاتعي نفسه معاني الروح يزدريها .

٦ – قوى العقل : قوى العقل ثلاث حالات ، الاولى ، الطبيعية ، وهي الحالة التي لاتعي الا ما كان محسوســاً ، ويسميها الفيلسوف حالة الطفولة ، واذا استسلم العقل لحالة الطفولة هذه ، ولم يحذر شرورها ، فانه ينتقل الى حالة دونها وهي الثانية ، حالة الشر والخطيئة ، وهـــذه تقوده الى الحالة الثالثة وهي حالة الاجرام فيتساوى مع الوحوش الكاسره والبهائم .

والعقل الطاهر هو فوق جميع هذه الحالات ، فانه ينظر إليها وهي تقاسي المرائر في دركاتها السفلى ، وهو ذروة مجده الاسمـــى ، ان العقل الطاهر الذي نال درجـــة البنوة ينتقل الى حالة جـديـدة فائقة للطبيعـة ، ويفهم السر في قول الكتاب : (الاب لايدين احداً بل قد اعطى الدينونه كلها للابن) اي يصبح العقل حينئذ بمثابة ابن الله له السلطان في دينونة الاخرين .

٧ – حركة العقل الفائقة الطبيعة : دعيت حركة لان لها ميزات كثيرة فيدعى العقل اولا ملاكا ، ويدعى احياناً اسمى من الملاك ، فاذا عرضت له عثرة من العثرات ادت الى سقوطه ، فانه يهبط الى دركة الحيوانية .

ان حركة العقل في ماوراء الطبيعة ، هي الخطوة الاولى في التصاعـد

الى اعمال البر والفضيلة ، فيدعى صاحبها حينئذ باراً وقديساً ، واحياناً يصيب صفة القوى الفائقة في القداسة ، واما اذا ارتفع العقل الى حالة فوق الطبيعة ، فانه يختشم ويلوذ بالصمت والارتياح ، ويغذ السير بدون طريق ، والمعرفه التي ارتفعت فوق الاشكال العادية لم تتبلور بعد وبما انها لم تزل بحاجة الى اكمال فانها تدعى حركة ، وبما انها فوق كل شيء هي فوق هذه الطبيعة » ويفسر ابن العبري هذه الحالة بقوله : ان نهاية الحركة في ما وراء الطبيعة هي بداية الحركة الفائقة الطبيعة ، حيث يستولي على العقـــل الصمت العميق والخشوع المطلق ، فتتلاشى امامه معالم الطريق لان الاشكال تتلاشى ، فيبلـــغ العقل الى الجواهر الفائقة كل وصف وكل اسم ، لان الاسماء تضفي على الاشـــكال ، وحيث تتلاشى الاشـكال فلا بعد اسم ، فيخيم الصمت العميق لأن جوهر النفس البشرية لم يتحد بعد بالجوهر العام الاسمى ، وهى بحاجة بعد الى ارتفاع اكثر لكي تتحد ، وحينئذ تنطلق فلا تخفت .

وما دام العقل سالكاً طبقاً لنظـام الطبيعة ، تثير الحرب ضد الابـالسة المنتمية الى الجواهر التي فوق الشمس ، وهي على حد تعبير ابن العبري ، الابالسة الاقل شراً من غيرها ، ولكن اذا اندفـــع للسلوك في ما وراء الطبيعة ، فان ابـالسة اعظم شراً واكثر عنفاً تنبري لمحاربته ، اي اذا شرع يسير في الطريق المؤدية الى الله ، واذا حبت النعمة العقل المتصاعد الـكامل فتحشد قوى الشر كل عنفها ضده لاعادته الى حظيرتها واسقاطه في مهاوي الزلل .

وسنرى كيف عبّر الفلاسفة عـــن منطقة الخطر هذه ، ابـان بـــلوغ العقل اعلى الدرجـات في السمـــو والتصـاعـــد الى ذرى القداسة واوج الكمال ، وفكرتهم طبعاً مستمدة في هنا .

٨ - تصاعد العقل الطاهر في درجات سلم الـكمال : بعد اتعـاب شديدة وجهـاد شـاق ، تشرع العقول الطـاهرة في تصعادهـا درجات الكمال ، فيثور

فيها الشوق اللاهب للوصول الى القمة ، وتسعفها الجواهر الروحية التي تصادفها في طريق تصعادها ، اذ تجتمع كل تلك القوى وتحيط العقل بهالة من المجد والقداسة بطريقة عجيبة . ان قواها القدسية تتحرك محيطة بالعقل ، لكي تسجد له ، وتبتهج به ، كما لو بعثت من الموت ، وهذا ينطبق مع قول الرب : ان الملائكة في السماء تفرح بخاطيء واحد يتوب ء كل كيان عاقل يجوز معرفة ما دونه ، ولكن العقل الكامل يجمع كل المعارف .

وهنا يشرح الفيلسوف حالات العقل او العقول اتي تبلغ درجة الكمال ، يقول : ان جواهر العقول تمتاز بعضها عن بعض ، سمواً وكمالاً ، وطبقاً لسمو جوهرها يكون تألقها كثيراً او قليلاً بالنسبة الى ما يجاورها من العقول ، وهكذا العقول التي انحدرت من الجواهر الفاضلة ، هي بحاجة الى تطهير يسير ، فالعقول المنحدرة من جوهر الاب ، هي بحاجة الى (الصليب) مرة واحدة ، والمنحدرة من جوهر الابن هي بحاجة الى (الصليب) مرتين ، والمنحدرة من جوهر الروح القدس ، هي بحاجة الى (الصليب) ثلاث مرات ، وهكذا كل جوهر بالنسبة الى ما فوقه من الجواهر يجب ان يقاسي الجهاد والصليب ، ويشرح ابن العبري هذه النظرية بقوله : ان العقول التي نالت الكمال من لدن الاب فقط ، كالانبياء ، كانوا بحاجة الى تطبيق الناموس الموسوي فقط ، فكانوا اذاً بحاجة الى صليب مرة واحدة ، واما الذين نالوا الكمال من لدن الابن كالرسل ، فكانوا بحاجة الى الصليب مرتين ، اي ان يتألموا مع المسيح اولاً ثم ينالوا آلام الشهادة ، واما الذين نالوا الكمال من الروح القدس ، فقد تألموا ثلاث مرات ، وهم لم يروا الرب ، كالأساقفة والرعاة الصالحين والكهنة والابرار ، وهؤلاء قاسوا آلام الصليب ثلاث مرات ، الاولى مع الانبياء ، والثانية مع الرسل ، والثالثة ، في حياتهم الكهنوتية الشاقة لاجل المسيح .

والعقل في انحداره يتأثر بقوة دافعة ، كذلك في تصاعده هو بحاجة الى قوة جاذبة ترفعه الى الذروة المناسبة . اما انا فقد رأيت عقولا كثيرة قامت ضدها حرب ضروس ، وغيرها قاست الاكثر من الاولى ، حتى استطاعت الارتفاع الى المنازل المعدة لها . واذا ما شرع العقل في التصاعد ، فان قوى النفس الثلاث تثور ضده تريد الهبوط به الى الدركات السفلى . اما العقل ، فيتجنب قوة الهية وتحوز صفة الجبروت العجيبة ، ويضرب اعداءه في ورأسه ، ويجعلهم عبرا في العالم .

القوة التي يتخذها العقل واسطة لتصاعده ، تتلاشى اذ ما يبلغ العقل نهاية دروته ، وشأن هذه القوة كشأن الراسمين في الكهنوت .

ان العقول الموثوقة في الجسد — من أي نوع كانت — اذا رأت العقل امثاله حرا ، فانها تهتز مشتاقة ، الى العروج معه ، والاتحاد بــه ، ولا ترغب الانفصال عنه ، انها تبتهج به ، وتنعطف اليه ، قائلات : كل خبزة وارتدائها فقط ليدع احمك علينا فيزول عارنا ، وشأنهـا شأن المأخوذين سبيا ، الذين رأوا أحد أبناء وطنهم ، يفرحون ويتوقون الى مرافقته انى مضى ، انهم يبسطون اليه اليد ، يد الشوق والحنين عله ينقذ حياتهم من الذل والهلاك ، وكأني بهم يناجونه قائلين : الا انقذنا من الهلاك والشقاء ومن حمأة الهوان . ان هذه العقول تتزاحم ضارعة الى العقل الطاهر ان يعطف عليها فتتبعه في عروجــه . ثم ينصح المعلم تلميذه ، يقول : اني يابني ، قد محضتك الحب الذي كنت مدينا به ، اما انت ، فقم واعمل وبادر ، ولاتتأخر ، لئلا تغرب الشمس قبل ان تدخل المدينة فتسقط بيد المهلك ، واطلب الى الله بلجاجة وشجاعة تمكنت من الوصول الى الكمال ، الكمال الحقيقي والاتحاد به .

٩ — الحب : ما الحب ؟ وما الحب ؟ اقول : الحب صبغة الهية مقدسة بين المحب والمحبوب ، فاذا وجد الحب فلا توجد الوحدة معه بينهما ، ويصير الى العدم

هذه النقطة الدقيقة بقوله : اذا تمت الوحدة لايبقى محب ولا محبوب ، اذ يتلاشى اسم الحب بينهما لانهما اصبحا واحـداً لااثنين ، فما دام الحب موجوداً هناك فرق بينهما ، والمحب لم يزل يشعر ان محبوبه ناقص لايجوز كماله الا باتحاده به فاذا اتحدا ، حصل الكمال .

ويعود الفيلسوف فيقول : ان اسـم الحب يفترض الاتصال ، لايتألف من واحد ، بل من اثنـــين ، من المحب والمحبوب ، فبداعي الانفصال اذن ، يتأتى اسم الحب ، واذا كنا قد قررنا ان الحب علامـة الانفصال ، فلننظر ماذا تسمى مقول المحبة ، ولنقل : امنحنا ، اسمـــاً يقرب لحظة الاتحاد ، وهذا الاسم هو ب المجيد . اما انت يابني ، فلا تتوقف عند الحب ، بل واترك المحبـة جانباً ، ونزع الى الاتحاد ، وابلغ ذروته بقدرة فائقة ، فان الاتحاد فوق ما يسمى بالحب او المحبة ، اما انا يابني ، فلست امجـــد ما يسمى بالمحبة ، لانني لم أزل ارى فيها معنى البعاد ، واعلم ان الذي يحب المسيح فانه يراه على حد قوله : (اظهر له ذاتي) اما انت يابني ، فلا ترغب ان ترى المسيح (فحسب) بل كن في المسيح ، وقـد اشير الك (ان المسيح يكون فيك) فلولا خشيتي لقالت لي كلمة الله ، ان لم تعرفوا ان المسيح هو فيكم فانكم منحرفون) ولم تقل كلمة الله (انكم انتم المسيح) فان كنا في المسيح فانـه يعرفنا ويلمسنا ، ولكن ان كان المسيح فينا ، فاننـــا رفه ونلمسه .

١٠ – التمجيد والعبادة : قبل الدخول في موضوع التمجيد الحقيقي ، يشير الفيلسوف الى سمو العقل الطاهر يقول : اننا نعلم ان كل كيان عاقل ، يحصر ، ويعرف ويلمس من قبل جوهر يفوقه سمواً ، وهو بدوره يحصر ويعرف ويلمس الجوهر الذي يقل عنه سمواً . اما العقل الطاهر فانـه يحصر ضمن نظرته جميع الجهات . ثم يدخل موضوعه ، فالتمجيد الحقيقي انما يؤدي للخير الاول ، يقول : اما نحن يا بني ، فاننا نمجّد الخير الاول ، وهو غذاء طهور للمتمجين حضرة

الله ، ونهـايـــة اشـــواقهم الطبيعية ومسير اضطرامهم اللاهب الوضاء ، وهذا التمجيد ينبجس من حنين الهي ، ويتعاظم ويتسامى بطريقة سـامية قدسـيـة ، ليتصل بالجوهر الاسمى الذي أثاره ومن هنـا عرفنـا معنى هذا التمجيد ، انه شوق المبعدين وحنين الساقطين ، واذا قال الابن للاب (مجّد ابنك ليمجدك ابنك) فذلك يدل على اعطاء المجد للمجيد المتحد به .

فاية تماجيد تليق الآن بمخـادعنـا ؟ هـــل من الطبيعـــة ام مما فوق الطبيعة ؟ اما انـا فاظن ان ما يفوق كل نطق وتفكير ، يجب ان يؤدي بدون نطق او تفكير .

اذا بلـــغ العقـــل درجة من السمو فوق كل تصور بشري ، وانكشفت له الأســـرار الخفية في رهبة الحضرة الالهيـــة ، وتوصـــل الى مخادع الملكوت في المجد الازلي ، ماذا يقول ؟ وكيف يعبّر فالفيلسوف هنـا يقف مشدوهـــاً متهيباً وكل ما امكنه ان يقول هو : « فـاية تماجيد تليق الآن بمخادعنا ؟ هـــل من الطبيعة ام ممـا يفوق الطبيعة ؟ اما انـا فاقول : ان ما يفوق كل نطق وتفكير ، يجب ان يؤدي بدون نطق او تفكير . » ذلك لانـــه لم يجد كلمة بشرية يمكنهـا التعبير عن رهبـــة تلك المخـادع ، ولا الافصاح عن هيبة ذلك الموقف ، ولذلك يتـابـــع قوله : لا لا ، عرف الامـــر ، هنـا الصمت المطلق ، والارتـاج المطبق ، امام الأســـرار السامية التي تتلاشـــى تجاهها الحواس ، وتزول الاشـــكال . الصمت العميق في لحظـات (الوحـــدة) الوحدة التي هي الكمال الابدي ، امام الخير الازلي المطلق ، وقد علمنا معلمنا الالهي: ان من يتبع الرب يكون واياه روحاً واحدة ، وحيث تمت الوحدة اقتفى الفاصل » .

لم يستطـــع الفلاسفة المتأخرون من الاتيان بأبلـــغ من هذا التعبير بـالنسبة الى حـالة العقل اذا بلـــغ هذه الدرجة النهائية من التسامي الروحي ،

وسنجد ذلك عند الفلاسفة ابن سينا وابن العبري وابن المدني .

ويتابع الفيلسوف حديثه عن نفسه يقول : هذا — يا بني — ما يمكن قوله للذي مثلي ، اني انتظر نهاية التطهير وكمال المغفرة ، وبعد ذلك الالتحاق برفاقي ، وهكذا اذا سجدنا للمسيح فذلك علامة التطهير ، واذا سجدنا بالروح فذلك اما علامة الكمال المطلق الذي لم يبق بحاجة الى السجود ، واما علامة التمرد للذين يشقون الطاعة ، ولكن بعد هنيهة يعود المتمردون الى سواء السبيل ويصبحون طائعين .

١١ — البلوغ الى ذروة الفضيلة والتغلغل في قلب الاسرار ، ثم السقوط :

بعد ان يبلغ العقل ذروة الفضيلة ، وتتجلى له الاسرار ، وقد وقف في قلبها العميق ، وسبر غورها البعيد ، يرتج عليه ، فلا يجد كلمة من الكلمات البشرية كافية للتعبير عما هو فيه ، بل لايجد تعبيراً بشرياً يليق بما يشعر به من السعادة ، ولذلك يقول الفيلسوف لتلميذه : أما أنت يا بني ، فانظر الى ما يحيط بك واجماً صامتاً متهيباً ، وتأمل النملة وتعلم طرقها كيف تخزن قوتها وتخفي طعامها ، والصدفة التي ان تهبط الى الاعماق وتختفي لايمكنها تربية اللؤلؤة ، احفظ كل ذلك ، واعمل به تحيا نفسك .

واذا امكن التعبير عما يشعر به الكامل — في حالة الوجد والوحدة — بشكل من أشكال اللغة البشرية ، فذلك ليس مباحاً الا للمعلمين والمرشدين ليوقفوا تلاميذهم على بعض الحقائق السامية التي ينالها العارف الكامل في حالة توصله الى درجة الوحدة بالازلي ، وعلى هذا الاساس يقول المعلم لتلميذه (واذكر - يابني - التحذير الالهي والمنع الصريح الذي اعطي لذوي العقول الطاهرة ، بالا يكشفوا الاسرار الالهية التي اوتوها ، واني عالم انك انت ايضاً توصلت اليها ، فشملتك كما شملتنا قبلك ، لاننا جميعاً اخذنا روحاً واحداً ، فاذا ذكرت ذلك تعلم وتفهم

بسهولة لماذا قال الرسول بولس (لايسوغ لانسان ان ينطق بها) .

ان المعلم يشعر ان له الحق بان يصرخ ببعض ما يشعر به من سعادة روحية وهو في ذروة الوجد الكامل ، فيقول لتلميذه : (اني ساحاول التعبير بطريقة بشرية ببعض ما لايخضع للغة البشرية لان الروح يفحص كل شيء ، ويحكم في كل شيء ، والروح يفحص حتى أعماق الله) ويفسر ابن العبري ذلك بقوله : (ان التحذير الذي يضعه المعلم امام تلميذه ، انما وضع للعقول الطاهرة ، لئلا تفصح عن أعماق الاسرار الالهية امام العقول الغارقة في الاهواء البشرية ، واما المعلم فانه مباح له ذلك ، لانه يعرف مقياس النقاء الذي تتوصل اليه العقول فتصبح اهلا لايداع الاسرار الالهية فيها ، واعماق الله يريد بها احكامه الغامضة ، واذا كان الروح قادراً على تفحص مثل هذه الاحكام ، اذن ، يسوغ لي ايضاً التعـ عنها او عن بعضها ، لانه لايمكن ان يغرر بي احد فاكشف الاسرار العميقة الخفية التي تتفحصها الروح) .

ويعود الفيلسوف الى نفس التعبير الذى كان قد قدمه لتلميذه سابقاً (الفصل الثاني) فيقول بالحرف الواحد : (اما انت يابني ، فلا تكشف كلا في هذه للعقول غير الطاهرة ، لئلا تتعرض للشجب القائل : لاتضع عثرة امام الاكمه ولا تعط السم القاتل للمريض ، لان الانسان الذي يريد فهم اسرار الروح بروح مادية ، فهذه الاسرار تكون اضدادا له ، فلذ إذن بالصمت الخاشع المتهيب ، معرفة هذه الاسرار) ويفسر ابن العبري ذلك بقوله : يريد الاكمه هنا ، اعمى العقل الذي يشك بالمعرفة عوضاً عن ان يتمتع بها ، لانه ليس كل عقل يمكنه تحمل اثقال الوحي ، كما لاتستطيع كل عين التمتع بنور الشمس ، الا اذا كانت سليمة واما الاضداد فهي على حد تعبير الرسول بولس : ان الجسد يشتهي ما يضر الروح والروح تشتهي ما كان غريباً للجسد .

ويريد المعلم كشف بعض هـــذه الحقائق الالهية بقوله : لا تعتبر ، يا بني ، اظهاري بعض هذه الحقائق السامية — مشافهة او كتابة — خرقاً للناموس ، فاني اخذت ذلك من المشير الحكيم ، بان اكشف بعض تلك الاســـرار الخفية ،) ويفسر ابن العبري هذا القول مرتئياً : اني ان اقدم جزافاً على خرق المنع الذي اصدره رئيس احبارنا ، المسيح ، وامرنا ان نصون الوحي واجمين ، فاني لم افعل ذلك الا بعد ان اذن لي الحكيم العظيم ، مشـــير الحقائق الكبرى ، استاذي ومعلمي بولس) .

في غمرة الوحي ، وفي حالة الوجــد الاسمى والعقل في أعلى الذرى من القداسة ، وقبل الاتحاد المطلق بالازلي الاحد ، تعرض خاطرة دنيوية لبعض العقول ، فتسلبها كل ما نالته بعد جهاد شاق ، وتعب لا يوصف ، وتهـــدم كل ما شيدته في في غضون سنوات عديدة ، تهدمه بلحظة واحـــدة فتسقط تلك العقول الى احط الدركات ، وكأن اعمالها الفاضلة لم تكن . يقول الفيلسوف : (اني رايت اناساً كثيرين قد سقطوا بغتة ، لانهم كشفوا الاسرار الالهية ، وشاهـــدت مع ربنا الشيطان ومن شابهه ، يسقطون من السماء كالبرق ، اذن ، لا يجب ان يخفى عنك يا بني هذا العقاب الذي يحيق بالعقول اذا ما اقدمت على كشف هذه الحقائق الالهية) ويفسر ابن العبري ذلك بقوله ، قوله رأى الشيطان ساقطاً كالبرق ، اي بعين الروح لان الشيطان ايضاً كائن روحي لا يرى ، ورأى من يشبهـــه ساقطاً معه ، اي يهوذا الاسخريوطي ، الذي سقط هو ايضاً كالزهرة الذاوية من شجرة المجد) .

١٢ — عودة العقل ، السيف ، السلطان . : بعد ان يرسخ العقل في الحقائق الالهية ، وينال المجد الساطع باتحاده بالواحد الاحد ، يعن له ان يعود الى العالم ليرى ما فعله الشرير بابناء المعصية ، وليشاهد جهاد القديسين ، الذين يستمدون للصعود الى ذرى الحقائق الالهية ، يعود الى العالم غـــير وجل ولا هياب ، يقول

الفيلسوف : (حينئذ يشرع العقل المتصاعد الطاهر بالانحدار ليزور من في العالم بفرح لايوصف) (انني اعلم ان طبيعة الشر لايمكنها بعد محاربتـــه ، كما كانت تفعل سابقاً ، فقد صعد الى ذروة الحقيقة ونال قوة لاتقهر ، على حد تعبير النبي القائل : صعد الى العلاء وسبي سبياً وشاهد العقل الطاهر المتأله ، في ذلك السر الامجد المقدس ، شاهد ذلك السيف السري العجيب ، الذي قال فيه معلمنا الالهي : من ليس له سيف فليبع ثيابه ويشتري له سيفاً .

ويعلق ابن العبري على ذلك بقوله : ان الذي يُضرب بسيف الروح هـذا — وهو كلمة الله — يهلك ومن قاومه يفنى ، فقد يضرب سراً ، ويقتل علانية يدخل الى اعماق الاعضاء ، ولا ترى ضربته ، ان هـــذا السيف يراه العقل ، ويتأكد ان متقلده له قوة عظيمـــة لاتقهر ، وامر الرب لتلاميذه يعني ان يخلعوا الانسان العتيق ، انسان الضـلال ، ويتقلدوا سيف الروح الذي يعصم متقلده كل خطر ، وبه يقتل اعـــداءه ويقهر النفوس الضالة . ويمضي الفيلسوف بتعـــداد الانتصارات الروحيـــة التي يحققها متقلدو سيف الروح هذا ، حيث تؤتى العقل قوة وجبروتاً تنحدر امامها كل الاعداء ، اعداء الحقيقة الالهيـة ، وبذلك يحوز العقل سلطاناً على كل ما في السماء وما على الارض لانـه يتساوى بقدرته مع الله لاتحاده به .

١٣ — الصليب والكمال والالم

الصليب انما هو الالم الذي يقاسيه القديسون في هـذا العالم ، اقتفاء لآثار الاله المتألم ، ولا يستطيع مقاساة هذه الآلام الا الذين بلغوا ذروة الكمال الانجيلي وتقدسوا بالحق ، يقول الفيلسوف : (يجب على الذين نالوا الكمال الالهي وتقدسوا بالعظمة التشبه بالمسيح في كل شيء ويكونوا نظيره ، ويخضعوا لما علمنا الرســـول بولس بقوله : لنخرج اليه خارج المحلة حاملين عاره — وسمعوا الرب نفسه بقول

— اذا اراد احد أن يكون تلميذي فليحمل صليبه ويتبعني — وهكذا يمضي بايراد الايات الكتابية الموجبة تجشم الالام تشبهاً بالمسيح إلى أن يقول : (فعلى العقول الطاهرة التي تريد التشبّه بالمسيح في كل شيء ، ان تقتفي اثاره على الصليب ، والا كيف تريد بلوغ الكمال ؟) ويورد رغبة ابني زبدي في الجلوس عن يمينه وعن شماله في ملكوته ، قول الرب لهما : (اتستطيعان ان تشربا الكأس التي أنا اشربها ؟ مشيراً بذلك الى الامة ، الامر الذي لم يقاسه ابنا زبدي ، ولم يتيسر لكثيرين من أصدقائه ان يقاسوه ، وبالتالي كان يعني الآلام التي يجب على العقول ان تقاسيها وتخوض غمراتها ، وبدون ذلك لاتستطيع هذه العقول الطاهرة التوصل الى الكمال الالهي والتقديس المطلق ما لم تتوقل ذروة آلام الصليب) .

وقصد الفيلسوف من ذلك ، هو خضد شوكة الجسد ، وصلب رغباته المنحرفة ، الامور المعبّر عنها في الكتاب : (الانسان العتيق) وعليه يقول : (يجب اذن ، ان يقتل الانسان العتيق ، وقد قتله المسيح على الصليب ، فلا يضلّن احد فيظن ان ذلك الانسان العتيق يقتل بغير الصليب ، فقد اكد ذلك الرسول بولس بقوله : نعرف ان انساننا العتيق قد صلب معه ، فبطل جسد الخطيئة لئلا تعود بعد الى الظهور » فيجب اذن ، على العقول المتألهة ، ان تقتل هي ايضاً جسد الخطيئة على صليب الآلام ، ورب سائل يقول : لماذا يصلب العقل ؟ الذين لا يموتون لا يحيون ايضاً فقد قال الرسول بولس في المسيح : اذا تألمنا معه نتمجد » فكيف نتمجد معه ما لم نتألم بآلامه ؟ وكيف نتألم بآلامه ما لم نقاسي الصلب معه ؟) ويمضي الفيلسوف بتأييد هذه الحقيقة بآي الكتاب الكريم ، الى ان يقول : (اني دعوت الصليب كناية عن قوة مطهرة منقية ، يزيل الآلام المبرحة بالآلام .)

ثم يقول : لو لم تكن السقطة ، لما كان الالم ، ولو لا الالم ، لما كان الصليب ، ولو حفظ العقل جوهره لعله لم يأت وحيث لا مجيء لا ذهاب ، فقد

تأكدنا اذن ، ان الصليب لاحاجة للعقل إليه الا للتطهير) وهنا بعض الغموض في هذه النظرية يزيله ابن العبري بقوله : « لو حفظ العقل كيانه الروحي الطاهر لما احتاج الى مجييء جديد نحو الامور الروحية السامية ،والاتحاد بها ، بل لاستمر متحداً بها بدون انفصال » .

وينتقل الى تفسير الآلام التي يجب ان يقاسيها العقل في تصعاده الى ذروة الكمال ، فيضع امامه ثلاثـــة صلبان ، او ثلاثة أنواع من الالام يقول : (هناك ثلاثة صلبان تظهر للعقول الطاهرة ، الامر الذي حدث للمسيح بالذات ، وبما ان الانسان مركب من ثلاثة عناصر ، يجب ان يتطهر في هذه العناصر الثلاثة عينها ، فمن العدل اذن ، ان يقاسي ثلاثة صلبان) .

وهنا يفسّر معنى الصلبان الثلاثـــة ، والعناصر الثلاثة المصلوبة سويـــة ، يقول : (اعلم يا بني ، ان ثلاثة يصلبون ، ولكن لايحيا ثلاثة ، المسيح وحده عاد حياً ، ومعه طيطوس ، هكذا يصلب العقل ، فيعود حياً ومعه النفس عن يمينه ، مثل طيطوس ، ويموت الجسد عن شماله ، مثل دوما كوس ، .

قرر الفلاسفة ان العقل قوة من قوى النفس ، واما فيلسوفنا هنا ، توصلا الى هدفه ، وهو تطهير العقل من شوائب الشر ، يجعل العقل متميزاً عن النفس بينما هما كائن روحي واحد ، وعليه يطبق حالته تجاه الالام التي يقاسيها في هـذا العالم الى اللحظة التي يتوصل فيها الى ذروة كماله الروحي ، يطبق ذلك على ما قاساه الرب في طريق آلامـــه ، حتى وصوله الى ذروة النصر الحقيقي ، وذلك خطوة فخطوة ، وهكذا يتابع قوله :

(لعلك تظن ان في جوهر الابالسة يتم هـــذا العمل الجيد — الالم — لا ، بل ان الالم ينقلب الى شر يشبه شر الابالسة ، وبـــه يتم صليب الالام ،

وقد تقدم العقل الطاهر الى ذروة الاتحاد - الاتحاد بالله - تاركاً نفسه مهملا جسده في انات لاتوصف في غمرة الالام ، حتى ينال قوة وجبروة لايوصفان ، ناظراً الى الصالبين الذين يحيطون به - الالام - ويقول لهم : من تطلبون ؟ فيقولون ، اننا نطلبك ، فيتلاشون امامه كما تلاشى الصالبون امام الرب (في الجثسيماني) اذ سقطوا على وجوههم ، فيؤكد للالام انها ضعيفة وضئيلة وإنه بارادته تقدم الى خوض غمراتها ، فصلب ، يتقدم العقل عريانا - بدون نفس ولا جسد فانهما يبقيان وحدهما - ويقدم العقل ذاته بارادته الى صليب الالام محاطاً بهالة من القوة والقداسة ، والتواضع ، كنعجة امام الجزار ، صامتاً ، فيرفع على الصليب الذي في الوسط ، فيرى النفس عن يمينه مصلوبة مثل طيطوس ، والجسد عن شماله مثل دومكوس ، يقدم له الصالبون - الالام - خلا في اسفنجة كما قدم للمسيح ، فتدنو لحظة الموت ، التابعة لالام الصليب ، فتقول النفس للعقل ما قاله طيطوس - اذكرني في ملكوتك - طالبة الاتحاد ، فيصدر لها الوعد بالتطهير المقدس الالهي ، الذي ستناله بواسطة العقل ، فيصرخ العقل الطاهر قائلا : الهي لماذا تركتني ويحني رأسه بتواضع عظيم ، ويقاسي الموت السري كما قاساه المسيح قبله ، فلا يستطيع ان يكون مساوياً للمسيح من لم يتمجد بهذا الموت فتموت النفس والجسد ايضاً معه)

اما انت يا بني ، فافهم معنى الجسد ، فبعض ملائكته - قواه - تمثل دور الوحوش ، وبعضها دور الشرط ، فيتقدم احدها بطريقة سرية الهية ، ويطعن العقل في جنبه بحربة ، ويجري منه - بطريقة مقدسة ايضاً - ما يمثل الدم والماء ، ولعل البعض سيمثل دور يوسف ، فينزل العقل عن الصليب .

وهنا يشير الفيلسوف الى اختلاف العقول بالنسبة الى مقاساة هذه الالام فبعضها تقاسيها مرة واحدة والبعض مرتين او اكثر يقول : (لايشككنك عدم

تساوي هذه العقول بالنسبة الى الالام ، فاني رأيت عقولا كثيرة لم تقدم الى هذه الالام مرة واحدة او مرتين ، بل يجب ان يصرح بالحق انها ربما اقدمت عشر مرات او عشرين مرة ، او ربما مرات لاتحصى ، بل رايت عقولا كثيرة استمرت تقاسي الام الصليب فترة الحياة الانسانية كلها)

يشرح ابن العبري عـــدم تساوي العقول بالنسبة الى مقاساة الالام بقوله : (العقول البشرية المتكاملة بمقاســـاة الالام يتضاعف ويتضاءل بالنسبة الى الطبيعة البشرية ذاتها وقوة الالام النفسية ، ومدى القوى الجسدية ، فبعض العقول يكفيها ان تدخل بودقة التطهير مرة واحدة ، وبعضها مرتين . وبعضها تستمر طيلة فترة ارتباطها بالجسد غارقة في الشهوات ، وبعضها حتى النسمة الاخيرة تهاجمها الاهواء ومعنى ذلك ، ان السائرين في طريق الملكوت الضيقة ، يمتـــاز بعضهم عن بعض تبعاً لاختلاف الطبائع والارادات ، ولنحجم اذن ، عن اظهار الحالات البشـــرية بالنسبة الى سيرها في طريق الله امام العقول المريضـــة ، لئلا يزدري القائل ، ويعتبر جاهلا امام الذين لايدركون عظمة هذا السر) واخيراً يُطمئن الفيلسوف تلميذه بقوله : (يا بني ، لاتطل التفكير في أمر العقول الكثيره المتطهرة لعلهـــا جميعاً سواسية امام آلام الصليب)

الى هنا يجدر بنا التوقف عن الاسترسال مع الفيلسوف الصوفي الذي طاب له اتخاذ اسم ايرثاوس الخالد هذا ، مع ان الفصول الباقية من الكتاب هي الذروة العليا من تفكيره السامي في هـــذا المضمار ، وقد رأينا كل ذلك واضحاً لدى فلاسفتنا العرب والسريان منذ القرن العاشر الميلادي والى القرن الثالث عشـــر ، حيث تناول هولاء الفلاسفة كل تلك النقاط الروحيـة طبقاً لحاجاتهم في البحث ، واضفوا عليه حللاً رائعة من التعبير المبتكر ، الا انهم لم يأتوا بشيء جديد ، وعليه تجد في الفصول الباقية من هذا الاثر الرائع ، تقارير روحيـــة سامية في جميع

الحالات التي يمر بها العقل منذ يقظته الاولى ، بعد هبوطه الى عالم الخطيئة والمعصية حتى التحاقه بالملأ الأعلى واتحاده بالواحد الازلي .

في حالة الخطيئة يصور الفيلسوف العقل (جثة هامدة) وهذه الحياة انما هي قبر رهيب لتلك (الجثة) ، الفانية ، فتراها مغمورة في اهواء هذه الدنيا كما تنغمر جثة الميت تحت طيات الثرى ، (الفصل ١٤) وما هي الا برهة حتى تجد رحمة الله الواسعة تحيط العقل الخالد بعطفها السامي وتضفي عليه قوة جديدة تمنحه يقظة جديدة ونهوضاً شامخاً جديداً بعد تلك الكبوة الكبرى ، فيحيا الميت ويستعد للنهوض الكامل من جديد ، (الفصل ١٥) .

الا ان ذلك يؤلم رئيس الشر في هذا العالم ، فيهاجم العقل من حيث يدري أو لا يدري ، ويعلن الشر حرباً عواناً ضد الخير ، الخير الذي حازه العقل عند يقظته الكبرى فتصبح هذه اليقظة كفيلة في حركة انتصاره على قوى الشر الغارمة (الفصل ١٦) .

بعد الفوز بهذه المعركة الضروس ، يشرع العقل بتصعاد جديد الى الملأ الأعلى ، منتقلاً من حالة الى حالة ، بل مرتقياً من قوة الى قوة ، حتى يبلغ الذروة العليا حيث قدس الاقداس الأسمى ، مستعداً للدخول ، وهنا برهة روحية عذبة عجيبة لا تستطيع اللغة البشرية الاحاطة بها (الفصل ١٧) .

ان برهة الاستعداد والانتظار امام قدس الأقداس صعبة وقاسية ، فالعقل يتوقف واجماً متهيباً ، ترتعد فرائصه خشية الفشل والاندحار ، فلم تزل قوي الشر تلاحقه ، حتى امام ذلك الرتاج العظيم ، الا انه يعود الى تفحص قوته الروحية العظيمة فيراها كافية للاحتفاظ بمنزلته الرفيعة ، فيلتفت الى أعدائه الروحيين ويسحقهم تحت قدميه ، ويتخذ من قداسته اجنحة نورانية قوية يبلغ بها أعلى طبقات التصعد والمفارقة

فيدخل خالداً في قدس الاقداس الاسمى (الفصل ١٨)

يعود الفيلسوف ليوضح الغاية النهائية لتصاعـــد العقل ، فيجد ان الجوهر العام الاسمى ، هو وحده النهاية الكبرى والغاية القصوى ، هو نهاية المطاف التي ينشدها العقل ، وعند بلوغه الحضر الازلية يكون قد بلغ مرتبة الرؤية ، وفي غمرة هذه الحالة ، يستولي عليه ذهول وخشوع عميقان فيستسلم الى الراحة الكبرى والصمت المطلق وقد بلغ غايته القصوى واتحد بالازلي او الجوهر العام ، ثم يتابع الفيلسوف نظراته في شرح الجوهر العام ، وهو الكائن الازلي الذي يصـدر عنه كل كائن ، واليه يعود في نهاية مطافه (الفصل ١٩ و ٢٠)

كل ألم يقاسيه العقل ، انما يقاسيه في سبيل انتقاله من حالة الخطيئة والمعصية الى حالة البر والقداسة ، والتشبه بالله الى ابعد حدود التشبه يمكن لهذا الكائن العاقل التوصل اليه ، وللبالغين هذه الدرجة السامية ، وهذه الحالة الروحيـــة المطلقة ، مراتب ودرجات بالنسبة الى قوة النعمة التي تحوزها كل مرتبـة من تلك المراتب ، وعليه فان للكاملين البالغين درجة الروحانية المطلقة ، درجات يختصون بهـا ، كما ان للكائنات الروحيـة المطلقة (الملائكة) درجات ومراتب ، فيستعرض الفيلسوف مراتب الملائكة ودرجاتهم ويطبق عليهـا حالات الكاملين ومراتبهم ودرجاتهـــم ، وكيف أنهم يمتازون بعضهم عن بعض ويتفاوتوا بالمجد والكرامة والمراتب والدرجات ومن هذه النقطة ينطلق الى تعداد طغمات الملائكـــة ويسميها (العقول الطاهرة) ويصور حالاتهم الروحية تصويراً رائعاً ، ويطبق كل ذلك على حالات الكاملين من البشر الذين حازوا هـذه المرتبة السامية من الروحانيـــة المطلقة ، ثم ينتقل الى وصف الاعاريد الروحية والتقاديس المستمرة التي تمارسها العقول الطاهرة سواء من الملائكة او من البشر الذين اصبحوا ملائكة من طراز جديد (الفصلان ٢١ ، ٢٢)

وهنا يختم هذا السفر الجليل الذي يتخذه الفلاسفة الشرقيون مورداً عـذباً لانطلاقهم الصوفي اعتباراً من القرن العاشر الميلادي الى القرن الثالث عشر .

في القرن العاشر ظهر كاتب سرياني ، رغب اخفاء شخصيته كان اسقفاً للرها ، اعتزل منصبه الاسقفي وانفرد في أحد الجبال متنسكاً ، والف كتابه الشهير (علة كل العلل) اورد فيه نفحات صوفية عطرة ، تتعلق بتعظيم قدر العقل والبحث عن الحقيقة ، باعتبارها ضالة الانسان ، وطلب ان يترجم الى اللغات ليفيد منه كافة الناطقين بها .

يعطينا هذا الكتاب الجليل فلسفته الروحية الصوفية ، استمداداً من ايمانه العميق بالله وبقوة العقل باعتباره (كتاب الله الازلي وينبوع الحقيقة) ويعتقد ان الانسان بامكانه الاتحاد بالله عن طريق العقل والحقيقة المجردة ، بعد ان يتنزه عن شهواته الجسدية ويتسامى عن نزواته البشرية المنحرفة ، وليس هذا الاتحاد كاتحاد قطرة الماء في البحر وتلاشيها في غمرة ، لان الله تعالى روح بسيط لايتجزأ ولا يقبل زيادة ولانقصان ، بل هو اتحاد بالروح والحق وقبل هذا الاتحاد يجب ان يحوز الانسان صفة القداسة المتناغمة مع قداسة الله ، ويعتقد الفيلسوف ان (مدى) هذا الاتحاد يتوقف على (مدى) توصل الانسان الى الحقيقة ، فبقدر اتصاله بالحقيقة ، يكون اتصاله واتحاده بالله قليلا او كثيراً ، ويعتقد ان ما تركه لنا الانسان منذ الاجيال الاولى من علم وفلسفة ومعرفة لايغني فتيلا في معرفة (الحقيقة) يقول :

لندع كل الكتب والشرائع جانباً ، ولنهمل جميع النواميس التي وضعها البشر ، ونحطم كل القيم التي تبجح بها الانسان ، لان جميعها فاشلة خائبة ، ولا تستطيع ان توصلنا الى الحقيقة ، ولنعودن الى كتاب الله الازلي ، الى العقل ، فهو وحده يمكنه ان يهدينا الى طريق الحقيقة .

ان قدر العقل عظيم عند شيخنا هذا ، ولكنه ليس إلهاً يعبد ، بل لديه فقط القوة الروحية الكافية لهدايتنا الى الحقيقة ، يقول : العقل ينبوع الحقيقة ،

وموجد الكتب ، وخالق الفلسفة ، والتفكير ، وهو ذو المواهب الزاخرة ، والقوى الروحية العالية الا ان هـذه (القوى) - الروحية العالية — تتوقف امام عظمة الخالق الحكيم ، يقول : عندما يظهر لنـا الضمير الحقيقة في الوضوع الذي خطه الازل في كتاب الكون ، نعطف اليه ولكن ضمن الحـدود التي يضعها لنا الخالق الحكيم ، الذي يدبر الكون بحكمته الفائقة ، وعقله الاسمى ، وهنا يجب ان نذعن لهذه الحقيقة لانها لم تصدر عن حكم بشري ، ولا عن عالم طبيعي ، ولكن عن رب الحقيقة السامية ، والحكيم الازلي الاحد ، ومعلم الفلاسفة وملقن الحكماء

وعنده ان الحقيقـة ليست الا ما يعصم النفس على التهور في مهاوي الضلال بل هي الحد الذي ترتاح اليه النفس العاقلة وترغب فيه ، ولاسيما عندما تعيهـا اباطيل هذه الحياة

وهنا يفرق بين الحقيقة النفسية والحقيقة الروحيـة ويقول : ان الحقيقة النفـسية لانحتاجها الا في هذه الحياة ، فهي تعصمنا من الضلال بين منعطفات هذه الدنيا ، ومصدرها العقل المفكر في الخير الكامن في هـذا الكون ، اما الحقيقة الروحية فنحتاجها في هذه الحياة وفي الآخرة ، وهي تعصمنا من الهلاك المعـد للذين لم يسلكوا بحسب وحي هذه الحقيقة السامية ، ومصدرها ليس العقل البشري ولا هذه الحياة الدنيا ، بل تصـدر مباشرة من الله بفيض خاص ، ينسكب من النعمة الالهية فيطير بالروح البشرية الى حيث الحقيقة السامية ، الى حيث يوجد الله ، وهكذا تتحد فيه ، بعد ان تنال تلك الدرجة من الحقيقة .

ينظر شيخنا الى الحقيقة نظرة صوفية صرفة فهو يريد ان يوجد بـين الله والانسان بواسطة الحقيقة ، فليست هـذه الحقيقة الا القوة المنبعثة من الله لكي تجذب الانسان للاتحاد به ، ولا يستطيع الانسان حيازة هذه الحقيقة الا بعد رياضة طويلة ولكنه على كل حال يحورها اذا صبت نفسه اليها .

وعنده ان السير في طريـــق الحقيقة لا يمكن ان يكون الا باتباع مشـــورة العقل الفـاعل تحت سيطرة الله ، فهـــو وحده يستطيع كبح جماح الميول الثائرة ويأتي بها الى طريق الحقيقة ، وبدون هذا العقـــل لا يستطيع الانسان التوصل الى الحقيقة ، اما اذا طغت الميول على العقـــل ، واخـــذت المبادرة من بين يديه ، فـانهـا تجمع بالانسان حتماً الى مهاوى الهـــلاك ، لأن هـــذه الميول تكون عمياء صماء ، لا تبصر ولا تسمع ، فـانهـا لا تستطيـــع ان تبصر الحقيقة المنبعثة من مدينة الله فـــوق منارة الخير كما انهـا لا تستطيـــع ان تسمع اصوات المرشدين الذين ينصحـــون بكبح جماحها ، والاقبـال بهـا الى صوت الحقيقة ، وعلى ذلك يقول : « كما ان البرد يقلص اجسـامنا ، والغيم الكثيف يحجب عنـا شعـاع الشمس ، فـان برودة الاباطيل تقلصها ، وظلام الحياة يرميهـ في مهـاوى الهلاك ، وكما ان الحيوانات الـــكاسرة اذا احـاطتنا في عرض غـابة من الغـابات الموحشة تفترسنا وتحطم اجسامنا ، كذلك شهوات هذا العالم اذا استولت علينـا ونحن بعيدون عن الاعتصـام بالحقيقة السـامية ، تنقض على نفوسنـا فتدفـــع بهـا الى الهلاك المحتم ، اما هذه الكواســـر التي تؤثر على ارواحنـا ، فهي الحسد ، والبغضاء ، والمجد البـاطل ، والغضب والحقد ، ومحبة المـال ، وما اليهـا ، واعظم جميع الميول الشريرة ، التي تحجب عنـا انواع الحقيقة ، هي الكبريـاء التي تضاد الله ، والعجب ، والصلف ، والافتخـار البـاطل ، الامور التي اذا تراكمت حـول النفـــس خنقتهـا كما تخنق الاشـــواك الرديئة زهـــرة جميلة فواحة ، وهناك آفـات أخرى تفتك بـالنفس فتكاً ذريعاً ، اهمهـا : الكـــذب ، فـانه اذا استولى على النفس البعيدة عن معرفة الحقيقة ، ينهبهـا ، بل ينهب اقدس اقداسها ، كما يسطو اللصوص على دار مليئة بـالجواهر فينهبونهـا لان الدار لا تحرسهـــا جدران قويـــة ، ولا تحميهـا ابواب حديديـــة ، موصـــدة ، ثم لان رب

الدار اما غارق في نوم عميق ، واما بعيد عن مجوهراتـــه ، كذلك الكذب اذا سطا على النفس وكان العقل غارقاً في الشهوات الدنيـــا ، غافلا ، او بعيداً عن نور الحقيقة ، فانه يخطف اقدس اقداس هذه النفس ، ويذهب بها حيث يشاء ، وغالباً الى الهلاك الروحي الاكيد .

واما الحصول على الحقيقة فيقول فيه الشيخ : الحقيقة لايمكن اتيانها الانسان الا بالبحث والتنقيب عنها ، وهذا البحث يكون بالرياضة الروحية الطويلة من قبل النفس ، لكي تتوصل الى هذه الحقيقة السامية فتعرفها وتميز بينها وبين الباطل .

وفي ختام هذا الفصل (وهو الثاني من المقالة الاولى) يقدم نصائح ثمينة للانسان لاكتساب الحق ، يقول : من هنا — من الرياضية الروحية — نستطيع بناء معرفة الحق على اساس الخير المطلق ، وتحت اشعة النور الازلي نور الحقيقة ، ننقي به نفوسنا كما نقي جسومنا من طوارىء الفصول في البيوت الحجرية .

وفي القرن الثالث عشر نبغ البطريرك يوحنا ابن المعدني (١٢٦٣ م) وكان ذا روحية سامية ، وعقلية متألقة ، عاش في بغداد ردحاً من الزمن وفيهـا تعلم اللغة العربية فاحكمها ، واطلع على الفلسفة العربية فاحبها ، وغاص على اصولهـا عميقاً جداً بالاضافة الى الفلسفة القديمة ، وتركت هذه الدراسات اثاراً روحيــــة عميقة في نفسه ، ظهرت في قصائده ، وهو وان كان من المقلين في الشعر ، الا ان قصائده بلغت ذروة رفيعة في مضار النسك والمبادىء الروحية الصوفية ، وترك لنا ثلاث قصائد رائعة في هذا المضار .

الاولى ، قصيدة الطير ، والطير فيها رمز للنفس البشرية ، تختلف كثيراً عن قصة الطائر لابن حيان ، لان الشاعر اخذ عناصرها ومبادءهـا من الكتاب المقدس واورد فيها بطريقة شعرية رائعة قصة هبوط النفس البشرية من علياء نقائها

الى حضيض المادة مجذوبة بشراهتهـا وشهواتها الجسدية ، ثم يصف آلامهـا وهي مكبلة باغلال المادة ، ويورد تصاعدها الى الملأ الاعلى صحبة نفوس طاهرة اخرى ، للقاء ملك السماء بغية تقطيع شراكها القاسية وعودتها ثانيـــة الى الارض لاكمال رياضتها الروحية وتصاعدها من جديد الى موطنها الاول مجلببة بحلل القداسة ، ولولا ضيق المقام لاوردنا شذرات منها اظهاراً للجمال الشعري الذي نسجتـه عقلية هذا المفكر الكبير .

والقصيدة الثانية هي الاخرى تدور حول النفس البشرية ، وقـد عارض فيها شاعرنا قصيدة ابن سينا المعروفة (هبطت اليك من المحل الارفع) ولكنه اتخذ لابداء فكرته الصوفية اسلوباً خاصاً به ، و معاني جديدة مبتكرة تختلف تمـــام الاختلاف عن المعاني التي رصّع بها ابن سينـا قصيدته العينية هذه ، ولانرى مانعاً من ايراد ما كنا قد كتبناه في هذه القصيدة قبل بضع سنوات واليك ذلك بنصه :

تنجلي الحقيقة لشاعرنا الفيلسوف ، فيتصور النفس بعد هبوطها من عليائهـا مكبلة باغلال حديدية لا تستطيع تحطيمهـا الا اذا تحطمت على شواطئها الصخرية جميع رغباتها المادية ، وعادت الى طبيعتنا الاولى فاستعادت طهرهـا ونقاءهـــا ، وحينئذ تتبدد امامها سجف الدخان الكثيفة المتصاعدة من اتون المادة وغابات هذا العالم المحترقة ، فترى الله وجهاً لوجه ، وهذه هي الحرية التي تتوق اليهـا النفس منذ فجرها الاول .

خلقت النفس منذ البدء حرة طليقة ، ووجدت بحالة الطهر والقداسـة ، وهذا هو السبب الوحيد في حريتها ، « الا انها هبطت من علياء قداستها » الى هذه المادة ، فاتحدت بها واتخذت منها طبيعة جديدة ، هي طبيعة الشـــر ، هو القيد الحقيقي الذي افقدها حريتها وانساها انطلاقها في عالم المعقولات .

يصور شاعرنا الفيلسوف هذه الحالة بهذه الطريقة الشعرية الرائعة ، فيتخيل

النفس حمامة طاهرة ، انحدرت مشغوفة بهـــذا الجسد الكثيف ، وفقدت بذلك عزتها واضاعت حريتها ، هبطت اليك الحمامة الجميلة من علياء القداسة مجذوبـــة مشغوفة بالاتحاد .

وكأني به يراها بجمالها الروحاني متربعة على عرش السماء بعيدة عن ادران هذه الحياة ، الا ان هبوطها يؤدي بها الى عاقبة سيئة « كان محجوباً وراء سجف الحياء ، ولكنها مزقت الحياء في اللحظة التي مزقت فيها هاتيك الحجب .

ثم يهبط معها الى ارض الخطيئة ، فيراها متحدة بالمادة الكثيفة ، بعد ان فقدت حياءها وقداستها ، يراهـا في غمرة الحسرة واليأس تربـــد الانطلاق الى عالمها الازلي مرة اخرى سئمتك بعد ان تذوقت مرارة الاتحاد ، واخـذت تبحث لها عن طريقة تنفصل بها عنك كما تفعل العشيقة النافرة ، سئمت العبودية لانهـــا خلقت حرة .

نبأ لهذا الجسد الكثيف ، انه قيد حديدي صارم ، يراه الشاعر في رجليها وهي مصعوقة لا تستطيع الحراك ، فيتبدل لديها كل شيء السعادة بالبؤس ، والنور بالظلام ، والحرية بالعبودية ، انساها الالم مسارح الغبطة ، نسيت ذاتهـا وموطنها الازلي كالمجنونة ، وتبدل لديها عرش الحرية بذل السقوط ، بعد ان كانت تعانق طهرها وهي حرة .

ثم يرى بؤسها وشقاءها فيرثي لحالها ، ويحاول ان يكفكف دموعها ، ان انامله تخونه فيقف بقربها باكياً مولولا وهذه عبراته « هبطت الحمامة الكريمة من عليائهـا ، فانكسر جناحها في حضيض الوهدة ، هبطت البائسة من علياء سمائها ، وهي الان غارقة في دموعها اللاهبة » .

ومازالت البائسة في صحرائها القاحلة تذرف الدموع الغزيرة ، لعلها تروي غليلها الجائش ، من هذه القطرات اللاهبة ، الا ان هـــذه الدموع تجف تحت

حرارة الشمس المحرقة في هذه البيداء المقفرة ، وتحت هذه الاشعة اللافحة هبت نسمات الربيع على مروجها الذابلة ، فمسحت دموعها لتسقي الزهور فتعيد إليها جمالها ، حتى تترك منفاها الصارم عندما تناديها ابواق الحرية .

الى هنا كانت النفس في حضيض الامها ، وفي اغلال شرورها تصرخ ولا مجيب ، فتذهب دموعها وتنهيداتها ادراج الرياح ، لانها مأسورة للشر ، مستعبدة للخطيئة ، ساقطة تحت اثقال المادة الكثيفة ، غير ان الفيلسوف الشاعر يراها تتململ رويداً رويداً ، فتنفض عنها غبار المادة وتذريها في الرياح السافية ، هنا تشعر بحرارة العبودية ، وعذوبة الحرية ، الامر الذي لم تكن تستطيع الشعور به وهي في أوج مجدها ترفل في مسارح حريتها ، غير ان السقطة علمتها درساً في حب الحرية وتقدير قيمتها ، وهذا مايقدمه لنا شاعرنا الفيلسوف مسكوباً بكؤوس من الشعر الجميل ، هنا تبلغ النفس غايتها من العبودية والسقوط ، فتقطع الاغلال وتحطم القيود ، فتشق لها طريق الظفر بانغام اللهيب .

ثم يراها ترفع رأسها نحو السماء ، فاتحة عينيها للنور الجديد ، واذا بالغيوم الكثيفة تنقشع والظلمات الدامسة تتبدد ، فينجلي السر المخفي عن البصر لهذه النفس البائسة واذا انقشعت حجب الظلام الكثيفة ، ترى السر المخفي عن العين الحسية .

ثم نلحظ في كلام الشاعر بادرة جديدة هي ، ان المعرفة واسطة اولية لتحطيم اغلال النفس ، وتكسير قيودها بينما الجهل هو السبب في سقوطها واسر حريتها فأول شيء يراه الشاعر في النفس بعد انطلاقها من اسرها كونها واقفة على شجرة المعرفة ترسل في الجو انغام الظفر ، والخلاص يقول : تراها مغردة على شجرة المعرفة بالنسبة الى انطلاق النفس ، فان الحكمة او المعرفة ، هي اليد القوية التي حطمت قيودها ، واطلقتها حرة امام وجه الحياة » فسواء كان سقوطها اراديا

قسرياً فان الحكمة وحدها ارتفعت عليها جميعاً » .

لم يكن سقوطها هذا فارغاً لا معنى له ، ولا فائدة ، فان النفس البشرية جنت منه فوائد جليلة ، وتعلمت دروساً خالدة ، واصبحت تقدر قيمة الحرية ، بحسب ما هي لا بحسب ما يتراءى للعين البسيطة ، والسبب هو انها تذوقت مرارة العبودية ، فعرفت من ذلك عذوبة الحرية ، وبالتالي فهمت قيمتها ولولا سقوطها لما شعرت بلذة النهوض ، ولما عرفت معنى الظفر ، والخلاص ، يقول ، الشاعر : « انها نالت من سقطتها درساً في التأديب والتقويم ، وغلبت بالروح ذلك الذي ظفر بها منذ القدم . »

ثم لم تكتف بهذا الدرس من الحرية ، بل جعلت هذه الحرية حداً تخطته بعد المرور على فيض من الفضائل اهمها ، التواضع ، فان السقطة المروعة كانت درساً في التواضع لهذه النفس التي اغواها جمالها ، وبهرها طهرها وشعرت بشيء من العجرفة الامر الذي كان سبباً مهماً في سقوطها وهكذا وهي في غمرة السقوط ، تعلمت امثولة جديدة في الوداعة والتواضع ، قال : « تعلمت بسقوطها نظام التواضع وبواسطة هذا التواضع وطئت تحت اقدامها علياء السماء » ثم تخطت من هذا الدرس الى درس آخر أكثر سمواً واعظم من جميع الدروس الا وهو اطلاعها على خفايا الروح ، ومعرفة الامور المزمعة ، هذه المعرفة التي لا تنجلي الا للأنبياء والكاملين الذين اتحدوا بالله اتحاداً كاملاً ، « انها تلقفت من التجربة الاسرار الالهية ، وتعلمت من الدهر جميع الخفايا والمزمعات . »

هنا يعود الشاعر الى تثمين قيمة الحرية مرة اخرى ، لكي يبرهن على عدم معرفة النفس بهذه القيمة قبل السقوط ، فيؤيد ان النفس الحرة استهانت

بحريتهـا يوم كانت ترفل بأثواب المجد متمتعة بسلطتها الذاتية ، وما هي الا برهة ، حتى نراها تفقد حريتها فتفقد معها كل شيء وتهبط الاسر مغلوبة على أمرها ، ذكرت المقهورة ايـام عزهـا ومجدهـا الذاهب ، فبكت على ذاتها بكاء مراً ، اعدت لهـا الطبيعة اشراكاً قـاسية فكبّلت عنقها ، فقعدت عن الصعود والانطلاق الى سمائها الاولى » ولما امتحن تقديرها للحرية ، هبطت الى السبي مأسورة باغلال قاســــية . »

وهنا في السبي ، تحت وطأة الاغلال ، تشعر النفس المسكينة بمرارة العبودية وآلام الرق ، فتثوب الى رشدها ، وترسل في الجو ، انات مؤلمة كانت اجنحة لها فطارت بها الى سمـاء السعادة ، مرة اخرى بعد ان فقدتها يوم فقدت حريتها ، يقول الشاعر : « ولكن تنهدها المؤلم منحها قوة الخلاص ، والافلات ، وصـار لها واسطة للتجديد والتصعيد » ومعنى ذلك ان ندامتها العميقة ، وحبهـا للحرية ، وشعورها بمرارة الاستعباد ، ودموعها ، كانت لها كلها اجنحة انقذتها مما كانت عليه من الذل والهوان ، فاستطاعت ان تجمع قواها وتطير مرة اخرى الى حيث الحرية الكاملة المليئة بالخير .

وهنا بعد مضي العبودية ، وذل الاسر ، صارت النفس البشرية تعرف كيف تثمّن قيمة حريتها الجديدة ، وسعادتها المستعادة .

بعد ان ينهي الشاعر اعلان وصول النفس الى سعادتها الخالدة ، يقف امام هذه السعادة مشدوهاً ، مفكراً بما كانت عليه في موطن الذل وربوع الشقاء ، يرسل آخر شعاع من فكرته الوضاءة ، متحيراً في سبب سقوطها ، وهو لا يدري اهي المادة هبطت بها الى الحضيض ، ام هو الموت بسط عليها نقابه المظلم ، فزجها في غياهب الظلام غير انه يعود فيؤكد ان كل ذلك لا اهمية له طالما عادت الى فردوسها المفقود « اما انا ، فلست ادري ، هل كانت الكثافة سبب سقوطها أو هو الموت

ولكنني رأيت عند ابتعاد النفس عنها (المادة والموت) عـادت الى الكرامة التي خلقت لاجلها منذ البدء . »

اما انت فعندما تصل معه الى مشـاهدة النفس تعود الى فردوسها المفقود ، ربما يخامرك الشك او تريد صرف نظرك عن هذه المعاني الروحية التي اتاك بها من عالم الشعر الجميل ، فيقول لك : « اما انت يا ابن الادب فاسمع نغماتي ، واذا شككت بشيء منها فلذْ بالصمت (١) . »

الى هنا تنتهي هذه الخريدة النفيسة ، وعندي انها اروع ما قيل وما يمكن ان يقال في هذا الموضوع الروحي الخطير .



والقصيدة الثـالثة هي (طريق فضيلة الـــكاملين) وهي قصيدة صوفية بالمعنى الصحيح ، والاتجـاه الواضح الصريح ، وقد نسج فيهـا على منوال المتصوفة السابقين . ونورد هنا آراءه كاملة طبقاً للنقاط التي وجدناها بارزة في هذه القصيدة ، واليك ذلك :

١ ـ للعارفين طبقات يمتاز بها بعضهم عن بعض .

٢ ـ أغمضوا حواس الجسد ، واخمدوا لهيبه ، وسحقوا رأس الحيـــة القديمة ، توصلاً الى الملأ الاعلى .

٣ ـ الحد الاول للزهادة الاعراض عن شهوات الدنيا وهموم الغنى .

٤ ـ رحيل العقل الى القديم (الاول) لنوال اشعة القداسة الساطعة على صفحة النفس الطاهرة .

---

(١) ديوانه المطبوع في القدس ٩٢٩ ص ١٦ ـ ١٩ ، ومجلة ـ لسان المشرق ـ سنة ١٩٥٠ ص ١٠٤ ـ ١١٠

٥ — ما اسمد من أصاب هذا الهدف ، وقد دعي (عارفاً) لعرفانه طريق الحق ، وعقله مرتبط بربه ، بل أصبح صورته من جديد .

٦ — يعتبر الجهال من النساك النسك صيرفة ، وجعله غيرهم رشوة ، رهبة من العذاب الآتي ، هؤلاء من صنف العبيد ، ونسكهم انما هو عبودية واضحة

٧ — العارف الحائز على درجة البنين ، هو الذي ربط نفسه بربه ، فتسامى الى اوج الروحانية ، لا رغبة في الثواب ولا رهبة من العذاب ، بل حباً بربه

٨ — (العارف) لم يزهد في الدنيا مبادلة في الاخرة ، بل تمرداً على النزوات وتوصلا الى قدس الاقداس .

٩ — اتخذ النسك رياضة روحية فطهّر ضميره هداية ، وفطم نفسه عن الشهوات انقاذاً لصورة الله التي شوّه جمالها سابقاً في الخطيئة .

١٠ — القوى النفسية والاوهام التي هي اعلال للجبناء اذا طهرت اصبحت اجنحة للعارفين يحلقون بها الى الملأ الاعلى السعيد متحدين بابناء الروح .

١١ — الكائن الترابي اذا طهر من ادران المادة ، وتخلص من أوضار الامجاد الزائفة ، يسيح حراً في بحار النور ، ويملأ كنز العقل فضائل .

١٢ — العارف مشتاق الى الحق الاول ، فالشوق ديدنه ابداً ، ولا يثنيه عنه هدير العالم الفاسد ، ولا شهواته الباطلة ، فقد اجتذبه الشوق الكائن الازلي .

١٣ — (العارف) لايتخذ الحق دفاعاً عن الصيرفة ، ولايجعله سبباً في استبدال نعيم الدنيا بنعيم الاخرة ، والواسطة الوحيدة التي تنقذ العقل من العذاب استمساكه بحبال الحب دون النظر الى العوض .

١٤ — الشوق الى الحق الاول هو الدرجة الاولى للزهد (العرفان) وهو البذرة الاولى في تربة العقل ، ثم تنبت وتتنامى رويداً حتى تبلغ الكمال .

١٥ ـ ان شوق النفس الى العلة الاولى امر طبيعي طبقاً لناموس (العلية) فاذا اغرقت في التخلص من الشهوات ، نالت بواسطة التطهير قوة التأله

١٦ ـ ميدان الرياضة الروحية ثلاث مراحل ، الاولى ، التخلص من شهوات الجسد ، والاتجاه نحو الفضيلة ، والثانية ، انقاذ سيادة النفس واخضاع قوى الجسد لهذه السيادة . فتذكر اصلها الكريم وصورتها الاولى الجليلة ، فتحتقر امجاد العالم الفانية ، وتتخذ لها اجنحة تحلق بها الى موطنها الاول ، والثالثة ، جعل عواطفها وحركاتها شفافة لكي ترى الحق منبلجاً واضحاً ، واعداد قواها كالمرآة المجلوة لقبول صور الحق

١٧ ـ في المرحلة الاولى تكبح جماح الشهوات باعمال الزهد الشاقة ، وتفرض النفس سيادتها على النزوات المتحرفة ، وفي المرحلة الثانية نقاء النفس ، بالتهجد والتعبد والخشوع المطلق ، ومتابعة اعمال الزهد صياماً وقياماً وقنوتاً ، والاحتفاظ بالضمير نقياً من الموبقات ، وممارسة الالحان الشجية بصوت رخيم ، وسماع الموعظة من معلم بليغ ، فان هذه الامور تصقل النفس مما فيها من الادران وتضرم اشواقها الى بلوغ اوج القداسة . وفي المرحلة الثالثة ، الاحتفاظ بالقلب والافكار طاهرة انتصاراً على الاهواء ، واستغراقاً في الحب ، الذي يتسامى فوق ما يسمى بالعقاب والثواب ، ويطلب جمال الواحد الاحد فقط .

١٨ ـ اذا بلغ العارف هذا الحد ، فانه يبصر خفايا الاسرار الالهية ، بعين الروح ، فتمسه العناية ، وتسعفه في الاستمرار في رياضته الروحية .

١٩ ـ تشرق عليه اشعة الرؤى ، كالبروق ، ثم تخمد وتختفي حذراً من ان تبهره بسطوع انوارها .

٢٠ — وكلما ازداد تصاعداً في سفوح جبل القدس ، تماوجت الصور القدسية على صفحة مرآة النفس المجلوة ، وتزاحمت عليه اوقات الافتقاد ، حتى تطير اشواقه باجنحة الروح الى الملأ الاعلى ، وتتجلى لباصرة نفسه جميع العقول الروحانية ، وهو مستمر في تصاعده فوقها جميعاً ، يراها ويتفحصها بدقة ، وينشق عبيره المنعش في جنباتها .

٢١ — واذا ضاعف رياضته الروحية وجهاده النسكي ، تتبدل البروق الخاطفة الى اشعة ساطعة وثابتة مستمرة الاشعاع ، فلا تخبو كلما اراد لها ذلك

٢٢ — يرتفع الى مرتبة جديدة اكثر سموا من الاولى ، وتتزاحم عليه الرؤى الروحية ، وتخضع اوقات الافتقاد لارادته ، الحرة ، وينهي جهاده وتصاعده الى ربه باكثر سهولة

٢٣ — ثم يتعالى الى مرتبة جديدة اخرى اكثر سمواً واشراقاً ، وتتزاحم عليه اوقات الافتقاد اكثر فاكثر ، فيختم برؤى الملائكة ، ويضيف الى اجنحته اجنحة اخرى تعينه على ارتفاعات جديدة

٢٤ — هنا ترسو سفينته في ميناء القدس ، فينسى آلامه واوجاعه ، ويستمر ، في مناجاة ربه وجهاً لوجه

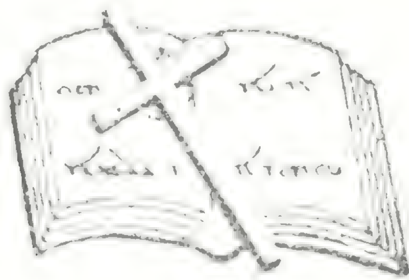
٢٥ — يطبع ذاته بطابع العوالم الجديدة ، ويتخذ صورة لنفسه جديدة ويلتهب بلظى الحق ، الذي يحرق ما بقي من طبيعته البشرية ، ويتخذ طبيعة جديدة روحية ، وهو ماض في جهاده الروحي .

٢٦ — هنا يقف في ذروة عليا يفوق الشمس سطوعها ، ويتعالى فوق العلويين ، في نقطة النهاية العظمى

٢٧ — العارف الذي نال درجة الابتهاج ، مع الله ، يتحرر من سلطان الظلام ، ويبلغ درجة الاتحاد الكامل ، فلا يعود يميز ذاته .

٢٨ ـ ان المقامات هناك كثيرة ، بل لاتحصى ، ولا يمكن الاحاطة بها سماعاً ، بل الرؤية العيانية .

٢٩ — ان اوصاف العارف جليلة رائعة بل فائقة الاشراق ، تتسامى على اشعة الشمس ، وافكاره وضيئة وهّاجة ، انه ، وديع صلب ؛ عنيف هادىء ، وحكيم ساذج ، وصامت فصيح ، ورخيم صوته ، وكئيب مبتهج ، ومتواضع شديد وقوي شفاف ، وزاهد غني ، وحزين بسام ، وغيور متأن ، حمال اللاذى شجوب للنقائص ، وقريب بعيد ، وبطيء سريع ، مجيد وفيه كل جمـــال الروح ، يحب الاخوة ، يدوس المحن ، يتخطى الابعاد ، يقل ويكثر ، رهيب على المنحرفين ، يجرح ويداوي ، يبعد ويدني ، ويخضد شوكة المتكبرين ، ويرى وحدة في الانسان لكونه متعلقاً بالواحد الاحد ، حصر بين جانبي قلبه بهجة سكان السماء ، وحرر ذاته من كل كآبة ، اتخذ من رب الملائكـــة سوراً منيعاً ، فانتصر على الموت والضلال ، احب الحق وثبت فيه .



٥ - التصوف لدى ابن العبري

ان ميدان التصوف ، تراث علامتنا ابن العبري فسيح الجنبات واسع الآفاق جداً ، وهو بكل حق اعظم كاتب سرياني في هـــذا الموضوع كما هو كذلك في غيره من المواضيع اللاهوتية ، والفلسفية والعلمية ، واللغوية وغيرها ، ومن المعروف ان فيلسوفنا وضع كتابين جليلين في علم التصوف ، الاول كتاب الايثيقون هذا ، والثاني كتاب (الحمامة) وهو ملخص كتاب الايثيقون ، وعندي ان الباب الرابع من كتاب الحمامة هذا ؛ اروع ما صدر عن يراع كاتب سمواً وروحية ، وتصاعداً في عالم الحقيقة الروحية ، وقد اعتمدنا على هذا الباب كثيراً في بحثنا هذا (١٥) بالاضافة الى ذلك قصائده الصوفية الرائعة ، وقـد اعتمدنا على كثير منها في هذا البحث ايضاً ، اجلهـا قصيدته (الكمال) وملحمته (الحكمة الالهية) اللتان لم تنتج فكرة شاعر نظيرهما في الاداب الشرقية (١٦) اما فلسفته الصوفيـة فلندخلن الى محرابها الان خاشعين :

---

١٥ - راجع وصفـه في اللؤلؤ المنثور — للسعيد الذكر البطريرك افرام الاول برصوم . طبعة حلب ١٩٥٦ ص ٦٢٥

١٦ — ديوانه — طبعة دير مار مرقس — القدس ١٩٢٩ ، وهذا ثبت قصائده الصوفية (١) النفس العاقلة ص ٨٤ (٢) النفس وفيضها من الله على الجسد ص ٨٦ - ٩٤ (٣) الحكمة الالهية ص ٩٩— ١١٤ (٤) الحب الالهي ص ١١٨ -١٢٣ (٥) قصيدة ثانية في الحب الالهي ص ١٢٣ -- ١٢٥ (٦) قصيدة الكمال ص ١٢٨ -- ١٥٤ .

لكل انسان حياتان ، حياة طاهرة يعيشها لاخيه الانسان ، وحياة خفية يعيشها لربه ، فالحياة الظاهرة لهذا الرجل الجليل مليئة بالعمل والجد والنشاط ، فكانت اكثر خصباً ، واغزر انتاجاً واعظم انجازات من اي رجل آخر من رجال الكنيسة .

اما حياته الخفية التي عاشها لربه فكانت حياة المتصوف الحقيقي ، فهجر الدنيا في ميعة صباه ونفض يديه من مباهجها وامجادها الفانية في ريق شبابه ، واخلد الى السكينة النفسية في احد الاديار بجوار انطاكية ، وامضى في عزلته هذه سنة كاملة ، خبر خلالها حياة النساك ، واستعذب حياة التصوف قوّاماً قانتاً لربه ، واستطاعت نفسه العظيمة من يفهم الاهداف الروحية من هذا الوجود ، فاصابت من الكمال في هذة الفترة القصيرة ما لا تصيبه غيرها دهراً طويلاً ، ووقف على جلائها ودقائقها بتفهم وعمق لا يسبر غورها ، وكأني به قد دخل بيت الحكمة هذا وتفهمه تفهماً كاملاً ، لذلك يشجبه ان يشبه بمن سمع فيه سمعاً قال : « ان الذي عرف روعة الهيكل السليماني بمجرد السمع كيف يقابل بمن دخله فرآه بأم عينه واحصى نفائسه ، وقواريره ، وكواه ، وسجفه ، ودوائر اسسه ، وشرفاته وبدائعه ، واجنحة كروبيه وجلال عتباته (١) . »

ترك لنا فيلسوفنا في كتابه (الحمامة) قصة كاملة لحياته العقلية والروحية ، منذ « نعومة اظفاره » حتى « اشرقت عليه اشعة النور الخفي كالبرق الخاطف » وشرح لنا (شغفه) بالعلم وتدرجه فيه وتوقله سلم الحقائق درجة فدرجة ، وما قاساه من صراع نفسي عنيف فترة طويلة

---

(١) ـ كتاب الحمامه ب ٤ عدد ٣

من الزمن ، كانت فترة قلق واضطراب ، وصعود وهبوط ، وسقوط ، ونهوض ، مبتدئاً بعلوم الكتب المقدسة وتفاسيرها ، ماراً بالعلوم اليونانية على تشعب مناحيها ، بالقاء درجة الكمال الحقيقي بين احضان التصوف العميق ، واليك حديثه بالحرف الواحد :

« شغفت بالعلم منذ نعومة اظفاري ، وحذقت الكتب المقدسة وتفاسيرها الضرورية واخذت اسرار كتب الملافنة القديسين على مهرة المعلمين ، » وتراه في هذه الفترة واقفاً بباب الحكمة يطرق ويطرق ولكن بدون جدوى :

قد طرقت الباب حتى اشرفت	ثم قالت من ببابي طارق ؟
قلت اني ذلك الصب الذي	في هواك العذب معيي مؤرق
فاجابت ، اي صب يا ترى	كل قلب في هوانا خافق
بين اصحابي شباب قد ذووا	وشيوخ في الجوى قد ارهقوا (١)

ظمأ قاتل ، وحنين عميق الى شيء لا يعرفه حتى هذه الساعة ، وحياة التقليد يعيشها العاديون من الناس ، اما عظام النفوس فلهم وثباتهم الخاصة ، وتفكيرهم العميق ، الا ان فيلسوفنا بحكم رسالته الدينية كان لا بد له من حياة التقليد في بادىء امره قال : « لما بلغت العشرين من عمري اضطرني بطريرك زماننا الى قبول رئاسة الكهنوت (الاسقفية) فالجأني الموقف الى منازلة ارباب الديانات الاخرى ، المسيحية وغيرها ، فدرست فن الجدل زمناً طويلاً حتى حذقته » الى هنا كانت حياته

( ) ديوانه ص ١١٥ وتعريبها ابن العبري الشاعر طبعة القامشلي ١٩٦٥ ص ٦٣

العقلية حياة تقليد ونسج على منوال السالفين ، ولكنه لم يسر طويلا حتى ظهر له نتيجة تلك الدراسة الطويلة ، انه يجب ان يتخطى التقليد، فيسير حراً بناء على اختباراته العلمية ، وهكذا سمعناه يقول : « لم يختلفوا على الجوهر بل على الالفاظ والتعابير . . . واستنتجت من كل ذلك انهم متفقون غير مختلفين ، فاستأصلت جذور البغضاء من اعماق قلبي ، استئصالاً كاملاً ، واعرضت عن الجدل في امر العقيدة الاعراض كله . »

تخلص هنا من البغضاء (التقليدية) ولكنه كان لم يزل يشعر بعدم وصوله الى نهاية المطاف ، ونفسه ظمأى الى شيء لا يعرفه ، وفكرته لا تتوقف عن الامتداد ، يقول : « ثم قررت دراسة حكمة اليونان ، فدرست العلوم الطبيعية والالهية ، والرياضيات والهندسة ، والفلك والهيئة ، وبما ان الحياة قصيرة والعلوم واسعة ، اخذت الضروري فقط من كل علم . »

الى هنا لم يتوقف عن السعي وراء (الحقيقة) ونفسه الظمأى تتنازعها التيارات الجارفة الكثيرة فعاد يطلب المزيد ، والفلاسفة يبحثون عن (الحقيقة) بكل ما لديهم من جهد وتفكير ، وفيلسوفنا فارس هذا الميدان ، الا انه لم يتوصل الى ارواء ما في نفسه من الظمأ ، والفلسفات كلها ظهرت له كأنها صخرة يابسة لا ماء فيها ولا غذاء ، فادلهمت في آفاق فكره غيوم سوداء ، من الشكوك والانفعالات والريب المتضاربة يقول : « وفي دراستي كل هذه العلوم اشبهت غارقاً في البحر يرمي بيديه هنا وهناك لعله ينجو ، وبما اني لم اعثر على ضالتي في كل المعارف سواء كنسية كانت ام فلسفية ، فقد اوشكت على السقوط . ولا يمكنني الآن ايضاح ما حاق بي من فخاخ واشراك ، لان ذلك يضر بكثيرين من ضعاف النفوس . »

فترة عسيرة قاسية وهو يتخبط في ليل بهيم ، لم يعثر على ضالته ، في كل هذه العلوم الواسعة ، فاين ياترى (ضالته) هذه ؟ نفس تتمخض ، تغوص في خضم الشكوك تارة ، وتطفوا طوراً ، ويوشك على السقوط ، وسقوط العظيم عظيم . . . يقول : لولم يقف الرب الى جانبي في مفاوز العلوم المتشعبة والفنون المتنوعة ، ويهديني الى الهذيذ بتعاليم (العارفين) سبع سنوات متوالية ، لرسخت في العادات السيئة التي اراها راسخة في كثيرين [1]

هذه كانت المحجة النهائية من تطوافه الفكري الواسع ، وهنا بعد سبع سنوات قلقة يائسة ، يجد ضالته ، المنشودة ، يتابع قصته الشيقة هذه فيقول : وخلاصة القول ، لولم يعضد الرب ضعف ايماني في هذه الفترة القاسية ، ويرشدني الى دراسة كتب اساطين النسك كالاب اوغريس وغيره من جهابذة الزهد الشرقيين والغربيين ، لهويت في هوة الضلال ، ويئست اليأس كله من حياتي الروحية لا الجسدية ، فطالعت هذه الكتب سبع سنوات متوالية .

لم تكن هذه الفترة مسالمة هادئة ، بل تزايدت لديه الشكوك ، واستمرت الريب تقلق هذه النفس العظيمة ، ورغماً عن الروحية السامية المتدفقة من تعاليم (العارفين) يقول : وفي هذه الفترة ايضاً اقلقتني عثرات ، وشكوك لاتحصى ، وكنت اسقط احياناً في الكفر فأقول : ما اعلى طنين[2] هؤلاء النساك ، ورحاهم فارغة من الطحين ، اي افكارهم ضحلة لاتقوى على برهان الى هنا ايضاً كان يطلب البرهان ، ترافقه الفلسفة حتى الى اقدس اقداس الروح ، ولكن لم يعدم

---

١ — الحمامه ب ٤ عدد ٦٥ . يتكلم فيلسوفنا هنا كناسك لا كلاهوتي ، ففي ميدان اللاهوت اثبت حقائق الارثوذكسية وقارع البدع مقارعة علمية قوية .

٢ — الحمامة الركن ٤

فترة صحو رائعة ، اعادته الى الصراط المستقيم ، يتابع قوله : واحياناً كان عقلي ينصحني ويقول : لاتهذ ، ولا تظن ان كل ما لا تعرفه ليس موجوداً ، ان ماتعرفه اقل بكثير مما لاتعرفه ، وفي غمرة شكوكي هذه كنت اعرج على الجانبـــين ، حتى أشرقت علي بعض الاشعة من النور الخفي كالبرق الخاطفة ، وسقطت عن عيني قشور الشكوك فانفتحتا ، وابصرت ، ولكن بصورة ضئيلة ، واني اصلي باستمرار ان ابصر اكثر فاكثر ، منتظراً نقص هذا السياج الحاجز ، فأرى الحبيب الذي لايرى ، لا في غياهب الظلام ، بل بوضوح وجلاء

اننا نجد فيلسوفنا في رحلته العقلية هذه يمر بثلاث مراحل ، يشقى ويقلق في المرحلتين الاولين ، ويتوصل الى الضالة المنشودة ، عند عتبة المرحلة الثالثة ، ونستنتج من اختباراته وتدرجه وتصعاده في سلم الحقيقة ، ان المرحـــلة الاولى كانت (مرحلة الحس) والحس تتنازعـه شكوك وريب كثيرة ، ولم يستطع التوصل عن طريق الحس الى (الحقيقة) ضالته المنشودة ، يقول : ان ادراك العين قـــد يكون صادقاً ، كادراكهـا ان البحر اوسع من الغدير ، وقـــد يكون كاذباً ، كرؤيتها الشمس مثل الترس ، والنجم مثل الدرهم ، وهـــذا طبعاً بسبب البعد الذي يفصلنا عنها ، فلا تراهما كما ترى الموضوع القريب [1] والمرحلة الثانيـة هي مرحلة (العقل) وفي هذه المرحلة ايضـاً الصدق والكذب يتنازعان البقاء في بلوغ المواضيع العقلية ، والا لمـا حدثت الخلافات في المواضيع العقلية كالعقائد والاراء ، وبالتالي ، لاتوصل المعرفة العقلية المجردة الى الحقيقة ، الضـالة المنشودة ، يقول : ومعرفة العقل ايضاً ، قد تكون صادقة ، كمعرفته ان الله واحد واجب الوجود ، ازلي ، خالق ، وقد تكون ناقصة او كاذبة ، اذ لايمكنه معرفة الخالق الازلي كما

---

(١) الحمامة ص ٨٦ - ٨٧ عدد ٨٨

هو الا في الحالة التي يتحرر فيها من ربقة الجسد [١] »

يتضح ان هاتين المرحلتين لا يراهما الفيلسوف كافيتين لبلوغ هدفه من معرفة الحقيقة ضالته المنشودة ، ولا يمكنه التوقف قبل بلوغه الهدف ، كما رأيناه في خطواته السابقة ، ولم تبق غير مرحلة واحدة ، وهي الأخيرة ، مرحلة الروح ، او الايمان المطلق عن طريق الكشف او الالهام ، وهو ما يسمى بالفيض ، يعود الفيلسوف فيقول : « كما ان الخفاش لا يرى الشمس اطلاقاً ، والانسان وان يراها ، ولكن لا يراها كما هي ، هكذا الفيلسوف يسمع عن الله سماعاً ، ولكنه لا يراه ، اما العارف فيراه ، ولكن في بعض صفاته ، لا في كلها . لانها غير محدودة [٢] » .

اذن لا العالم ولا الفيلسوف ، يمكنهما التوصل الى ما يسمى عند الصوفية بـ (رؤية) الله ، ذلك فقد يتجلى للعارفين الذين رسخوا في عالم الروح ، وتوصلوا الى درجة الكمال ، وعليه نسمع فيلسوفنا يقول : « عوّد نفسك على ان تؤمن بما يقوله (الصادق) وان لم تعرف كنهه ، ولا تطالب ادلة منطقية ، ففي هذا الايمان تكون ذا منعة ضد الضلال ، بارشاد الفارقليط روح الحق الذي يتجلى لك ويوقفك على الحقيقة كلها وجهاً لوجه ، ويذكرك كل شيء ويعلمك [٣] »

في تاريخ الفكر البشري فلاسفة كثيرون ، ومفكرون لا يحصى عددهم ، كان الشك لهم اساس الايمان ، فشقت نفوسهم الكبيرة وقاست جهاداً عنيفاً ؛ ارتياباً بحقائق فلسفية وعلمية كثيرة ، بحثاً عن حقيقة من الحقائق ، العقلية او

---

(١) — الحمامة ص ٨٦ — ٨٧ عدد ٨٨

(٢) — الحمامة ص ٨٧ عدد ٨٩ (٣) — الحمامة ٨٧ عدد ٩٠

الروحية ، وتخطوا مراحل التفكير الكثيرة ، مرحلة بعد مرحلة ، فضل بعضهم سواء السبيل ، واهتدى غيرهم الى ينبوع الحقيقة ، فشرب وارتوى ، ويكفي ان نلقي بعض النظرات الى فيلسوفين كبيرين ، كانت حياتها تحمل صفات كثيرة من صفات حياة فيلسوفنا ، وانتهيا الى نفس النتيجة وتخطيا مرحلة الخطر ، واهتديا الى محجة الحق ، راسخين في ايمانهما وعقيدتهما الروحية .

اولهما ايرونيموس (القديس جيروم *Jerome*) الذي نشأ مسيحياً (ولد عام ٣٤٠ م) وحصل علومه في مسقط رأسه ستوردوا — دلماسيا ، ودرس الفلسفة في روما ، وقام برحلات في الغرب والشرق ، وفي انطاكية ، توفي رفيق له متأثراً بالحمى ، وابتلي هو نفسه بمرض شديد ؛ ثم شفي ، وثارت في نفسه شكوك عنيفة افقدته قوته الروحية وسلبت ايمانه بالله ، فاستغرق في مطالعة كتب شيشرون واراء الوثنية الرومانية ، وكاد يقضي بين براثن الشكوك ، وبلغ به الامر الى اليأس ، فظهر له الرب يلومه على حرصه بأن ينقلب شيشرونيا ، فثاب الى وشده ، وراح يقرأ الكتب المقدسة ، وزهد في الدنيا في صحراء مجاورة لانطاكية ، وكان له شأن عظيم في الكنيسة الغربية .

وثانيهما الفيلسوف الغزالي ، حجة المتصوفة المسلمين ، حدثنا عن حياته العقلية في كتابه (المنقذ من الضلال) (١) بما يشبه تمام الشبه ما حدثنا به فيلسوفنا ابن العبري ، واذا به يتخطى من مرحلة الشكوك الكثيرة بين مختلف المذاهب الفلسفية والفكرية ، ثم ينتهي الى المرحلة الاخيرة وهي مرحلة اليقين عند بلوغه محجة الحقيقة الروحية .

بحث الغزالي مرحلة الحس وتتبعها الى نهاية آفاقها ، وكان يرجو فيها الوصول

---

(١) المنقذ من الضلال . طبعة مصر ١٣٠٩ هـ ص ٣

الى ما تتطلبه نفسه من الحقيقة إلا أنه اصطدم في صخرة شكوك كثيرة ، ان (الحاسة) تكون مخدوعة في مواضيع كثيرة ، وخاصة ان المواضيع العقلية لاحكم للحاسة فيها ، اما المواضيع المادية ، وهي المواضيع الخاصة بالحاسة ، فانها عرضـــة بالدرجة الاولى للكذب والخداع ، فالعين مثلا ، تخدع لانهـا ترى الظل ساكناً ، وهو في الحقيقة متحرك ، فانتفى ايمانه بالحواس ، وتخطاها الى العقل ، والبرهان ، وكان يرجو ان يكون معصوماً من الخطأ والضلال ، واذا به يرى نقاط الضعف ، ومواطن الضلال ، مثلما رأى في الحاسة « ولعل وراء ادراك العقل حاكماً آخر إذا تجلى كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه وعدم تجلي ذلك الاداك ، لايدل على استحالتـــه » وتوقف عقله عن الجواب ، فشرع يبحث عن (عاصم) جديد لايتطرق اليه الكذب ، ولا يطاوله الضلال . ولم يجد ذلك (العاصم) غير الله ، فاهتدى الى اليقين « ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصّدر ، وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف ، فمن ظن ان الكشف موقوف على الادلة ، المجردة ، فقد ضيق رحمـة الله الواسعة » والخلاصة ان الغزالي لم يجد اليقين الا عند الصوفية ، ولا شك ان شكوكه كانت واسطة لايمانه وهذا يتفق وما مررنا به في تاريخ الحياة العقلية لفيلسوفنا.

نعود الى فيلسوفنا فنجده من هناك . . . من قدس أقداس الروح ، يوقفنا على حقائق جديدة استقاها من عالم اللانهاية بعد ان « سقطت قشور الشكوك من عينيه » ويعطينا اراءه الخاصة في حركة التصوف الروحية التي لهـــا شأن عظيم في شرقنا هذا منذ العصور الاولى المسيحية ، وآراؤه هذه وان كانت قـد اخذت مبادءها من الفكر القديمة في هذا المضمار ، الا ان لها اتجاهاتها الخاصة وتعابيرها اللاهوتية المتفقة وروح التعاليم المسيحية ، واليك ذلك في النقاط التالية :

١ — الايمان :

ان الايمان الصوفي ليس ايماناً سطحياً عادياً ، ولكنه ينبـع من اعماق

القلب البشري ، ويعتمد على الرؤية العقلية الروحية للاسـرار الالهية ، ومن كان ايمانه غير ذلك ، فلم يبلغ بعد هدفه الاسمى ، يقول فيلسوفنـا : من لم يتطاع من باب قدس الاقداس الالهي ويجعل نفسه مع المؤمنين يكذب ، وان اعترف بلسانـه وخشع بقلبه [١] ومعنى ذلك ان تعلم الايمان سماعاً لايفيد المؤمن من هذا الطراز ، لانه لايمكنه تصور جلال هذا الايمان وعمقه الحقيقي ؛ كما لايجدى ان تخـبر من ولد اعمى عن الالوان ولا الاصم عن الانغام ان الذي ولد اعمى وان صــدق بوجود الالوان ، الابيض والاسود والاخضر والاحمر ، والاصم ايضاً وان آمن بان حاسة السمع تنتعش بسماع الانغـام الموسيقية ، الا ان ايمانها اقرب الى الشك منه الى اليقين [٢] .

والايمان القلبي الصحيح لايكون الا إذا هبط فيضاً من الله ، واستقر في اعماق القلب ، ويسميه هنا (الايمان الوحي) يقول : إذا كنت ياأخي خالياً من الايمان الوحي ، فلا تمط سنة لعينيك ولا نوماً لاجفانك ، حتى تجد مكاناً للرب ، ومن هناك تنال الايمـان ، وتعتمد بالنار والروح لا بالمـــاء [٣] وهذا النمط من الايمان لايمنح للنساك الا بعد جهـــد شاق ، واتعاب وقنوت بخلاف ما يمنح للانبياء والرسل هبة وانعاماً خاصاً ان الايمـان الوحي ، يمنح للانبياء والرسل من العلى بطريقة الكشف (الالهام) دون تعب او عناء ، اما النساك فبالتعب والجهد والعناء والتتلمذ ، وهكذا يرتقون من الايمان الظلي الى الايمان الوحيي [٤] ويتم ذلك بفتح كوى القلب الى الملاء الاعلى وحصر انظار النفس البشرية في الذات الالهية ، والاعراض عن كل شيء في هـــذا العالم عندما تنفتح كوى القلب ، فانك تطير إلى ملكوت الله ، فترى هذه جميعها هناك واضحة ، ولا تحتاج بعد الى سماعهـا ،

---

(١) الحمامة ص ٧١ عدد ١٧
(٢) الحمامة ص ٧٢ عدد ٢٠
(٣) فيه ص ٧٢ عدد ١٩
(٤) فية ص ٧٢ عدد ٢٠

ولا تكون بعد غير مؤمن بل مؤمناً (١) وهكذا يسدي نصيحته للنساك بقوله : عوّد نفسك ان تؤمن بما تسمعه من الصادق ، وان كنت لاتعرف كنهه ، ولا تطلب ادلة منطقية ، ففي هذا الايمان ، تكون ذا منعة ضـد الضلال ، بارشاد الفارقليط ، روح الحق الذي يتجلى لك ويوقفك على الحقيقة كلها وجهاً لوجه ، ويذكرك كل شيىء ويعلمك (٢) .

٢ — اماتة الاهواء الجسدية :

يلي الايمان القضاء على الاهواء الجسدية القضاء الكامل ، اذ بدون ذلك لايمكن للقلب البشري الوصول الى اهدافه الحقيقية . من أعمال الزهد الشاقة ، وقد شبه الفيلسوف القلب الذي تشغله الاهواء بسفينة مثقوبة ، لايمكنها الوصول الى اهدافها ، وان كانت الريح مؤاتية لها ان السفينة المثقوبة لاتفيدها الريح وان كانت مؤاتية لها ، هكذا القلب الذي تشغله الاهواء لايفيده المرشد وان كان من درجة عالية (٣) وما لم ترفع النفس امالها واشواقها كلها الى الملاء الاعلى لايمكنها الظفر بالمواهب الروحية السامية ان الجرة التي نكس راسها اسفل ، لاتستوعب ماء ، وكذلك النفس السادرة في امر الدنيا لاتنال الموهبة السموية (٤)

وعليه لافائدة من التضلع بالعلوم والمعارف بدون تطهير الضمير ، الامر الذي عليه تتوقف امكانية قدرة النفس على التسامي في سلم الكمال : ان الذين يهتمون باكتساب جميـع العلوم ولا يهتمون بتطهير ضميرهم ، وهم يظنون انهم وصلوا الى درجة الكمال ، يضلون فما الفائدة من مرآة جميلة مرصعة باللالىء الكريمة والجواهر اليتيمة ما لم تكن مجلوّة من الغبار ؟ والمرآة المجلوة، وان كانت

---

(١) — فيه ص ٧٦ عدد ٤١
(٢) — فيه ص ٨٧ عدد ٩٠
(٣) فيه ص ٨٠ عدد ٦٠
(٤) — فيه ص ٨٥ عدد ٨١

بسيطة في صنعهـا الا انها تتقن عملها [١] » فـالنفس اذاً مرآة ، وهي بحاجة الى ان تكون نقية ، والا لمـا امكنها ان تقوم بواجبهـا وتتسامى الى عوالم الروح ، فتصعادها في معارج الكمال يكون بالنسبة الى درجة نقائها ، يقول الفيلسوف : « كما ان المرآة خالية بذاتها من كل صورة وشـكل ، وبـالنسبة الى نقائها من الاوضار المـادية ترتسم عليهـا الصور الخارجية ، هكذا العقل خال من الصور ، وبالنسبة الى درجة نقائه من الاهواء الدنيوية ترتسم على اشـكال لا مادية [٢] » وقد يكون ذلك اعتماداً على معلم ماهر ومرشد خبير بمحـاربة الاهواء ، او بممارسة اعمـال الزهد المتنوعة يقول : « اذا اصـاب العارف طرفاً صغيراً من تعليم الـكاملين يمكنه الاهتداء به ، والا ليمضي في اعمـال النسك تطهيراً لباصرته ، وهذه ستري الطرق السوية الممهدة (٣) »

اما اعمـال الزهد التي يكون هدفها تطهير القلب من الاهواء المنحرفة ، فيجب ان تؤدى بتعقل وحـكمة ، وبذلك يمكن الاهتداء الى طريق الحـق : « احذر ان تطبـع ذاتك بطابـع ابناء الملكوت بقراءتك العجلى التافهة فان كثيرين تعبوا كثيراً ، ولانهم لم يعملوا بتفهم وتعقل لم يدركوا طريق الحق ، ولم يصلوا الى ميناء الحياة (٤) فالاعمال الشاقة في الزهد وحدها لا تكفي ما لم تؤدّ بتأمل عميق وشحذ الفكر كله الى الهدف الاسمى « ان الكمال ، لا ينـال بالاتعاب الجسدية وحدها ، بل بالجهاد الفكري ، المتعقل ، فزيّن اذن رياضتك الجسدية برياضتك العقلية ، لكي تفهم وجهتك الفكرية والجسدية بـآن واحد (٥) »

---

(١) ـ الحمامة ص ٦٩ عدد ٢
(٢) ـ فيه ص ٧٥ عدد ٣٢
(٣) فيه ص ٧٩ عدد ٥٧
(٤) ـ فيه ص ٧٢ عدد ٢١
(٥) ـ فيه ص ٧٣ عدد ٢٢

ان الاهـــواء الدنيوية ، تحول دون وصـول العقل الى اهدافه الروحية بـــل تمنع انجذابه الى الملأ الاعلى ، يقول الفيلسوف : « كما يجذب الحديد النقي الى المغنـاطيس ضرورة ، كذلك العقل النقي ينجذب ضرورة الى العـــزة الالهية ، ولكن اذا مازجت الحديد مادة غريبة تحد من انجذابه ، ومثله العقل اذا مازجته شهوات الجسد عاقت انجذابه (١) وبالقدر الذي ينقي فيه الحديد من المواد الغريبة ، بذلك القدر يتحرر جوهره ويصبح قابلا للانجذاب : كما ان صهر الحديد وتنقيته من اية مادة غريبة — كالذهب والفضة ، والنحاس والقصـدير — تحرره من سائر المؤثرات الخارجية التي تعيق انجذابه ، كذلك اذا طهر العقل من السجايا البهيمية والاهواء الطبيعية الراسخة فيه كالانهماك بامور الزوجـــة والاولاد وجمع الغنى (٢) وملازمة الانقياء القلوب عامل مهم من تخلق المرء باخلاقهم ، والاهتداء الى الطرق المثلى في تطهير القلب ، ان الاستمرار في معاشرة انقياء القلوب تعـين كثيراً من يرغب في التشبـه بهم ، فانقياء القلوب هم الذين طهروا انسانهم الباطن من جميع الادران ، ونالوا كل موهبة صالحة من فوق من أبي الانوار (٣) فما أسعد من أهتدى الى عارف فاق شعاع سراجـه ، فتلاشى نوره بنور ربـــه ، ومات للعالم وعاش لله (٤)

ونقاء القلب يتم طبقـاً لآيـــة الانجيل القائلة (ان لم ترجعوا وتصيروا كالاطفال لن تدخـــلوا ملكوت الله) يقول الفيلسوف : اقسم لكم برب الارباب ربي ، ايها العلماء الاعلام ، مالم ترجعوا وتصيروا كالاطفال ، فانكم لاتعرفون حتى جهة الملكوت ، فكيف تريدون السفر في هذا الطريق ؟ وكيف تريدون

« ١ » فيه ص ٧٣ عدد ٢٤ « ٢ » فيه ص ٧٣ عدد ٢٥
« ٣ » الحمامة ص ٨٠ عدذ ٦٢ « ٤ » فيه ص ٨٠ عدد ٦٣

انتجاعها ؟ انكم ستبتعدون في الوقت الذي فيه تظنون انكم تقتربون (١) وهكذا اذا طهرت النفس ترنو الى مصدرها ضرورة ، وتتوق الى التصاعد ، كل نفس طاهرة تطلب موطنها الاول ، واليه تعود ، باقرب طريق ممهدة ، الامر الذي يمثل عبور الصديقين على جسر النار ، فالنار تلتهب متصاعدة على الطريق المستقيم ولا تنحرف (٢) .

وبعد جهاد شاق وتصاعد في درجات الكمال الروحي يبشر الفيلسوف العارف بقوله ؟ بعد جهادك الجسدي والنفسي الشاق ، تمسك يا أخانا ببساطة سمعان المطلقة او بما يقرب منها ، واعلم ان ليلك قد انقضى ، ونحيبك قد مضى ، وفجرك قد دنا ، وصباحك قد دنا ، وسيرسل لك ربك نور الايمان ويعزيك بوحي منه (٣)

٣ - معرفة الله والشوق اليه

هناك طرق كثيرة في معرفة الله ، اشهرها ثلاث ، الاولى معرفة البسطاء ، والثاني معرفة الفلاسفة ، والثالثة معرفة العارفين ، وهي اسمى ما يمكن ان يتوصل اليه العقل ، يقول الفيلسوف في هذا المضمار ! ان معرفة الخالق من مخلوقاته ، كمعرفة العامل من عمله ، معرفة سطحية بسيطة ، يستطيع حتى البسطاء الاهتداء اليها ، واما الفلاسفة فلديهم طريقة البرهان العقلي الدقيق ، وبها يهتدون الى واجب الوجود ، فالموجود اذا كان واجب الوجود فهو المطلوب ، واذا كان ممكن الوجود فانه يحتاج الى واجب الوجود ، اذن ، يوجد واجب الوجود (٤) ثم يشرح طريقة العارفين ، وهي الطريقة الروحية الصرفة ، يقول ، وللعارفين معرفة اخرى اكثر دقة ، وتتم بنقاء الافكار ، وتلطيف الجسد ، واغماض الحواس ، والاعراض عن

---

(١) فيه ص ٨٢ عدد ٦٩
(٢) فيه ص ٨٦ عدد ٨٥
(٣) فيه ص ٨٨ عدد ٩٣
(٤) فيه ص ٨٣ عدد ٧٣

الارتباك الدنيوي ، ففيها مخـــدع قلبهم ، وتنعكس فيهم الملكوت ، متجسمة في داخلهم ، فلا يطالبونه حينئذ لافي هـــذا الجبل ولا في اورشليم (١) وهذا ماصرح به احد العارفين ، بقوله : اني بالهي عرفت الهي . ولولا الهي لما عرفت الهي(٢) وقال عارف آخر « اني اعرف الله قبل معرفتي العالم ، فمعرفته التي اوجـــدت الكائنات اشرقت في ضميري ، وسبقت معرفتي بجميع الكائنات » (٣) وقال ايضاً : اني عرفت المسيح قبل ان اعرف ذاتي ، فقد سبقت معرفته فيّ قبل ان اعرف كل معرفة ، فاضت عن روحه (٤)

وهذه المعرفة السامية لاتغوص عليها النفس الا لتتضاعف شوقهـا الى الله ، وغير ذلك لايقع تحت تصورها ، قال الفيلسوف : « لاتغوص النفس الطاهرة على المعرفـــة طلبـاً للمجـد الذي يناله العارفون في العالم ، بل لتتضاعف اشواقهـا إلى ربها ، ولتتمكن من الاخلاد والاحتجاب في السحابة الآلهية » (٥)

فمعرفة الله اذن ، والحالة هذه ، لاتتأتى بايراد الاقيسة المنطقية والبراهـين الطبيعية ، فعالم الروح اكثر وضوحاً ، واعظم اشراقاً من عالم المادة ، وعليه يقول : ما دمت تطلب ان تعرف الله بواسطة الادلة والبراهين والشواهد ، فانت تضرب على حديد بارد ، وليس فيك بعد من الايمـان بقدر حبة الخردل (٦) وما زال الامر كذلك فان « رؤية الله — معرفته — تكون باغماض الحواس ، وفتح كوى القلب ، وتمزيق الحجب عن اعين العقل ، وهذا هو ما قيل اسدد الكوى يضيء المخدع (٧) ومعنى ذلك يتضح من قول الفيلسوف « ان معرفة الكاملين هي معرفة وخيبة (٨)

«١» فيه ص ٨٣ عدد ٧٤ «٢» الايثيقون م ٤ ب ١٥ ف ٦
«٣ - ٤» الايثيقون م ٤ ب ١٥ ف ٦ «٥» الحمامة ص ص ٦٨ عدد ١
«٦» فيه ص ٧٠ عدد ١٠ «٧» فيه ص ٧٠ عدد ١١
«٨» فيه ص ٧٨ عدد ٥٠

وعليه فانه « لما كانت معرفة الكاملين معرفة وحيية — نبوية — فلا يمكن الحصول على هذه المعرفة من قراءة الكتب (١) ويختم فيلسوفنا تعاليمه الروحيــة بالتحذير التالي : احذر ان تكون طفولتك — افكارك الصبيانيـــة — لتضليلك ، وتظن انك ستعرف هذه المعاني من الكلمات ، لا يا أخي ، لا يا أخي ، إذا رغبت الوقوف على الاسرار الخفية ، فاعرض عن العالمين كليهما ، ودع الموتى يدفنون موتاهم ، واطلب الحي القيوم وحده ، فانك تحيا الى الابد (٢)

٤ ـ محبة الله

ان السبب الوحيد لمحبة الله هو معرفته الاكيدة الواضحة ، وقد اوضح فيلسوفنا تلك المعرفة بقوله : « إن العارفين يفقهون حقيقة معرفة الله ، لذلك اسست محبتهم على الصخرة ، فلا يقوى عليها لا الألم ولا الاضطهاد ولا السيف ولا النار (٣) ويذهب الى اعمق من ذلك بقوله : « الاسباب التي تضرم محبة الله هي : اولا = ان يصرف الانسان وجهه عن كل شيىء في الدنيا ، ويعرض عن كل هوى ، ويتسامى الى الرغبة في الواحد الاحد ، نامياً بالرجاء والايمان ، ممعناً في الزهادة والنسك ، وهكذا اذا ما طهر ضميره واضاء فكره يصبح من جملة الانقياء القلوب الذين يعاينون الله ومن هذه الرؤية تلتهب نار المحبة (٤)

والذي يحب الله حباً حقيقياً ، يجب ان يحبه وحده ، ولا يشرك به ، والا لما استطاع ان يحبه ، لان « المحبة هي طلب المحب لمحبوبه ، والطلب الصادق هو توجه الطالب بكليته الى المطلوب ، فيصبح الطلب والوجود توأمين ، اي في اثر الطلب يبرز الوجود ، والذي يطلب هكذا يجد ، ومن يسأل يأخذ (٥) ولمحبة الله

---

١ فيه ص ٧٨ عدد ٥١
٢ فيه ص ٨٥ عدد ٨٣
٣ فيه ب ٣ ف ٨ ص ٦١
٤ الايثيقون م ٤ ب ١٥ ف ٦
٥ الحمامة ص ٧٣ عدد ٢٣

معان سامية لايتوصل الى التغلغل فيها الا من تذوقها تذوقاً صادقاً ، يقول : « من لم يذق حلاوة محبة ربه ، لايمكنه فهم كلمات المحبوب ، لانهـا رمزية ، ومليئة بالروح ، ولايمكن ان تقال الا بطريقة رمزية روحية (١)

وهناك ثلاث طبقات من الناس ، السفلى ، تطلب الدنيا ، والعليا ، تطلب الاخرة ، والاعلى ، تطلب ربها بالذات ، وهذه هي طبقة العارفين الكاملين ، ولا يفصلها عن حبه لا الامور الحاضرة ولا المستقبلة ، ولا خليقة اخرى ، ومهما اهينت في سبيل جماله ازدادت اليه ظمأ (٢) والعارفون تشرق عليهم شمس الله فيستحيلون مخلوقات جديدة ، يقول فيلسوفنا : « اذا اشرقت شمس المحبوب على المحب ، يوماً من الايام ، يرى العروس السليمانية متلألئة سافرة ، فتدخله بيتها ذا العواميد السبعة ، وتظهره محبوباً للكائنات ، وتجمعه بالوحوش الضارية والطيور الجارحة التي تنشق منه عبير باريها ، وتشعر بوجوده الكائنات الجامدة ، وتخضع له الشياطين وتخدمه الملائكة (٣) وهذه هي الدرجة العظمى التي يقول فيها « اذا بلغ السعيد هذه الدرجة فان ربه يسقيه من مائه ، فلا يعود يشرب من صخرة او من بئر ، فلا يعطش بعد ، بل يجري فيه ينبوع ماء للحياة الابدية (٤)

ويخشى ان يؤثر احد الاسباب على هذه المحبة فتبرد ، ويعطي نصيحته الاخيرة في هذا المضمار ، لذوي القوى الروحية السامية ولجميع الناس فيقول : « ان الاسباب التي تبرد فيها المحبة للجميل كثيرة جداً ولأن احصيها لاقوتي تسعفني ، ولا وقتي يكفيني ، فقد سبق واعياني الكلام ، ولاذ قلبي بصمت عميق ، فمن استطاع الصمود في ميدان الحب فليصمد ، والذي لايقوى فليحمل طعامه ضمن طاقته ، ويمد رجله بحسب بساطه (٥)

---

(١) فيه ص ٧٩ عدد ٥٣

(٢) فيه ص ٨٦ عدد ٨٤

(٣) فيه ص ٨٩ عدد ٩٦

(٤) فيه ص ٨٩ عدد ٩٦

(٥) فيه ص ٩٠ عدد ٩٩

٥ ـ حالات العقل عند العارفين

اذا جمع العقل في نطاقه الروحي ، الايمان الحي ، وانتصر على الاهواء الجسدية ، ورسخت فيه محبة الله رسوخاً عميقاً ، واحب الله بدون شريك ، او عديل ، يتسامى الى طبقة العارفين ، فيخلد في سحابة الله الوضاءة ، ويغيب فيها الى ابعد افاقها ، فيدخل قدس أقداس الروح ، وهناك يسمع كلمات لايمكنه النطق بها ، ويصف فيلسوفنا هذا الضرب من العارفين بقوله : « ان الذين يخلدون في السحابة إنهم يدركون عمق حكمة الله وغناها ، بدون الحاجة الى دليل » (١) وهكذا اذا خلد في السحابة الالهية يتوصل الى كمال اللذة الروحية ، التي لاتوصف ، « ان العقل في السحاب يحوز لذة لاتوصف ، برؤية الجميل ، تفيض عنه فيصبح وكأنه يسمع بصيت الجميل ولكن لايراه » (٢) ولا يكون ذلك الا اذا تفتحت عينا العقل وحاز من ربه تلك النعمة السامية ، « اذا تفتحت عينا العقل بقدر استعداده ، تفيض نعمة الله عليه ، فيسطع بالاشعة الملائكية المتألقة ، ويلتحق بابناء الملكوت ، ويقف بين صفوفهم ، فيفرح معهم ويتجدد ، ويكون غريباً عن هذا العالم بما فيه (٣)

ان العقل هنا يرتفع الى اعلى درجات التسامي ، ويتعالى الى مرتبة لا يمكن لابناء الحياة العاديين حتى الشعور بها ، يقول الفيلسوف : « اذا ادرك العقل ان هناك كلمات لا يمكنه النطق بها ، واعمالاً لم تر العين مثلها ، ولم تسمع الاذن نظيرها ، ولم تخطر على قلب بشر ، حينئذ يتسامى فوق جميع المراتب البعيدة عن السحاب ، ويتوقل الدرجات الباقية فيها (٤) »

---

(١) الحمامة ص ٧١ عدد ١٢
(٢) فيه ص ٧١ عدد ١٥
(٣) فيه ص ٧١ عدد ١٦
(٤) فيه ص ٧٣ عدد ٢٦

« واذا سمع العقل كلمات لا يمكن الافصاح عنها ، ولا يستطيع تفسيرها ويرى ما لم تره عين ، هناك في مسكن الرب يسكن وفي جبله المقدس يحل [١] »

حقاً ان حالة عقول العارفين عجيبة ، اذا بلغوا ربوع الوحي ، وخلدوا في جنة الالهام ، يقول فيهم الفيلسوف : « ان الذي حاز الوحي تراه تارة عصي الكلام ، عيي اللسان ، وطوراً تسمعه خطيباً مصقعاً ، تجري من فيه انهار ماء الحياة ، [٢] »

يعود الفيلسوف الى نفسه فيصف لنا اللحظات الدقيقة المرافقة لهذه الحالة ، الوحيية العذبة ، يقول : « ما اسرع الزمان ، وما اعجل لحظة هذا النور وقليلون نادراً يستحقونه ، اما انا فقد مرت مواكبهم بقربي ، كالشمس في فجر عميق ، وكالبرق الخلب رايته وانا سادر في ظلامي [٣] « ثم يتابع » ان شمسي لم تزل نظيري في برج الجدي ، واذا سارت الى ابعد من الجدي نحو الجنوب ولم يبلغ آفاقي بعد في تصعادها ، واني لمشتاق وظمآن ان يشرق علي بالروح والحق [٤] » وينقل الينا كلام احد العارفين في هذا المضمار ، يقول : « حدثني عارف سعيد قال : لما كنت مبتدئاً ، كنت مرة اتخيل النور الساطع ، فتلاشت اعضائي وخبا عقلي واشبهت السادر في ظلام دامس ، واذا هدأت العاصفة عاد اليّ صوابي ، واخذ لساني يتلعثم قائلاً : قد كان ما كان ، وان اقول ما كان ، فاسمعني ، اسمعني ، واخشع ، ولا تقل افصح وفسّر » ثم تابع قوله : ولما ازددت قوة ازدادت محبة ربي فيّ سميراً ، ولم تدعني اكمل فرضي مرات كثيرة ، فكنت اسقط على وجهي كالميت ، وكان جسدي يضطرم . وزفراتي تحتدم ، وقلبي يقول لي : الى متى هذا البكاء واضطراب الروح ؟؟ وماذا تفيد ذكرى

«١» فيه ص ٧٤ عدد

«٢» فيه ص ٧٨ عدد ٥٢

«٣ و ٤» فيه ص عدد ٧٩ و ٨٠

الحبيب ، والحبيب في قفص البعــاد ؟ ؟ » واردف العارف يقول : « واذا ما بلغت اشدي ، صـدر امر من الملك العظيم ، الذي سلطانـه لايزول وملكه الى ابــد الدهور ، ليؤذن لي بالدخول ، وفي الحــال ، حطّم عقلي القفص كالنسر او كالمجنون . وطار الى عشه الاول ، ومثل بــين يدي ملك الملوك ، وإله الآلهة ورب الارباب ، وكان بجواره تحيطه النعمة »(١)

٦ ـ علاقة بايرثاوس وابن سينا

علمنا سابقاً ، ان الاثر المنحول ايرثاوس الذي وجـد بالسريانية في النصف الاول من القرن السادس ، انتشرت مبادؤه الصوفية في الشرق انتشاراً واسعاً ، وفي القرن العاشــر زادت انتشاراً ، وتوسعاً حيث فسره بدقة واسهــاب الفيلسوف مار تيودوسيوس التكريتي البطريرك الانطاكي فاصبح والحالة هــذه مصدراً وحيداً أساسياً لفلاسفتنا في فلسفتهم الصوفية اعتباراً من هذا القرن ، بدليل وجود مبادئه كاملة وواضحة في التراث الصوفي الذي خلفه الفلاسفة في هذه الفترة ، فالمبادىء الصوفية الواردة في فلسفة الشيخ الرئيس ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧ م) مستمدة من هذا الاثر ، الامر الذي لم يشر إليه الى الآن كاتب من كتاب ادابنا الشرقية . والمعروف ان العلامة ابن العبري هذّب هـذا الاثر وفسره من جديـد ، وكذلك درس فلسفة ابن سينا دراسة واسعة ، وترجم الى السريانية كتابــه الفلسفي القيم (الاشارات والتنبيهات) الذي سجل فيه ابن سينا فلسفته الصوفية ، فيكون ابن العبري ، والحالة هذه ، ذا علاقة عميقة بمبادىء اثر ايرثاوس من جهة ، وبفلسفة ابن سينا من جهـة ثانية ، مع العلم ان فلسفة ابن سينا الصوفية تحمل نفس المبادىء التي وجدناها في ايرثاوس منذ القرن السادس الميلادي ، وعلى هذا الاساس ندرس هـذه العلاقة في

(١) الحمامة ص ٨٦ عدد ٨٢

قصيدته الصوفية الرائعة التي قالها في بغداد عام ١٢٧٧ م وهي المعروفة بقصيدة (الكمال) وتعد من عيون الشعر السرياني في هذه الفترة .

يفتتح قصيدته الفلسفية هذه خاشعاً أمام العزة الالهية متهيباً ، تمهيداً لاعطاء فكرة كاملة في العقل البشري ، اذا التهب بحب ربه ، او اختطف الى الملأ الأعلى لقاء باريه ، في السحاب ، او توقل سلم الكمال ونضى عنه جلابيب الجسد وخلد في عالم الروح ، فيقف امام (الكائن) الأسمى الواحد الاحد قائلاً : « الكائن التي تتوق اليه العقول ، وتخشع بحضرته الفكر والنفوس ، الكائن الذي منه يستعير الكاملون كمالهم ، وبه ينال النساك عزاءهم . . »

للكاملين ، مقامات وطبقات ، ولهم منازل يخلدون فيها ، لا يحصى عديدها ، عقول تقمصت الجسوم جلابيب شفافة ، وكأنها تخلعها ، لترفل في عالم الارواح خاشعة برؤية ربها ، سارحة في جنان العقول المجردة كلها عنّ لها فنضت تلك الجلابيب ، وكلما انعم عليها ربها بالاتحاد ، وستار هاتيك الربوع لا يبنون جمالاً جديداً او غريباً ، فجمال كيانهم الروحي كاف ليجلوا الظلام من حولهم ، يمثلون بين يدي ربهم ، وجبينهم انصع من قلب النهار ، وقد ارتدوا حللاً من المجد الأثيل في بهجة ذياك الصباح ، واذا ما تمتعوا بكيانهم الجديد المخلد عادوا الى جلابيبهم القديمة يرتدونها من جديد ، واذا ما نعموا بكيانهم المخلد ، وسعادتهم الفائقة عادوا يملأون الدنيا انغام الخلود ، فمرآتهم المجلوة هي نفوسهم الطاهرة وقد نقشت على صفحتها اسرار من وحي ربهم والهامه ، حالات عجيبة يجلها الحكماء ويمجها السفهاء البلداء .

وقال ابن سينا في هذا المعنى : « ان للعارفين مقامات ودرجات يخصون بها ، وهم في حياتهم الدنيا ، دون غيرهم ، فكأنهم - وهم في جلابيب من ابدانهم - قد نضوها وتجردوا عنها ، الى عالم القدس ، ولهم امور خفية فيهم ، وامور

ظاهرة عنهم ، يستنكرها من ينكرها ، ويستكبرها من يعرفها .

وقد علمنا ان مؤلف اثر ايرثاوس عقد فصلـــين رائعين في اطراء مقامات الكاملين (العارفين) والدرجات التي يحدون بها ، ويسميها (العقول الطاهرة) مصورا حالاتهم الروحية تصويراً رائعاً ، وهما الفصلان ٢١ و ٢٢ في نهاية مطافه الروحي ، فيكون ابن سينا قد اورد فكرة قديمة واضفى عليها روعة فلسفية جديـــدة ، الامر الذي فعله ابن العبري ايضاً .

ينطلق الفيلسوفان من الثقة التي وضعها مؤلف اثر ايرثاوس ، ويمضي العلامة ابن العبري في تبيان منازلهم التي لايحصى لها عديد اعتماداً على قول الرب (في بيت ابي منازل كثيرة) .

ويتابع الشاعر حديثه في كيفية الوصول الى الهدف الاسمى للعارفين يقول : « لايبلغ الكاملون منازل ربهم القاصية الا بعد جهاد شاق وعمل مضن ، عسير ، متصاعدين درجة فدرجة ، في سلم الكمال الروحاني ، ولهـــذا السلم الرفيع ثلاث درجات كبرى ، الاولى ، ان يعرضوا عما يعكر سماء الروح ، حاصـــرين كل اشواقهم في ابتلاء الشعاع الازلي . والثانية ، أن يحدوا الخطى حثيثاً الى مصدر ذلك الشعاع ، لان الخطوة الاولى لم تكن غير شوق الى الثانية ، والثالثة ، وهي الوصول الى الهدف الاسمى ، وهذه هي ملكوت السماء بعينها .

وقد تفنن مؤلف اثر ايرثاوس بوصف الجهاد الذي يقاسيه الكاملون في تصاعدهم وتوقلهم درجات الكمال ، وهي ثلاث ايضاً ، (الفصل ١٣) وشرح هذا الجهاد شرحاً وافياً ايضاً في الفصل الثالث .

الوصول الى نهاية المطاف لدى شاعرنا ، هو معرفة الله ، المعرفـــة الكاملة الدقيقة ، طبقاً لتعليم ائمة العارفـين ، وهناك ثلاث طبقات من السائرين في طريق الوصول هـذا ، الاولى طبقة الزهاد ، والثانية طبقة العباد ، والثالثة والاخيرة ،

طبقة العارفين ، الكاملين التماين » ويقول ابن سينا في هـذا المعنى : « المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها ، يخص باسم الزاهـد ، والمواظب على فعل العبادة من القيام والصيام ونحوهما يخص باسم العابد ، والمنصرف بفكره الى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق في سره ، يخص باسم العارف ، وقد يتركب بعض هذه من بعض »

وهذه الحالات الثلاث نجدها عند مؤلف اثر ايرثاوس بطريقة اكثر سمواً ممـا يختص بالعقل نفسه ، فلديه ايضاً ثلاث خطوات الى حين بلوغه درجة الكمال المطلق ، قال : « ان حركة العقل في ما وراء الطبيعة ، هي الخطوة الاولى في التصاعـد الى اعمال البر والفضيلة ، فيدعي صاحبهـا باراً وقديساً ، واحياناً يصيب صفة القوى الفائقة في القداسـة ، واما اذا ارتفع الى حاله فوق الطبيعة ، فانـــه يخشع ويلوذ بالصمت والارتاج » حيث يبلغ الذروة العليا من التصاعد . فاذا قابلنا هذا بما وجدناه لدى فيلسوفنا نجده اساساً واضحاً لفكرتها . (الفصل ٧)

يعود ابن العبري الى المقابلة بين أهـل هذه الطبقات الثلاث يقول : « ان الكامل (العارف) هو زاهد وعابد بآن واحـد ، اما الزاهد او العابد فليس بعد كاملا ، وهناك فرق بين هذا وذاك ، وليس لكليهما طريق واحـــد » ثم يشرح الفروق بين الاثنين ، يقول : « ان الناسك ليس كاملا ، لانه يظن انه يشتري نعيم الآخرة بنعيم الدنيا ، انه يعرض عن طيبات هـــذا العالم الزائل في سبيل الطيبات الباقيات في العالم الخالد ، انه لصيرفي ، وتاجر ، يستبدل طيبات بطيبات » « أما الكامل فليس هذا هدفه ، إنه ينكر الشهوات الفانيات لماهـه ، ان تنعم الجسد يجعل العقل مظلماً ، ويعطله عن معرفة ذاته وادراكها ، يعلم ان الجسد انما هو سحابـة سوداء امام النفس ، فاذا تبددت تلك السحابة تعطلت الرؤية »

هناك اذن ، فرق بين الهدفين ، الاول عذّب الجسد ثمناً لنعيم مرتقب ، وهذا اعرض عن الراحة تبصراً ، غير الكامل يتعبد ، والكامل مثله ايضاً ، يتعبد ، الا أن غير الكامل يعمل ذلك طمعاً في اجرة ينالها ، من عمله ، والكامل ليزيد نوراً على

نوره، وطهرا على طهره، ان الكامل صوام قوام بوثنا لقدس جديــــد، وتمزيقا للحجب الداكنات الحالكات، واشتشراقا ليغني العقل، وهكذا طهر العقل استصبح بنور الحق، ان الكاملين العارفين لهم مسارح القدس، وحكمة الله لاتنجلي للسادرين في الدنيا التائهين في بواديها، ان الزاهد غير الكامل يعرفه العارفون عبداً، او اجيراً اما الزاهد العابد الكامل فيعرفونه ابناً ووريثاً »

ويشرح ابن سينا هذه الطبقات الثلاث بقوله : « والعبادة عند غير الكامل معاملة ما كأن يعمل في الدنيا، لاجرة يأخذها في الآخرة، هي الاجر والثواب، وعند العارف رياضة ما لهممه، وقوى نفسه المتوهمة المتخيلة، ليجردها بالتعويد من جناب الغرور، الى جناب الحق، فتصير مسالمة للسر الباطن، حينما يستجلي الحق، لاينازعه، فيخلص السر الى الشروق الساطع، ويصير ذلك ملكة مستقرة، كلما شاء السر اطلع الى نور الحق، غير تزاحم في الهمم، بل مع تشييع منها له، فيكون بكليته منخرطاً في سلك القدس »

الفروق بين الزاهد والكامل عند ابن العبري تختلف عمــــا هي عليه عند ابن سينا، فبالاضافــــة الى كون الاول يعتبر صيرفيا وتاجراً، والثاني عاملا في سبيل الحق وحــــده، دون النظر الى الثواب، يقول ابن العبري : ان الاول عبد او اجير، بينما الثاني ابن ووريث، وهذه الفكرة الاخيرة نراها واضحة في اثر ايرثاوس ان العقل المطهر ينال صفة البنوة الكاملة لله ويمكنه القول (ان موسى اؤتمن كعبد واما انا فكرب البيت) (الفصل ٣)

في العالم نقص كثير، وفي الكيان البشري ايضا نقص لاتعوضه الطبيعـــة البشرية المجردة، والنقص في العالم، او في الطبيعة البشرية بحاجة ماســة الى اكمال درأ لاخطاره الروحية الكثيرة، وعلى هذا الاساس ألهم الله الانسان لكي يسعى الى بلوغ الكمال الروحي، الذي هو وحده يمكنــه درء اخطار نواقص البشرية، ويمضي ابن العبري في شــرح هــــذه الناحية في ابيات كثيرة من قصيدتـــه .

الى ان يصل الى وصف الكامل الذي اعده الله لاكمال نقص الطبيعة البشرية ، بما ينعم عليه من وحي ، يقول : ان الكامل رسول يرسله الله لهداية الناس ، فيستمد الوحي من السماء بلقاآته الوحيية ، بالطبيعة الروحانية ، حيث يجد اسفار الروح مكتوبة ومنها يستلهم المعرفة الحقة ، لا من علم بشري ، بل بوحي من الروح القدس ، فتخضع له الطبيعة الجامدة ، وتتبعه المعجزات والكرامات العجيبة ، فيوضح الامور المستقبلة ، ويكشف الغيوب ، ويأتي بالنبوات ، وهذا ما عناه الرسول بقوله : « وضع الله في بيعته اولا رسلا ، ثم انبياء ، فاعلي قوات : » الخ - ويمضي في وصف اللذة الروحية العميقة التي يشعر بها العارف ، تأخذ بمجامع قلبه ، وتحيله الى كائن جديد .

ويشرح ابن سينا موضوع النقص البشري بقوله : « واعلم ان رذيلة النقصان انما تتأذى بها النفس الشيقة الى الكمال ، وذلك الشوق تابع لما يفيده الاكتساب ، والبله بجنبة (الجنبة : الاعتزال) من هذا العذاب ، وانما للجاحدين والمهملين والمعرضين ، عما ألح به اليهم من الحق ، او بالخلاصة من فطانة بتراء »

وشوق العقول الطاهرة الى الكمال قد شرحه صاحب اثر ايرثاوس شرحا وافيا قال : بعد اتعاب شديدة وجهاد شاق تشرع العقول الطاهرة في تصعادها درجات الكمال ، فيثور فيها الشوق اللاهب للوصول الى القمة ؛ وتسعفها الجواهر الروحية التي تصادفها في طريق تصعادها ، اذ تجتمع كل تلك القوى وتحيط العقل بهالة من المجد والقداسة بطريقة عجيبة » الى ان يقول : « ان كل كيان عاقل يحوز معرفة ما دونه ، ولكن العقل الكامل يجمع كل المعارف »

فانت تلاحظ ان الفكرة الاساسية مستمدة من هنا ، الشوق الى الكمال ، وحياز المعرفة الكاملة ، بغية نشر طرق المعرفة و كمال في ذلك ، وقد تطورت الفكرة عند الفيلسوفين بحسب ما رأينا ؛ الا ان الاساس واحد .

وينتقل ابن العبري الى تعداد درجات العارفين ، منذ اول انطلاقهم الى بلوغهم

تصاعدهم الروحي الكامل ، ويورد هذه الدرجات طبقا لما اتفق عليه العارفون انفسهم ، يقول : « لحركات العارفين ما يسمونه هم الارادة ، حيث يحاول العبد المعرفة بالبرهان ، ثم يستسلم للايمان المطلق ، توصلا الى الكمال ، وحالما يريد ؛ يبدأ بالانطلاق هاربا من كل شيء ماعدا محبوبه ، وما دامت هذه درجته فهو (مريد) وهو في طريق وصوله الى الحياة الخالدة »

وورد ذلك عند ابن سينا على النحو التالي : « اول درجات حركات العارفين ما يسمونه هم الارادة ، وهو ما يعتري المستبصر باليقين البرهاني ، او الساكن النفس الى العقد الايماني ، من الرغبة في اعتلاق العروة الوثقى فيتحرك سره الى القدس لينال من روح الاتصال ، فما دامت درجته هذه فهو مريد . »

ان فكرة (المريد) الواردة لدى الفيلسوفين تمثل الخطوة الاولى في طريق الكمال ، وهي اللحظة التي يتوجه العقل الى هدفه الاسمى ، ففي هذه اللحظة يمكن تسمية العقل او الانسان (مريدا) لانه (يريد) الانطلاق الى طريق الكمال بارادته الكاملة ، وقد شرح هذه الحالة مؤلف اثر ايرثاوس جاعلا اياها (الخطوة الاولى) فقال : « تنطلق خطوة العقل الاولى نحو الحرية الكاملة عندما يثور الحب الالهي ، ويتفجر الشعور من الاعماق ، بوجوب الانطلاق ، فمن المقول من تنطلق حالة انبجاس المعرفة والقوة فيها . » (الفصل ٢)

فانت ترى ان فكرة (المريد) هي وليدة هذه الفكرة ، بحيث يصبح العقل (مريدا) حالة توجهها الى الهدف ، فيثور فيه الحب الالهي ويدفع به الى طلب الحبيب باي ثمن كان .

وعند الفيلسوف ابن العبري ان « المريد الحاذق لا يخشى العثرات ، ولا يهاب الشراك ، واما المريد العادي فانه يحتاج الى شيخ ذي خبرة واسعة ، يعرف لكل داء دواء . » ومثله كان ابن سينا يقول : « ثم ان المريد ليحتاج الى الرياضة ، والرياضة متوجهة الى ثلاثة اغراض . »

ان المريد لدى الفيلسوفين بحاجة الى رياضة وتوجيه ليسدد خطواته الى محجته القصوى ، وقد طبق الشيخ الفيلسوف مؤلف اثر ايرثوس هذه الفكرة مع تلميذه بالفعل فقد سمعناه يقول له : « وانت يا بني ، فانظر الى فوق ، واعرض عما في الارض ، ودع الظل واتحد بالحقيقة ، اغرض عن الطبيعة الفانية واهبط بقوة الى اردن هذه المعمودية المقدسة المجردة عن الهيولى — معمودية الرياضة والالم — واذا سمعت الرب يقول لابني زبدي ؟ اما كأسي فتشربان واما صبغتي فتصتبغان — فاعلم انه يشير الى هذه المعمودية المطهرة التي بها يعتمد الكاملون فيطهرون » (الفصل ٣)

يتابع ابن العبري حديثه بشأن هذه الرياضة يقول : « يجب ان تقوم هذه الرياضة على ثلاثة شروط الاول ، الترفع عن الدنيا وما فيها من الدنايا ، والزهد في الاموال ، والكرامات الكاذبة والمجد الزائف ، والعجب والكبرياء والعجرفة والصيد الخادع ، وتحطيم هوى الزعامة الفارغة ، والاعراض عن معاشرة ابناء الدنيا ، ومحاولة تقويم الاشرار . والثاني ، سحق القوتين الغضبية والشهوية ، واخضاعها للنفس العاقلة السيدة . والثلث ، جعل النفس شفافة لطيفة استعداداً لتلقي الاشرافات الساطعة . ويعين على دعم الشرط الاول ، الزهد التام ، والاعراض عن متاع الدنيا ، واحتقار كل شيء ما خلا الحق ، والشعور بمرارة كل طيبات الحياة ، . والشرط الثاني يدعمه ، الصوم والقنوت ، وسحق عنف الجسد ، وخضد اشواكه القاسية ، وتعذيبه وتهذيبه ، وممارسة الالحان الروحية ، الشجية المنعشة لقوى النفس ، والاغراق في الترتيل والقراءة المتعلقة ، واستمداد النصائح والمواعظ من معلمين ثقات ، ويعين على الشرط الثالث ، نقاء العقل وصفاء الفكر ، والتمرد على سفاسف الدنيا المعكرة »

وابن سينا علم بالشروط الثلاثة والقوى المؤيدة لها ، وقد قال : « والاول يعين عليه الزهد الحقيقي . والثاني ، يعين عليه عدة اشياء ، العبادة المشفوعة

بالفكرة ، ثم الالحان المستخدمة لقوى النفس ، الموقعة لما لحن به من الكلام موقع القبول من الاوهام ، ثم نفس الكلام الواعظ من قبل قائل ذكي ، بعبارة بليغة ، ونغمة رخيمة ، وسمت رشيد ، . واما الغرض الثالث فيعين عليه ، الفكر اللطيف والعشق العفيف ، الذي يأسر فيه شمائل المعشوق ليس سلطان الشهوة »

والفكرة كلها انما تدور حول العمل على تنقية النفس من ادران الشر اياً كان ، وقد اورد الفيلسوف فان هذا التقسيم الثلاثي رغبة في تنظيم الحملة ضد الشر من قبل النفس ، وهي مستمدة من التعليم السليم الوارد لدى مؤلف اثر ايرثاوس حيث قال : « يجب على الذين يرغبون الارتفاع من هذا العالم ان يوحدوا قوادم الخيرة فيقتلعوا الشر من اعمق جذوره ، فقد يخشى ان يظهر الشر من حيث لا يشعرون ، فالجسد هو بيت النفس ، والنفس رداء العقل ، فيجب على النفس ان تطهر العقل بذاتها »

وعلى هذا الاساس نسمع العلامة ابن العبري يتفنن في وصف النفس العارمة وصفاً بالغ الروعة يقول ؟ « الحمامة الحية ذات الاشواق المتمردة على الموت ، جميلة وان كانت سوداء ، فان اصلها من الله ، وان لوحتها الشمس بشواظها ، الحمامة الطالبة ربها من وراء حجاب هذا الجسد ، المتطلعة اليه من كون العقل ، ومن شقوق المادة ، تطوف في الشوارع والساحات اذا غاب عنها لحظة ، توّاقة الى وجهه الكريم ، هائمة كالمجنونة حتى يعود ، لا ترهب اذا طاردها العسس — قوى الجسد — بل تفر وتنجو ، وتصحو اذا عبرت قليلا ، فتلاقي ربها وتتعلق به ولا تتركه حتى تدخله خدر امها الى مخدع اقتاب ، الى بيت الحكمة ، هذا عالمها »

ويشعر العلامة ابن العبري انه لا يجوز الافصاح عما تلاقيه النفس في

(مخدع الروح الاعلى) وعليه يتابع قوله : « اما ماذا يحدث في ذلك المخدع ، فليس لك ايها الشاعر ان تذيع الاسرار ، ولا تحسبن ذاتك خطيبا مفقها ، صه ، ايها الغبي ، واستر جهالك بالصمت ، فان سليمان في كل مجده لم يجرأ على الكلام هنا احذر ان تشين الكريمة المألقة فلا تطلقن العنان لغرورك باسم الحب ، في دولة الحب هذه لا سلطان لأبليس ، فكلها نور لا يدانيه ظلام ، عد الى ربك ، وغذ عفوك القهقري ،واذا اقدمت فمد الخطى خاشعا متهيبا . »

وهنا ، في بيت الحكمة ، في عالم الروح ، تبلغ النفس درجة الارتياح فلا يستطيع اللسان التعبير عما يشعر به القلب من الغبطة والسعادة ، وقد وصف مؤلف اثر ايرثاوس هذه الحالة بقوله : « اذا ما باشر العقل بالتصاعد فان الجسد يرتمي كالميت » ثم يوصي تلميذه بألا يبوح لأحد بهذه الحالة العجيبة يقول : « اماانت يابني ، فأدخل مخدعك واغلق بابك ،ولا تشرب إلا من ينبوعك وليكن لك وحدك ، فلا يشرب معك غريب ، ولا تنم في القرية وتترك زرعك في الحقل لئلا يأتي العدو ويزرع الزؤان في حقلك . » الى ان يقول : « لا تبح بكلماتي هذه امام المقول غير الطاهرة . . . . . لان الانسان الذي لا تعي نفسه معاني الروح يزدريها . » (الفصل ٥) وقد وصف حالة العقل لدى تصاعده الى حالة فوق الطبيعة : قال : « واما اذا ارتفع العقل الى حالة فوق الطبيعة فانه يخشع ويلوذ بالصمت والارتياح » (الفصل ٦) واذا مابلغ العقل ذروة الفضيلة وانجلت له الاسرار ، ووقف في قلبها العميق ، وسبر غورها البعيد ، يرتبج عليه ، فلا يجد كلمة من الكلمات البشرية كافية للتعبير عما هو فيه ، بل لايجد تعبيراً بشرياً يليق بما يشعر به من السعادة ، ولذلك يقول الفيلسوف (ايرثاوس) لتلميذه « اما انت يابني ، فانظر الى ما يحيط بك واجماً صامتاً متهيباً » (الفصل ١١)

ويعود الفيلسوف ابن العبري ايضاح ما تحويه الدرجة الثالثة

— درجة الاختطاف — ذاتها من الطبقات ، يقول : « لهذه الدرجة طبقات وحدود ولا حجاب بين حد وآخر ، ففي الحد الاول يشرق على العارف نور الحق ، ويشعر بلذة عميقة لايقوى على الوقوف امام تيارها ، فيزداد سطوعا وتألقا ، ويرى بروقا تومض ، ثم تختفي ، ويسمي العارفون ذلك اوقاتاً ، ويشعر ان بين الوقت والآخر اخطاراً تحيق به ، وتهاجمه ، فيحزن اولا لتأخير وصوله ونواله ، واخيراً لان الاخطار تداهمه ، »

وقد عبّر ابن سينا عن هذه الحالة بقوله : « ثم انه إذا بلغت به (العارف) الارادة حداً ما ، عنّت له خلسات — من اطلاع نور الحق — لذيذة كأنها بروق تومض ، ثم تخمد عنه ، وهو المسمى عندهم اوقاتاً ، وكل وقت يكتنفه وجدان ، وحد اليه ، ووجد عليه ، ثم انه ليكثر هذه الغواشي اذا امعن في الارتياض »

والحد الثاني — يقول ابن العبري — الهبوط الى بحر الرياضة ، وكلما غاص في الاعماق ، كلما تكاثرت البروق امامه اشراقاً وتألقاً ، والحد الثالث اذا بلغه ، وهو ماض في رياضته الشاقة ، لاتختفي البروق اللامعة عنه ، حتى اذا تباطا في رياضته ، ولايغيب في سحب تلك البروق ، ليخلد فيها ، لان نور الازل يلده ولادة جديدة ، فلا يقلقه هم ، ولا يثنيه عن سيره عدو ، او مال او متاع ، فالحبيب كأنه قاب قوسين ، فيحث السير اليه ، يرى الحق في كل شيء »

والحد الرابع هام جداً لدى الفيلسوف ابن العبري ، فكأنه منتصف الطريق بين الشك واليقين ، او بين الجهاد والهدف ، بل انما يظهر الهدف الاسمى قريباً جداً من العارف المضني سيره ، الحثيث الطويل ، يقول : « والحد الرابع لا حدود لسطوعه ، فبروقه تلتمع وتلمع ، ولا تنقطع عن الاشراق ، فينوء العارف تحت اثقالها ، وربما يرجو احتجابها بعض اللحظات ليثوب قليلا الى رشده ، ففي سطوعها

المتألق قلق لسكينته ، واضطراب لهدوء نفسه ، وقد يصلي ليمنح من النعمة قبساً ضئيلا فقط ، ويعتقد ان ذلك يكفيه وان كان ضئيلا »

ويصف ابن سينا هذا الحد بما يأتي : « ولعله الى هذا الحد يستعلي عليه غواشيه ، ويزول هو عن سكنه ، فينتبه جليسه لاستيفازه عن قراره ، فاذا طالت على الرياضة ، لم يستفزه غاشية ، وهدى للتلبيس »

ويعود ابن العبري الى الحد الخامس حيث تقرب نهاية المطاف وتهدأ سورة الاضطراب ، ويلوح الهدوء لقلب العارف ، يقول : « وفي الحد الخامس يشعر كأنه ابل من مرض عضال ، فينتقل من الاضطراب الى الهدوء ، ومن القلق الى السكينة ، والاشعة التي اقلقت سكينة نفسه ، اصبحت مألوفة كأنها طبيعة جديدة لذيذة ، والالسنة النارية تتلاشى فيها قوة الاحراق ، فتصبح نوراً والبروق التي اومضت قبل قليل فاقلقت نفسه ، اصبحت لذة مألوفة ، فيغيب العارف في هذه اللحظات في فيض من نور ، وقد غشيته نعمة القدير ، يغذيه خبز الملائكة ، وترضعه العناية من ثدييها كالطفل وان كان شيخا ، فاذا فلم انقلبت بهجته حزنا وانتهى »

وبهذا المعنى قال ابن سينا : « ثم انه لتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينة فيصير المخطوف مالوفا ، والوميض شهاباً بيناً ، فاذا انقلب عنها انقلب حسران امفاً »

وفي الحد السادس ، يوشك ان يلمس النهاية بيديه ، فيستحيل العارف الى كائن جديد ، يقول الفيلسوف : « وفي الحد السادس يوشك ان يبلغ نهاية الشوط تستحيل صفحة النفس مرآة مجلوة صقيلة ، ترتسم عليها صورة ربه ، فاذا بلغت النفس هذا الحد ، تستمرىء اشعتها الساطعة ، وتماين لألاء سيناء مشرقاً عليها ، هنا يغشى العارف مبتهجاً فقد اصبح سعيداً » وقد اعتبر ابن سينا هذا الحد

(نيلا) قال : « فاذا عبر الرياضة الى النيل صار سره مرآة مجاوة ، محاذياً بها شطر الحق ، ودرب عليه اللذات العلى ، وفرح بنفسه لما بها من اثر الحق ، وكان له نظر الى الحق ، ونظر الى نفسه ، وكان بعد متردداً »

ان حالة التردد هذه عند ابن سينا ، في غمرة هذه الدرجة ، من الحد السادس ، هي حالة خطر مستطير على حد تعبير ابن العبري يقول : « في الحد خطر مستطير ، ومحاق لايطاق ، فكثيرون سقطوا كالبرق من تلك الذروات العاليات ، ومن ينجو مالم تعصمه النعمة ؟ فاذا ما ران الكيان الضعيف جلال النور وبهاءه ، وسطوعه والقه المشرق ، طارت نفسه شعاعاً ، فاذا غرب التوجد والتسبيح عن شفتيه هنا لحظة واحدة هبط الى اسفل الدركات » واهم سبب للسقوط هو الغرور بما يناله العارف ، فتلك النعمة ما لا قبل للنفوس الضعيفة من تحملها والاحتفاظ بها ، يقول الفيلسوف : « ان كثيرين في هذه الحالة المشرقة ركبهم الغرور ، وتملكهم العجب ، فسقطوا وكان سقوطهم عظيماً »

واذا نجا العارف من اخطار الحد السادس ، انتهى كل شيء ، خطوة واحدة واذا به في الدار الامينة ، يقول الفيلسوف : « يتعالى العارف الى الحد السابع ، الى ميناء الحياة ، الى الهدوء والراحة والامان ، هناك خاتمة الحدود ، ونهاية المطاف ، فيتوقف السير ، ولا سبيل بعد الا الى الاعتكاف العميق الخاشع في زاوية من زوايا الصومعة ، حيث تنقلب الصومعة الصغيرة المظلمة الى مشكاة النور ومصدر الضياء ، ولا قدم تتقدم بعد ، هذا شبراً واحداً ، هنا لايعود العارف يرى حتى ذاته ، وعينان لاتبصران الا مصدر النور الاحد ، الا بهاء ربه الساطع فيه ، وبالروح يتلقى اشعة الروح . . . . هناك تعانق النفس ربها ، حدود لايحصى لها عدد ، الستة الاولى منها ، كانت منطاقاً للحركة والسير ، والسابع ، هو حد الوصال ، وليس للواصلين ضرب واحد ، ولا للعارفين درجة واحدة ، فقد علمنا الرب (ان في بيت ابي منازل كثيرة)

هنا لا يمكن وصف حالات العارفين ، ولا ماخصهم بـه ربهم ، من النعم الغزيرة ، واللغة البشرية اضعف من ان تترجم ولو جزءا صغيرا من ذلك ، وكل ما امكنها قوله هو (ما لم تره عين ولم تسمع به اذن ولم يخطر على قلب بشر) ويسمي ابن سينا هذا الحد (الوصول) ويصفه بالكلمات التالية : « انه ليغيب (العارف) عن نفسه ، فيلحظ جناب القدس فقط ، وان لحظ نفسه ، فمن حيث هي لاحظة ، لا من حيث بزينتها ، وهناك يحق الوصول . »

ان كل ما ورد في هذه الفقرات الاخيرة مستمد اصله مما وجدناه في تماسيم الشيخ الفيلسوف مؤلف الأثر المنحول ايرثاوس ، فالحدود الخمسة الاولى ، وهي الخطوات التي يتخذها العقل في تصعادة الى الملأ الاعلى قد وجدناها واضحة في شروع العقل بتصعاده الى الخير الاسمى ، وتفجر الحب في اعماقه ، للاتحاد بالكائن الازلي ، واشراق النور عليه من لدن النزة الالهية ، هذه كلها اتخذها الفلاسفة مادة اولى لتنظيم هذه الحدود التي يتوقعها العقل حدا بعد حد حتى نهايتها (الفصلان ١ و ٢)

اما الحد السادس ، وهو حد التردد اومنطقة الخطر ؛ فتراه اكثر وضوحا مما مر بنا ، فقد سمعنا الفيلسوف صاحب اثر ايرثاوس : « واذا تصاعد العقل الى ذروة التشبه بالله ونال درجة الكمال ، ولم يحتفظ ، بيقظته الكبرى ؛ فانه لم يزل في خطر مستطير ، » ويمضي الشيخ بتعداد اسباب هـذا الخطر ونتائجه (الفصل ٣)

ويقول في محل اخر : « اني رأيت عقولا كثيرة صعدت حتى ذروة الصليب (صليب المجد) الا انها سقطت ، لان ثيابها كانت لم تزل قذرة (الفصل ٤) وهكذا في غمرة الوحي ، وفي حالة الوجد المقدس والعقل في اعلى الذروات من القداسة ، وقبل الاتحاد المطلق بالازلي الاحد ، تعرض لبعض العقول خاطرة

دنيوية ، فتسلبها كل ما نالته بعد جهاد شاق وتعب لا يوصف ، وتهدم كل ما شيدته في سنوات عديدة ، تهدمه في لحظة واحدة ، فتسقط تلك العقول الى احط الدركات ، وكأن اعمالها الفاضلة لم تكن ، الى ان يقول الشيخ : « اني رايت اناسا كثيرين سقطوا بغتة ، لانهم كشفوا الاسرار الالهية ، وشاهدت مع ربنا الشيطان ومن شابهه يسقطون كالبرق من السماء (الفصل ١١) وفي تعليم فلاسفتنا « وخاصة ابن العبري » (الحد السابع) اوحد الوصول ، بحسب تعبير ابن سينا ، وهو الحد الذي يتعالى فيه العارف الى ميناء الحياة ، الى الهدوء والراحة والامان ، حيث يتوقف السير ولا سبيل بعد الا الى الاعتكاف العميق الخاشع في زاوية من زوايا الصومعة ، حيث تنقلب الصومعة الصغيرة المظلمة الى مشكاة النور ومصدر الضياء .

وبهذا المعنى نفسه نسمع الشيخ الفيلسوف (مؤلف اير ثاوس) يقول لتلميذه « اما انت يا بني ، فأدخل مخدعك واغلق بابك . . . . . لا تبح بكلماتي هذه امام العقول غير الطاهرة . . . . لان الانسان الذي لاتعي نفسه معاني الروح يزدريها . » (الفصل ٥)

وبشأن الواصلين الذين ذكر العلامة ابن العبري انهم ليسوا ضربا واحد ، والكاملين الذين يمتاز بعضهم عن بعض موردا قول الرب (في بيت ابي منازل كثيرة) يقول الشيخ الفيلسوف : « ان جواهر العقول تمتاز بعضها عن بعض سموا وكمالاً ، وطبقا لسمو جوهرها يكون تألقها كثيراً او قليلاً ، بالنسبة الى ما يجاورها من العقول . » (الفصل ٨)

وفي حالات العارفين وما خصهم به ربهم من النعم الغزيرة التي لا ينطق بها على حد تعبير ابن العبري ، يقول الشيخ : «فأية تماجيد تليق الآن بمخادعنا ؟ امن الطبيعة ام مما يفوق الطبيعة ؟ اما انا فأقول ، ان ما يفوق كل نطق وتفكير ، يجب ان يؤدي بدون نطق اوتفكير ، الى ان يقول : « لا

لا . لقد عرف الامر ، هنا الصمت المطلق ، هنا الارتاج العميق ، امام الاسرار السامية ، التي تتلاشى تجاهها الحواس وتزول الاشكال ، الصمت العميق في لحظات الوحي التي هي الكمال الابدي » ، امام الخير الأزلي المطلق » (الفصل ١٠) .

وللعارف اوصاف عجيبة بعد وصوله الى درجة الاتحاد ، قال ابن سينا : « العارف هش بش بسام ، يبجل الصغير من تواضعه ويبجل الكبير ، وينبسط مع الخامل مثلما ينبسط مع النبيه ، وكيف لا يهش ، وهو فرحان بالحق ، وبكل شيء ، فانه يرى فيه الحق ؛ ؛ وكيف لا يستوي والجميع عنده سواسية ؟ اهل الرحمة قد شغلوا بالباطل » الى ان يقول « العارف له احوال لا يحتمل فيها الهمس من الحفيف ، فضلاً عن سائر الشواغل الخالجة . »

والعارف (عند ابن العبري) مبتهج فرحان بالحق ، وديع هادئ متواضع ، يبجل الصغير كما يبجل الكبير ويتساوى لديه كل الناس ، وله لحظات عجيبة إذ استغرق بوصال ربه ، يقلقه ويشقيه حتى همس الحفيف ، كما تقلق الحاظه من النظر الى الحياة الدنيا ، يعانق ربه عناق طويل لا يلذ ، فينظر الى هذه الدنيا بعين الازدراء . »

ان اوصاف الكاملين لدى الشيخ الفيلسوف مؤلف اثر ايرثاوس ، عجيبة حقاً وعنها قد اخذ الفلاسفة الاوصاف التي مررنا الآن على بعضها ، فعنده ، ان العقل (وهو يمثل العارف) بعد انتصاره في جميع المعارك الروحية ، يأخذ في الأرتفاع والتسامي متنقلاً من هذه الدنيا الفانية الى الدنيا الجديدة الباقية ، وينتقل من حالة الى حالة ومن قوة الى قوة ، حتى يبلغ الذروة العليا حيث قدس الاقداس الاسمى مستعداً للدخول ، وهنا برهة عجيبة عذبة لا تستطيع الالسنة البشرية الاحاطة بها (الفصل ١٧) وبعد انتظار مؤلم امام باب قدس الاقداس لحظات ، يحسبها العقل اعواما واجيالاً يتخذ من قداسته اجنحة نورانية قوية يبلغ بها الى اعلى طبقات التصعاد والمفارقة ، فيدخل خالداً في قدس الأقداس الأسمى (الفصل ١٨)

إلا ان مثل هذه الحال العجيبة نادرة الحصول ، قال ابن سينا :

« جل جناب الحق عن ان يكون شريعة لكل وارد ، او يطلع عليه الا واحد بعد واحد[1] ، فمن سمعه فاشمأز منه فليتهم نفسه ، لعلها لا تناسبه ، وكلٌ ميسر لما خلق » .

ويقول ابن العبري في هذا المضمار : « والذين يبلغون هذه الحالة قليلون ، بل هم اقل من القليل ، ولا يحدث ذلك الا نادراً ، في كل عدة اجيال » ويعود الى نفسه فيقول : « اما انا فقد امضيت معظم ايامي متغرباً ، براً وبحراً ، وقد قاربت الخمسين من عمري ، ولم الق من اصاب ذلك العرفان ، او قدم لي زهرة من تلك الجنان » [2]

ولفيلسوفنا رائعة اخرى في موضوع التصوف ، هي قصيدته الفريدة (الحب الالهي) اتخذ فيها الخمرة مادة رمزية لهذا الحب ، وراح ينتقي لها الاوصاف الشعرية المبتكرة ، فاق فيها كل ماورد في هذا المعنى ، وفي مطلعها يستسقي (جميله) منها ، فقد دنا الصباح (صباح البهجة ونهاية الجهاد وانقضاء ليل العذاب والالام) التي يقاسيها العارف قبل بلوغه هذا الاوج من التصاعد الروحي . يقول :

« قم فاسقني ايها الجميل فقد دنا الصباح ، رشفة خمر من تلك الجرة الشيخة العذراء ، انها تبدد غيوم الكروب ، وتوشح ظلام ليل الآلام نوراً » وقد تصور هنا ليالي الجهد الروحي حيث يستغرق العارف صياماً وقياماً ، في الصومعة متطلعاً بفارغ الصبر الى هذا الصباح الجميل الذي تنتهي فيه آلامه ويصل جهاده الى هدفه المنشود ، وهنا اشارة الى حالته الروحية اذا شرب ولو رشفة واحده من حب ربه تولد فيه ذلك الشعور العذب بانقضاء ليله وانبلاج صباحه .

---

(١) كل ما ورد من اقوال ابن سينا ، اخذت من كتابه . الاشارات والتنبيهات . طبعة الاب ب . ج فورجيت — ليدن ١٨٩٢ من ص ٩٤ — ١٢٤

(٢) ديوان ابن العبري . القدس ص ١٢٨ — ١٥٤

فمن اين هذه الخمرة ومتى انسكبت في كؤوس الحياة ؟ يقول الشاعر : « انها لاقدم كثيراً من قدم الزمان ، وهي كائنة قبل ان يكون صبح او مساء ، لا يطالها عقل ولا فكر ، ويعجز عن وصفها لسان البليغ ، ومن حاول ذلك اعياه الكلام »

اين كانت هذه الخمرة ، وبما سكبت ؟ ؟ واي كرم حواها او أي عنقود ثواها ؟ ؟ ؟ يقول الشاعر : « لم تسكب في دن هذه الغبراء ، والفخار غريبان عنها ، ليست من الكرم ، ولم تمسها يد الكرام ، وليس عنقود العنب اباها وليست بنته »

اذن ماذا ؟ هل يتوق الناس الى شربها ؟ ؟ وهل يغرق الناس في شربها كما يغرقون في شرب خمور هذه الحياة ؟ ومن في هذا العالم يستهين بقيمة الحب الالهي ؟ يقول : « ليس عجيباً ان ينكر الجاهل نكهتها ، لانه لم يذقها » فالجهال اذن ، ينكرون قوتها ، والحكماء وحدهم يقبلون عليها ، وقد عبر عن فعلها فيهم قال :

« منها شرب موسى في جبل سيناء ، فسطع محياه اكثر من الشمس والقمر ، وهي جعلت الحديد ان يطوف بقرب الشاطىء ، وغطس الخشب في الاعماق » « ومنها سقى ابن النجار يوماً ندمانه ، فشربوا وثملوا واعلنوها حرباً على الشر » واذا فارقت يوماً احد المدمنين عليها فانه يفقد كل شيىء في حياته ، يقول : فارقت يوماً قلب كيفا (بطرس) لحظة واحدة ، فشرع يغرق كالجلمود في لجج البحر الهائجة »

وما لون هذه الخمرة ؟ يقول الشاعر : « صافية شفافة ، بل هي ارق من الهواء والنار ، واذا سكبت لاتلمحها الباصرة » اما مفعولها في شاربها فانه يتوشح حلة المجد الخالد ، ويبرع جمالا وجلالا ، وينال قوة ومنعة واملا باسماً ، ويتسامى فوق الشكوك والريب ، ويرى الحق واضحاً متلالئاً ، ويناجيه وجهاً لوجه « ويتعالى الى قدس الاقداس الرفيع ، ويبصر ما وراء الحجاب ، ويسمع ايات الله البينات »

واذا شرب منها فتى من النساك ، يثمل ويزدري السهام ، يتسامى عن المادة ، ولا يهادن الجسد ، ويعلن حرباً عواناً ضد اهوائه وشهواته اما الجسد

فانه بشربها « يتخذ له اجنحة فيطير وينجو من بؤرة هذا العالم ، تخمد قواه المنحرفة ، وتموت ، وينتصر على نزواته كلها ، ويخضد شوكة الحسد والحقد والبغضاء ويخضعها لقواه العاقلة ، وتتسامى نفسه العاقلة فوق الحس والخيال ، وتذرى اوضارها في الرياح العاصفة . »

ان لهذه الخمرة قوة عظيمة ، فهي « لاتزول بل تصونها العناية للخلود ، تنجلي فيها الأسرار الخفية ، وإذا العين تطلعت عليها يوما بهرها منها السطوع واعياها ، وإذا اصاب منها البليد رشفة ارتفع الى مصاف الحكماء . »

إذن ما هي هذه الخمرة ؟ ؟ يقول : « ليست مادة ؛ فلا حاجة بها للمكان وليست عرضاً ، فلا حاجة بها الى جوهر لتقوم فيه ، ان كيانها لكامل لا نقص فيه ، إنها كالعلة الكاملة ، هي أزلية واقدم من هذه الحياة . »

واين نبتت دواليها ، واين عصرت اعنابها ؟ « إن غصنها قد افرع قبل وجود الارض ؛ وجذعها تسامى قبل ان يخلق الباري الكروم ، هي كانت قبل ان تكون المعصرة ؛ تألق حبابها قبل ان يكون الضياء . »

واية لذة يصيب شاربها ، وهل هناك لذة تدانيها ؟ ؟ يقول : « اذا كان ذكرها كافيا ليبهج القلب الكئيب ، وعبيرها يحيل مرائر الحياة الى عذوبة وحلاوة فكم تكون اللذة عظيمة في شربها ؟ فما اسعد الرجل الذي اصاب منها رشفة اما الذي يصيب منها : « تحيطه نعمة الباري احاطة السور الحصين ، فلا يداهمه السقم ، ومن غرس في قلبه غصنها فانه يورق مثل شجرة مغروسة على مجاري المياه ؛ ويبلغ اليقظة الكبرى مثل سكان السماء ، ولن تثور فيه بعد خاطرة رعناء . »

والشاعر تذوق عذوبتها يوماً ، ولم يزل ثملاً (١) ، قال : « انا شربناها على

- ١ - الفكرة مستمدة من قول الشاعر (شربنا على ذكر الحبيب مدامة الخ)

ذكر الحبيب الجميل ، وسكرنا فترنحنـــا على المرج الخضيل ، لم تكن كأسنا من البلور ، بل كان كأساً لنا ، ولم تكن زجاجاً ليذيبها اللهيب »

هذا ما يمكن قوله في هذه الخريدة الرائعة ، وليست نهاية المطاف في موضوع التصوف او الروحانيـة لدى شـاعرنا ، ابن العبري ، بل هناك (ملحمته) الكبرى (الحكمة الالهية) وهي أروع ما كتب في الشعر الصوفي في تاريخ آدابنا الشرقيـة وكنا قد عربناها شعراً ، ونشرناها في مجلتنا (لسان المشرق) الصادرة في الموصل ، في عدد ممتاز سنة ١٩٥٠ ، واعادت نشرها مع نصها السرياني ادارة مدرسة الاحد في القامشلي — سوريا ، في العام الماضي (١٩٦٥) وفي هذه الملحمة الرائعة يبرز ابتكاراته الروحيـة الفلسفية الخاصة ، في هـذا الموضوع الجليل ، ومن رغب في تتبع فيلسوفنا في هذا المضمار ، فليعد الى تلك الملحمة الخالدة .

٧ - تأثير ايرثاوس في الصوفية الشرقية

لم يذكر احد من مؤرخي الآداب السريانية او الغربية ان الاثر المنحول ايرثاوس ترجم الى العربية ومع ذلك نجد اسلوبه الصوفي وافكاره الروحيـة تتخذ طريقها الى الكاتب الشرقي السرياني والعربي على السواء ، فيتأثر بهـا الفلاسفة في مضمار الصوفية ، دون الاشارة الصريحة الى مصدر هذه الافكار لا من قريب ولا من بعيد ، على اننا متأكدون ان هذه الافكار انتشرت في الشرق انتشاراً واسعاً بدليل وجود عناصرها بعينها لدى جميع الفلاسفة الشرقيين الذين طاب لهم اتخـــاذ التفكير الروحي صفـة بارزة لفلسفتهم ، ففي فلسفة ابن سينا ، وفي اختبارات الغزالي الصوفية نجد عناصر الاثر المنحول ايرثاوس ، تنبض بالقوة والحياة ، متخذة لهـــا لدى هذين الفيلسوفين وغيرهما من الفلاسفة الشرقيين طرقاً جديدة واساليب جديدة طبقاً لما كانت تقتضيه ظروفهم المبدئية وعقيدتهم الروحية ، الا انهم لم يأتوا بجديـــد في هذا المضمار مطلقاً ، كما ان الفلاسفـــة السريان في القرن الثالث عشر امثال البطريرك ابن المعدني « ١٢٦٣ م » والمفريان ابن العبري « ١٢٨٦ م » نهجوا النهج ذاته ،

متخذين هذه المبادىء مجالا لتفكيرهم واساساً لتعاليمهم ، ونحن اذا وجدنا عناصر التفكير الروحي الصوفي الذي ابرزه الفيلسوفان ابن سينا والغزالي في تعاليم الفيلسوفين ابن المعدني وابن العبري ، انما يعود ذلك لا الى هذين الفيلسوفين وحدهما بل ينحدر الى اعمق من ذلك بكثير ، الى الاراء التي وجدناها متجلية في الاثر الصوفي المنحول ايرثاوس ، فيكون هذا الاثر والحالة هذه المنطلق الاول للفلسفة الصوفية في الشرق ، والاساس الوحيد الذي عليه اقام فلاسفتنا صروح فلسفتهم الروحية .

ان المتتبع الذي يمر بمبادىء الفلسفة الصوفية الواضحة في هذا الاثر ، اذا طبق هذه المبادىء على ما جاء به الفلاسفة الشرقيون خطوة فخطوة ، يجد تناغماً كاملا واتفاقاً صريحاً الامر الذي يؤيد ان هؤلاء الفلاسفة انما اعتمدوا على تلك المبادىء وربما طوروا التعبير فيها ، دون ان يطوروا الفكرة الاساسية ، ولانجد مجالا في مقدمتنا هذه لايراد عرض كامل لما نحن بصدده ، الا ان النقاط التي سجلناها عند بحثنا مبادىء هذا الاثر تؤيد نظريتنا هذه ابلغ التأييد ، واذا اشرنا الى اتفاق اثنين من فلاسفتنا السريان والمبادىء الصوفية التي سجلها فلاسفتنا العرب ، وخاصة ابن سينا والغزالي ، انما نفعل ذلك اعتماداً على ما تأكد من أن اولئك الفلاسفة اعتمدوا في بحوثهم الفلسفية هذه ، على المبادىء الاساسية التي انتشرت في الشرق ابان القرن التاسع الميلادي ، سواء من هذا الاثر او من غيره مما ترجم الى العربية عن طريق السريانية ، مع الاقرار بان هذا الاثر المنحول ايرثاوس هو في الذروة بالنسبة الى امداد فلسفتنا الروحية بالمبادىء الصوفية الصرفة ، الامر الذي يؤكد ان الاداب السريانية كانت ذات تأثير عظيم بارز في سائر ادابنا الشرقية .



مقدمة المؤلف

إن المعرفة التي تقع تحت ادراكنا ، يمكننا ، اما معرفتها فقط ، كادراكنا ان الله واحد ، وان العالم حادث ، واما بالاضافة الى مجرد معرفتها معرفة مفاعيلها ايضاً ، كادراكنا ، اذا شف الجسد ضاءت النفس ، واذا بطر اظلمت .

والمعرفة الاولى تدعى نظرية ، والثانية تدعى تجريبية او عملية .

والمعرفة الاولى تتوخى الفصل بين الحق والباطل ، والثانية تستهدف التمييز بين الخير والشر .

وهدفنا هنا ، هو الناحية العملية من المعرفـة ، وهـذه اما جسدية ، واما نفسية ، والمعرفة الجسدية هدفهـا ترويض الجسد ، وتمرينه ، والبحث في الاسباب الضرورية لتقويمه ، والمعرفـة النفسية ، هدفهـا تنقية النفس من الميول المنحرفة ، والاهواء الشاذة ، وتجميلها بانواع الفضائل .

وبناء على ذلك كله ، من العدل ان يكسر كتابنا (الايثيقون) هذا ، الى اربع مقـالات :

المقالة الاولى — ترويض الجسد وتنظيم حركات تمرينه

المقالة الثانية — تقويم الجسد وترتيب اعماله

المقالة الثالثة — تنقية النفس من الميول الشاذة

المقالة الرابعة — تجميل النفس بأنواع الفضائل

المقالة الاولى
تروبض الجسد وتنظيم حركات تمرينه
وفيه تسعة ابواب

الباب الاول

الصلاة
وفيه تسعة فصول

الفصل الأول

اقوال الاباء في فضيلة الصلاة

يروى ان الاب سوسايس ، لدى قيامه بالصلاة ، كان يخطف عقله الى الملأ الاعلى ، لو لم يكن يخفض يديه ، وكان اذا فاجأه احد الاخوة — وهو يصلي — يخفضها لئلا يخطف عقله ويكفهر .

قال احد الشيوخ : اني لا أشعر بجهد في الصلاة ، فليست الصلاة نابعة عن ارادتي ، بل اصيخ الى الروح ينطق فيّ ، وهذا هو معنى قول الكتاب (الروح يصلي من أجلنا) .

كان الاب ثيودور يقول : لو حاسبنا الله على توانينا في الصلاة ، وتشوشنا في العبادة ، لما استطعنا الثبات .

وقال الاب اوغريس : ليست لدينا اوامر مشددة بمواصلة الكدح والدأب في العمل والقيام ، والصيام ، بل لدينا شرعة تدفع عقلنا للاستمرار بالصلاة مقاومة للعدو .

وقال مار اسحق : ان كل صلاة وعبادة وفضيلة يقوم بها البشر في هذا العالم ، إما ابتغاء الخيرات الزمنية هنا ، او خوفاً من العقاب في جهنم ، او طلباً للنعيم المعد للصالحين في العالم الآتي ، أما النساك الحقيقيون ، فانهم يفعلون ذلك للتحرر من الأهواء والتوصل الى نعمة التبرير والتقديس بكلمة الله ، ونوال موهبة الروح بتفهم .

الفصل الثاني

جمع العقل ابان الصلاة

إذا كانت الصلاة مناجاة الله ، على حد تعبير الآباء ، فانها تتطلب استقامة العقل ، وقدرته على النزوع الى ربه بدون انحراف ، فيناجيه بدون وسيط ، وإذا كان موسى (على حد تعبير الأب اوغريس) مُنع من الاقتراب من العوسجة الارضية ، حتى خلع نعليه من رجليه ، فكيف تريد انت مناجاة من هو اسمى عن كل حس وشعور ما لم تخلع عنك كل فكرة مظلمة ؟ . . إلا ان جمع العقل من الشرود ليس بالأمر الهيّن ، او ما يأتي صدفة ، بل جهداً شاقاً وعملاً روحياً متواصلاً ، وتمرداً على المادة (على حد تعبير الأب اوغريس) لا يستطيع الانسان تعلم حرفة إلا بمرور الزمن على مزاولتها ، هكذا لا يستطيع الانسان اتقان الصلاة ، ما لم يستمر متعلقاً بالله بقلب خاشع . وقال الأب مقاريس ؛ ان لم تستقم لك الصلاة بالروح فواظب على الصلاة بالجسد وعندئذ تمنح لك الصلاه بالروح . ومن الاختبار عرف المواظبون ان في البداية وان كان جمع العقل صعباً ، ولكن مع الاستمرار والترويض التام يجتمع العقل بسهولة ويحصر في خزانة القلب ، وخاصة إذا استطاع تذوق عذوبة الصلاة ولو قليلاً ، وحينئذ يتسامى عن كل ما الارض والسماء ويتعلق بربه ويغرق في مناجاته ، كما حدثنا شيخ من الكاملين قال : كلما وقفت للصلاه لا اقطع الا مرحلة واحدة حتى يكفهر عقلي ويخطف الى الله ، فأستمر على هذه الحالة ثلاثة ايام دون ان اشعر باعياء .

الفصل الثالث

شرود الافكار وشفاؤه

لشرود الافـكار نوعـان من الاسبـاب ، الاول خارجي والثـاني باطني .

الاسبـاب الخـارجية هي الاصوات التي تطارق سمع المبتدىء ، والمنـاظـر التي تمـر امام بصره ، فـان هذه تخطف الافـكار خطفاً ، وهذه الافـكار تخطف غيرها ، وهكذا يحدث الشرود ، لذلك يجب على المبتدىء ان يكبح جماح حواسه ؛ وخاصة اذا كان يصلي مـع الجماعة ، او في هيكل مكتظ بالصور والاحسن ان يصلي اما في زاوية مظلمة او الى جانب جدار ،فحتى (العارفون) (*) يصلون في كوخ مظـلم ضيق في بادىء الأمر ، وهكذا بالترويض والخبرة الطويلة يرتفعون الى الدرجة التي تمكنهم من الصلاة مـع الجماعة ، فـلا يشعرون حينئذ من هو عن يمينهم او عن شمالهـم ، وكثيرون من الفضلاء لا يحصرون افـكارهم ابان الصلاة فحسب بل في جميـع اعمالهـم .

قيل ان الأخ زكريا كان ساكناً في جبل سيناء فقال له الأب سيلونا : افتح الماء ودعه يجري واسق الجنينة ، فخرج حالاً ، وغطى وجهه بقبعته ، وكان ينظر فقط الى قدميه ، فرآه احد الأخوة عن بعد ، وتقدم منه وسأله : لماذا غطيت وجهك بقبعتك وسقيت الجنينة ؟ ؟ قال : اني عملت ذلك ، ياأخي ، لئلا تنظر عيناي الاشجار فيتيه تفكيري في عمله ويغيب بين الاشجار ، وهـذه هي الاسبـاب الخـارجية .

اما الاسبـاب الباطنية فهي اكثر عنفاً واعظم تأثيراً ، فـان الذي يشرد فكره في وديان العالم ووهاده ، لا يمكنه حصرها في موضوع معين بـل تبقى شاردة هنا وهناك ، فلا يفيد شيئاً باغماض حواسه ، ومثل هـذا يجب عليه التغلب على افـكاره كرهـاً وعنوة فيجذبها لتفهم كلـمات الصلاة ، ويسبق

★ العارفون من عرفوا ربهم بالزهد والعبادة ونالوا درجة الكمال .

فيخلي قلبه من كل فكرة دنيوية ، وان عجز فلا ينجو ، الا باستعمال دواء اكثر عنفاً واشد قوة ، كالزهد الحقيقي ، وقـد شبه الحكماء الافكار بالذباب والاهواء بالاقذار ، ومن البديهي ان الذباب يجثم على الاقذار ، وكلما طردته عاد ايضاً ، حتى وان ضايقته كثيراً فذلك لايثنيه . ومثله الافكار المتعلقة بالاهواء الدنيوية والمشغوفة بها ، وخلاصة القول ، ان إرادتي النفس والجسد تشبهان الماء اذا سكب في قارورة مليئة بالزيت ، ومن البديهي ان القارورة تقذف من الزيت بقدر ما يأتيها من الماء اذ لايمكن ان يختلطا او يمتزجا فيها سوية ، . وبما ان الزهد — وهو الدواء الشافي لهذا الداء — مرّ مذاقه ، وعنيف ينفر منه الطبع البشري ، وهذا هو السبب في تفشي هذا الداء في عامة الناس وتعذر شفاؤه ، حتى انه ليس فقط المدعوون بل المختارون ايضاً يقاسون اعظم جهاد الصلاة ، وهم بالكاد يقوون على تأدية صلاة طاهرة قصيرة جداً ، ومقتضبة ، . فاذا كان المختارون هـذه حالهم فكم بالاحرى نحن الضعفاء ؟ ؟ ان ذلك صعب حقاً علينا وعلى امثالنا ، فيكفينا فقط ان نركع ركعة واحدة وفكرنا نقي وعقلنا مستقر في اعماق قلبنا . ، وعليه ينصحنا الاباء بقولهم : لايجب ان نصلي حتى نجمع افكارنا من الشرود ، والا لاشبهنا الذين يطلبون الكمال قبل العمل ، غير اننا لايجب ان نهمل الصلاة رغماً عن كل ذلك ، فاذا كانت افكارنا مشردة او اصابتنا المصائب والمحن والامراض ، فيجب ان نقدمها جميعاً لله في الصلاة ، ليبلغنا بنعمته ميناء الحياة .

الفصل الرابع

الاعمال التي بها تكتمل الصلاة

ان الاعمال التي بها تكمل الصلاة هي :

الاول — والاعظم اهمية — نقاء الافكار ، وقال فيها مار اسحق : ان الصلاة الطاهرة ، الكاملة ليست فقط الصلاة التي تؤدى بعقل صاف ، بل هي التي تؤدى وليس العقل فقط بعيداً عن تذكر الاباطيل ، بل لامحل للاباطيل في

ذلك العقل ليتشوش بها . وقال ايضاً : ان الذكريات النافعة الصادرة عن الكتب المقدسة الروحية والمعاني الدالة على مجد الله وعظمته والتي قد تجول في خواطرنا اثناء الصلاة ، لا يجب ان نحسبها معيقة لنقاء الصلاة او معطلة لها او عائقاً لجم الافكار .

الثاني — تفهم الجمل التي تلفظ في الصلاة ، من لايعرف ماذا يقول فخير له ان يصمت .

الثالث — شعور النفس بعظمة الرب ، وتعرف الحكمة سببين لذلك (الاول) ان يفكر الانسان بعظمة الله وهو ماثل أمامه في الصلاة و (الثاني) ان يفهم ضعف طبيعة الانسان المصلي ، وعندما كان احد الشيوخ الفضلاء يتأمل بهذين الامرين كان يقول امام الله في صلاته سراً : كيف اتأملك ياربي وانت تعلم اني بهيم ولا أعرف شيئاً ، فانت اتيت بي الى هذا الوجود فخلصني من اجل رحمتك ، اني عبد وابن آمة ، ورماد وتراب . وبهذين الامرين نطقت والدة الاله ونفسها تعظم الرب القدير القدوس اسمه الذي نظر الى تواضع آمته .

الرابع — الخشوع النابع عن المعرفة ، معرفة عظمة الله وجبروته ، وقد قال الاب اوغريس : ان الصلاة حقاً باطلة وبدون فائدة اذا ناجت الله بدون خشوع وورع ونقاء ويقظة ، وبسبب ذلك يوسوس لنا الابالسة ويحملون العقل ان يبقى خالياً ومعطلا عن فائدة الصلاة الى الرب .

الخامس — الخجل الذي يعتري الانسان بتذكر معاصيه وخطاياه ، وهكذا يدعوا خجلا ويقول : انني اخطأت بالسماء وامامك ولا استحق ان ادعى لك ابنا الخ .

السادس — الرجاء ، وسببه معرفة عطف الله وشموله كل كائن ، واذا نما الرجاء يولد في النفس فرحاً لايوصف .

الفصل الخامس

الفرح الذي يطرأ على الكاملين في الصلاة

يحدثنا العارفون عن الفرح الذي تثيره النعمة في القلب الطاهر ابان الصلاة وما يلازمه من الرؤى والمواهب العظيمة ، يقولون : ان الانسان لا يمكنه وصفه ، فتجد احياناً الفرح يتفجر من القلب بدون سبب واضح يثيره الروح ، فيرتمي ذلك الانسان مصعوقاً ، فاذا رأى العارف ذلك الناسك الكامل او يسمع صوته يخاله ممسوسا ، واحياناً يرتمي الناسك جاثياً على ركبتيه اثناء الصلاة ، ويداه ممدوتان الى السماء وعيناه تتفرسان بالصليب وكل عواطفه متصلة بالله وهو يصلي ، فيشعر في تلك اللاحظة ان لذة روحية لاتوصف تتفجر في قلبه ، فترتعش جوارحه ، وتغمض عيناه ، ويلتصق وجهه بالارض ، وتزدحم افكاره ، ولا تستطيع ركبتاه الوقوف على الارض ، تجاه تيار النعمة التي غشت قلبه . . . تأمل ايها الانسان بما تقرأ ايمكن ادراك هذه الحال بمجرد قراءة هذه الكلمات ؟ وهل بمجرد القراءة تصل حلاوة العسل الى فم القارىء ؟ فاذا لم تجاهد لن تجد ، وان لم تقرع بحرارة وتسهر امام الباب طويلاً لن تجاب ، وقد قال الشيخ الفاضل يوحنا ابو الدوالي : من رغب في تدوق عذوبة المسيح فليجهد نفسه بممارسة الصلاة ، فانها تقرب الى الله اكثر من جميع الاعمال ، ففيها يتحد العقل بالله ، ويصبح شبيهاً بخالقه ، ومقراً لمواهبه ، وينبوعاً لأسراره ، وبها (الصلاة) يفتح كنوز الله لانه يصبح قهرمانه وموزع نفائسه ، وبها يستحق رؤية مجده ، والتغلغل في اشعة نور معرفته ، والخلود في سحائب الروح حيث يستولي عليه خشوع وسكون وفناء في اشعة النور المشرقة ، وهذه هي حياة الروحانيين ولذتهم .

الفصل السادس

كيفية الصلاه العامة

كثيرون من البسطاء سواء من الرهبان او من العلمانيين لا يميزون بين الصلاة العامة الضرورية لجميع المؤمنين وبين الصلاة الفرضية التي تؤدى بالتراتيل والترانيم والمزامير والالحان ، لذلك يهملون الصلاة الضرورية (العامة) كأنها امر تافه ، ويعرضون الصلاة الفرضية بحجة انها طويلة ومملة ، وهكذا يقضون معظم حياتهم بدون صلاة ، ويعيشون كالبهائم التي لا تعرف الصلاة .

وبما ان هذه الصلاة ليست بهذه الصعوبة ,لا حاجة ان تؤدى بتزويق الكلمات والتفنن بالالحان ، بل يمكن تأديتها ببساطة وسهولة ، ولا حجة للجاهل الذي يهملها ، وتؤدى على النحو التالي :

يقف المصلي مكتف اليدين متجهاً نحـــو المشرق ؛ جامعاً افكاره من المشاغل الدنيوية بقدر الامكان قائلاً : قدوس قدوس قدوس الرب القوي . ويحني رأسه وعنقه وظهره . ثم ينتصب ويرسم اشارة الصليب على وجهه ، اعتباراً من بين عينيه الى صدره ، ومن الكتف الايسر الى الكتف الايمن ، ويردف : السماء والارض مملوءتان من مجدك ، المجد في الاعالي « ويحني ثانية ويرسم اشارة الصليب على وجهه قائلا : مبارك الذي أتى ، والآتي باسم الرب ، المجـــد في الاعالي » وينحني ثالثة ويرسم اشارة الصليب على وجهه قائلا : قدوس انت ياالله الخ » ويركع ثلاث مرات بحيث يصل رأسه الى الارض ، وكلما انتصب ورسم اشارة الصليب على وجهه كالسابق مكرراً قوله : (قدوس انت ياالله الخ) ثم ينتصب مردفاً (يارب أرحمني ، يارب اشفق علي وأرحمني ، المجد لك يارب ، المجد لك يارب ، المجد لك يارجاءنا الى الابد) وينحني انحناءة واحدة بدون ركوع وعندما ينتصب يتلو الصلاة الربانية (ابانا الذي في السموات الخ) وعند نهايتها

ينحني ثانية طالباً الى الله حاجته شريطة ان تكون صالحة لينالها . وهكذا تختتم الصلاة العامة للمؤمنين ، سواء اذا كانوا في البيت ام في الكنيسة او في الطريق او في رأس جبل أو في سفينة . وكل من كان صحيح الجسم ويمكنه تأديتها ولا يفعل يدن مع غير المؤمنين في يوم الدين ، ومن استطاع مضاعفة السجدات والانحناءات وفعل ، يضاعف له الله الثواب . واما الكهنة فيجب ان يؤدوا الصلاة الفرضية ثم هذه الصلاة .

الفصل السابع

ليست الصلاة الطاهرة بكلمات مصقولة

ان الكلمات المصقولة ليست فقط غير ممدوحة بل هي مرذولة وممقوته ، وقد علمتنا كلمة الله ذلك بقولها (واذا صليتم فلا تكثروا الكلام مثل الوثنيين فانهم يظنون انه بكثرة كلامهم يستجاب لهم ، فلا تتشبهوا بهم لان اباكم عالم بما تحتاجون اليه قبل ان تسألوه . مت ٦ : ٧ و ٨) ويقول الاباء العارفون : ان الصلاة الطاهرة انما هي تسبحة قلبية وتأمل بالله وانشغاف به « والذين هـذه صلاتهم هم الذين يسجدون لله بالروح والحق ، واياهم يحب الرب ، طبقاً لكلمة الحياة .

قال الفاضل اوغريس : اجتهد ان تجعل عقلك في الصلاة اصم لاينطق ، وهكذا يمكنك ان تصلي . وقال مار اسحق : الصلاة ليست فلسفة وتعابير بل هي قلب صاف ، وعقل متزن هادىء رائق متحرر من تأثيرات الحواس وحركاتها وقال ايضاً : الصلاة الطاهرة هي صفاء العقل ، نقاء القلب ، هدوء الافكار ، خمود المشاعر ، صورة العالم الجديد ، تعزية مستترة بمناجاة الله ، والعقل المشترك مع الله يجتلي اسراره وقال الفاضل ياونتي رئيس الدير : لاتتفلسف بكلماتك في الصلاة ، فان غنة الاطفال المترجرجة البسيطة مرات كثيرة سرت اباهم الذي في السماء وعليه فان الصلاة الحقة هي الصادرة بتعقل عن افكار طاهرة مقدسة ،

وقد حددها الطوباوي بولس بقوله ؟ : (اني اصلي بقلبي واصلي بضميري) ولذلك اذا رغب المصلي مضاعفة التقديسات الثلاثة يمكنه اضافة (يارب ارحمني) او مايشابهها فانه يصلي بالروح والحق . واذا اختتم الصلاة يمكنه ايضاً التأمل باقوال الاباء الملافنة وبعض الرجال الافاضل .

الفصل الثامن

اوقات الصلاة

في قوانين الرسل القديسين نجد ستة اوقات للصلاة ، فقد ورد في القانون المنسوب الى بولس قوله : ادِ الصلاة صباحاً لان الله قد اناره ، وفي الساعة الثالثة لان فيها حوكم الرب ، وفي السادسة لان فيها صلب ، وفي التاسعة لان الطبيعة فيها ارتجت كلها وتزعزعت ، وفي المساء من أجل راحة الليل ، وعند صياح الديك لانها الساعة التي ينتظر ان يأتي فيها الرب . والملافنة الثقات اضافوا عليها صلاة الستار (قبل النوم) لكي تكمل آية داود القائلة (سبع مرات سبحتك على احكامك العادلة) والنساك يضيفون صلاة ثامنة ، وقد دعوها صلاة الفجر ، وتؤدى في نهاية الساعة العاشرة من الليل (الفجر) .

ان ابناء العالم الذين تحول مهامهم دون تأدية الصلوات السبع في اوقاتها المعينة ، يجب ان يؤدوا الصلاة ثلاث مرات فقط ، كما صرح ايضاً قلب الله داود (اما أنا فادعو الله والله يخلصني ، مساءً وصباحاً وظهراً) وقد ذكر ان دانيال النبي كانت الكوة مفتوحة في حجرته نحو اورشليم وكان يركع على ركبتيه ويصلي ثلاث مرات في اليوم معترفاً لله ، وكان هذا ديدنه .

الفصل التاسع

الاحتفال بالقداس ليس من واجبات النساك

لانجد وصية في كتب الآباء تلزم المتوحدين النساك بالاحتفال بالقداس ، ولكننا نسمع انهم كانوا يتناولون الاسرار من قسيس الصوامع دون ان يصبح كل متوحد قسيساً لنفسه ؛ ولم يكن يتناول الاسرار بذاته ، ولا نجد في القوانين المجمعية الزاماً على المتوحد بالاحتفال بالقداس ، بل بالعكس نجد منعه من ذلك ، فقد قال المطران يعقوب الرهاوي في قوانينه : (لا يسوغ للنساك العموديين ان يحتفلوا بالقداس على عواميدهم) وقال ايضاً (لا يسوغ للحبساء ان يقدسوا إلا عند الضرورة) وعليه لايسوغ ان يوضع لدى العمودي على عموده القربان الاقدس اذا يوجد من يناوله اياه ، ومما يؤيد ذلك ان كلمات القداس نفسها لا تجيز الاحتفال بالقداس إلاّ في الكنيسة ، فيقول المقدس مثلاً (السلام لجميعكم « و » نعطي السلام بعضنا بعضاً « و » لك احنى عبيدك اعناقهم « و » وامضوا بالسلام ،) وغير ذلك ، مما لا يصح قوله إلا أمام الجماعة .

ان في زماننا كثيرين من المتوحدين يهملون الأعمال الواجبة لنسكهم ؛ فما بالهم يقحمون نفوسهم بالقداس ؟ فان واجبهم هو فقط العبادة الفردية من اجل نفوسهم وليس من أجل العالم ولست اعلم سبباً لذلك غير فضول منحرف لعدم وجود مرشد حازم قولاً وفعلاً ، ولو كان التقديس دالاً على التوبة لما منعته القوانين الكنسية على الكهنة ايام الصيام الأربعيني عدا السبوت والآحاد ، وخلاصة القول ان القداس هو (فصح) أو (وليمة فرح) والذين يفرحون ويبتهجون هم وحدهم (يفصحون) وليس ذلك للأبيلين والحزانى والمتألمين المنتظرين ارض الميعاد أي ملكوت السماء ، والأصلح في هذا الباب هو ان يتناول الرهبان الذين في الدير الأسرار من مذبح الدير ، واما المتوحدون والحبساء فيجوز ان يخرجوا للتناول في الدير كل يوم احد ، وان لم يستطيعوا الخروج فالقسيس المقدس يقدم لهم كما صرّح الرهاوي نفسه ، وبقية الآباء القديسين .

الباب الثاني

اعمال النسك

وفيه عشرة فصول

الفصل الاول

كلام الآباء في فضيلة الاعمال

قال الأب فننوطيس : كما ان الحكام يقتلون الأشرار ، كذلك الاعمال تقتل الشهوات المنحرفة ، وكما يهرب العبيد الأشرار من مواليهم ، هكذا تهرب الشهوات من الجهد في العمل ، ومن الجهد تصدر الخيرات كما تصدر الشرور عن البطر .

سأل احد الاخوة الأب فومان قال : ماذا أفعل لثقل الكسل المستولي عليّ ؟ اجاب الشيخ : للسفن الصغيرة والكبيرة مجاديف ؛ فاذا لم تهب الريح المطلوبة لتسيير السفينة ، فان الملاحين يدفعونها بصدورهم ويوصلونها الى البر ، او يدعونها تسير بهدوء تدريجي حتى يقض الله لها الريح اللازمة لدفعها الى حيث يريدون .

وعندما شعر الأب انطونيوس بالسأم في البرية صلى الى الله وقال : ياربي اريد ان احيا وافكاري تمنعني ، فماذا افعل في ضيقي ؟ وكيف انجو ؟ فتراءى له ملاك يشبهه وهو جالس ينسج حصيرة ، ووقف الملاك وصلى ، ثم جلس واستأنف العمل ؛ ثم قام وصلى ، وسمعه اخيراً يقول له : ياأنطونيوس افعل هكذا فتحيا .

قال احد الاخوة للأب ثيودور الفرمي : مرت عليّ ثماني سنوات في الزهد ولم اجد راحة واحدة ، افتريد انت الراحة بثماني سنوات ؟

قال الأب ارسانيوس : اللبنة الرطبة اذا وضعت في اساس الى جانب نهر جار ، فلن تقاوم ساعة واحدة ، فاذا احرقت اصبحت مثل الحجرة .

خرج احد الاخوة من ديره متنزهـا ترويحاً عن النفس فلقيه شيخ وقال له : يابني ، لا تطلب راحة في هذا العالم ، بل عد وجاهد لئلا تغلب .

قال الاب ايسيدور : لما كنت صبياً لم يكن حد لاعمالي .

وقال الاب اوغريس : اذا كان الرسول بولس يقهر جسده ويذله ، فلا تهمل انت عملك ابداً .

وقال ايضاً : لاينبغي ان نستسلم للراحة حتى تهبط علينا قوة من الاعالي ، فتطهر قلبنا ، على حد قول النبي : لا اعطي نوماً لعيني ولا وسناً لاجفاني حتى اجد مكاناً للرب ومسكناً لاله يعقوب .

وقال مار اسحق : ان بـدء الاعمال جميعها — على حد قول الاباء — هو عمل التمرد على الجسد فانـه يدفع بالانسان دائماً الى الامام ويجعله يستعذب مرارة التمرد فيمتنع ذاتياً عن شهوة الارادة .

وقال مار يوحنا رئيس الدير : اننا بحاجة الى جهد عظيم ، نحن الذين نسعى للصعود الى السماء ، وخاصة عند بدء اعمال النسك .

الفصل الثاني

تنوع الاعمال

شبّه العقلاء الانسان ، بتاجر سائر في طريق وقالوا : ان مـدى طريقه هو مدى حياته ، واسفاره اعوامه ، وابعـاده شهوره ، واميياله ايامه ، وخطواتـه انفاسه ، واعماله رأس مال تجارته ، واتعابه لصوصه ، واستصباحه بنور وجـه خالقه رباه ، وبمـا ان الحياة قصيرة والعمل طويل ، والطريق شاق ، يجب على المبتدىء ان يسير في طريق الملكوت الضيق في اثر شيـخ حكيم كالاعمى الذي يسير في طريق وعرة على ساحل بحر ، يهوي الى اعماق اللجج اذا لم يتبع اثار دليله ، وما اجمل ما قيل : ان جميع الذين من مصر يتوقون الى الخروج منها والهرب من

فرعون ، وهم بحاجة الى (موسى) وسيطاً لدى الله ليهديهم الى الاعمال الصالحة .

قال الاب اوغريس : ان عملك كناسك هو الا تشبع لاخبزاً ولا ماء ولا نوماً ، وتكون مستعداً ضد كل هوى بقوة وحكمة ، واللجوء الى الله وتستمر على القراءة والعبادة والصلاة ، وممارسة كلمة الله وتذكره ، وحينئذ تكون في منجاة من الاهواء ، وترى في صلاتك عقلا يتلألأ كالكواكب .

وقال الفاضل مار اسحق : ان المتوحد يتحاشى مقابلة الناس بتمرد عنيف ويستطيب الانفراد الدائم في الصومعة ، ويخضع انانيته فيحفظ قوانين الاباء وفرائض الصومعة . وهي اوقات العبادة السبعة المحددة ، والتأمل المتعقل ، والهذيذ بالروحيات ، وحفظ القلب ، وسهر الليالي والحرص الشديد على قلبه اثناء سهره في الصومعة ، ولا يستضيف الافكار المنحرفة ، والذكريات الباطلة ، ويجاهد صوماً قواماً و لا يستهين بالاعمال اليدوية التي تربطنا بالصومعة ، وتبعد عنا السأم والتواني وما اليها ، وقد تحدثنا عن الصلاة في الباب الماضي بقدر امكاننا ، وبقدر امكاننا ايضاً هنا نتحدث عن الاعمال .

الفصل الثالث

في الطلبة

مارس العارفون طلبات وابتهالات كثيرة نورد بعضها هنا كما يأتي :

(طلبة) ايها الخالق المبدع ، سد فم المارد بقوتك العظيمة القاهرة ، لئلا يخاطب نفوس عبيدك افتراء عليك وعليهم ، وارفع عقولهم الى عليـاء معرفتك لئلا تهب عليها رياح السموم (طلبة) ايها الصالح الكريم ، يا من تتغاضى بعطفك عن اثامنا ، افعم قلوبنا وداعتك وهداك واضرمها بحب اكيد لايخمده المارد الاثيم .

(طلبة) ايها المسيح ياشعاع الاب ، يا من بك تستنير عيون الحكماء فيبصرون فيك اباك ، اشرق نورك في عقول طالبيك ، فينظروا اسرارك الكامنة في اعماق

حكمتك ، بما لايقع تحت التصور والتفكير — امين .

(طلبة) ياربنا يسوع المسيح ، يامن ارسلتك رحمتك الى عالمنا ، لفداء جنسنا ، اشرق نورك في نفوس طالبيك ليسيروا بهدى اشراقك فيبلغوا ميناء مجدك ، ويسعدوا بجمالك ، مع خدامك الامناء ويستمدوا الحياة من اعماق ابيك الى اللانهاية ، امين .

(طلبة) الحمد لك ايها الكوكب الساطع اللألأ ، يا من تشرق في القلب النقي ، وتتراءى في القلب الوضيىء ، انر نفسي بانوارك ، واسبحن بحمد جلالك ، واذيعن في الكون عجائب جمالك ، وقد ظننت اني وجدتك في اعماقي ، اجل رأيتك متجلياً كلك في كل افاقي ، انت كامل لاتتجزأ ، وتام لاتنقسم ، لانهاية لك ، ولا تنتقل من واحد الى آخر .

(طلبة) الحمد لك ايها المسيح ، يابارع الجمال ، ياصورة الاب اللامتنقلة الى صورة اخرى ، يامن تتراءى للناظرين بحسب طاقاتهم ، ولكنك لن تتبدل ، ولن تتغير ، فانت لاتتغير بتغير الافكار ، ومثل ابيك لاتتبدل .

(طلبة) انت ايها المسيح ، ياجمال الآب ، يا من بك فتحت لنا اسرار ابيك ، وكانت مكنونة فيك منذ الازل ، بك ندخل هيكل نفوسنا ، وبك نراك ياكنز الحياة المخفى ، ومنك نتناول بشوق ياشجرة الحياة ، يامن غرس نفسه بحبه في فردوسنا الناطق ، فلتصلنا عذوبتك وليشغلنا جمال منظرك عن رؤية شجرة معرفة الخير والشر وعن معرفتها والتناول منها .

« طلبة » الحمد لحبك يا الهنا ، لحنانك السجود يارئيفاً بالعباد ، اننا املقنا بما لدينا ، فلننال الغنى من لدنك ، الحمد للشعاع الذي اشرق منك فاحالنا نحن المظلمين الى ساطعين . لك العظمة ياحياة تفجرت لنا من اعماقك ، يا من اجريت فينا مياه الحياة ، وقد كنا ينابيع للرذائل والموبقات ، فبعثت فينا امواتاً خفيت في ذواتنا الخفية .

الفصل الرابع

قوانين الطلبة

يجب على من يمارس الطلبة ان يتقيد بعشرة قوانين :

الاول : ان يكثر الطلبة بلجاجة ، في الايام المقدسة المعروفة ، كالاصوام والاعياد الحافلة ، والآحاد ، وخاصة في الاوقات الرهيبة واللحظات المهيبة ابان ارتفاع الاسرار الالهية المحيية ، عندما تكون الجموع قد رفعت الايدي الى السماء طالبة الرحمة ، وعند بزوغ الشمس حيث تكون ابواب السماء مفتوحة والصلوات تسمع — على حد تعبير الكاملين —

الثاني : ان يقدم الطلبات التي تفيدنا في الحياة الباقية وليس في هذه الفانية ، طبقاً لقول الرب « تطلبون ولا تنالون لانكم شراً تطلبون »

الثالث : ان يتجه نحو المشرق ، في الصلاة ، باسطاً يديه ، فلا يرفع عينيه الى السماء بل يخفضها الى الارض خجلا متهيباً .

الرابع : الا يرفع صوته في الدعاء لان ربه ليس بعيداً عنه . لكنه قريب يسمعه .

الخامس : الا يتخطر اخطاء اقرانه ، ولا يتفاخر بفضائله ، فيتشبه بالفريسي المتعجرف الذى صلى قائلا « اني لست مثل بقية الناس الخطفة الفجار ، اصوم يومين في الاسبوع ، واعشر كل أموالي .

السادس : الا يهتم بالكلام المصقول ولا يبتكر من فكره كلمات الدعاء ، لانه كثيراً ما يطلب ما ليس له ، بل يردد الصلوات التي قالها الاباء ، وتكفيه الكلمة البسيطة « اللهم ارحمني انا الخاطىء » لان ربه يعرف ما يحتاجه ، ويمنحه ما لايخطر بباله ان يطلب . وعندي ، ان اي « عارف » لايحتاج الى اكثر من هذه الصلاة « ربي . . اجعلني مستحقاً لسماع ذلك الصوت القائل : تعال يامبارك ابي رث الملكوت)والتائب يكفيه ان يقول « ارحمني يوم الدين يايسوع العطوف ، رحمتك للص والفريسي والخاطئة » .

السابع : ان يؤمن بنوال رغبته ، لأن ربه رب رحوم ومشفق ؛ ويجب من يدعوه بقلب خاشع ، فقد قال (اسألوا تعطوا اطلبوا تجدوا ، اقرعوا يفتح لكم) .

الثامن : ان يواظب على الدعاء ، فان ربه سيجيبه ان لم يكن من اجل الصداقة فمن اجل اللجاجة ، ويمنحه كل ما هو يطلبه .

التاسع : ان يفتتح دعاءه بتمجيد الله قائلاً (المجد للآب والابن والروح القدس) ثم يشرع في الصلاة .

العاشر : ان يسامح جميع الذين اخطأوا اليه ، ثم يطلب ان يغفر له ، كما يعلمنا الانجيل بقوله (اذا غفرتم للناس زلاتهم فأبوكم السموي يغفر لكم) وواضح ان هذا القانون الاخير هو مفتاح الصلوات ، والوسيط الفعال في الاستجابة .

الفصل الخامس

ذكر الله

اني ارغب ان يكون ذكر الله مؤلفاً من عشر جمل من تسبحتي اولاد حننيا الثلاثة ، الست الاولى من تسبحة (مبارك انت) والاربع الباقية من تسبحة (باركوا) فالاول (مبارك انت يالله اله آبائنا) والثانية (مبارك اسم عظمتك القدوس) والثالثة (مبارك انت ياملك الملوك ورب الارباب) والرابعة مبارك انت الجالس على الكروبيم وتنظر اللجج) والخامسة مبارك انت يا من لك كل سلطان في الارض والسماء) والسادسة (مبارك انت في قدس اقداس وقارك) وفي نهاية كل جملة من الجمل الست يجب ان يضيف قوله (جليل انت وعظيم الى الابد) والسابعة (باركي ياجميع اعمال الرب للرب) والثامنة (باركي ايتها السماء ويا ملائكة الرب للرب) والتاسعة (باركي ايتها الارض والجبال والاكام للرب) والعاشرة (باركي ايتها الشمس والقمر و كواكب الرقيع للرب) وفي نهاية كل جملة من هذه الجمل الاربع يردف قوله : سبحيه وعظميه الى الابد . »

ويجب تكرار هذه الجمل العشر وتردادها طبقاً للمكان والزمان ، فالحد الادنى لترددها ثلاث مرات ، والحد الاوسط سبع ، والحد الاعلى سبعون مرة .

ان الامور المعطلة لذكر الله « وذكر الله متعة العقل وسعادته » على حد قول الآباء هي : الاخذ والعطاء ، ولقاء الاصدقاء ، والانهماك بالاعمال البشرية ، والغنى الذي يفوق الحاجة . والامور المشجعة له هي : التغرب ، والزهد الكامل ، فيكفي للناسك ان يملك كوخاً وغطاءً وقميصاً وانجيلاً .

الفصل السادس

القراءة

يقول شيخ بلغ الكمال - في فضائل قراءة الكتب المقدسة وفوائدها الكثيرة - اني رأيت مرة في احد الاديار اخاً يقرأ الكتاب المقدس ، فهاجم ابليس صومعته يريد الدخول ، ولكنه كان يخيب كل مرة يراه مستمراً في القراءة ، واردف قوله : ولما انقطع الاخ عن القراءة تمكن ابليس من الدخول ، فليست له قوة ان يقتحم الذين يناجون الله ، فقراءة الكتب المقدسة تُرهب الابالسة فلا تدنو ممن يمارسها .

وقال مار اسحق : اكد للنفس ان قراءة الكتب المقدسة تظهر جلال طريق الحياة واخبار القديسين . وانت وان كنت لا تشعر باللذة الروحية في بادىء الامر ، وانت متأثر بظلمات الحياة المشوشة الناتجة عن الاغراق في الامور المنحرفة ، الا انك اذا نهضت للصلاة والعبادة ارتسمت في خاطرك الصور الكتابية عوضاً عن الامال الفانية ، وهكذا يتنقى العقل . ويفرض بعض المرشدين على المتوحد قراءة سبعة فصول يومياً من العهد الجديد ، فصلاً من الانجيل ، وفصلاً من اعمال الرسل وفصلاً من الرسائل الجامعة ، وفصلا من رسائل بولس . ويشير غيرهم بقراءة سبعة فصول متوالية من العهد الجديد ، وينصح غيرهم بقراءة اكثر من ذلك او اقل ، لكل بحسب مقدرته .

ان الضعفاء يقرأون وهم جالسون ، والاقوياء يقرأون قياماً ، وغيرهم يقرأون وهم مستندون على عصيهم ، ومهما كان الامر ، فان الكتاب يوضع امامهم على منصة ويجب على المتوحد ان يقرأ ايضاً كتاب الفردوس (فردوس الرهبان) ومطالع المعرفة الروحية ، والكتب التي تعلم طرق الزهادة ، ومن كان امياً فليستغن عن القراءة متأملا باعمال الله ، كما روى الاب اوغريس عن الاب انطونيوس اذ قال له احد الفضلاء « كيف تبصر وانت محروم من قراءة الكتب وعزائها ؟ فاجاب الاب انطونيوس : ان كتبي ايها الحكيم هي هذه الطبيعة القريبة الي ، فكلما رغبت بقراءة كتاب الله الكبير ، تأملت اعماله العجيبة ، فانها تحمل الانسان على الهذيذ بعظمة الله ومخلوقاته .

الفصل السابع

في التأمل

ان العارفين يفهمون التأمل كموضوع ذي نوعين ، الأول : تأمل الانسان بآثامه ، واحصاء نقائصه ، والنظر الى زلاته ، وقد اتفق الاباء ان فائدة هذا التأمل عظيمة ، قال احد الشيوخ : مالم يهدم الانسان كيانه ، لايمكنه بناء نفسه ، وقال آخر : كلما تمكنت من ادراك نفسي باني اخطأت ، فلن اعود الى الزلل ، وقال الاب انطونيوس : ان قوة الانسان العظمى هي ان يضع الانسان تبعية المعصية على نفسه امام الله ، وقال الاب فومان : ان رفعنا الشكوى ضد ذواتنا ، تحفظ فينا جميع الفضائل متناغمة ، وقد قال الرسول بولس : اذا نحن دنّا انفسنا فلن يديننا احد ، وقال عظيم العارفين اعظم اوغريس : ان قاضٍ للعارف ضميره ، فلا يمكنه اخفاء شيء عنه حتى خفايا قلبه .

والنوع الثاني : ان يتأمل الانسان تارة بفيض رحمة الله الغزيرة ، ونِعمه عليه ، وهكذا يتفجر الحمد من قلبه ، قال الفاضل مار اسحق : ان بدء اعمال الفكر هو التأمل

الدائـــم بمواعيد الله ، وبروعة مباهج العالم الجديد ، وهو حريص على اكتساب الفضائل مجاهداً في سبيل البر ، متصوراً كأن نفس الانسان خالدة في عالم روحي فسيح ، مناجياً ملائكة النور ، ونفوس الصالحين الكاملين ، فيزول عنه الضجر والحزن ، ويسوده الامان والسرور والعزاء ويبلغ الى التأمل باعمال الله الباهرة .

الفصل الثامن

تقسيم اوقات الصلاة

اذا كانت رؤية الله تنيل الحياة الحقة ، فعدم رؤيته تنتج الموت ، وعلى ذلك فان العارفين الحقيقيين لايتنفسون نفساً واحداً ، الا ما يقربهم الى الله ، فيرسمون على الواح قلوبهم سبيل سلوكهم ، وينطقون احقاءهم بالهمة العلياء ، ويبتعدون عن كل لحظة تجعلهم غرباء (عن الله) ويحرصون حرصـــاً شديداً على تأدية صلوات الليل والنهار الثماني ، ويقسمونها الى أربع نهاراً ، واربع ليلا ، ويعطون لكل عمـــل متطلباته الخاصـــة .

فالعدان [١] الاول من النهار يبدأ بشروق الشمس ، الى الساعة الثالثة [٢] وفي مطلع هـــذا العدان تؤدى صلاة الصباح ، وفي نهايته صلاة الساعـــة الثالثة ، والوقت الذي بينهما يهتم المبتدىء براحة القريب ، كزيارة المرضى ، وخدمة الضعفاء ، وتلبية حاجاتهم ، ومن لايمكنه ذلك يستمر مصلياً متأملا مواظباً على القراءة والدرس .

والعدان الثاني من النهار ، وهو في بدء الساعة الرابعة ، (صباحاً) حتى نهاية الساعة السادسة ، وفي هذه الفترة يمارس النساك الاعمال اليدوية طبقاً لحاجات النهار ، ويؤدون في نهايتها صلاة الساعة السادسة (ظهراً) وان لم توجـــد لديهم اعمال يدوية يمارسون الاعمال النفسية الاربعة المشار اليها انفاً ، واني انصح المبتدىء

---

(١) العدان كلمة سريانية (ܥܕܳܢܳܐ) معناها الوقت .

(٢) اوقات الصلاة هنا هي بحسب الساعة الشرقية القديمة ، فتشرق الشمس في بدء الساعة الواحدة وتغيب في نهاية الثانية عشرة .

ان ينام بعد هذه الصلاة وذلك لسببين ، الاول : غفوة صغيرة في النهار تجلو ثقل نوم الليل ، وتعين على السهر الذي به تضيء العين ، والثاني : لان في هذه الفترة ، يعلن شيطان الكسل الحرب على الناسك ، كما ذكر الشيوخ اباؤنا ؛ حيث يظهر للناسك ان الشمس لا تتحرك في هذه الفتره ، او هي بالكاد تتحرك ، ويحمله على النظر من الكوى باستمرار ويضطره احياناً الى ان يخرج من صومعته ويترصد السماء ، ويثير في نفسه الحقد على صومعته ، وعلى الاعمال اليدوية ، مصوراً امام عينيه ، الحياة مملة ، واعمال الزهد قاسية ، ففي غفوة قصيرة ينجو الناسك من هذه الحرب .

العدان الثالث من النهار ، وهو في بدء الساعة السابعة ، حتى نهاية التاسعة وفي هذه الفترة ينهمك الناسك بالأعمال الاربعة ، الدعاء ، والتأمل والقراءة والدرس وفي نهايتها يؤدون صلاة الساعة التاسعة ، وفي هذه الفترة يمقت الشيوخ النوم ويمنعون عنه الذين ناموا قبل الظهر .

العدان الرابع من النهار : وهو من بدء الساعة العاشرة حتى غروب الشمس ؛ وفي هذه الفترة ، اي قبل صلاة النوم ، يجب على الناسك ممارسة النوع الاول فقط من التأمل ، لان فترة من حياته تمضي ؛ ولذلك ليحاسب نفسه ، ليرى ماذا ربح او ماذا خسر ، وإذا كان رابحاً ، ليشكر الله ؛ الذي ساعده ، والا ليجتهد ان يعوض بربح الليل ما خسره في النهار ، وفي نهاية هذه الفترة تؤدى صلاة المساء .

العدان الاول من الليل : وهو من غروب الشمس حتى نهاية الساعة الثانية من الليل ، وفي وسط هذه الفترة ليمارس الناسك ثلاثة انواع من العمل ، الدعاء والاستذكار ، والدرس ماعدا القراءة ، وفي نهايتها يؤدي صلاة الستار (النوم) .

العدان الثاني من الليل : وهو من بدء الساعة الثالثة من الليل ، حتى نهاية الساعة السادسة ، وفي وسط هذه الفترة ليرح النساك أجسادهم بغفوة قصيرة ،

لان الراحة الجزئية للجسد ضرورية لعمل النفس الكلي ، كما سيأتي وفي نهاية هذه الفترة يؤدي صلاة نصف الليل ، .

المدان الثالث من الليل : وهو من الساعة السابعة حتى نهاية العاشرة ، وفي خلال هذه الفترة لينم المبتدئون ، وفي نهايتها يؤدون صلاة الفجر العميق .

والعدان الرابع من الليل : هو من بدء الساعة الحادية عشرة حتى شروق الشمس ، وفي هذه الفترة لاينام الناسك بل يستمر متأملاً يقظ الفكر مضاعفاً الهذيذ حـــتى شروق الشمس . ، وإذا غلبه النعاس ليختطف منه غفوة وهـــو جالس ولا يضطجـــع .

الفصل التاسع

الركوع ؛ وعدم تحميل الجسد اكثر من طاقته

ان قانون الركوع يحـــدد ثلاث ركعات لكل وقت من اوقت الصلاة ، والنساك لا يكتفون بذلك فيؤدي بعضهم اربعين ركعة في الليلة الواحدة ؛ اي بعد صلاة الصباح وصلاة النوم ، وبعضهم يزيد على ذلك ، وفي كل من صلاتي الظهر ونصف الليل يؤدون اربعين ركعة ، وهكذا في الليل والنهـار يؤدون مئين وثمانين ركعة ، وفي العدان الرابـع والأخير من الليل لايضطرون ان يركعوا لئلا يعذبوا الجسد فوق طاقته ، ولذلك يجب ايضاً ان يرتاحوا اثناء فترتي الراحة الليليتين ، اعني الثانية والثالثة ، ضعف ما يفعلون في فترات نهـاية الليل ، اي اثناء العدان الرابـع وقد قال بهذا الشأن سيد العارفين اوغريس : ان حكمة القلب هي ان تحمّل الجسد ما يمكنه تحمله من الالعاب لئلا يخور فتخور معه النفس . وقال ايضاً : في الاوقات التي لانستطيع تأدية خدمتنا العادية ، يعرف الابالسة ذلك يثيروننا ويزينون لنا ان نقول بما لا نقوى على عمله ، ويحرضوننا على ان نمارس نسكنا بضعفنا ، ويحملوننا على النهوض والترتيل وجسومنا ثقيـــلة .

وقال مار اسحق : اذا شعرت باعياء من اعمال التوبة او من القراءة والصلاة

وما اليها ، فلا تضايق نفسك باطلا بل — دع قربانك على المذبح واذهب وصالح اخاك وحينئذ تعال وقدم قربانك — بدون اضطراب ، فان لم تعمل ذلك فلا تتميز عمن يستقي ماء ويصبه في حوض مثقوب ، كما سلمنا الاباء ، اقول — اذهب وصالح اخاك — اي هدّئ روع جسدك ، وارحمه من ضيقاته ، لان النفس والجسد اخوان توأمان وُجدا سوية وحينئذ قدم اعمالك التي هي قربانك ، فلن ينجح العمل الجسدي بدون جهاد نفسي .

ويعلّم الاب انطونيوس : ان كثيرين عملوا اعمالا عظيمة ، ولانهم لم يعملوا بتعقل فلم يدركوا طريق الله ولم يبلغوا ميناء القدوس .

وقال الاب اوغريس : ان الكمال لاينال في الاعمال الجسدية فحسب ، بل بالجهاد الفكري ، والنضال السليم تضفر الاكاليل . وقال ايضاً : نوّع الجهود الروحية لتفهم ان تعبد بالعقل والجسد . وقال ايضاً : هناك من يأخذ على عاتقه اعمالا جسدية مضنية ، وظن كاملا ، وقد اشتهر ، بينما جروح نفسه كثيرة .

الفصل العاشر

الاوقات تختلف باختلاف المهام

ان كل راحل سائر في طريق الملكوت فلا بد ان يتقلد احدى المهام الست الاتية ، فاما ان يكون عاملا او مدبراً او طالباً او معلماً ، او ناسكاً ، او كاملا .

والعامل العلماني لابد ان يكون ذا امرأة واولاد ، واقارب يحتاجونه ، ومثل هذا يكفي ان يؤدي الصلاة ثلاث مرات ، صباحاً وظهراً ومساء ، وفي بقية الاوقات يمارس اعماله العادية ، ليسد رمق اهله ، وهذا وان كانت يداه تشتغلان فلا يهمل التأمل والاستذكار .

والمدبر الآخرين ، مفروض عليه ان يؤدي الصلاة خمس مرات ، صباحاً وفي الساعة الثالثة ، والسادسة والتاسعة والمساء ، وفي بقية الفترات التي تتخللها

ليهتم بامور مرؤوسيه ، ويتفرغ لتصريفها ، وحل المشكلات ، وما لا يمكنه عمله في النهار بداعي الصلوات النهارية ، والقراءة والاستذكار والتأمل ، ليكمله في الليل بالاضافة الى صلوات الليل المعينة ، الستار (صلاة النوم) ونصف الليل والفجر .

والطالب او المتعلم ، يجب ان يؤدي فقط الصلوات الفرضية ، وعوض اعمال الزهد ، ليواظب على التعلم ومطالعة الكتب وتفهم معانيها ، وكتابة مايحتاجه .

والمعلم ايضاً ، ليؤدي الصلوات الفرضية كلها ، ففي العدان الاول من النهار اي منذ الصباح حتى الساعة الثالثة ، ليدرّس الطلاب ويرشدهم ، ومنذ الساعة الثالثة حتى التاسعة ، ليطالع الكتب ، واذا امكنه تأليف الكتب وتفسيرها فليفعل ، ومنذ التاسعة حتى صلاة المساء ليعلّم ايضاً الطلاب ، ويرشدهم ، ومن بعد صلاة المساء حتى صلاة النوم ليمارس الدعاء والاستذكار والتأمل ، واعرف معلماً فاضلا كان يقسم ليله ثلاثة اقسام ، الاول لقراءة الكتب والاستزادة من المعرفة . والثاني للصلاة ، والقسم الثالث والاخير للنوم .

والناسك او الراهب المتوحد ، ليؤدي الصلوات الثماني المشار اليها سابقاً ، وبعض النساك من يقضي اوقاته كلها بالصلاة ، وبعضهم من لاينقطع عن الترتيل ، وبعضهم يواصل التأمل ، وبعضهم لاينقطع عن الاستذكار وذرف الدموع ، وبما ان الاستمرار المتواصل على عمل واحد معين يولد السأم فينقلب الى الكره ، يفيد كثيراً ان يمارس الناسك اعمالا متنوعة لئلا يصيبه السأم من الاستمرار بعمل واحد معين .

والكامل وهو العارف حقاً ، من انهى سعيه وبلغ جبل الله ، واتحد بالروح القدس مع تلك الصورة الحقيقية حيث تمحو الوحدة كثرة الاعداد ، التسامي عن الانحراف ، كمال التربية البنوية ، معرفة الله بنوة ، الملكوت الهادىء المسالم ، فمن بلغ هذه الدرجة العليا ، كما يقولون ، لايشعر بتعاقب الزمن .

الباب الثالث

السهر والنوم

الفصل الاول

وفيـــه خمســـة فصول

دعا الاب ارسانيوس يوماً الابوين الكسندر وزاويلا وقال لهما : امكثا معي هذه الليلة فان الابالسة تحاول الاجهاز علي في النوم ، فاسهرا معي واحرساني ، ولما كانا جالسين الواحد عن يمينه والاخر عن شماله ناما ، ثم استيقظا ، ولم يلحظاك ينعس مطلقاً ، ولما اخذ الفجر يلوح شعرا ان ثلاث مرات ثقل تنفسه ، فنهض وقال لهما هل نعست ؟ قالا : لا نعلم ايها الاب فقد غفونا .

طلب الاب باخوم الى الله ان يبعد عنـــه النعاس ، لان ليالي كثيرة كانت تهاجمه الشياطين ، ذلك لـكي يكون مستعداً على الدفاع عن نفسه متمثلاً بآية المزامير — لا اعود حتى أفنيهم — فمنحت له هذه النعمة لنقـاء قلبه ، وقتاً معينـاً ، وكان كأنـــه يرى الله الذي لا يرى في مرآة . حدّث الاب دانيـال عن الاب ارسانيوس قال : انه كان يقضي الليل كله ساهراً ، ولما كان يضطر حوالي الفجر ان يستجيب للطبيعة بشيء من الراحة كان يثور على النوم قائلا : اذهب ايها العبد الشرير . وكان يستسلم للنعاس قليلا وهو جالس ، وكان ينهض حالاً ، وكان الاب ارسانيوس يقول : ان المتوحد تكفيه ساعة واحدة للنوم اذا كان شجاعاً .

حدّث الاب ايسيدورا عن نفســه قال : اجهدت نفسي اربعين سنة بالسهر الطويل والنوم اليسير . حتى اني قضيت اربعين ليلة لم أذق فيها النوم .

كان أحد تلاميذ الاب امون يقول عنه ؟ خرج الشيخ في احدى الليالي فوجدني نائماً ، امام الصومعة ، فوقف يرمقني ناحباً باكياً وقال : اين تفكير هـذا الاب يا ترى ؟ انه ينام بدون حساب . ؟

الفصل الثاني

الاسباب المساعدة للسهر

ثمانية اسباب تجعل السهر هيّناً : اربعة ظاهرة واربعة خفية :

اول الاسباب الظاهرة قلة الطعام ، لان من يكثر الطعام يكثر من شرب الماء ، ومن كان كذلك يكثر ايضاً نومه ، ويصعب عليه السهر .

الثاني : الا يتعب نفسه كثيراً اثناء النهار ، لان التعب الشديد هو سبب مباشر لاجتذاب النوم . ،

الثالث : ان ينام قليلاً وقت الظهيرة ، فذلك يساعد كثيراً على السهر .

الرابع : يجب ان يصلي الأخ الناعس مع جماعة الرهبان ، فذلك كما يقول الاب ياوني رئيس الدير ، في مثل هذه الحالة لانستطيع النوم خجلاً ، فنتحرر من وطأة النوم ، فمن يصلي مع الاخوة لا يجب ان يحجم عن الترتيل .

وهذه هي الاسباب الأربعة الظاهرة ، أما الاسباب الخفية فهي :

الاول : نقاء الضمير من الغضب والحقد ، من كان حاقداً على قريبه يشبه السكران فيستغرق في النوم مثله .

الثاني : الخوف والرهبة من فكرة الديان والدينونة ، فمن تأمل وقوفه امام العرش الرهيب ، يقف شعره ويطير النوم من جفونه ، وكأن المرتل يقول : قفّ جسدي من احكامك واعتراني الخوف ويقال ايضاً : ان التفكير بالويلات المحفوظة للخطاة وصرير الاسنان يخطف النوم من العيون ، فالذي بلغه خبر النار التي لا تنطفىء كيف ينام ؟

الثالث : ليعرف الانسان مضار النوم وفوائد السهر من تعاليم الثقات ، الذين يقولون ان العين الساهرة تنقي العقل والنوم الكثير يشوّش النفس . ويقولون ايضاً : ان النوم قرين السقوط .

الرابع : محبة الله وهو اسمى جميع الاسباب الماضية ، فان الحب يطرد النوم من العيون ، يؤيد ذلك اي نوع من انواع الحب البشري ، والتجربة تؤيد

ان المحب انما يلهج بذكرى من يحب الليل كله ، سواء اذا كان شخصاً معيناً ام فكرة منحرفة ، ام غير ذلك ، وسأل احد العارفين : كيف انت مع ليلك ؟ أجاب : يظهر لي قليلاً ثم يغيب ولا يمكث معي طويلاً حتى اتمتع به ، فحالما يدخل يؤذن بالخروج ؛ قال ذلك واصفاً العزاء العظيم الذي يشعر به اثناء سهره في الليل والراحة من مشاغل النهار .

الفصل الثالث

طبقات الساهرين

اذا كان النوم صورة للموت ، طبقاً لما تؤيده الطبيعة ، فاليقظة رمز الحياة ولذلك يجهد العارف نفسه بأن يحيي موته الليلي باليقظة ، وهكذا نجد الذين يحيون الليالي يقظين سبع طبقات :

الاولى ، وهي اسمى الطبقات ، طبقة العارفين الذين يحيون الليل كله ، وفي بسمة الفجر يأخذون شيئاً من الراحة ، استجابة لشرعة الطبيعة ، وقيل عن الاب ارسانيوس : ان مساء السبت ليلة الاحد ، كان يدع الشمس تغيب من ورائه ، ويرفع يديه الى السماء مصلياً ، حتى تشرق الشمس في وجهه ، وعندئذ كان يعطي شيئاً من النوم لعينيه .

الثانية : طبقة الذين يحيون نصف الليل ساهرين ، ونصفه الاخر ينامون ، والاجدر بهم ان يناموا الثلث الاول والسدس الاخير من الليل ، وهكذا يتم لهم النصف .

الثالثة : طبقة الذين يحيون ثلث الليل ، والاجدر بهؤلاء ان يناموا النصف الاول والسدس الاخير من الليل ، وهكذا يتم لهم الثلث المطلوب ، ويظهر ان داود النبي كان يسهر وينام على هذا النمط ، كما يدل قوله : في منتصف الليل نهضت لاشكرك على احكامك . »

الرابعة : طبقة الذين يمكنهم احياء سدس الليل او خمسه ، والاجدر بهم ان يحيوا النصف الثاني من الليل .

الخامسة : طبقة الذين لايعدون الساعات ولا يحددون الاوقات ؛ لكنهم يسهرون اول الليل حتى يغلبهم النعاس ، فيناموا وكلما استيقظوا نهضوا ، حتى ينعسوا مرة اخرى فينامون ، ثم ينهضون ، واغلب المتوحدين الذين لا ينسكون في في الديورة يمارسون هذه الطريقة .

السادسة : طبقة الذين يستيقظون للصلاة في منتصف الليل ؛ وبقدر مدة الصلاة فقط يسهرون ، وينامون بقية الليل . ، وهم اغلبية الاكليروس في الغرب . (سوريا وآسيا الصغرى) .

السابعة : طبقة الذين يستيقظون للصلاة منذ الفجر العميق ؛ كما يفعل سائر الاكليريكيين في المشرق ؛ بالاضافة الى بعض الفضلاء من الشمامسة والعلمانيين .

وخلاصة القول ان كل انسان عاقل يمكنه اختيار احدى هذه الدرجات ، ويرتفع من درجة الى درجة اسمى ، فيقتدى باليقظين وخاصة ليالي الآحاد والاعياد الكبرى والسبت العظيم من اسبوع آلام الرب .

الفصل الرابع

قوانين النوم

النوم ،عند العارفين ، اذا سار ضمن نظامه الطبيعي يعتبر زهداً ، قال احد الفضلاء : ان نوم العارف افضل من صلاة الكسول ، وقال آخر : ان العارف ينام ونفسه لاتنام عن التسبيح ، وهذه الجملة فسرها ياونّي رئيس الدير بقوله : النفس التي تبهج بكلمة الرب وهي يقظة ، فانها قادرة ان تهدس بها اثناء النوم » لان واجب النوم يكون طبقاً لقوانين مفيدة ، مما يجب عرضه هنا ويجمل بعشرة قوانين يجدر بالعاقل حفظها وهي :

الاول : ان يصلي صلاة النوم ثم ينام .

الثاني : ان يكون مستعداً تمام الاستعداد للعودة الى العمل الروحي فور استيقاظه وهو الاستذكار والتأمل والصلاة والدعاء .

الثالث : الا ينام من قطع على نفسه عهداً الا وعهده في خاطره ، لان يوم الرب يأتي كلص ، فيدركه الاجل في ساعة لا يعرفها .

الرابع : ان يتوب عن آثامـه ، وان كان قد اغتصب احداً ، يعيد له ما اغتصبه منه ، وينقي ضميره ، من الحقد والحسد والشر ، ولهـذا السبب وضع ملافنة الكنيسة صلاة الستار (النوم) .

الخامس : الا ينام على سرير او على فراش وثير ، فكثيرون من الكاملين ليس بينهم وبين الارض حتى ولا حصيرة ، اذ يقولون لجسدهم انك تراب والى التراب تعود .

السادس : الا ينام الا اذا غلبه النعاس ، ولا يجتلب نومه قسراً ، فان الكاملين اذا غلبهم النعاس يتدلى بعضهم في حبل . وكان الاب سوسايس يتعلق في صخرة على جرف هار ، خوف ان يغلبه النعاس ، حتى كان يأتي مـلاك الرب فيرفعه من هناك ، وامره مـرة الا يعود الى ذلك ولايسلم غيره ذلك كتقليد ، وكان بعد ذلك يعلّم تلاميذه ويقول : لاتنـاموا حـتى تنعسوا ، ولا تأكلوا حتى تجوعوا ، ولا تتكلموا حتى تسألوا .

السابع : ان يسند ظهره الى جدار ، وينام وهو جالس ، ويداه وركبتاه على صدره ، ورأسه مسند عليها ، وهذه طريقة الكاملين في نومهم ، اذ يخطفون شيئاً من النوم ، ومن لايمكنه ذلك ، لينم مضطجعاً على جنبه ، وركبتاه ويـداه ايضاً على صدره ، وبعضهم من ينام على ظهره ووجهه نحو المشرق ، وحصر احد الحكماء النوم باربعة اشكال : نوم الانبياء ، على الظهر لتلقي الوحي ، ونوم النساك على الجنب الايمن ، ونوم الملوك على الجنب الايسر ، لهضم الطعام ، ونوم الابالسة على وجوههم .

الثامن : ان يغفر للمسيئين اليه ، ويسامح جميع المذنبين عليه ، ويصلي من اجل اعدائه ، ويثق ان ابليس هو الذي حملهم على بغضائه وليس ذلك منهم .

التاسع : ان يتأكد ان رغب في النوم ، ان النوم شبيه بالموت ، واليقظة شبيهة بالقيامة ، وكما ان امائر النوم تشبه اشكال هذا العالم واعماله ، كذلك امائر

اليقظة تشبه تماماً امائر العالم الجديد واعماله ، وقال احد الفضلاء : اذا كنت تشك في الموت فلا تنم ، وإذا كنت ترتاب في القيامة فلا تستيقظ ، فكما تنام ثم تستيقظ بعد نومك ، هكذا ستستيقظ بعد موتك .

الناشر : ان يعمل اعمال الروح فور يقظته ، اي ليصلِ اذا كان وقت الصلاة ، والا يمضي في الاستذكار والتأمل .

الفصل الخامس

ما يحدث في الاحلام

قال اوغريس — عمدة العارفين — اذا حاربنا الابالسة في غلات الليل ، يصورون لنا الاصدقاء والاقارب ، ومظاهر الاهواء ومسبباتها ، فاذا كنا مصابين بهذا المرض فان وطأته تشتد علينا ، واذا ثار الحقد فينا فانهم — الابالسة — يظهرون لنا كأننا نسير في طريق وعرة رهيبة ، يهاجمنا فيها مسلحون او وحوش مفترسة او افاعٍ خبيثة . وقال ايضاً : ان الحركات الطبيعية التي تحدث في الاحلام دون صور او اشكال ، فانها دلائل صحة النفس ، واذا ظهرت الصور والاشكال في الاحلام فانها دلائل المرض ، والوجوه التي تتراءى لنا وهي غير معروفة لدينا فانها دلائل هوى قديم ، والمعروفة دلائل هوى جديد في النفس .

وقال ايضاً : عدم الميل هو صحة النفس ، وعلامات ذلك تعرفها من افكارك نهاراً ، ومن احلامك ليلا ، وغذاؤه هو المعرفة التي تضمنا مع قوات القديسين غير المجسمة .



الباب الرابع

في المزامـــير

وفيـــه سبعة فصول

الفصل الاول

كيفية الترتيل

نقصد بكيفية الترتيل ما يؤدى اثناء الصلاة من المزامير ، عندما يقف المصلي متجهاً نحو المشرق مرتـلا ، وفي اوقات الصـــلاة يرتل جالساً متجهاً نحو المشرق ايضاً ، ويجب ان يصل بين آيتي المزمور بكلمة (هلليلويا) سواء اذا كان يرتل وحده ، او مع جوقة المرتلين ، وكلما وردت كلمة (المجد) يقول : (المجد للاب والابن والروح القدس ، من الازل والى ابد الآبدين امين .)

وفي مطلع كل مرميث (قسم معين من المزامير) يبدأ بكلمة (بارك يا سيد) ويواصل الترتيل بنغمة موزونة ، ولا يسرع او يطيل الانغام ، لان النغمة الموزونة وضعت لتكون كلمات المزمور مفهومة وواضحة للذهن ، قال الاب اوغريس بهـذا الشأن : ان المزامير ترتل احياناً بسرعة ، واحياناً ببطء ، وكلتاهما موجهتان ضد ابليس ، فاذا اثار فينا السأم يجب ان نرتل ببطء واذا اثار فينا الخيلاء بحجة عذوبة ترتيلنا فحينئذ نرتل بسرعة ، ويجب على المرتل ان يرتل جهـــراً حتى يسمع هو ذاته صوته ، واذا سمع من كان بقربه فذلك افضل ، وخاصة في الليل ، فان ذلك يوقظ جيرانـه لكي يرتلوا هم ايضاً ، ويسبحوا الله نظيره ، والافضل ان يرتل المزامير كلها حتى يمكنه ان يتلوها عن ظهر قلبه وليس في الكتاب ، واذا لم يستطع تلاوة جميعها غيباً فعلى الاقل مزامير الليل ، لانه لايمكنه اضـاءة السراج للترتيل بسهولة . وفي نهاية (التسبحة) يركع ثلاث مرات ، وفي ختام كل مرميث يؤدي تسع ركعات ، وفي كل آية فيها كلمة السجود ينبغي ان يسجد ايضـــاً .

كقوله (هلموا نجثو ونسجد له) و (اسجد في هيكل قدسك واشكر اسمك) وبقية الآيات التي ترد فيها كلمة (السجود) عدا الجمل التي تروي صياغة العجل والسجود له او الاصنام .

الفصل الثاني

عدد المزامير المرتلة

ان عدد المزامير التي يجب ان ترتل طبقاً للتقليد الدارج في الديورة منذ القديم ان يكملوا ترتيل المزامير كلها في يوم كامل ، فيبدأون من مطلعها في صلاة الصباح ، ويأتون عليها في اخر صلاة من صلوات الليل ، ولكن بما ان ترتيلا مثل هذا لايكون بتفهم بسبب السرعة ، يرتل بعض الفضلاء ، بعد فرضهم اليومي ، المزامير كلها مرتين في الاسبوع الواحد في صوامعهم ، وبعضهم يأتون عليها مرة واحدة في الاسبوع الواحد ، وبعضهم يكملونها مرة واحدة في الشهر ، وهكذا يرتلونها بتفهم كامل ، وقسّم معلمو الطقوس الكنسية المزامير كلها الى خمس عشرة مرميثا (المرميث قسم معين من المزامير)

مرميثان اثنتان لصلاة الصباح ، الاولى تبدأ من المزمور الاول (طوبى للرجل . من ١ : ١) حتى المزمور (يارب من يحل في مسكنك ١٥ : ١) والثانية تلي هذا المزمور الى المزمور (اليك يارب رفعت نفسي ٢٥ : ١) .

واثنتان لصلاة الساعة الثالثة ، الاولى بعد المزمور (لاتغر من الاشرار ٣٧ : ١) والثانية تلي هذا المزمور حتى المزمور الذي مطلعه (فاض قلبي بكلام صالح ٤٦ : ١) .

واثنتان لصلاة الساعة السادسة — الظهر — الاولى تلي المزمور السابق حتى المزمور الذي مطلعه (ارحمني يا الله لان الانسان قد اهانني ٥٦ : ١) والثانية تلي هذا المزمور مباشرة حتى المزمور الذي مطلعه (ليقم الله فيتشتت اعداؤه ٦٨ : ١)

ومرميثان لصلاة الساعة التاسعة ، الاولى تلي المزمور السابق حتى المزمور

الذي مطلعه (قد اعترفنا لك يا الله قد اعترفنا لك ٧٥ : ١) والثانية تلي هذا المزمور الذي بدأه (اللهم من يشبهك ٨٣ : ١) [١] .

واثنان لصلاة المساء ، الاولى بعد المزمور السابق حتى المزمور الذي يبدأ (صالح الاعتراف للرب ٩٢ :١) والثانية تلي هذا المزمور مباشرة حتى المزمور (باركي يانفسي الرب ، ايها الرب الهي لقد عظمت جداً ١٠٤ : ١)

ومرميث واحدة لصلاة الستار - النوم - تلي هذا الى نهاية المزمور ١٠٧ : ١) واربع مراميث اخرى لصلاة الليل الاربع وتبدأ بالمزامير التالية : (مستعد قلبي يا الله مستعد قلبي ١٠٨ : ١) [٢] و (طوبى للازكياء في الطريق ، للسائرين في شريعة الرب ١١٩ : ١) و (اذكر يارب داود وكل ذله ١٣٢ : ١) و (اعظمك يا سيدي الملك ١٤٥ : ١) .

والذين يكملون المزامير كلها مرتين في الاسبوع الواحد ، فهم يرتلون في كل يوم من ايام الاسبوع اربع مرميثات ، اثنتين في الليل واثنتين في النهار ، وفي يوم الاحد يرتلون ست مرميثات ، ثلاثاً في الليل وثلاثاً في النهار ، والذين يكملون المزامير كلها في الاسبوع الواحد مرة واحدة ، فهم يؤدون في كل يوم من ايام الاسبوع مرميثين اثنتين الواحدة في الليل والاخرى في النهار ، والذين يكملونها كلها مرة في الشهر الواحد ففي كل يوم يؤدون نصف المرميث ، اي تسبيحيين فقط ، واحداً في الليل والآخر في النهار .

---

١ - ان هذه الجملة - اللهم من يشبهك - واردة فقط في النص السرياني ، واما في بقية الترجمات فليست موجودة فيبدأ المزمور - اللهم لاتكن ساكتاً -

٢ - ترد هذه الجملة مكررة في النصوص السريانية والانكليزية والاميركانية العربية اما في العربية المسوعة فليست مكررة .

الفصل الثالث

وجوب الترتيل بخشوع وبكاء

اتفق الآباء جميعاً ، بوجوب ممارسة تلاوة المزامير بخشوع وبكاء ، ويقولون من كان قلبه قاسياً وليس له استعداد للبكاء فليذلل قلبه ، ويؤنب ضميره بتذكر معاصيه وتعداد اثامه ، وتصور العذاب المعد للأشرار اضرابه ، وهكذا يرق قلبه القاسي فيبكي .

روى ناسك فاضل قال : رأيت في الحلم كأني ارتل المزامير امام داود بن يسى ، فقال لي : اعجب منك ؛ كيف تعلمت الترتيل ولم تتعلم البكاء ، او لم تسمع اني (غمرت في كل ليل فراشي ، وبدموعي غسلت دثاري ؟) ان هناك اناساً لديهم استعداد طبيعي للبكاء بدون دافع ارادي ، ومثل هؤلاء ليس بكاؤهم ممدوحاً ، على حد قول الفاضل مار اسحق : نادِ بالطوبى لمن له استعداد طبيعي للبكاء بدافع ارادي ، فقد وجد من طبيعته عضداً لارادته ، ومن كان له مجرد استعداد للبكاء فلا خير فيه ، ولا تنادِ بالطوبى لمن كان فاقد اللب .

الفصل الرابع

اسباب البكاء

ان الآباء يعرفون ثلاثة اسباب للبكاء في الانسان :

الاول (قوة اللذة التي تستولي على العقل ، والاعجاب الشديد بالامور الظاهرة ، وهذه تغرق العقل بالمعاني الروحية الغامضة .

الثاني (شدة الحب لله ، الحب الذي يلهب النفس فلا يمكنها الاحجام عن البكاء لشدة عذوبته .

الثالث (تواضع القلب العميق ، ويتولد تواضع القلب في الانسان عن سببين اثنين اما معرفة ذنوبه ، واما ذكر عظمة الله ، وحيث يوجد حب الله حقاً ، او الاغراق في الاعجاب بعظمة اسراره ، هناك يخشع القلب تواضعاً وتهيباً ، فلا يستطيع الانسان

الاحجام عن البكاء ، وان كان غير مقتصد ، ومن ليس فيه خشوع ، فانه لايفقه شيئاً من ذلك وان كانت فيه فضائل عظيمة اخرى ، واذا سمع بالبعض انهم يبكون دائماً ، يعجب ويظن انهم انما بارادتهم يبكون ، او فطرت نفوسهم على ذلك ، فمن ليست له دموع اذن ، فليس فقط مجرد عن الدموع ، بل هو مجرد عن اسباب الدموع ، وليس في نفسه ما يفجّرها ، اي انه لا يشعر بعذوبة معرفة الله ، ومحبته ، ولم تخطر على قلبه فكرة اسرار الله ، وهو فاقد اللب .

الفصل الخامس

الاحساس الذي يثور في الكاملين لدى الترتيل

ليس الاحساس الذي يثور في الكاملين بدافع الترتيل مجرد احساس ، بل تثور فيهم احاسيس ومشاعر كثيرة وعميقة الغور بعيدة الآفاق ، والاحساس الاول يثور فيهم لدى تأملهم بعطف الله تعالى علينا ، فانه اسمعنا كلمته الحية السامية التي لايدركها الكروبيم ، ولا يستطيع سماعها السروفيم ، فقد نقلها الى عقلنا الضئيل متجسدة بجسد ترابي كثيف ، وهي على حد تعبير الكاملين قد هبطت الى مستوى افهامنا ، كما يحدث احياناً وتهبط كلمتنا الى مستوى مدارك البهائم والطيور اذا رغبنا في ملاطفتها او مجافاتها حيث نستعمل اصواتاً تلائم طبيعتها ، كذلك عندما اراد الله — تمجد وتعالى — هدايتنا الى طرقه القويمة ، ارسل كلمته السامية مجلببة بجسدنا البشري ، ليفهمها عقلنا الضعيف .

انهم يحسون ايضاً بغزارة مواهب الروح القدس ، وقد اشرق من ابي الانوار ولم ينتقل ، والتدع في عقول الانبياء وظهر للعالم اقباساً من قلوبهم النقية ، كأنه حُبِلَ به في البطن ، فملأ الكائنات من معرفته .

ويشعرون ايضاً ، كمشاعر روحية سامية ، تثور في نفوسهم من معاني المزامير السامية ، وبلفظ كل جملة او سماعها يكتسبون حالات روحية جديدة سامية ، فاذا سمعوا قول المزامير (اعبدوا الرب بخوف وعظموه برعدة) يثور

فيهم الخوف ويعتريهم الهلع ، واذا ما قرأوا قول (اغضبوا ولا تخطئوا) فانهم يحجمون عن الخطيئة اتقاء لغضبه ، واذا ما رتلوا قوله (انت رجائي من الرحم ، املي من ثديي امي) تتوهج فيهم الآمال الروحية ، وتبسم لهم الحياة كلها ، وهكذا كلما طرق سمعهم صيت فضيلة ، أو نبأ شر ، يسمعون الاولى بشغف ، والثانية بكره واشمئزاز .

واذا ما قرأ الرجل الحكيم قوله (طوبى لمن هم بلا عيب في الطريق) فلا يعتقدنّ انه من صنف هؤلاء بل يجاهد لكي يصبح منهم ، ويتهيج شعوره اذا ما رتل قوله (ان معاصي قد طمت فوق رأسي) يشعر كأنه هو بذاته المقصود بهذه الكلمات .

ويثور فيهم الشعور بالتسامي الروحي اذا ما واصلو الترتيل ، واذا رسخت معاني المزامير في نفوسهم رسوخاً عميقاً ، يشعرون كأن داود بذاته ينشد المزامير بنغماته الروحية العذبة ، حتى وان كانوا صامتين . فتتسامى عقولهم فوق اوضار المادة ، وتتلاشى الاصوات والكلمات عن اسماعهم ، وتستحيل المعاني الروحية الى اعذب من الالحان في اذهانهم .

وهناك درجات اخرى تشبهها او تفوقها سمواً ، وهي درجات الخالدين في السحب الروحية بعقولهم ، حيث يستحيلون الى عقول مجردة ، سابحة في عوالم جديدة .

الفصل السادس

تفهم المزامير ذو أثر وفائدة

ينصح المرشدون تلاميذهم بمواصلة ترتيل المزامير ، بتفهم او بدون تفهم ، وغايتهم من النصح بالترتيل بدون تفهم احياناً لانه يقود استمراره الى التأصل والتفهم اخيراً ، وينصحون ايضاً ان يقلل المرتل من المزامير ويحرص على الفهم والتفكير ، فذلك يؤدي الى الفائدة المتوخاة ، وقد قال الملفان : من الضروري ان يشفع القراءة بالتفسير ، اذا كان المرتل أمياً ، ان القليلين يفهمون المعنى حتى اذا كانوا يقرأون ، فضروري اذن ، الحد من القراءة في سبيل تفرغ

النفس لتفهم المعاني واضحة . ان البهائم تسمع الاصوات ولكنها لا تفهم المعاني ، فليحرص العقل اذن ، على اصطياد المعاني وتفهمها ؛ فالتفهم يظهر روعة القراءة . (مار يعقوب السروجي) .

ويسبق التفهم امران ضروريان ، الاول جمع شتات العقل من الطياشة في الافكار الدنيوية ، والثاني ، اجلاء معاني كلمات المزامير ، وهذا يكون بتكرار الجمل ، يحكى عن احد الفضلاء انه كرر عشرين مرة اية المزمور القائلة (فيكون كالشجر المغروس على مجاري المياه ، الذي يؤتي ثمره في اوانه ، وورقه لايذبل) وكان يريد من تكرار هذه الآية ، ويردد في عقله الشجرة والجدول ، والثمر الذي ينضج في اوانه ، والاوراق التي لا تذبل ؛ ويقابل كل ذلك بالرجل الصالح واعماله وكان فاضل اخر يتدارس شهراً كاملاً الآية القائلة (لذلك لا يقوم المنافقون في الدين) وكان يسأل المفسرين . وكان ناسك اخر يتعلم المزامير فوصل الى الآية القائلة (قلت اني احافظ على طرقي ولا اخطىء بلساني مز ٣٩ : ١) توقف عند هذا المزمور ولم يتابع القراءة ، وكان يقول : عار علي ان انتقل الى مزمور جديد ولم اتعلم هذا بعد .

الفصل السابع

لكل شأن وميل نفسي مزمور خاص

اذا رغبت ايها الأخ تطويب انسان صالح فأتلُ المزامير (١ و ٣٢ و ٤١ و ١١٢ و ١١٨ و ١٢٧) واذا رغبت لوم اخوان الغش فأتلُ المزمور ٢
واذا اُضطهدت فرتل المزمور ٣ .
واذا دعوت الله في الضيق فرتل المزامير ٤ و ١١٥ و ١٤١ .
واذا كمن لك الأشرار فرتل المزمور ٥ .
واذا شعرت بتهديد الرب فرتل المزمور ٦ و ٣٨ .
واذا تآمر عليك الأشرار فرتل المزمور ٧ .

ولاظهار نعمة الرب في كل مكان رتل المزمور ٨ ولايقاف العدو رتل المزمور ٩
وعند الاتكال على الرب رتل المزمور ١١ وضد الشر المتطاير رتل المزمور ١٢
واذا تطاول الشر عليك رتل ١٣ وضد الذين ينكرون العناية رتل المزمور ١٤
ولكي تعلم من هو ابن ملكوت السماء رتل المزمور ١٥ واذا رغبت بتعلم صلاة موسى مز ٩٠
واذا نجوت من الاعداء والمضطهدين مز ١٨ واذا ادهشك نظام الكائنات مز ١٦و٢٩و٢٢
واذا عزّيت الحزانى مز ٢٠ واذا نجحت في امر مز ٢٣
واذا احاطك اعداؤك مز ٢٥ واذا سلمت لله أمرك مز ٢٦ و ٣٥ و ٤٣
واذا كثر مناصبوك مز ٢٧ واذا خشيت اعداءك مز ٢٨
واذا شكرت الله مز ٢٩ واذا ابغضك اصدقاؤك في سبيل الحق والعدل مز ٣١
واذا رأيت الذين يخلصون من المهالك بالعماد مز ٣٢ واذا نجوت من اعدائك مز ٣٤
ولتعلم ان الشر ليس في طبيعة الاشرار بل في ارادتهم يخطئون مز ٣٦
ولكي تبتعد عن الشرور مز ٣٧ ولتصلح شأنك ولاتخطيء مز ٣٩
ولتتعلم كيف تفيد من الصبر مز ٤٠ وان يرحم المساكين مز ٤١
ولكي لا تضطرب اذا عيروك مز ٤٢
ولتذكر عطايا الله ونكران البشر للجميل مز ٤٤ و٧٨ و٧٩ و١٠٥ و١٠٦ و١٠٧ و١١٤
وعندما تظهر عطفك مز ٤٦ وعندما تخطيء وتتوب مز ٥١
واذا ثلبت مز ٥٢ و ٥٤ و ٥٦ واذا يغفلك المضطهدون مز ٥٧ و ١٤٢
واذا نجوت من السجن مز ٥٩ واذا عيرك الاعداء المتظاهرون بالصداقة مز ٥٥
وضد المتكبرين مز ٥٨ وضد الذين يناصبونك العداء بقسوة وعنف مز ٦٢
واذا طردت الى البراري فلا تخف ورتل مز ٦٣ واذا مجدت الرب مز ٣٥
واذا طلبت الرحمة مز ٦٧

واذا رأيت الاشرار في نعمة والابرار في ضيق فلا تخف ورتل مز ٧٣

وهكذا ضع بقية المزامير لاهداف اخرى ، وفيها ترى ايضاً ادلة واضحة على ميلاد الرب الزمني ومن الآب الازلي ، ومجيئه بالجسد ، وحقد اليهود وتسليم يهوذا الاسخريوطي والصليب الفادي .

الباب الرابع
الالحـــان
وفيـــه تسعـــة فصول

الفصل الاول
رأي النساك الذين لا يحبذون الالحان

يقول هؤلاء ان كل لذة مادية لا تستهدف قوام الجسـد الضروري هي من الشرير ، ولذة الالحان ليست ضرورية بدليل ان عدمهـا لايضر بالجسد بوجـه من الوجوه ، واذا كانت كلمة الله قد اجازت للاجيال الماضية باستعمال الالحان والتراتيل فذلك لايهدف الى فائـدة روحية تجنى منهـا ، بل لان تلك الاجيال كانت متأثرة بالعقلية الوثنية ، وكان من الصعب تغييرها ، والعادة ليس من السهولة استئصالهـــا فجأة ، مثال ذلك ، ان بني اسرائيل الذين تأثروا بالحيـــاة المصرية الوثنية لطول اقامتهم في مصر ، سمح الله لهم بممارسة الذبائح الدموية ، فكان يعلم لو منعهم عنها فجأة ، لمـا اطاعوا ، ولكن امرهم ان يقدموا الذبائح له فقط ، وبذلك لجم ميولهم المنحرفة نحو عبادة الاصنام ، حتى اذا ما بلغوا الى عقلية روحيـة كاملة ، هبطت الآية على داود (لا اخذ من بيتك ثيراناً ، ولا من قطيعك جداء مز ٥٠ : ٩) وقال الله ايضاً : (اني لا اكل لحم العجول ولا أشرب دم الجداء اذبح لله حمداً واوف العلي نذورك مز ٥٠ : ١٣ و ١٤) وقال ايضـــاً : (فانك لم تسر بالذبائح ولم ترضَ بالمحروقات الكاملة ، انما ذبائح الله روح متواضعة مز ٥١ : ١٧)

وكذلك اجاز الترتيل على انغام القيثارات وسائر الآلات الموسيقية ، لانهـم نشأوا على سماعها مرافقة اعياد الشياطين وحفلات الاصنام وذبائحها ، ولكنه حذر اخيراً بفم النبي جهـاراً فقال : ابعد عني صوت ابواقك ، فلن اسمع بعد رنـــة كناراتك ويقول اصحاب هـذا الرأي ان كل ذلك يدل على عـدم وجوب استعمال

الانغام والالحان ، والاجدر من كل ذلك ينبغي تسبيح الله بهدوء كما علّم الرب تلاميذه ، وكما ناجى موسى الله في العلّيقة ، ويجب استعادة قول الرسول بولس ان هناك (كلمات لا ينطق بها ، وان الروح يصلي من أجل القديسين بتنهدات . وبخلاف ذلك يقولون انه اذن مباح للرهبان العودة الى الدنيا والتمتع بآية الرجس التي هي محبة الدنيا ، وهي ماثلة في كل مكان مقدس ، . ان الرهبان ذوي الاصوات الرخيمة الذين اعتادوا منذ حداثتهم على الانشاد ، ولا يحرصون على تذوق سعادة الزهادة الروحية ، بل يندفعون لحضور الحفلات العامة غير مدركين ان عبادة الله انما تكون بالروح والحق ، وبالصمت الروحي العميق الذي يفوق عذوبة جميع الانغام والالحان ، ان مثل هؤلاء ننصحهم ، اذا كانت لنا دالة ، الا يتمادوا بارسال الالحون ، ليحرصوا على تأدية المعاني الروحية لتهذيب عقولهم ، وليرسلوا لحونهم في سبيل السمو الروحي الفائق والتسبيح الرخيم لله ، والتمجيد للمسيح .

الفصل الثاني

الرأي الصيدالي الذي ينادي بمرافقة آلات الطرب والرقص للترتيل

يقول اصحاب هذا الرأي ، ان الفكرة المحرمة ، اما ان يحرمها العقل او الكتاب ، اما تحريم العقل لهذه الفكرة ليس صحيحاً ، بدليل تمتع الاذن بالالحان تمتع العين بالمناظر الجميلة ، وتمتع حاسة الشم بالروائح العطرة ، وكما ان رؤية المناظر الجميلة وتنسم الروائح العطرة ليس محرماً ، كذلك الالحان ليست محرمة . ولا جالبة للخطيئة ، ويقولون ايضاً : ان اللحن اما ان يصدر عن تغريد طير ، او غناء انسان ، او صليل آلة ، وواضح ان تغريد الطيور لايجلب اثماً ، وكذلك غناء الانسان ، وصليل الآلة الموسيقية .

والكتاب ايضاً لم يحرم اللحن ، بدليل التقاليد العبرية القديمة ، فان النبي داود رتب اربعة رؤساء اجواق الترتيل بالالحان المتنوعة ، وكل جوقة كانت مؤلفة من اربعين مرتلا ، وكان دأبهم الغناء والترتيل . وفي الترتيل الآلي يقولون ، لو

كان ذلك محرّماً ، لما استعمله الآباء القديسون ، وقد قيل عن مريم النبية اخت هرون انها اخذت دفّاً وخرجت معها النساء بالدفوف والطبول وكنّ يغنين ، وقال داود : (تقدم الرؤساء حاملين الكنارات في عذارى ينقرن الدفوف مز ٦٨ : ٢٥ وهو يشير الى الفتيات العبرانيات الناقرات بالدفوف على اثر انتصار داود على جليات اللواتي كن يغنين (قتل شاول الوفه وداود ربواته ١ صم ١٨ : ٧) وقال داود ايضاً : (سبحوه بصوت البوق سبحوه بالعود والكنارة ، سبحوه بالدف والرقص سبحوه بالاوتار والمزمار ، سبحوه بصنوج السماع ، سبحوه بصنوج الهتاف مز ١٥٠ : ٣-٥)

وفي الرقص يقولون ، كيف نحرمه ، وهوذا داود وهو أفضل منا ، ودعي قلب الرب ، كان يسير أمام تابوت عهد الرب راقصاً ، وقيل في الانجيل (غنّينا لكم فلم ترقصوا ، ونحنا لكم فلم تبكوا مت ١١ : ١٧) وبينما قيلت هذه الجملة بصيغة التوبيخ ، الا انهم يعطونها قوة ايجاب الرقص في الافراح ، والنواح في المآتم .

الفصل الثالث

رأي من يجيز بعض الالحان ويمنع بعضها ؛ وهو الاصوب

يقول هؤلاء انه ليس كل لحن يليق بقداسة الله ولا كل غناء تحرمه الكنيسة ، ذلك لان بعض هذه الانغام روحي ، وهي الانغام البيعية ، وبعضها شعري ، وهي الانغام الدنيوية ، والنغمة الروحية هادئة ورصينة وشجية ، تثير في النفس الخشوع ، وبعد ذلك تربي في النفس الميول الروحية فتغسل بدموعها ، وتطهر من الشرور والآثام ، بينما تلهب الشجاعة احياناً وتكسب العقل قوة روحية ، فقد كان إرميا ينشد ألماً وحزناً على خراب اورشليم ، مشيراً بذلك الى جهاد النفوس الروحي ، وهكذا كل الانبياء كانوا ينشدون التراتيل الروحية .

واما النغمة الشعرية الدنيوية ، فانها مبتذلة واحياناً رخيصة مائعة ، وبين مطاويها اهواء منحرفة تثيرها في النفس ، فتصطادها وتزجها في الشر . قال احد المعلمين : لم اجد الى اليوم شاعراً مغنياً يصدر الالحان من صميم قلبه

او يقرع صدره ، او يخمد الميول المنحرفة ، او يحني عنقه الى الارض فيسقيها بالدموع ، بل بعكس ذاك ، يقف منتصباً ، يحرك رأسه ، ويحرك عنقه ذات اليمين وذات الشمال ، ويشير بيده ، ويفرقع اصابعه ، وكثيراً ما يركل الارض برجليه ، والذين يسمعونه ونفوسهم مائعة ، افواههم مفتوحة ونظراتهم في الفضاء زائغة ، وهم مفتونون بلذة كاذبة عابرة .

وقال الجليل اوغريس : ـ مميزاً بين الغناء المبتذل والترتيل الروحي — ان الاغاني المبتذلة تثير الميول المنحرفة والنزعات العارمة في كوامن النفس ، والتراتيل الروحية والمزامير ، والتسابيح تجتذب النفوس الى رياض الفضائل ، وتخمد الحقد والغضب ، وتطفىء الميول الملتهبة ، ولذلك لا يجب ان نخلط بينهما ، بل لنرتلن بهدوء وقداسة ، كما كان يفعل النبي موسى ، وبنو اسرائيل يوم سبحوا تلك التسبحة الرائعة وقالوا : اننا نمجد الله بالتسبيح والترتيل الواجب ، وحيث وقّع هذه الترتيلة الخشوعية قال (اني باسم الله ادعو) مشيراً الى ترتيلة انوش الذي هو اول من هتف مشيداً باسم الرب مرتلا ، وعنه اخذ الترتيل في الاجيال المتعاقبة ، وطبقاً لذلك اخذت بيعة الله تمارس الترتيل الروحي . وفي قصة موسى نجد ان ترتيلة قصيرة كانت منقوشة على احد الآبار ومن قراءتها نعرف جلياً ان هذه الترتيلة لم تنشد مع نقر الدفوف كما فعلت مريم ، بل بهدوء وتنغيم رصين يليق بالعزة الآلهية .

اما الآلات الموسيقية وان استعملها النبي داود بالهام الروح القدس ـ وكان صغيراً بين اخوته ومحبوباً في بيت ابيه تصلح يداه للعود واناملـه للقيثارة ـ الا ان هذه الالات تستعمل في ايامنا للطرب ويرافقها السكر والعربدة ، لذلك ليس استعمالها مباحاً ، وربما يمكن الترتيل بآلة النفخ التي تستعملها الكنيسة الرومانية (اعتقده يقصد الارغن) ويمكن ايضاً استعمال غيرها من الآلات الموسيقية احيانا ولكن بحذر شديد ، كما يعقد دوائر للغناء الالي اليونان والرومان والسريان التكارتة ، ويباح للشبان العلمانيين استعمال آلات الطرب ولكن ليس دائماً بل فقط

في حفلات الفرح ، واما النساء (المؤمنات) وبنات العهد (الراهبات) تأذن لهن القوانين بترتيل الاناشيد الروحية والمداريش بينهن وليس في الكنيسة .

الفصل الرابع

من وضع الاغاني الروحية في الكنيسة السريانية ومتى ؟

منذ زمن مجمع نيقية المقدس شرع قديسنا مار افرام ينتج الاناشيد القدسية والمداريش ، ضد اهل البدع في زمانه ، ونبغ ملافنة آخرون امثال مار اسحق وبالاي (اسقف باليش) وغيرهما استمدوا التسابيح من آيات مزامير داود . وفي عهد مجمع افسس ظهر اناس قوقيون (خزافوق) اتقياء حركهم الروح القدس فانتجوا اناشيد روحية كثيرة ، وبعد سنة ٤٥١ نبغ اللاهوتي الكبير علامتنا (نحن السريان)مار سويريوس فألف اناشيد روحية باليونانية وترجمت حالاً الى السريانية ، رصّعها بالمعاني اللاهوتية السليمة ، وقدم عليها ايات من المزامير . وفي عهد يعقوب الرهاوي والعلامة جرجس اسقف العرب ، وضعت في ـ الطقس السرياني ـ التسابيح المعروفة بالقوانين اليونانية ، الف بعضها عالم دمشقي اسمه قوريني بن منصور ، كما الف بعضا الاخر راهب يدعى قوزما الذي ابتكر ما يعرف بـ(القوقلين) او (القوانين) وهي اكثر عذوبة من الاناشيد التي وضعها قوريني . وقوريني هذا كان من اتباع المجمع (الخلقيدوني) الا انه لم يتطرق بتسابيحه هذه الى المواضيع اللاهوتية المختلف عليها ، ولذلك اخذت تسابيحه وقوانينه طريقها الى كنائسنا في الشرق والغرب ، كما اكد لنا الاسقف عزيز ابن العجوز .

وكيفما كان ، فان الكاملين الذين لهم فكر المسيح ، لا يحتاجون الى الالحان الصارخة ، لانهم يناجون ربهم بألفاظ ناعمة هادئة ، وبافكار روحية صامتة ، اما الذين هم اقل درجة في الكمال الروحي ، والذين لم يزلوا يحملون العقول الصبيانية فانهم بحاجة الى صخب الالحان وارتفاع الأصوات ، ولذلك اعطاهم الاباء هذه الطريقة لكي يسبحوا الله بها طبقاً لرغباتهم ، لكي ينادى بالمسيح سواء بالكلام او بالحق .

الفصل الخامس

الاسباب التي من اجلها دخلت الالحان الى الكنيسة

اني اعرف سببين اثنين ، من اجلها وافق الاباء القديسون على ترتيل التسابيح الروحية في الكنيسة المقدسة .

السبب الاول : ان النغمة بعذوبتها تخفف من وطأة الاتعاب النسكية ، وتلهي الناسك فينسى الشعور بالوقت والملل ، واذا عدم الانسان الشعور بالوقت والملل يعدم ايضاً الشعور بشدة وطأتهما واعبائهما ، وهذا الهدف يظهر واضحاً في الاطفال الذين اذا آلمهم شيء يلوذون بالبكاء ، واذا ما ناغتهم الأم بالحانها أنستهم ما كانوا يتألمون منه فتهدأ فيهم سورة البكاء ، ولا شك ان اللحن يؤثر ايضاً في الحيوانات فهذه الجمال مثلاً يقودها الحادي بالحانه ، وعلى ظهورها احمال ثقيلة تخفف عذوبة اللحن البسيط وطأتها ؛ فتقطع المسافات البعيدة ولا تشعر بالجوع او العطش او الاعياء.

والسبب الثاني : ان اللحن يؤدي الى زيادة تفهم المعاني الكامنة في التسابيح الروحية ، وذلك على وجهين ، الاول : ان نظام الكلمة المرافق للنغمة يغطي امتداد الابيات وطول الوقت ، ويفسح مجالا اوسع للعقل لادراك المعنى وتفهمه ، والثاني ان الكلمة التي تلفظ بعذوبة موسيقية تكون افعل في النفس واحبها اليها . ولذلك تخشع النفس مستأنسة ويضطرم شوقها الى الله مستغرقة في تأملاتها .

الفصل السادس

اللذة المتولدة من اللحن وسببها

يقول الحكماء بشأن اللذة الحاصلة من اللحن المتناغم ، ان كل لذة انما تتولد من الشعور الباطني الذي يثير العقل وينعش الضمير ، وخاصة اذا كانت كل مقوماته موجودة ، واذا كانت فيه هذه المقومات ناقصة فان اللذة تسمو وتنخفض بالنسبة الى قلتها وكثرتها ، واللذة التي تجنى من عذوبة الالحان ، تؤثر في النفوس الرقيقة الحساسة

اكثر من تأثيرها في غيرها ، لأن اللذة الكاملة تكون باستمداد المتعة الروحية ، بعد ألم زوالها ، ولذلك اذا داعبت نغمة عذبة الحس ثم غابت ، تليها النغمة الثانية فتعيد اللذة العابرة بتوقف النغمة الاولى ، وإذا ما غابت هذه ايضاً ، تتبعها نغمة جديدة فتعيد الهدوء والسعادة الى ساحة النفس من جديد ، وهكذا كل ألم يعقبه عزاء ولذة ، وبعد كل ضيق تأتي سعادة جديدة اعظم ، وعليه فان الارواح الحساسة الرقيقة بادراكها الشفاف الواسع تدرك اللذة وتتجدد فيها السعادة كلما داعبتها نغمة جديدة عذبة ، وان الارواح الكثيفة المضطربة فبشعورها الضيق لا تأبه لنغمة عبرت ، ولا تشعر بلذة النغمة الجديدة التي هدرت .

الفصل السابع

اسباب النغمة الطبيعية

ان الاولين الذين ابتكروا الالحان ، بنوا هذا الفن على اربعة اركان هي اركان العناصر الطبيعية الاربعة ، الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، (١) ولا يمكن وجود أي منها مالم يركب مع عنصر آخر من العناصر الباقية ، كما يظهر ذلك في عناصر الطبيعة والاخلاط ، فالعنصر الحار اما ان يكون رطباً كالهواء والدم ، أو حاراً كالنار والمرارة الحمراء ، والبارد أيضاً ، اما ان يكون رطباً كالماء والبلغم ، او يابساً كالتراب والمرارة السوداء ، فمن الضروري اذاً ، ان تحصر انواع الالحان باثني عشر لحناً ، لان اللحن الموافق للحرارة والرطوبة ، اما ان يتفق معها اتفاقاً متساوياً ، ان يتفق مع الحرارة بصورة محدودة ، ومع الرطوبة بصورة أوسع ، أو بالعكس ، واللحن الموافق للحرارة واليبوسة ، اما

---

١ ـ ان تطبيق الالحان على العناصر الاربعة المعروفة ، ربما هو مستمد من طبيعة الحر ذاته ، فالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة مستمدة هنا من كيفية اداء ذلك اللحن ، وهي تمثل في العرف الحديث ، رقة اللحن او خشونته . نعومته او فخامته (المترجم) .

ان يزيد في قوة كلتيهما زيادة متساوية ، او يزيد في الحرارة بصورة محدودة واليبوسة بصورة اوسع ، او بالعكس ، واللحن المتناغم مع البرودة والرطوبة اما ان يتناغم معهما تناغماً متساوياً ، او يتناغم مع البرودة بصورة محدودة ، ومع الرطوبة بصورة اوسع ، او بالعكس . واللحن الذى ينمي البرودة واليبوسة ، اما ان يزيد في عنفهما زيادة متساوية او يزيد في عنف البرودة بصورة محدودة واليبوسة بصورة اوسع ، او بالعكس ؛ وبناء على ذلك ابتكر الموسيقيون الفرس اثني عشر لحناً اساسياً ولا نرى من الضرورة احصاءها هنا وايراد اسمائها . اما الملحنون الكنسيون اليونان والسريان وغيرهم فانهم اعتبروا اللحن المتطرف في العنف لحناً وقحاً وصفيقاً ، ولذلك اجتنبوه ، وابتكروا فقط ثمانية الحان اساسية وسموها (اكاديس) ومن الخبرة استدلوا ان :

اللحنين الاول والخامس ينميان الحرارة والرطوبة ، إلا ان في اللحن الاول رطوبة ضئيلة ليّنة ، وهي عذبة مُبهجة ، وعليه فقد نظم فيه طقس عيد الميلاد ، لانه احتفال فائق البهجة ، وفيه اذيع الفرح الذي غمر العالم كله ، ومثله طقوس القيامة حيث جلبت الغبطة للتلاميذ والتلميذات والعالم اجمع . اما الخامس ، فانه حار جزئياً وفيه نظم طقس عيد الصعود ؛ لان فيه فارق الرب تلاميذه صاعداً الى السماء ، فاضطرموا شوقاً اليه ، والتهبوا بحبه الالهي ، ولولا كثافة الجسد لارتفعوا معه الى السماء .

والثاني والسادس ، يعززان البرودة والرطوبة ، الا ان البرودة المتوسطة توجد في اللحن الثاني على قياس اوسع ، وعليه نظم فيه طقس العماد ، لان فيه اذيع جلال عظمة الرب ، وان كان قد تنازل فاعتمد من عبده يوحنا ، الا ان تلك العظمة أذيعت بحلول الروح القدس عليه وصوت الاب القائل (هذا هو ابني الحبيب له اسمعوا) وبما ان الرطوبة هي أكثر موافقة للحزن ، وهي الاضعف ، وهي أكثر ظهوراً في اللحن السادس ، لذلك نظم فيه طقس خميس الاسرار ، وسبت البشارة لانها ذكريات حزن والم .

والثالث والسابع ، انهما ينميان الحرارة واليبوسة ، إلا ان اليبوسة الجافة المنيفة هي أكثر عنفاً في اللحن الثالث ، لذلك نظم فيه طقس دخول الرب الى

الهيكل ، لان فيه خاطب الشيخ سمعان العذراء بعنف وقسوة اذ قال لها (وانتِ سيجوز سيف في نفسك لو ٢ : ٣٥) والحرارة النارية التي تلتهب بقوة فانها في اللحن السابع لذلك نظم فيه طقس عيد العنصرة ، ففيه حل الروح القدس على التلاميذ بشبه ألسنة نارية .

والرابع والثامن ، فيها البرودة واليبوسة ، ولذلك نظم طقس عيد البشارة باللحن الرابع ، لان العذراء غير المتزوجة ، سمعت بالحبل والولادة هالها الامر فارتاعت ، وخشيت ان تخدع كما خدعت حواء في الجنة ، وكأني بها قالت للملاك : اخشى ان تخدعني ايها المبشّر كما خدعت امي حواء ، بين الاشجار ، وعليه ففيه ايضاً نظم طقس عيد السعانين لان فيه الملك المتربع فوق الكروبيم ركب بتواضعه جحشاً حقيراً بائساً . واليبوسة العنيفة القاسية غزيرة في اللحن الثامن ، لذلك فيه نظمت طقوس اعياد الشهداء الذين قاسوا العذابات الهائلة ، وتألقت فيهم بطولة النفس الفائقة .(١)

هذه هي الدعائم التي بنيت عليها الالحان طبقاً لما نظمه الحكماء الاولون ، والذين جاءوا بعدهم ، وان لم يصيبوا سمو معارفهم الا انهم نسجوا على منوالهم ، فحرصوا على الحفاظ على هذا الفن ، لمؤهلاتهم وان كانت ضعيفة .

---

١ ـ من المعروف ان الالحان الثمانية المستعملة في الكنيسة السريانية نظمت عليها الطقوس طبقاً لموضوعها ، كما ترى هنا ، وتسير الآحاد ايضاً طبقاً لنظام آخر معروف لدى الطقسيين السريان ، أما الحان ايام الاسبوع البسيطة فتكون تابعة للحن يوم الاحد الذي يسبقها ، فاذا كان لحن الاحد هو اللحن الاول مثلا ، ـ والمعروف ان اللحن الاول يوافقه اللحن الخامس ـ ففي ايام ذلك الاسبوع يتناوب اللحنان الأول والخامس ، ثم الثاني والسادس ، ثم الثالث والسابع ، ثم الرابع والثامن ، وهكذا حتى نهاية السنة الطقسية ، وهذا هو السبب في ان المؤلف يشرح كيفية استعمال الالحان بهذه الكيفية ، مراعياً تجانسها هذا (المترجم)

الفصل الثامن

درجات الفهم لمعاني صارة الترتيل

ان درجات الفهم لهذه المعاني ثلاث :

الاولى ـ درجة البسطاء : وهم الذين تتمتع نفوسهم باللحن فقط ، دون ان يفكروا بالمعنى الذي يتخلل الجمل والكلمات ، ومثل هؤلاء ليست لهم اية فائدة او اية خسارة ، من تبديل اشكال الكلمات او اوضاعها .

الثانية ـ درجة المفكرين : وهم الذين يشعرون بعذوبة الكلمات شعورهم بعذوبة اللحن ، وهؤلاء اما ان من الشباب ذوي الاهواء الجسدية العنيفة ، وهم يفسدون فهم معنى العبارات الملحنة ويسيئونها طبقاً لاهوائهم المنحرفة ، فمحبة الله يفسرونها بالمحبة الجسدية ، وشوق النفس الى ربها يحولونه الى شوق الى الامور المادية ، والاهواء المتشعبة الكامنة في قلوبهم ، وخاصة اذا رتلت التراتيل الخاصة بجمال بيعة الله والنفس الخالدة المستمدة من المزامير او من نشيد الانشاد ، منها الجمل الآتية :

ابنة الملك في المجد قامت . وبالهدايا تذهب الى الملك ، والعذارى رفيقاتها معها ، وخداك جميلان كجنة الاطياب ، وجدائلك كارجوان الملك ، والعنق الرقيق كالحصن ، والشعر كقطيع المعزى ، والاسنان مثل الغنم الصاعدة من الماء ، كلها متئم وليس فيها عقيم ، وعيون كبرك حشبون ، وحنك مثل الخمرة الطيبة هلمي لكي ننظر اليك ، سبيتني باحدى عينيك ، وما الى ذلك من التعابير .

ان مثل هذه الجمل ينسبونها الى شخص معين ، فتثير فيهم الاهواء العنيفة المضطربة ، وعوض الفائدة تلحقهم خسارة روحية كبيرة ، من سماع هذه الالحان .

الثالثة — درجة الكاملين : وهم الذين لهم ذهن المسيح ، وافكارهم متعلقة بمحبة الله ، وهؤلاء ، كل كلمة يسمعونها تدل على المحبة ، يعزونها الى محبة الله الروحية ، كمحبة النفس لربها ، فالآية القائلة مثلا (احبتك العذارى) يفهمون

بها النفوس الطاهرة التي احبت المسيح ، والآية القائلة (انا وجميلة) يعزونها الى اسوداد النفس بالآثام وجمالها الاصيل الذي هو من اصل إلهي ، تأييداً لقول الله (نخلق الانسان على صورتنا كشبهنا) والآية القائلة (أدخلوك الى مخزن الخمر) يقصدون بها ثمل النفس بالمعرفة الروحية السامية ، وهم يفهمون بالجسد جلباباً يحجب النفس عن ربها ، ويفهمون بالآية القائلة (انه واقف خلف حائطنا يتطلع من الكوى ويرقب من الشقوق) انقشاع كثافة الجسد لتتجلى له الرؤى والالهامات . والآية القائلة (وجدني الحرس الطائف في المدينة ، ضربوني وجرحوني ورفعوا ازاري عني) يفسرونها بالشياطين المترصد خطوات النفس فتنزع عنها مجدها الروحي ويفسرون (الثعالب الصغار المفسدة للكروم) باهواء الجسد العنيفة .

وهكذا يجدون لكل جملة من هذا القبيل معنى سامياً من المعاني الروحية ، وان لم يكن يقصد ذلك قائلها ، مثال ذلك الاب اوغريس كان سائراً مرة في شوارع مصر ، وسمع طفلاً يقول لأمه ، ان احد الاغنياء يحبني ولكنني اكرهه ، وفقير يكرهني وانا احبه . قال لتلاميذه : الذين كانوا معه ، بالحقيقة ان الله غني ويحبنا ولكننا لا نريد طاعته ، والشيطان فقير وهو يكرهنا ؛ ولكننا نحب شروره .

وسمع اخ فاضل طفلاً يتهجّى العبارة القائلة (عودي يانفسي الى راحتك) تنهد وقال : كم اقول لها عودي وهي لا تعود . وسمع احد الفضلاء العارفين اغنية تقول (حبيبي المتوهج الضياء ، جماله الفتّان يشبه القمر الذي يتبدل نوره كل يوم ويتغير) قال : لا تبدل في جمال المسيح السامي ، ولا تغير في اشعته المتوهجة ولكن باختلاف اتباعه يحدث تبدل بالهاناته ، وبتغير افكار الناظرين اليه تتغير اشباه منظره.

الفصل التاسع

تأثير الالحان في النفس

بعد اللذة التي تنالها النفس من سماع الالحان وتفهم معاني عباراتها ، تتأثر بها تأثراً عميقاً او ضحلاً ، طبقاً لعمق استعدادها او ضحالته ؛ شوقاً كان

او رهبة ، ألماً او فرحة ، حزناً أو بهجة ، عزاء او ندامة ، امتداداً او انكفاء ، الى ما هنالك من التأثيرات والميول ، وهكذا تطرأ عليها تأثيرات عظيمة هذا مقدارها بحيث يتأثر الجسد أيضاً بتأثرها ، فتصيب الانسان حالة عنيفة تشبه الجنون وعلى حد قول الآباء : ان في لحظات الوحي التي بها يشف القلب بالحب الآلهي ، المتحد بالمسيح ، يخرج الانسان عن طوره الطبيعي ، فلا يمكنه السيطرة على نفسه الملتهبة ، حيث تطير فرحاً وابتهاجاً بما يفوق الطبيعة ، متلهفة الى تلك الرؤية الممجدة ، وتحاول حتى اجتذاب الجسد معها بكل كيانه ، بلحمه وعظمه وشرايينه لكي يتمتع معها بهذه اللذة الروحية الفائقة ، ومن المؤكد ان هذا الحب نفسه تأثر به داود فدعا جميع الامم واسباط اسرائيل لكي تصفق وتفرح وتبتهج ، وترقص امام تابوت عهد الرب ، باعواد الارز والصنوبر وبالقيثارات والكنارات والدفوف والطبول وبصنوج السماع ، وبما ان حركات الجسد غير الطبيعية هي علامات الجنون ، ولكنها هنا ليست رديئة لان جنونها متعلق بمحبة الرب ، وهدؤها هو دليل العقل ، فانه يحرص ان يهدّىء من روع اعضاء الجسد ، بقدر المستطاع ، ان المبتهج اذا كان من الطغمة الكهنوتية يحجم عن ذلك لان الرقص غالباً يذهب بالوقار والهيبة وربما عرض الكرامة الى الخطر ، والدليل على ذلك ، لما اطلت ملكيل ابنة شاول من الشباك فرأت داود يفرح ويرقص ويتظاهر بما يشبه الجنون امام تابوت الرب ازدرته واستهجنته وقالت : ما امجد اليوم ملك اسرائيل وقد ظهر امام جواري عبيده كأحد التافهين ، وكانت محقة ، لذلك لم يكذبها داود ، بل انتقم منها بعبارة مقذعة قال : اني امام الرب الذي فضلني على أبيك ، وكل آل بيته ، ورفعني مدبراً لشعبه اسرائيل ، فضحكت امام الرب . واني اقل من ذلك اذ اصبحت تجاهه ضئيلا في عيني نفسي ، لذلك تنازلت الى وسط الجواري لكي يرفعن قدري ، . ومن هذه الامور يظهر ان اللعب والرقص تكونان غالباً من دلائل الهوان .

الباب السادس

الصـــوم

وفيـــه سبعـــة فصـــول

الفصل الاول

تأثـــير الصوم وفوائـــده

بما ان الانسان خلق مزدوج الكيان ، عاقلا ومائتاً ، وقد اعطاه خالقه درجة اسمى من البهائم واحط من الملائكة ، ولذلك يمكنه اخماد ميوله المادية بقواه العقلية ، فاذا تسلطت عليه الميول المنحرفة يمكنه الصمود ضدها واخمادها بجهـــاد المتواصل ، ولهذا السبب ، كلما استسلم للميول هبط الى درجة البهائم ، وكلـــما انتصر عليها ارتفع الى درجة الملائكة ، وباقترابـــه منهم يقترب من العزة الالهية لان القريب من القريب قريب ، وهـذا القريب (الملائكة) ليس محصوراً بمكان لان الاجسام وحدهـا تحصر في كل مكان ، وليس الارواح ، ينتج اذن ، ان المجاهدين بالجسد ، يرتفعون الى سمو الملائكة ، باشكال خاصة من السمو ، ولمـــا كان الامر كذلك نقول :

ان الصوم متجه الى هذا الهدف ، لان عينيّ النفس تنتقى به الاوضـــار فتبصر الروحانيين ، وكمالهم ، وتتوق اليهم وتنجو من ثقل الاطعمة الدسمة ، المتنوعة التي تسدل ستار الظلام على بصيرتها بابخرتهـا المتصاعدة ، وتمنعها عن رؤية الامور الروحية ، ففي الانقطاع المتواصل عن الطعام ، تخمد الاهواء المنحرفـة ، والميول البشرية ، فتصقل مرآة النفس وتصبح صالحة لانعكاس الصور الروحية ، ويؤكد العارفون ان ذلك متأت من تأثير الصوم .

الفصل الثاني

انواع الصوم الاساسية

إن المتمسكين بفريضة الصوم ، أما انهـــم يتمسكون بها ، بالنسبة الى الزمن ، واما بالنسبة الى نوعيـة الاطعمة ، واما بالنسبة الى الاطعمة فقط ، دون النظر الى الزمن ، واما بالنسبة الى الزمن ونوعية الاطعمة معا ، وهذه هي انواع الصوم الثلاثة الاساسيـــة ، وأما الرابع وهو الصوم الذي لا يـــلاحظ الزمن ونوعية الاطعمة ولا يتقيد بها ، فليس قانونياً ، .

النول الاول — وهو صوم اليهود وغيرهم بحيث ينقطعون عن جميع الاطعمة نهاراً ، ويتناولون جميع الاطعمة ليلا .

النوع الثاني — وهو صوم غالبية المسيحيين ، الروم والارمن والايبيريين ، والسريان المغاربة ، والذين في الشمال الغربي ، ان هؤلاء ينقطعون فقط عن الاطعمة الدسمة ، وما يذبح من الحيوانات ومنتجاتهـا ، كمنتجات الحليب والبيض ، وذلك في جميع الاصوام ، ويقتصرون فقط على الاطعمة البسيطه كالبقول والفواكـــه والنباتات ، وهم يأكلون نهاراً ، وبعضهم يأكاون مرة واحـدة فقط ، وذلك في الساعة الثالثة ، والبعض في الساعـــة السادسة ، والبعض في الساعة التاسعة ، يأكلون وجبات كاملة بدون تحديد .

النوع الثالث ـ وهو صوم القبط والسريان المشارقة ، وجميع الذين يسكنون الجنوب الشرقي ، ان هؤلاء ينقطعون عن جميع الاطعمة منذ الصباح حتى المساء ، وفي المساء يأكلون الاطعمة المختلفة . والذين يأكلون نهاراً فانهم يأكلون الاطعمة البسيطة وينقطعون عن الاطعمة الدسمة بعكس الذين يصومون مساء فانهم لا يأكلون الاطعمة المقلاة والمطبوخة والمشوية .

وبما ان الرسل القديسين والآباء ، قد حددوا صومـاً بسيطاً في قوانينهم ، دون ان يوضحوا كيفية هذا الصوم ، لذلك اختلفت تقاليد الصوم عند المسيحيين .

ان النوع الاول هو ضد اهداف الصوم ، لان الغاية من الصوم اذلال الجسد وكبح الاهواء المختلفة ، واخماد الميول الجسدية ، لكي تضيء النفس التي اظلمت بظلام المادة ، وتتنقى كالمرآة من الاقذار التي تشوشها ، اما الذي يقاص معدته ويعذبها بالجوع النهار كله ، ثم يتناول في المساء الاطعمة الفاخرة فانه يشعر بلذة اعظم ، وبسبب هذه اللذة تتمشى الاهواء في جسده ، وبدهي انه لو لم يصم لما تناول هذه الاطعمة ومن هنا نستدل ان الصوم الافضل هو النوع الثالث المشار اليه ، والصوم الاجوف هو النوع الاول ، واما النوع الثاني فهو وسط بينهما ، لانه ليس شرهاً كالاول مجدباً كالثالث .

الفصل الثالث

درجات الصوم وقوانينه العامة

ان المعلمين الثقات ، يعرفون ثلاث درجات للصوم القانوني ، العام والخاص والأخص الصوم العام : هو الانقطاع عن الطعام والشراب نهاراً انقطاعاً كاملاً ، طبقاً لرأي بعضهم ، او الانقطاع عن تناول لحوم الحيوانات ومنتجاتها نهاراً وليلاً كرأي الاخرين .

والصوم الخاص مع الانقطاع عن الطعام والشراب انقطاع الحواس عن ممارسة اهوائها المنحرفة .

والصوم الأخص ، بالاضافة الى الانقطاع عن الاطعمة وتوقف الحواس عن الاهواء صوم النفس ايضاً عن الافكار الشريرة .

الصوم الخاص وهو لجميع المؤمنين ، وله اربعة قوانين عامة هي :

الاول – يجب ان يعرف جميع المؤمنين اوقات الاصوام السنوية وتواريخها ، وخاصة الصوم الكبير ، المقدس ، ولا سيما اذا كان احدهم في بلد غريب وبين ابناء الاديان الاخرى ؛ فانه يرتبك اذا كان يجهل موعد الصوم ، وليعلم كل مؤمن ان الصوم الكبير يصادف يوم الاثنين التابع الهلال الجديد لذي يظهر في شباط او آذار فيما اذا لم يظهر في شباط ، والمعروف ان الصوم الكبير هو ثمانية واربعون يوماً . وقد حدد مجمع الاباء الفرس : ان المؤمن يجب ان يشرع بالصوم الكبير اعتباراً من اليوم العشرين من شباط ويحتفل بالعيد الكبير في العشرين من نيسان ، اذا كان متغرباً ولا

يعرف حساب الصوم . ومن قوانين مار موريوس ، اننا لا نحل الصوم مساء السبت العظيم بل بعد صياح الديك ، ثم نبدأ بفرح العيد .

القانون الثاني : عندما يستيقظ المؤمن الصائم صباحاً ، فليصل ويقرر انه مستعد لمتابعة الصوم ، ويطلب الى الله ان يقبل صومه ، ويعضده في الجهاد ، وقرار مثل هذا ضروري بدليل ان كثيرين من الناس — يصدف احياناً ولاسباب مختلفة — لا يذوقون الطعام حتى المساء ، وهذا يعتبر صياماً ، وكثيرون لا يمكنهم الشبع حتى بالكفاف ، وهؤلاء ايضاً لا يعتبرون زهاداً .

القانون الثالث : ليحذر الصائم من ولوج أي شيء مما يؤكل او يشرب الى فمه وخاصة اذا كان راغباً في تناول الاسرار المقدسة ، وان ابتلع أي شيء بدون ارادته ، فلا حاجة ان يحل صومه ؛ ولكن لا يجب ان يتقدم من الاسرار المقدسة ، والذي يغسل فمه فان لم يمتص شيئاً من الماء فلا يمنع من تناول الاسرار المقدسة ، وطبقاً لرأي بعضهم ؛ ان الذي يتقيأ لا يجب ان يتناول ، اقول ، اذا كان تناول الاسرار ضرورياً له فليفعل ، وخاصة في خميس الاسرار وصباح احد القيامة العظيم ، وان لم يدخل شيء من الدم في بلعومه ، فليغسل فمه ويشترك بالاسرار المقدسة .

القانون الرابع : ليحذر الصائم من القيء ، واذا هاجمه مرض مثل هذا فاستمر يتقيأ فليحل صومه ، واذا ضايقه المرض فاضطر ان يحل صومه فليعط طعاماً لفقيرين في المساء .

الفصل الخامس

قوانين الصوم الخاص

هو صوم المؤمنين الصادقين ، وله سبعة قوانين :

الاول : اغماض العينين عن النظر الشره ، ورؤية ما يعطل العقل عن ذكر الله واحكامه الرهيبة .

الثاني : صيانة اللسان من الكذب والنميمة والاغتياب والازدراء والشتم والهذر والكلام الباطل ، والتبذل .

الثالث : سد الآذان عن سماع الكلام القبيح فما كان قبيحاً النطق بـه ، قبيح ايضاً سماعه .

الرابع : كف اليدين عن الاسراع الى الضرب ، والرجاـــين عن السعي الى الشر .

الخامس : الحذر الكامل من أكل ما جاء عن طريق الظلم ، او الحرام ، على حد قول الملفان : اذا تحدثت عن صوم الاثمة فانه عار عظيم ، انهم يصومون ويأكلون الربى ، ويصلون ويشربون الخنى ، ومن مساء الى مساء آخـر يأكلون لحوم المساكين ويشربون دماءهم .

السادس : ان يزين الغني الصالح صومه بالرحمة ، لان الرحمـة بالنسبة الى الغني الحكيم ، تعادل الصوم الحقيقي ، ويذكر انه قيل لاحد الحكماء : ان الغني الفلاني يكثر من الصوم والصلاة ، فقال : ان الرجل بائس ، فقد اهمـل واجبه وتمسك بواجبات غيره ، فالاصلح له ان يشبع الجياع ، ويكسو العراة ، ويهتم بالبائسين ، من ان يجوع ، ويصلي ويضيف على يساره يساراً . وقال الملفان في هذا الصدد : هناك من يذل نفسه بالصوم ، ويلوي عنقـــه ، ولا يرغب اعطاء كسرة خبز للمساكين ، وهناك من يمرغ فراشه بالرماد ويكتسي بالمسوح ، ويرى المحتاج في ضيقه ولا يرحمه ، وقد بكّت اشعياء صوماً مثل هذا وازدراه واحتقره .

السابع : الا يصوم الصائم ويتبجح كالمرائين ، انهـــم يتظاهرون بالكآبة والعبوس ، ويخدعون الناس كأن الصوم اعياهم ، فاذا كانت للانسان عادة فليدهن ويغتسل وليخف ضعفه بقدر استطاعته ، طبقاً لتعليم الانجيل .

الفصل الخامس

قانون الصوم الاخص

الصوم الاخص هو صوم الكاملين العارفين ، وهو استئصال شأفة الشرور من اعماق القلب ، ويحدده المجيد بالانبياء اشعياء بقوله : (اليس هذا هو الصوم

الذي آثرته ، حل قيود النفاق ، وفك ربط النير ش ٥٨ : ٦) وبهذا النوع من الصوم تتوهج النفس وتضيىء وتعود الى جمالها القديم ، وتتسامى الى درجة الكمال ، وتصبح شبيهة بالملائكة ، ولهذا الصوم قانون واحد ، وهو : الحذر من تدنيس النفس ولو بفكرة واحدة آثمة ، والتسامي الى هذه الدرجة وان كان عسيراً إلا انه ليس مستحيلا ، ففي التدريب والتمرين تتذلل جميع العقبات ، كما قيل : ان الطبيعة مرنة . وتخضع لكل حالة ، وبقدر ما تروّضها ، فيها قوة للصمود .

الفصل السادس

عدد الاصوام واياتها

هناك خمسة اصوام اساسية في الكنيسة السريانية ، ما عدى يومي الاربعاء والجمعة وهي : الصوم الاربعيني ـ صوم الرسل ـ صوم انتقال العذراء ـ صوم الميلاد ـ صوم نينوى . والصوم الاربعيني يتبعه اسبوع الالام فتكون ايامه ٤٨ يوماً وصوم الرسل يبدأ عادة يوم الاثنين التالي عيد العنصرة حتى التاسع والعشرين من حزيران ، وهو عيد الرسولين بطرس وبولس ، هذا عند الغربيين ، اما الشرقيون فيصومون حتى نهاية الخمسين يوماً ، غير ان مار يعقوب الرهاوي قال : انه ليس من الضروري ان يصام هذا الصوم بهذا المقدار ، والا لكان من لا يصومه مذنباً .

والاظهر ان هذا الصوم وضع تطبيقاً لقول الرب لرسله : (لا يستطيع بنو العرس ان يصوموا ما دام العريس معهم ، تأتي ايام حين يرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون) وهكذا بعد صعود الرب وحلول الروح القدس احتفل الرسل به ، فصامته الكنيسة تقليداً دون ان يكتب .

وصوم صيام انتقال العذراء من اليوم الاول من شهر آب حتى الخامس عشر منه ، وصوم الميلاد يصومه البعض منذ منتصف تشرين الثاني حتى الخامس والعشرين من كانون الاول فيكون اربعين يوماً ، والبعض يصومونه من اليوم الاول من كانون الاول حتى الخامس والعشرين منه ، فيكون خمسة وعشرين يوماً ،

وينتهي بعيد الميلاد ، واذا كان بدؤه السبت او الاحـــد يصام ايضاً .

وصوم نينوى يبدأ يوم الاثنين من الاسبوع الثالث السابق الصوم الاربعيني حتى صباح الخميس عند الشرقيين ، واما عند الغربيـــين فيمتد الى صباح السبت ومعهم النساك ايضاً في الشرق كما ذكر يعقوب الرهاوي ، ويردف ، ان السنـة كلها يقسمونها الى اسابيع فيصومون سبعة اسابيع ويفطرون سبعـة اسابيع حتى مطلع الصوم الكبير .

وبعض النساك يصومون حياتهم كلهـا ، ويذكر عن القديس اورليس ان أنهكه الصوم كثيراً ، فاصبح كالظل ، ففي ايام الصوم الكبير كان يأكل مـرة واحدة كل ثلاثة ايام ، وفي بقية ايام السنة كان يأكل مرة كل يومين ، ومثل هذه الاضافات النسكية يضيفها النساك انفسهم امعاناً في الزهادة والقنوت . ، دون ان تلزمهم القوانين بها ، وكان الآباء يأذنون للنساك حل صومهم اذا جاء راهب ضيفاً ، وغالباً كان الراهب الضيف نفسه لايحل صومه . (١)

---

١ — من المعروف ان الصوم من وضـع إلهي وترتيب كنسي ، الامر الذي ادى الى نشوء اختلاف في تحديد ايامه ، منذ العصور الاولى للمسيحية ، وفي اعـادة النظر في هذا التحديد في العصر الواحد ، أو قبله بعدة قرون ، ثم ادى الى الغائه تقريبـاً او كلياً في بعض الكنائس ، واسوة ببقية الكنائس اضطرت كنيستنا السريانية الى اعادة النظر في هذا التحديد ايضاً ، فسح الطيب الذكر البطريرك مار اغناطيوس الياس الثالث بتناول السمك في ايام الصوم الاربعيني . ثم حدد لابناء الكنيسة في الولايات المتحدة الاميركية صوم الاسبوعين الاول والاخـير من الصوم الاربعيني ، وفسح لهم بالافطار في بقية ايامه عدا الاربعاء والجمعة . وحـــذا حـذوه السعيد الذكر البطريرك مار اغناطيوس افرام الاول برصوم ففسح مثل هذا التفسيح اجابـة الى التماس الكنيسة السريانية في الهند ، واصدر منشوره البطريركي في ٧ كانون الاول عام ١٩٤٦ بتخفيض الصيامات عدا الصوم الاربعيني ، فحدد ان يصام صوم الميلاد عشرة ايام ، بدؤها صباح الخامس عشر من كانون الاول حتى صباح الخامس

الفصل السابع

الامور الممنوعة اثناء الصيام

★ في القوانـــين الكنسية ★

قانون الرسل : يامر بأن اذا وجد اكليريكي يصوم يوم الاحـد او السبت ـ ما عدا سبت البشارة ـ يقطع .

وهو ايضاً : اذا وجد اسقف او قسيس او شماس او من اصحاب الدرجات الكنسية الصغرى لايصوم يومي الاربعـاء والجمعة يقطع ، واذا كان علمانياً يعزل ، الا اذا كان مريضاً .

مجمع غنغرة : اذا صام احد يوم الاحد بقصد النسك المزعوم فليكن محروماً(١)

هذا المجمع ايضـاً : اذا كابر ناسك ولم يصم احـــد الاصوام القانونية ـ إلاّ بداعي المرض ـ بحجة وصوله الى درجة الكمال ، واعتقاده انـــه لم يبقَ محتاجاً الى الصوم ، فليكن محروماً .

مجمع اللاذقية : لايجوز ان نحتفل بالقداس ايام الصوم الكبير ، ماخلا يومي السبت والاحد ، ولا يجوز ان تعقد فيه حفلات اعراس او مواليد ، ونحتفل

والعشرين منه وهو يوم عيد الميلاد ، وصوم الرسل ثلاثة أيام بدؤها صباح السادس والعشرين من حزيران حتى صباح التاسع والعشرين منه وهو عيد الرسولين مار بطرس ومار بولس ، وصوم انتقال العذراء خمسة ايام بدؤهـا صباح العاشر من آب حتى صباح الخامس عشر منه ، وهو عيد انتقال السيدة العذراء . كما أصدر قداســـة البطريرك مار اغناطيوس يعقوب الثالث ـ الجالس سعيداً ـ منشوره البطريركي بتاريخ ١٠ شباط عام ١٩٦٦ ، داعياً ابناء الكنيسة جميعاً الى صوم الاسبوعـــين الاول والاخير من الصوم الاربعيني المقدس ، وفسح بالافطار في بقيـة ايامه ما عدا أيام الاربعاء والجمعة . (المترجم)

١ ـ مجمع غنغرة سنة ٣٤٥ م

بذكرى الشهداء ايام السبوت والآحاد (١)

غريغوريوس : اننا نحتفل بالقداس يوم اربعاء نصف الصوم ، ونحتفل بعيد البشارة في اي يوم صادف ، حتى اذا صادف يوم الجمعة العظيمة ؛ لانه منبت الاعياد كلها ، فبدونه لم يكن لدينا لا ذكرى الميلاد ولا الآلام ولا القيامة ، وكانوا قديماً يحتفلون بذكرى الآلام مرة كل ثلاثين سنة ، ولئلا ينسى في مثل هذه الفترة الطويلة أمر الآباء ان نحتفل سنوياً بذكرى آلام الرب وبهجة قيامته (٢)

يعقوب الرهاوي : لا يجوز لأي قسيس ان يأذن للمؤمن بشرب الخمر مع صديقه ، ايام الصوم الكبير ، يجوز لأي مسيحي ان يحل الصوم الكبير قبل ان يتناول القربان يوم خميس الاسرام وسبت البشارة والقيامة الخلاصية فيها اذا كان في منطقة فيها اسرار مقدسة ، وإذا وجد في منطقة لا قداس فيها فليفعل ، وليتناول الاسرار في أي يوم تيسرت له ، لان القداس هو نفسه في جميع الايام . (٣)

البطريرك قرياقس : لا يجوز لاي مؤمن بلغ العشرين من عمره ان يهمل صوم يومي الاربعاء والجمعة (٤) ، ما عدا اسبوع البياض (التابع لعيد القيامة مباشرة) إلا اذا كان مريضاً او في ضيق او قسر ؛ او امرأة حامل او مرضع (٥) .

البطريرك يوحنا : لا يجوز الاحتفال بصلوات الرحمة للموتى ايام الصوم الاربعيني عدا السبت والاحد .

---

١ - مجمع اللاذقية سنة ٣٥٩ م

٢ - القديس غريغوريوس النزينزي الملقب بـ(اللاهوتي - الثاولوغوس) ٣٩٢ - ٣٨٩

٣ - في قوانينه الشهيرة راجع ثبتها في اللؤلؤ المنثور . حمص ١٩٤٣ ص ٢٩٨ - ٢٩٩

٤ - البطريرك قرياقس - مجمع بيث باتين سنة ٧٩٤ م

٥ - البطريرك يوحنا الرابع في مجمع دير شيلا بقرب سروج سنة ٨٤٦ م

الباب السابع

العزلة

وفيـــه خمســـة فصـــول

الفصل الاول

آراء الآباء في فضيلة العزلة

الاب ارسانيوس :

كان يوماً في البلاط الملكي فصلى الى الله قائلاً : رب ، علمني كيف احيا فسمع صوتاً يقول : يا ارسانيوس اهرب من البشر فتحيا .

وكان يوماً منهمكاً بأعمال الزهد ، فرفع الى الله الصلاة ذاتها ، وسمع ايضاً يقول : اهرب واصمت ، واعتزل ، فهذه هي مقومات عدم الخطيئة .

وذهب مرة الى منطقة نبت فيها القصب ، يسكنها بعض الرهبان ، فهبت الريح على القصب ، وتمايل فأحدث حفيفاً اقلقه ، فقال للاخوة : اني اقول لكم اذا اختلى الانسان وسمع صوت عصفور فلن يجد لقلبه الهدوء المطلوب ، فكم بالاحرى انتم ولكم حفيف القصب هذا ؟

وزاره احد الآباء نقرع بابه ، واذ ظن الشيخ انه شماسه فتح الباب ولما استلقى على الارض ، فألحّ عليه ذلك الاب لينهض فيسلّم عليه ؛ فقال : اني لن أقوم حتى تمضي ، وهكذا تركه ومضى .

الاب مقاريس :

كان يقول للاخوة الذين في صحراء مصر (الاسقيط) ايها الاخوة اهربوا فور انتهاء الصلاة ، في الكنيسة ، فقال له الشيخ : ايها الاب ، الى اين نهرب بعد هربنا الى هذه الصحراء ، فهل نهرب ابعد ؟ ؟ فوضع يده على فمه وقال : اهربوا هكذا ، وذهب حينئذ الى صومعته واغلق الباب وانزوى .

الاب انطونيوس :

كان يقول ان الذي يسكن الصحراء ، يكون بعيداً عن ثلاث جبهات حرب ، السمع ، والنطق ، والبصر ، فتبقى جبهة واحدة فقط ، هي القلب .

الاب الونيوس : كان يقول : مالم يقل الانسان في قلبه ، الله وانا وحدنا في هذا العالم ، لايمكنه ان يحيا ، الله الرحيم ، وانا الخاطىء .

البطريرك الاسكندري الطوباوي توافيس :

ذهب مرة مع احد الحكام لزيارة الطوباوي ارسانيوس ، وطلبا اليه ان يسمعا منه كلمة ، فقال لهما ، هل تحفظان الكلمة وتنفذانها اذا قلتها ؟ قالا ، نحفظها وننفذها ، قال : لاتذهبا الى مكان تسمعان ان ارسانيوس فيه .

وبلغ الشيخ (ارسانيوس) مرة اخرى ان رئيس الاساقفة يريد زيارته ، فارسل اليه يقول : اذا فتحت لك بابي فافتحه لكل انسان ، واذا فعلت ذلك فلن امكث هنا ، فلما سمع البطريرك ذلك قال : اذا كان ذهابي يسبب طرد القديس او ازعاجه ، فلن اذهب بعد الآن .

وحرك احد الشيوخ الماء في إناء ، وسأل الرهبان الذين معه ، ماذا ترون فيه ؟ قالوا : لاشيء ، ولما هدأ الماء قال لهم ، ماذا ترون ؟ قالوا ، نرى وجوهنا واضحة ، قال : هكذا من يسكن مع الاشرار لن يستطيع رؤية ذاته ، واذا انفرد معتزلاً ، فحينئذ يرى بوضوح .

الفصل الثاني

آراء الفضلاء في العزلة

ان معظم المتوحدين الاتقياء يفضّلون العزلة على معاشرة الناس والتحدث اليهم ، فاختاروها لهم ولتلاميذهم ، وقد نزل ذلك منزلا سامياً في نفوسهم ، حتى انهم فضّلوا العزلة الخالية من اية فضيلة على معاشرة الناس مع الفضائل . روى الاب فلاديس انه سأل الاب سرماطا مرة : ماذا افعل يا ابت ، اني لم أقم باي

عمل ما للرهبان ، ولكنني كسول اكل وانام ، وافكاري مضطربة سيئة ، قال له الشيخ : اعتزل في صومعتك واعمل ما استطعت اليه سبيلاً ؛ ولا تضطرب ، واني واثق ، إن بالعمل الضئيل الذي ستقوم به ، سترتفع الى رتبة الاب انطونيوس .

ولما كانت العزلة الهدف الاسمى لهؤلاء القديسين ، فكانوا لا يميلون الى التنقل سريعاً ، وكانوا يقولون ، انه لا يوجد ألم اقسى من ان يترك الناسك صومعته ، وينتقل الى غيرها ، وكانوا يصمدون في صوامعهم فلا يستبدلونها . واذا انتصر الناسك في هذه الحومة ، فانه سيفوز منتصراً في جميع الميادين ، وروي ان الاب ثيودور والاب لوقا ، مكثا في صومعتيهما خمسين سنة وهما يفكران بالانتقال منها ، وكانا يؤجلان تنفيذ هذه الفكرة من الشتاء الى الصيف ، ومن الصيف الى الشتاء ، وهكذا حتى انتهاء حياتهما .

ويروي ان ناسكا حرّضه فكره مدة طويلة الى زيارة اخوته ، ولما اخذ جبته يوماً وشرع يغذ السير مسرعاً ، رآه الشيخ جاره ، فصاح وراءه ، ايها الهارب ، ايها الهارب ، تعال الى هنا ؛ فلما عاد قال له : عد الى صومعتك .فعاد الى الصومعة وقدم توبة نصوحاً فصرخ الشياطين قائلين : انكم انتصرتم علينا ايها الناسك وظفرتم فغدت الحصيرة التي في صومعته كأنها محترقة بالنار ، وتبخر الشياطين مثل الدخان .

الفصل الثالث

فوائد العزلة

ان مؤيدي العزلة ومحبيها وان كانوا اكثر عدداً من مناهضيها ، إلا أن مؤيدي المعاشرة يجدون فيها (في المعاشرة) بعض النواحي المفيدة ، وعليه يجب أن نعقد فصلاً خاصاً في كل من العزلة والمعاشرة ، ونفسح المجال للقارىء اللبيب ليقابل بينهما ويستنتج ايها الافضل . وبما أن كل فائدة تسببها العزلة ؛ وكذلك ايضاً ، المضار التي تسببها احداهما تخلو منها الاخرى ، في العزلة فنجد عشر فوائد :

الاولى : وتعتبر اسمى جميع الفوائد ، وهي الحالة الروحية السامية التي يشعر العقل

بهـا ، وتسببها عذوبة الاعمال النسكية اثنـاء العزلة ، اي معرفة الله الحقيقية التي تتجلى للنفس بوحي روحي ، على حد تعبير الآباء : اننا نحن النساك نعتبر نفوسنا في داخل الباب ، لاننا ندرك كنه الفضيلة ، بالجهاد الفكري الهادىء ، والتأمل المتعقل بالله ، واننا نخلي لا لننال الفضيلة — فان اخوتنا في الديورة يمارسون نفس الرياضة الروحية — بل لنحصل على ذلك بطريقة اسمى ، مع العلم ان السكنى مع الاخوة ـ الرهبان ـ لا تعطّل الصوم والصلاة وغيرهما .

الثانية : الابتعاد عن كل ما يعيق اعمال الفضيلة ، كالاعمال الدنيوية التي تشتدّ وطأتها بمعاشرة العلمانيين المستمرة ، وهذه تتقلص بالابتعاد .

الثالثة : الابتعاد عن اغتياب الاخرين ، هذه الرذيلة التي بالكاد ينجو منها الكاملون الذين يعاشرون الناس .

الرابعة : الابتعاد عن توبيخ المتمردين على الناموس ؛ لان كل من يساكن الناس لا يمكنه إلا ان يرى ويسمع تمردهم ، فاذا وبخهم لاشك إنه يثير فتنة ضد نفسه ، وان احجم عن النصح والتوبيخ فانه يشترك بخطايا الاخرين ، حتى وان كان باراً ، مثال ذلك عالي الكاهن الجليل الذي كان فاضلاً جداً باعماله فانه نال عقاب الله عوضاً من بنيه لانه لم يوبخهم على اعمالهم .

الخامسة : الابتعاد عن المراءاة ، لان من يعاشر الناس يضطر الى مداهنتهم ومن داهن الناس كان مرائياً ، ومن كان كذلك هو مرذول وحقير ، على حد تعبير النبي داود : ان الذين يداهنون الناس ادركهم الخزي لان الله رفضهم مز ٥٣ : ٥)

السادسة : الابتعاد عن رؤية الشر والسماع به ؛ الامور التي تتغلغل في كيان الانسان بسهولة ولا تزول إلا بصعوبة بالغة على حد تعبير الرسول بولس : (فاني اعلم ان الخير لا يسكن فيّ اي في جسدي ، لان الادارة حاضرة لي واما فعل الخير فلا ، لان ما اريده من الخير لا اعمله بل ما لا اريده من الشر اياه اعمل ـ رو ٧ : ١٨و١٩ والخير بالنسبة الى الطبيعة البشرية هو كالنار بالنسبة الى مادة رطبة ، فانها لا تؤثر بهـا بسهولة ، بل بصعوبة اما الميل الى الشر فانه شأن الانسان كالقش امام الشرارة

والريح ، فانها تضطرم بسهولة ، والانسان يأخذ الشيء الكثير من الشر الضئيل ، بأسرع مما يأخذ الشيء القليل من الخير العظيم ، والافسنتين القليل يسبب مرارة عظمى في العسل الكثير بينما العسل الكثير لا يؤثر في الافسنتين حتى وان كان اضعاف اضعافه ، وثغرة صغيرة تجر النهر كله الى الوادي ، ولا يمكن ان يصد الا بسدود قوية .

السابعة : الابتعاد عن الخصومات ، لان في المعاشرة لابد يحدث خلاف ، وان كان الانسان مع اخوانه واقاربه ، كما قال رب الحق : (وسيسلم الاخ اخاه للموت والاب ابنه ، ويقوم الابناء على والديهم ويقتلونهم مت ١٠ : ٢١ و ٧ ومز ١٣ : ١٢

الثامنة : الابتعاد عن الظلم والاعتداء ، والتخلص من شرار الناس على حد قول الملفان : (ان البهائم السارحة في البيداء لن تضرب بالعصا ، ولا تطرح وعول الجبال امام الجزار ، فاذا دنت السباع من سور المدينة مزقت لحمانها ، وكل من هبط الحومة فاكليله في خطر ، فأحب ديرك في البيداء لتحيل الدير فردوساً واشرب مياه الينابيع اتستقي مياه الجنة ، قد شبهنا الرب بالطيور فلا نبنين لنا الاعشاش وسط الزحام ، ومثلنا بالسواسن فلانبتن في الشوارع)

التاسعة : التخلص من تقديم الاحترام الفارغ لأي انسان ، او طلب مثله من اي انسان ، فالذي يأمل الاحترام من اقرانه فانه لا محالة خائب ، ويؤول الامر اخيراً الى خيبته وخيبتهم على السواء ، واذا طاب اليه ذلك الاخرون فانه لن يستطيع ارضاءهم ، فمن كان بعيداً عنهم فانهم في منجاة من كل ذلك ، فيبقى عليه ان يحرص على رضى الله الذي تفوق قيمته كل ما في العالم .

العاشرة : يخلص قريبه الانسان من الاذى الذي يمكن ان يلحقه به ، يحكى عن ناسك عمودي سأله البعض ، لماذا سجنت نفسك في الصومعة ؟ كأنك في قبر ؟ قال : لئلا يؤذى الكلب الذي سجنته معي الاصدقاء ، وقد شبه هذا الناسك الفاضل غريزة الغضب التي سجنها معه بالكلب .

الفصل الرابع

فوائد العشرة

وقد وجد الحكماء ان لعشرة الناس عشر فوائد ايضاً ، هي :

الاولى : العلم - ان كل علم يحوزه الانسان تهذيباً لنفسه والحصول على حياة افضل ، انما يحوزه من الاحتكاك بالناس ومعاشرتهم ، فيتتلمذ للمرشدين والمعلمين الصالحين ، وبعد ذلك يخلد الى العزلة والانفراد ، كما قال مار اسحق : اننا نتعلم الفضيلة اولا في المجتمع ، وبعد التخرج بها نخلد الى العزلة ،وعند استغراقنا بها تقلقنا حتى زقزقة العصافير .

الثانية : التعليم - اذا كان التعليم لاجل بلوغ ملكوت الله فانه يكون ذا اجر صالح ، لان كل معلم او متعلم ، يعلم او يتعلم من اجل التكبر والعجرفة والمجد الفارغ ، فعمله عقيم وأمله خائب ، وقليلون هم المعلمون الصالحون كما يشهد احد المعلمين بقوله : ليس فينا من يعلم بهوى ، ولا من يتعلم لهوى ، فمن يعلم تكبراً ، او يتعلم للحصول على شرف فانٍ ، انما يسلك طريقاً وعراً ، ويحطب في ليل بهيم فاذا كان فقيراً يتظاهر بالعجرفة ، واذا كان ضعيفاً ينتحل القوة ، .

الثالثة : امكانية حصول الانسان الاسعاف ممن يمكنهم اسعافه - بالقول او العمل ، غير ان الانسان الذي يكتفي بالخصاصة ويقنع ، فالعزلة خير له ، بل هي اجدى له من معاشرة الناس .

الرابعة : ليساعد الضعفاء ويكمل نقص الناقصين ، ومن يمكنه مساعدة قريبه من الربح الحلال لايمكنه تطهير قلبه في العزلة والانفراد ، وخير ان يعاشر الناس من الاخلاد الى العزلة والانزواء . كما يحكى عن الناسك افولونيوس انه كان تاجراً ولكنه كان يميل الى التوحد ، ولما لم يستطع ان يصوم ويسهر كان يشتري من الاسكندرية كل ماكان يحتاجه الاخوة (الرهبان) من الرمان والبيض والحاجيات الاخرى ، ويقدمها لهم كل يوم ، ففي العشرين سنة التي عاشها في الزهد استطال القيام باود خمسة آلاف أخ راهب .

الخامسة : الخبرة الثمينة التي يحصل الراهب المبتدىء من معاشرة اخوان الغضب والحقد والوقيعة ، ولذلك كان الفاضل ياوني ينصح تلاميذه بقوله : اصمدوا اصمدوا ، ثم اصمدوا ، ايها الاخوة المجاهدون ، واسمعوا الحكيم يقول لكم : ان الرب محصكم في الصومعة كما يمحص الذهب في البودقة .

السادسة : الاهتداء والهداية التي يمارسها الراهب المبتدىء ، وهـذا عمل المرشدين ولا يمكن ان يؤدي في العزلة والانفراد ، بل بالمعاشرة يستطيع المرشد ان يرشد ، والمسترشد ان يسترشد ، ولذلك يجب ان يقابل بين فوائـد العزلة واجر العاملين الصالحين ، ويختار ما يناسبه منها .

السابعة : العزاء الذي يناله الانسان في معاشرة اخوانه ، وقد قال المرتل : ما اطيب وما الذ ان يسكن الاخوة معا مز ١٣٢ : ١ . ومن المؤكد انه ليست كل تعزية حميدة سوى ما كان حافزاً للاعمال الصالحة والتسامي بالامور الروحية ، وهكذا يكتسب بمعاشرة الآباء الثقات والنساك الفضلاء والرجال الصالحين .

الثامنة : الثواب الصالح الذي يناله الانسان بالاعمال الفاضلة التي لاتصاب الا بمعاشرة الكثيرين ، او يكون سبباً لنوال الآخرين ذلك الثواب الصالح ،والقسم الاول كأن يطعم الجياع ويسقي العطاش ، ويضيف الغرباء ويكسو العراة ، ويزور المرضى ويعزي السجناء ، والثاني ، ان يفتح بابه للذين يشتركون في مصائبه ويفرحون لفرحه .

التاسعة : وداعة القلب التي تحصل بمعاشرة ابناء المجتمع ، لان كثيرين يتعاطون الخيلاء والكبرياء والعجرفة بسبب حياتهم المنعزلة الانفرادية ، ومثل هؤلاء حريهم بان يزاروا دون ان يزوروا يفضح نواياهم .

العاشرة : الحنكة التي تحصل من الخبرة العملية ، لان من لم يبل الخير والشر ، يخطىء الخير غالباً ويواجه الشر . قال الملفان : لم تصادفك البلايا لتتعلم منها الحكمة .

الفصل الخامس

اعمال العزلة وقوانينها

ان الكاملين ـ تشجيعاً للمبتدئين ـ فضلوا العزلة الخالية من الاعمال على المعاشرة الغزيرة بالاعمال ، وبالحقيقة ان للعزلة عندهم قوانين كثيرة واعمالا سامية جليلة ، فقال الفاضل مار اسحق : ان اخلادك للعزلة يجب ان يكون بتفهم لاتقليداً كما يفعل الكثيرون ، فليكن هناك هدف معين لتوجه اليه اعمالك الفاضلة ، واسأل الذين مارسوا ذلك بالاختبار وليس بالقراءة فقط ، وفكر في كل خطوة تخطوها فيما اذا كنت لم تزل سائراً في نفس الطريق ام شططت ، واعمال العزلة هي :

الصوم المنظم والغذاء البسيط ، الذي قد لايبلغ حد الشبع ، السهر المستمر الهادف الى مواهب الرب ، القراءة العميقة الصالحة لرغباتك الروحية واعمالك الفكرية ، وداعة الروح والدموع الحارة ، الصلاة والركوع المتواصل والتهجد على الارض ، وعدم الالقاء باحد طيلة ايام السنة ، الا في اوقات تناول الاسرار المقدسة أيام الآحاد .

والحبيس الماضي في عزلته لايلجه احد ، لان كثيرين احتبسوا بدون تعقل ولا هدف ، وقد بدأوا اعمالهم بالفقر الاختياري والفضائل البعيدة عن الاهواء المهلكة والصلوات المتواصلة ، والتهجد المستمر على الارض معفرين وجوههم على التراب والاحتباس الطويل والغربة والانقطاع عن رؤية الاهل والاقارب ، وقد بلغتك اخبار نهايتهم ، فقد استسلموا للراحة وانتقلوا الى معاشرة الاغنياء ، وانغمسوا في صخب ابناء الدنيا ، وتوهموا انهم اصبحوا مرشدين ومعلمين وهداة للرهبان الى اعمال الزهد الشاقة مجتذبين كثيرين اليهم بحجة التعليم والتوجه ، ولكثرة احتكاكهم بالناس اصبحت صوامعهم منتدى لابناء القرى ، وعوض التضحية السابقة آثروا حياة مغرقة بالضلال ، وانهوا حياتهم باعمال الجسد المادية ، بعد كل تلك الاعمال النسكية والحياة النيرة ، ومثل هؤلاء يسببون شكوكاً كثيرة للحبساء ، والافضل ان يحذر جانبهم .

الباب الثامن

الغربة

وفيه خمسة فصول

الفصل الاول

﴿ آراء الاباء في فضيلة الغربة ﴾

كان احد الشيوخ يقول : إن النحلة حيث يمت فانها تنتج الشهد ، هكذا المتوحد ، حيث يم يعمل عمل الله ، . سأل أخ احد الشيوخ قال : ماذا افعل فان افكاري قلقة بغزيرة الحنين الى الاهل ؟ قال الشيخ : اذا كنت قلقاً بسبب الانحباس والغربة ، والزهد ، فاتخذ لك عملا فكرياً في الصومعة ولا تغادرها ، فاذا كانت افكارك تعتقد ان في خروجك فائدة فافعل .

قال شيخ آخر : كما ان رهط الرهبان هو أفضل من أبناء الدنيا ، هكذا الناسك الحبيس ، عليه ان يكون قدوة صالحة للرهبان المساكين في الديورة الرهبانية .

وقال أحد الاباء : ان النساك الاولين لم يكونوا يغادرون صوامعهم الا لثلاثة اسباب ، الاول : اذا ضاقت السبل باحدهم بقرب جاره ، ولايمكنه تنقية قلبه بقرب ذلك الجار ، . الثاني : اذا ازداد تمجيد الناس لنسكه . الثالث : اذا اثارت في نفسه الاهواء المنحرفة . وبدون احد هذه الاسباب لم يكونوا يغادرون الصومعة .

قال الاب اوغريس : اذا كانت صومعتك مطروقة فاهرب منها ولا تأسف واجهد نفسك في الظفر بخلوة جديدة واعتزال كامل ، لكي يمكنك الجهاد عدو لايرى ، واذا لم تصب ذلك في وطنك فعليك بالتغرب ، فالتغرب ينقذك من آلام تصيبك في وطنك ، .

وقال مار اسحق : اذا اضطررت الى ترك وطنك في سبيل الله ، وقد

كنت فيه مرتاحاً ، فذلك مطلع الفضيلة ، وخوف ان تفقد قوة الروح وتقلق افكارك وتضطرب فأنتجع مواطن الفضلاء ، وثق بأن الله سيوفر لك الراحة ويهديك سواء السبيل ؛ ويهيء لك منتجعاً تنال فيه التعزية المثلى افضل من مقرك الاول وحتى اذا لم يزد في راحتك الجسدية كثيراً او تنال فيه تعزية كافية .

وقال ياونّي رئيس الدير : اذا تركنا بيوتنا واهلينا في سبيل الرب وتغربنا فان الابالسة تعرضنا لاحلام مزعجة ، وتظهر لنا ان اهلنا في حزن شديد من اجلنا او تصور لنا ان احدهم يقضي ، والبعض الاخر نالتهم الكوارث والمحن . وقال ايضاً : ان ابراهيم ابا الشعوب العظيم ،سمع قول الله (غادر ارضك حيث ولدت ، وبيت ابيك الى الارض التي أريك ، واباركك وارفع اسمك فتكون مباركاً ، وابارك مباركيك ، ولاعنيك العنهم) وقال ايضاً : اذا كان نبي محتقراً في مدينته فليحذر الناسك ان تكون غربته سبباً للمجد الفارغ .

الفصل الثاني

تحديد الغربة

قال الاب سوسايس : الغربة هي ان يكون الانسان منفرداً ، . وقال ايضاً جواباً على من سأله ما هي الغربة ؟ : كن صامتاً حيثما اقمت ، وكل ماتراه او تسمعه وهو ليس خليقاً بالعمل الصالح ، فقل في نفسك ، مالي ولهذا الامر ؟ ومن انا ؟

وقال الاب اوغريس : الغريب هو من كان كل شيء في هذا العالم غريباً لديه .

وقال ياونّي رئيس الدير : ان الغربة هي الابتعاد عن كل شيء في بيت اهلك مما يضاد اهداف التقوى ، والتطلع الى تقبل الضيقات في سبيل محبة الله ؛ وقال ايضاً : الغربة هي الابتعاد عن كل ما يبعد الفكر عن الله والاغراق في التأملات الروحية .

وقال الشيخ يوحنا صاحب الدوالي : طوبى للنفس التي تسرح في التأملات الروحية وتنتقل من هذا العالم الى عالم جديد ، فتطير محلقة في سماء الازل صحبة

الكائنات الروحية المرهفة ، وتخلد في خشوع روحي سام ؛ وتغرق في تسبيح وتمجيد وحيين ، وتفنى في عذوبة روحية لا توصف ، . وقال ايضاً : لنختطف الى مخادع ذواتنا ، ولندخلن الى الملكوت السامية الكامنة في قلوبنا ، اي لنرى الهنا متوارياً في غمامات النور ومحفوفاً في ضباب اللا نهاية ، ونكتشف فيه امجاداً تتسامى عن هذه الكائنات المنظورة ، ومن خلال هذه المعاني نعلم ان الغربة اما ان تكون وهي الانتقال من بيوت آبائنا الى برية مقفرة ، ومجاهيل بعيدة ، واما روحية ، وهي انتقال الانسان بالفكر من هذا العالم الى عالم لا يرى ، والغربة الحقيقية هي الجمع بين الغربتين بآن واحد ، كقولك : الغربة هي ان يهجر الانسان بيته واقاربه وسائر الامور الزائلة في سبيل اللحاق بمواكب ملكوت الله .

الفصل الثالث

اقسام الغربة واسبابها

ان التنقل والتغرب اما ان يكون في سبيل متعة مطلوبة او محنة مرهوبة وكل منها اما ان تكون مادية واما روحية ، والمحنة المادية ، اما ان تكون عامة كالمجاعات والاوبئة والآفات ، واما خاصة ، كفقد الانسان امواله الخاصة واسباب معيشته ؛ والمحن الروحية اربعة انواع ، الاول : الاضطهاد في سبيل الدين القويم والثاني ، الشكوك ؛ والثالث : الصيت العطر ، الذي يحوزه الناسك في موطن عبادته والرابع ، السقوط في محنـــة الاهواء المنحرفة ، هذه الامور التي قد تهاجم الناسك في مسكنه .

والمتعة المادية ، اما ان تكون ملموسة كالارباح المادية ، واما فكرية كالنزهات والسياحات المؤنسة .

والمتعة الروحية اربعة انواع : الاول - العلم نظرياً وعملياً . الثاني - رؤية رجال الفضل والصلاح ، الثالث : التبرك من زيارة الاماكن المقدسة الرابع - تفهم عظائم الله في كائناته .

والبعض لا يجيزون الهرب من المجاعات والاوبئة ويقولون : لا يجب الهرب من احكام الله الخفية ، ويجيزه غيرهم مستندين على قول الكتاب (اهرب من الغضب الآتي) اما الهرب من الاضطهاد فانه مباح ، وقد ايدته كلمة الله (اذا طردوكم من هذه المدينة فأهربوا الى اخرى) وهكذا ينتقل القديسون من مواطنهم تخلصاً من ثلاث آفات روحية اخرى ، كما علمنا في الفصل الاول ، واما الهرب من السلب والاسفار في سبيل الارباح المادية فليست من اهدافنا في هذا المضمار .

وقد اجاز المعلمون الافاضل التغرب في سبيل المتعة الروحية وامتدحوه ، وقد عينّوا له نظما كاملة . ومنع معلمو الزهاد التنقل في سبيل الانتزاه ، فقال ابو العارفين اوغريس : هناك شيطان الضلال الذي يسلب عقل المتوحد اذ يحمله على التنقل من مدينة الى مدينة ، ومن قرية الى اخرى ، ومن بيت الى آخر ، ويبرر له هذا التنقل المستمر فيفسد صفاء عقله ، بامور شتى يصورها امامه ؛ مبعداً اياه عن ذكر الله تعالى ، شيئاً فشيئاً ، وهكذا بالتنقل يفسد عليه دينه ، فيصطاد بشراك الرذيلة او الغضب او الهم .

وقال الشيخ يوحنا : ان ابليس الضلال يوسوس احياناً في عقل المتوحد ويشير اليه قائلاً : اخرج قليلاً وتمتع بصحبة اترابك ، وانزع عن قلبك هذه الوحشة الممضة ، فطوبى لمن انتظر التعزية من الله ، ولم يلتفت الى تعزية اخرى ، يتوهم انها تأدية من الخارج بالمعاشرة والتنقل .

الفصل الرابع

النظم المادية للمسافرين في الطرق

يجب على المسافرين في شتى الطرق ان يتقيدوا بثمانية نظم هي :

الاول ـ ان يفكر المسافر قبل سفره هل لأحد وديعة لديه ليعيدها اليه ، ويرد كل ما سلبه من الناس ، ويطلب الصفح من الجميع .

الثاني ـ ان يختار له بعض الاتقياء رفاقاً للطريق فقد قيل (في طريق الاشرار لايسلك ، وفي ناموس الرب ديدنهم وهم يلهجون بناموسه نهاراً وليلاً .)

الثالث ـ ان يزور جميع اقاربه واصدقائه واحبائه مودعاً .

الرابع ـ ان يدخل الكنيسة فيصلي صلاة السفر ، ويتبارك من القديسين ويفي جميع نذوره .

الخامس ـ ليرتل ـ لدى خروجه من داره ـ المزمور القائل (الرب راعيّ فلا يعوزني شيء ، على مروج خضر يربضني ومياه الراحة يوردني ، رد نفسي وهداني في سبيل الحق من اجل اسمه، وإن سرت في وادي ظل الموت لا اخاف شراً لانك انت معي ، عصاك وعكازك هما يعزيانني) .

السادس ـ ليغادر صباحاً ، ثم يرتاح اذا اشتد حر النهار .

السابع ـ ليرح الدابة التي يركبها ، إذا سافر راكباً ولا يضربها على وجهها ولا ينام على ظهرها ، ولينزل عنها ويسير على قدميه احياناً لراحتها خاصة في الاصباح والامساء .

الثامن ـ عند عودته ليجلب ما استطاع من الهدايا لاهله واقاربه ، وان كانت بسيطة ،

الفصل الخامس

النظم الروحية للمسافرين

ان هذه النظم يجب ان يتقيد بها الذين يسافرون في سبيل خير النفوس وهي :

الاول ـ الا يغادر وطنه إلا للحصول على خير روحي قد لا يتيسر له وهو في موطنه .

الثاني ـ ان يزور الكنيسة فور وصوله لى اية مدينة ، وليسأل عن الاسقف او بعض الافاضل ، الذين فيها ، ويقابلهم ويسمع وليفيد ولو كلمة واحدة من كل منهم ، وبعد ذلك ينتقل الى غيرهم .

الثالث ـ الا يقيم في المدينة او القرية التي يمر فيها اكثر من عشرة ايام ، على حد قول الاب اوغريس : اذا اضطررنا الى المكوث بعض الوقت في بعض المدن فلنحذر ان يظلم عقلنا بمعاشرة ابناء الدنيــا .

الرابع ـ اذا قصد زيارة احد الاباء الفضلاء في مكان ما ، فلا يقيم لديه اكثر من يوم واحد ، وان قصد زيارة احد الاخوة فلا يمكث لديه اكثر من ثلاثة ايام ، الا اذا طلب اليه ذلك الاخ المكوث اكثر .

الخامس ـ اذا بلغ باب صومعة احد الآباء لايقرعه ، بل يجلس بقربه حتى يخرج ذلك الاب او تلميذه ، حينئذ يتقدم منه بتواضع ويحييه بورع .

السادس ـ الا يتكلم حتى يُسأل ، وليكن جوابه طبقاً للسؤال ولا يزيد على ذلك ، فان الاب اوغريس تكلم مرة في اجتماع للرهبان فاطال وتطرق الى امور كثيرة فندّد به شيخ الصومعة فقال : انك تصلح ان تكون اسقفاً ورئيساً ، وليس ناسكاً هنا ، اما هو فتقبل ذلك برحابة صدر وقال : ان ذلك صحيح يا ابتِ ، فلئن تكلمت مرة فلن اعيدها مرة اخرى .

السابع ـ الا يسأل شيئاً من ذاته ، لكن بعد الاستئذان ، ويسأل ما اذن له به بتأدب ، لان قصده هو لا ان يسدي الفائدة بل ان يحوزها .

الثامن ـ الا يسهب في وصف الاطايب والثمار والفواكه والجداول والانهار والجنائن الكائنة في المنطقة التي قدم منها ، بل يحصر كلامه في ذكر الاباء القديسين والعلماء الثقات ، والنسّاك الكاملين ورجال الفضيلة الذين فيها ، واذا سئل ، فليعدد اعمالهم الصالحة وفضائلهم .

التاسع ـ اذا كان متزهداً ومحتاجاً فليطلب ما هو ضروري لحاجته فقط ، وليس من كل احد ، بل من الميسور الذي يمكنه اسداء العون له فقط .

العاشر ـ ان يكثر من ذكر الله في سيره ، مرتلا المزامير اذا امكن ، وليحذر من الشعور بالارتياح في ترك صومعته ، والسير مع رفاق غرباء ، فان الاباء يقولون : ان متعة ساعة واحدة قدر تنزع الروح القدس من الناسك .

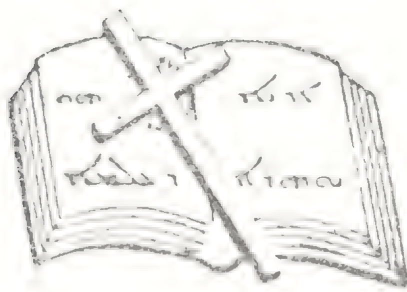
الحادي عشر ـ اذا كان سفر الراهب في اماكن مأهولة تنتشر فيها القرى والارياف ، فلا يحملن زاداً للطريق ، واذا كان سفره في منطقة مقفرة لا أمل

في لقاء احد في الطريق ، ولا يمكنه الانقطاع عن الطعام مدة عشرة ايام او الاقتيات من الاعشاب فليأخذ من الزاد حاجته .

الثاني عشر ـ ان يكمل شرعة الانجيل القائلة (لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا تأخذوا في الطريق لا عصا ولا مزوداً ، ولا يكن لكم قميصان ، ولا حذاء بل نعلا) .

الثالث عشر ـ اذا كان المسافر كاهناً ، لايهمل اية صلاة من الصلوات الفرضية المعروفة ، ويسوغ له الجمع بين صلاة الساعة الثالثة والسادسة بآن واحد ، وكذلك الجمع بين صلاة الساعة التاسعة والمساء ، وليصل الصلوات الباقية في اوقاتها المعينة ، واذا كان علمانياً فليصل صلوات المساء والصباح والظهر .

الرابع عشر ـ اذا لا يعيقه رفاق الطريق فليصل وهو ماش ، او راكب ، وان لم يستطع التوجه الى المشرق ، فليصل الى أية جهة كانت ، وليضمر انـــه متوجه نحو المشرق .



الباب التاسع

زيارة اورشليم

-•• وفيــه خمســة فصــول ••-

الفصل الاول

﴿ الآراء حول زيارة الاماكن المقدسة ﴾

هناك رأيان متضاربان في زيارة المدينة المقدسة اورشـليم ، الاول : رأي المتأدبين الاتقيـاء الذين لا يجدونهـا ضروريـة ، والثاني : رأي البسطاء الذين يعتقدونها واجبة .

ان اصحاب الرأي الاول : هم النساك الكاملون ، والعلماء الاثبات ، الذين يتطلعون مشتاقين الى اورشليم السموية ، بيعة الابكار ، وهم ماضون في عبادة الله بالروح ، كما تعلموا من كلمـة الله بالذات ، فتفقهوا وعقلوا ما قال (الله روح ، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي ان يسجدوا) فان الآب ايضاً يطلب مثل هؤلاء الساجدين . وبدافع الآية القائلة (ستأتي ساعـة لا في هـذا الجبل ولا في اورشليم تسجدون للآب) الامر الذي سمعوه من كلمـة الآب بالذات ، وعليه لايوجبون زيارة اورشليم ، وقد كتب احد النساك لرفيقه الناسك يقول : كتبت اليّ انك ترغب السفر الى اورشليم ، وانا اكتب اليك انك ضللت ، فالكل يحرص على الارتفاع الى اورشليم العليا ، وانت تهدف الى هذه الارضية ؟ ان هذا العمل ليس عمل العقل اليقظ ، واظن ان عيسو ساقك الى ذاك وانت لاتـدري ، فاطلب اليك ان تمكث في صومعتك ، واجتهد ان تنسكب انت في باطنك ، وبهذه الطريقة يمكنك الانتصار على اعـدائك ، فانت اورشليم ، فاذا اطعتني وسمعت مني ومكثت في هيكلك الباطن تبصر المسيح محتفلا بالعيد ، فاغلق ابواب مدينتك ، واجمع ابناءك (افكارك) واحتفل بالعيد ، وانظر الى آمال النفس تمثل اطفال اورشليم

حاملة اغصان الزيتون امام المخلص ، وهي تهتف في داخلك اوشعنــــا .

واصحاب الرأي الثاني : هم اغلبية الرهبان والمؤمنين ابنــــاء العالم ، وهم يتوقون الى ان يتباركوا من القبر المقدس ، ويشاهدوا المناطق التي وطأتهــــا قدما الرب وتلاميذه ، وبما انه لايستطيع كل انسان الارتقاع الى الذروة الروحية لسموها وجلالها ، ويسهل على السواد الاعظم في الناس تصور الفكرة الثانية ، فلا يجب ان يمنعوا ، لانها ليست خالية من الثمار الروحية والفضائل والتقوى ، وعليه يجب تبيان فرائضها وتعداد اساليب السير الى هذا الهدف .

الفصل الثاني

الاراء في السكنى في اورشليم

وفي السكنى في اورشليم ايضاً رأيان متضادان ، رأي الذين يجدون في ذلك فائــــدة روحية وفضيلة ، ورأي الذين يجدون فيه ضرراً ويبدون حذراً .

والذين يوجبون السكنى في اورشليم يستندون الى امجادها الروحية الواضحة في الكتب المقدسة ، فقيل مثلا (ما اقدس مسكن العلي ، الله في وسطهــا فلن تتزعزع ، يعضدها الله في الصباح ، عظيم هو الرب ومعظّم جداً في مدينة إلهنا وفي جبل الله المقدس المجيــد ، فرح في جميـع الارض ، جبل صهيون في سفوح الجنوب ، انها لقرية الملك العظيم ، الله في صروحهـا يظهر عزه ،) الى ما هنالك من الآيات البينات .

ان الساكن في المكان الجليل يكون جايلا ، وقـد منحـه المرتل الطوبى بقوله : (طوبى لمن ترضى به فتقربه اليك وتسكنـــه في مسكنك ، فيشبع من خيرات بيتك ومن قداسـة هيكلك ، ومن برّك الجليل ، ومناهضو السكنى في اورشليم يسندون آراءهم الى ما يلي :

اولا : ان بالسكنى الدائمة فيها تتضاءل محبة الذات وتخمد : فيرتوي الشوق الى رؤية الاماكن المقدسة ، لان الارتواء سبب الانكماش كما يقول العلمـاء وكلما

ابتعد الانسان عما يحبه يضاعف شوقه إليه ، ويهيم به ويتوق الى رؤياه .

ثانياً : مضاعفة الخطايا ، لانهم يقولون ، ان كل خطيئة تقترف في المدينة المقدسة فعقابها مضاعف ، ويسندون رأيهم الى قول النبي داود (ان الذي يسكن في مسكن الرب يجب عليه السير في طريق الرب ، طريق البر والصلاح اكثر مما يجب في اي مكان آخر يسكنه ،) ومن اوصافه عند داود : ان يفعل البر ويتكلم الصدق في قلبه ، وليس غش في لسانه ، ولايعمل الشر لصديقه ، الى ما هنالك من الآيات ، وعليه فمن يُفرّط باحدى هذه الفضائل فانه يعرض نفسه لعقاب مضاعف يوم الدين .

ويكره البعض السكنى في اورشليم لان الرب شدد النكير عليها بقوله : يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين إليها ، كم مرة اردت ان اجمع اولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا ، لذلك سيترك لكم بيتكم خراباً)

الفصل الثالث

﴿ الشروط التي يجب ان يتقيد بها المسافر الى اورشليم ﴾

هنالك تسعة شروط يجب ان يتقيد بها الذاهب الى اورشليم المدينة المقدسة هي :

الاول : ان الذي يستعد للذهاب يجب ان يتوب اولا عن آثامه ، وان كان قد ظلم احداً عمداً او سهواً ، فليحقق في ذلك ويتذكر كل ظروفه ، ويعيد السلبية الى صاحبها ، وان كانت لديه ودائع يسلمها الى اصحابها ، ويتحرر من جميع الشرور .

الثاني : لتكن نفقاته من الربح الحلال ، او من ارث شرعي وصله عن ابائه او اخوانه او اخواته ، وليس حصيلة النهب او السلب او الاعتداء .

الثالث : الا يأخذ معه مواد تجارية ، لان كثيرين من الذين يتوخّون الارباح المادية يخطئون الاهداف الروحية ، ويحرمون منها .

الرابع : ان يأخذ معه زوادة فائضـة عن حاجته ، من الربح الحلال ، له وللذين معه ، لكي يمكنه اعطاء المحتاجين في الطريق ، والقيام بأوَدهم اذا كان ميسوراً وان كان فقيراً او ناسكا فليلقِ همه على الرب وهو يعوله ، ولا يزعج احداً في الطالب ، ويكتفي بما يقدم له لقوته الضروري .

الخامس : ان يكون سفره في وقت معين ؛ وليحرص على ان يصل اورشليم في اسبوع الآلام ، ليكون هناك فيحتفل بعيد القيامة العظيم ويشترك في المراسيم الدينية .

السادس : ليتلُ فور خروجه من داره ايات المزامير القائلة (ان نفسي ظمآى الى الله الحي ، متى آتي وأرى وجهك ؟) وعندما يشرع في السير او ركوب الراحلة يقول (فرحت بالقائلين لي الى بيت الرب نذهب . . . . وليرتل هذا المزمور كله ان استطاع) وليتأمل الى اين هو ذاهب ؛ والى من ولاي سبب .

السابع : ليكن حذراً في الطريق من الشتم وما اليه ، ومن الكلام الباطل الجالب الخطيئة ، وليكن كلامه رقيقاً وروحه وديعة مع الجميع .

الثامن : ليسافر سيراً على الاقدام ان استطاع ، لان الركوب ليس شأن المجاهدين بل شأن المترفين .

التاسع : ان يكون بسيطاً في هندامه ، ولا يتقلد الملابس الدالة على الكبرياء والعجرفة والتباهي الفارغ .

الفصل الرابع

الشروط التي يجب التقيد بها في اورشليم

الاول : عندما تلوح له مدينة اورشليم يتلو هذا المزمور (كما سمعنا هكذا رأينا في قرية الرب القوي ، في قرية الهنا ، ليثبتها الله الى الابد ، اننا ناديناـا اللهم نعمتك في هيكلك ، مثل اسمك اللهم هكذا تسابيحك الى اقاصي الارض ، البر مليئة يمينك ، ليفرح جبل صهيون ولتبتهج بنات يهوذا .

الثاني : اذا وصل الى اورشليم فليتلُ ان قدمي تقفان في ابوابك يا اورشليم اورشليم المشيدة ، كمدينة مسورة ، ليكن محبوك ميسورين ؛ وليكن السلام

في جيشك ، والخصب في رياضك ، من اجل اخوتي واحبائي ، اهديك التحية ، من اجل بيت الرب الاله اطلب لك الخير) .

الثالث : واذا دخل الهيكل يتلو (الى بيتك يارب دخلت وامام منبرك سجدت ، ايها الملك السموي اغفر لي ما اخطأت) ويتلو ايضاً (ما احب مساكنك يارب الجنود تشتاق بل تتوق نفسي الى ديار الرب ، قلبي وجسدي يسبحان الله الحي) .

الرابع : ليعيد له ثياباً من الكتان الابيض او القنب اذا كان علمانياً ، ومن الصوف اذا كان راهباً ، ليرتديها يوم القيامة ، لان الثياب السوداء دلالة على الخطيئة ، وفي هذا اليوم الذي هو ملك الايام وعيد الاعياد وموسم المواسم ، يجب الاتشاح بالبهجة والسرور الروحيين ، فان الملائكة ايضاً بشرت بقيامة الرب بثياب بيض والرب ايضاً ظهر بثياب بيض ، في جبل التجلي . وقال الحكيم سليمان : لتكن ثيابك وهاجة .

الخامس : ليتبارك من جميع الاماكن التي وطأها الرب وتلاميذه القديسون ثم يعود الى بيته .

السادس : اذا أنهى زيارته ورغب في العودة ، لايأسف على ما انفق في سبيل زيارته بل ليكن مبتهجاً . لانه استحق رؤية بيت اله الالهة ورب الارباب ، وجلس على الجبل الذي اختاره الله مسكناً له ، ودخل المدينة التي نطقت فيها العظائم .

الفصل الخامس

التأمل في الاماكن المقدسة

إذا وطأت قدماك ايها الاخ اللبيب الاماكن المقدسة التي اجرى فيها الرب اعماله بالجسد ، فلا تمرّن بها مرور اللامبالي ولاتنظر اليها نظرة عادية ، بل تصور ذاتك انك شاركت فعلاً الذين كانوا معاينين وخداماً للكلمة ، وتصور نفسك شريكاً في ذلك العمل الذي جرى في هاتيك الربوع ، مثال ذلك ، اذا رأيت المغارة قدم قرابينك مع المجوس ، واذع بشرى الميلاد مع الرعاة ، وادّ الحمد والتسبيح مع

الملائكة ، واحمله على ذراعيك مع سمعان الشيخ في الهيكل ، واحمله على منكبيك واذهب به الى مصـــر ، وتصوره يحبو مع الاطفال فعانقه وقبله واستنشق عبيره المنعش ، واخشع لحكمته وهو جالس بين المعلمين يلقي عليهم حججه ، وكن مرافقا للعمذان في عماده ، وكن معه في صومه ، واملاء الاحواض ماء في قانا الجليل ، واذا ما تصورته واقفاً على البئر مع السامرية فاسمع معاني الاعمال الروحية ، وتعلم كيف تسجد لله بالروح والحق ، وعندما يقيم الموتى ، فثق بالقيامة ، وصدق انه هو القيامة والحياة ، ورافقه في البرية ، واذا بارك فوزّعْ الخبز على الجموع .

واذا ما تصورته نائماً في السفينة فايقظه ثم اغسل قدميه بدموعك ، ونشفها بشعر رأسك ، وفي العشاء اتكيء على صدره وتناول الجسد والدم المحيين من يديه . واذا ما غسل اقدام تلاميذه اغتسل انت ايضاً من اوضارك ، واهتف اوشعنا في العلي مع الرضعان والاطفال ، وتألم معه بالامه ، واشرب الماء على البئر معه واشرب معه الخل والمرارة ، لتترنح معه في وليمته ، مت معـــه لتنهض معه بقيامته ، ولتطف نفسك حول قبره مع مريم والدة الاله ، وادخل معه الابواب المغلقة وكن شريكاً لسمعان اذا وقف على البحر سائلاً عن صيد السمك ، وشاركه في الطعام ، واحن رأسك للبركة اذا تصورتـــه صاعداً الى السماء ، وامكث في العلية لتحل عليك الروح القدس .

هكذا تأمل هذه الاعمـــال الالهيـة وثق ان كل شيء سيتجلى لك في تأملاتك ، وتكون اهلا ان تتمتع برؤياه الجميلة ويلتهب نفسك بحبه الالهي .

المقالة الثانية

ترتيب اعمال الحياة الجسدية

وفيهـــا ستـــة ابواب

الباب الاول

الطعام والشراب

وفيـه احـد عشر فصـلاً

الفصل الاول

شروط الطعام

إن هدف الانسان الحقيقي في هذه الحياة هو ان يعرف ان خالقه هو الله ، كما علّمت الكلمة الالهية بقولها (وهذه هي الحياة الحقيقية ان يعرفوك ايها الاله الاب وحدك) وتكون هذه المعرفة نظرية وعلمية ، وكلتاهما تطلبان في صحة الجسد وصحة الجسد واستمراره تتم في الغذاء . وعليه ، كل من يتناول هـذا يجب ان يتناوله نظرياً وعلمياً ، وعليه ايضاً ان يهذب الرغبة الطبيعية الى تناول الطعام بشروط منظمة ، وإلا لاشبه البهائم العديمة الآداب في طعامه ، وهذه الشروط ثلاثة اقسام تراعى ، قبل الطعام واثناءه وبعده .

والشروط التي يجب ان تراعي قبل الطعام ثمانية هي :

الاول : ان يكون طعام الانسان من كد يديه ، فاذا اقتت من كـــد يديك ايها الانسان فالطوبى لك والطوبى لنفسك .

الثاني : ان يغسل يديه قبل الشروع في الطعام .

الثالث : الا يضع انواع طعامه على مائدة مزخرفة مثل اقيال الارض وزعماء

العالم ، بل يضعها بتواضع على سماط مفروش على الارض ؛ والرب ايضاً أمر الجموع ان تتكيء على الارض (هذا الشرط للنساك) .

الرابع : الا ينام على جنبه اثناء الطعام بل يجلس الاربعاء واذا اوقف ركبته اليمنى فلا بأس .

الخامس الا يأكل إلا بعد شعوره حقيقة بالحاجة الى الطعام ، ويرفع يده قبل ان يشعر بأنه اخذ كفايته منه . والاطباء ايضاً ينصحون بعدم ملء المعدة ويقولون : لتكن المعدة ثلاثة اثلاث ، الثلث للطعام والثلث للشراب ، والثلث للهضم .

السادس : اذا وضع الخبز لا ينتظر بعده الى الادام ، فان الاب اخيلوس عندما زار صومعة الاب إشعيا ووجده يغمز الخبز بالماء والملح - لان حنجرته كانت يابسة من شدة الحر - قال : هلموا انظروا الاب أشعيا يأكل مرقاً في الامقيط (صحراء مصر) فاذا رغبت في المرق فاذهب الى مصر .

السابع : ليكثر الايدي المتناولة للطعام اذا كان من ابناء العالم ، وليشاركه في طعامه كل اهل بيته (ابناؤك مثل اغراس الزيتون حول مائدتك) واذا كان راهباً ليكن الاخوة الرهبان معه ، كما كان يجتمع الرمل التدبسون سوية ويتناولون الطعام فرحين ، إلا اذا كان هناك من لم يعتد ان ياكل مع غيره ، فليأكل منفرداً مثل القديس يوحنا الذهبي الفم الذي لم يأكل مع احد منذ اصبح رئيس كهنة ، وهذه كانت احدى المواد التي شكي بها ، فادعى خصومه بانه كان يأكل بشراهة وان تكوين فمه يصبح قبيحاً لدى تناوله الطعام ، وعلى ذلك كان يأكل منفرداً .

الثامن : اذا اتفق وقت الصلاة مع الطعام بآن واحد ، فلتقدم الصلاة ، ما عدا ايام الاربعاء والجمعة فالطعام يقدم على الصلاة .

الفصل الثاني

الشروط التي يجب ان تراعى اثناء الطعام

هناك اثنا عشر شرطاً يجب ان تراعى اثناء الطعام هي :

الاول : اذا شرع (الانسان او الراهب على الاخص) في الطعام فليقل

(باسم الله المقيت المشبع) ومع اللقمة الاولى يقول (ذوقوا وانظروا ما اطيب الرب) ومع الثانية يقول (طوبى للمتكلين عليه) ومع اللقمة الثالثة يقول (الذين يطلبون الرب لاينقصهم خير) واذا قدم الشكر لله مع كل لقمة فنعم ما يفعل .

الثاني : ان يأكل بيده اليمنى .

الثالث : ان يبدأ طعامه بالملح ويختم به الطعام ، لان آباء البرية هكذا كانوا يفعلون

الرابع : ان تكون اللقمه صغيرة وليمضغها مضغاً كافياً ، ولا يمد يده امام غيره .

الخامس : ان يأكل مما وضع امامه ، ولا يمد يده الى ما وضع امام من الى جانبه بشراهة .

السادس : الا يأخذ من قمة الصحن ولا من وسط الاناء ويتناول من طرف الرغيف.

السابع : ان يكسر الخبز بيده لا ان يقطعه بالسكين لان ذلك شأن المترفين وليس شأن النساك .

الثامن : الا يضع فوق الخبز الصحفة ولا اناء اخر ، الا ما كان منه معداً للطعام فقط ولا يمسح يده بالخبز .

التاسع : الا ينفخ على الطعام الساخن بل يتريث حتى يبرد .

العاشر : اذا تناول الثمار ذات النوى ، لا يضع النوى مع الاثمار سوية في الاناء ولا يجمعها بيده ولا يلقي بها حوله ، بل يضعها في اناء آخر على المائدة .

الحادي عشر : الا يشرب الماء كثيراً مع الطعام الا إذا اضطر الى ذلك .

الثاني عشر : ان يتناول كأس الماء بيده اليمنى ويشرب ، لا جالساً ولا نائماً ، وليحذر من ان يتدشأ في الكاس عند شربه الماء .

الفصل الثالث

الشروط التي يجب ان تراعى بعد الطعام

هي سبعة شروط :

الاول :ان ينقطع عن الطعام قبل ان يشبع كما قلنا .

الثاني : ان يأتي على كل ما في الصحفة من الطعام ، ان هذا شأن الزهاد المتواضعين .

الثالث : ان يمسح يديه بالمنديل ويكون حذراً من غطس يديه في الطعام

ويحذر لمسها بشفتيه او ادخالها في فمه .

الرابع : ان يلتقط الفتات الساقطة على المائدة ويأكلها لا شراهة بل احتراماً للطعام .

الخامس : اذا احتاج الى تنظيف اسنانه بسواك فلا يبلع ما يخرج منها ، بل يمسحه بمنديل .

السادس : ان يقول بعد الطعام « الحمد لله على خيراته الحمد لله الذي كفاني من نعمائه ، الحمد لله الذي كفاني من فيض بركاته ، » واذا تناول الطعام على مائدة غيره يقول « ليبارك الله من اكرمني وليرحمه ، وليغفر له الرب ولأمواته ، من اكرمني ليكرمه الرب في ملكوته السموي .

السابع : ليغسل يديه بالماء ابتداء من اصابعه ثم اسنانه ، ثم فمه وشفتيه ثم كل يديه ، ثم ينشفها بمنديل ، واذا تناول الاسرار المقدسة لايجب ان يغسل فمه بعد التناول في ذلك النهار .

الفصل الرابع

﴿ شروط الطعام الجماعي في الديورة ﴾

يجب على الذين يتناولون الطعام على مائدة الدير الواحدة ان يراعوا اثني عشر شرطاً هي :

الاول : اذا حضر رئيس الدير او المرشد مع الاخوة الرهبان ، او احد الكهنة مع العلمانيين يجب ان يبارك ثم يباشرون الطعام .

الثاني : ليبدأ بالطعام الاكبر سناً ، ويتبعه الباقون سوية .

الثالث : الا يصمتوا على الطعام مثل البهائم على العلف ، بل بين لقمة واخرى ليشكروا الله ، وفي الديورة تقليد يقضي بأن يقرأ احد الاخوة ميمراً او قصة روحية او فصلا من الكتاب المقدس اثناء تناول الطعام المقدس لكي تتغذى النفس مع الجسد .

الرابع : الا يتكلموا على المائدة ، فالاب يوسف لما سمع الاخوة يهذرون

على المائدة وبخهم وقال : ايها الاخوة ، أعوض الشكر والحمد الخفي لله تنطقون بالكلام الباطل ؟ فخجل الاخوة نادمين . ورأى الاب سانو راهباً يضحك على المائدة ، فبكى قائلاً : ماذا في قلب هذا الاخ ليضحك ؟ كان ينبغي له ان يبكي لانه يأكل طعام النعمة .

الخامس : اذا تناول الطعام اثنان او ثلاثة في طبق واحد ، لا يسوغ لاحدهم ان يسابق الاخرين شراهة ، فاذا خجل احدهم ليشجعه رفيقه بالتظاهر بانه يأكل اكثر منه .

السادس : اذا قلص احد الاخوة طعامه حياء فليقل له من الى جانبه ، كل يا اخي ، حتى المرة الثالثة ، ولا يزيد على ذلك ولا يقسم عليه بأن يأكل .

السابع : لايسوغ لاحد ان يحوج صاحبه الى الالحاح به على الطعام ، ولا يتصرف بما فيه الخداع بل ليتناول طعامه بهدوء وبساطة بالقدر الذي يريده والنوع الذي يرغبه

الثامن : كل من له عادة تناول الطعام وحده كمية ونوعاً ، فليفعل مثل ذلك اذا احتاج الى تناوله مع الاخرين ، واذا لم تكن له تلك العادة الحسنة فليجهد نفسه بتعلمها ، وليحرص على تقويم ذاته .

التاسع : الا ينظر احد الى رفاقه وهم يأكلون ، ولا يراقب لقمتهم كما قال الحكيم (لا تؤاكل رجلاً نهماً) .

العاشر : لا يسحب الكبير الجالس على المائدة يده قبل الصغار لئلا يخجلوا فلا يبلغون حد الكفاية .

الحادي عشر : لا يسوغ قيام احد الجالسين على المائدة بحركة يشمئز منها الباقون ، فلا ينفض يده في الصحفة ولا يقدم رأسه منها عند تناوله الطعام ، واذا اضطر اخراج شيء من فمه فليلتفت الى الجهة الاخرى ويأخذ بيده اليسرى ، ولا يزدرد الطعام بقوة ، واذا قضم شيئاً من اللقمة لا يغمس البقية في الصحفة ، ولا يذكر على المائدة حديثاً يسبب الاشمئزاز .

الثاني عشر : عند غسل الايدي فليدر بالغسل من الجهة اليمنى ، وليبدأ من الكبير ، وينتهي بالصغير ، والذين يغتسلون سوية تواضعاً لا يسبق احدهم رفاقه ، ولا يصق احدهم في المغسل ، إلا إذا كان منفرداً ، والذي يقدم الماء لا يجب ان يجلس بل يقف على قدميه او على ركبتيه .

الفصل الخامس

تقديم الطعام للضيف

يأتي الضيف اما لزيارة او لرؤية صديق ، ولا يسوغ دخوله وقت الطعام ، لانه قيل كل من يتناول من عشاء لم يُدعَ اليه كأنه تناول بالاغتصاب ، وإذا اضطر ان يدخل في ذلك الوقت ، بالذات ، فلا ينبغي ان يأكل إلا بعد الالحاح ، ويجب ان يميز هل الحوا عليه بانشراح ؟ وحينئذٍ فليوافق ، واما اذا كان الالحاح حياءً فليعتذر ولا يتقدم . اذا كان احد جائعاً وكان لديه أخ محب صدوق ، ويعتقد انه لن يتضجر اذا تناول الطعام معه ، فليدخل ويتناول الطعام بارتياح وان لم يكن رب البيت حاضراً . والمضيف لا يجب ان يبالغ في قرى ضيفه اكثر من طاقته .

استضاف احد الاخوة في الاسقيط (برية مصر) اسقفاً فقدم له خبزاً وملحاً وقال : اعذرني يا ابتِ فليس لي غير هذا لاقدمه لك ، فقال الاسقف : آمل اذا زرتك في السنة القادمة الا اجد لديك حتى هذا ولا يسوغ للمضيف ان يقترض لهذا السبب وخاصة اذا كان بوسعه القيام بأود ضيوفه بصورة عاديه ؛ كما لا يسوغ للضيف الطلب الى مضيفه كذا وكذا من الاطعمة ، بل ليأكل فقط ما قدم له . يحكى ان احدهم استضافه صديقه فقدم له خبز الشعير والملح ، فقال الضيف : ان الملح يطيب بالصعتر ؛ فخرج الاخ ورهن قميصه واشترى شيئاً من الصعتر ، ولما اكلا ، قال الضيف : الحمد لله الذي اطعمني ردائي . فقال المضيف : اذا كنت قد اكلت رداءك لما كان قميصي مرهوناً ؟ واذا الح المضيف على الضيف كثيراً فيما يجب ان يقدم له ، فليختر ما كان هيّناً عليه ؛ ولا يسوغ للمضيف ان يسأل الضيف : هل ترغب ان تأكل ؟ فاذا كان لديه شيء ليقدمه بدون سؤال .

الفصل السادس

﴿ عناصر الدعوة الى وليمة وشروطها ﴾

عناصر الدعوة ستة منها تتألف المآدب ، الاول : الدعوة ، الثاني : قبولها ، الثالث الاستعداد لها ، الرابع : تقديم الطعام ، الخامس تناول الطعام ، السادس : الخروج من المأدبة . ولما كنا قد بحثنا شروط الطعام في الفصل الرابع نبحث الان الشروط الباقية الخاصة بالمآدب وهي اربعة :

الاول : ان يدعو الفقراء والبؤساء طبقاً لتعليم الرب (اذا صنعت وليمة فادع الفقراء والمساكين والبؤساء والعرج والعميان ، وطوبى لك لان ليس لديهم ما يكافئونك به ، فتكون مكافأتك في قيامة الصديقين)

الثاني : اذا كان بعض اصدقائه وأقاربه فقراء فلا يجب ان يهملهم ، فقد امر الرب الا يدعى الاقارب الاغنياء لئلا يدعوه هم ايضاً فينال مكافاته هنا .

الثالث : اذا رغب ان يدعو الاغنياء صداقة وليس لاهداف اخرى فاني أؤكد ان الله لايمنع ذلك .

الرابع : الا يدعو من لايرغب تلبية الدعوة ، لانه ان امتنع عن الذهاب يُخجل من دعاه ، وان لبّى الدعوه لسبب ما فانه يلبيها مستاء ، باعتباره اضطر الى ذلك ، ولا يجرؤ اغضاب من دعاه ، والى هذا يشير احد الحكماء بقوله : ان من لايرغب تلبية الدعوة ولم يلبها فان له خطأ واحداً ، ومن يلبّها مكرهاً له خطا آن .

الفصل السابع

شروط التلبية

لتلبية الدعوة ستة شروط هي :

الاول : إن من يدعى الى وليمة يجب ان يفضل ان يدعى مع الفقراء والبؤساء اكثر مما اذا دعي مع الاغنياء والمتكبرين .

الثاني : اذا علم احد انه دعي تملقاً وذهابه لايسر من دعاه ، فليعتذر ولا يذهب ، واذا تأكد ان عدم ذهابه سيحزن من دعاه ، فليتلطف ويلبي الدعوة . قال احد الفضلاء : لاني دعيت الى وليمة ولم البّ ، عذبني الله بالجوع اربعة عشر يوماً وتأكدت ان ذلك كان قصاصاً لي .

الثالث : الا يمتنع عن تلبية الدعوة بحجة بعد الطريق ، ان الاب فومان ، عندما كان يضطره احد الى تناول الطعام معه ، كان يلبي باكياً ، لانه كان يرغب الا يحزن اخاه الذي دعاه ، فكان يكسر شوكة ارادته في سبيل عدم تلبية رغبة أخيه .

الرابع : الا يمتنع عن الذهاب بسبب صوم شخصي تمسك بـه ، واذا رغب اليه اخوه حل صومه فليفعل ، اسوة بذلك الناسك الذي كان موغلاً في اعمال الزهادة ، ولما اضطره بعض الضيوف الوافدين ان يجاريهم خلافاً لتقاليد نسكـــه وافق ، ولما سئل عن السبب قال : ان قصدي من ذلك كسر كبريائي .

الخامس : اذا عرف المدعو ان الوليمة اقيمت من أموال منهوبة او مسلوبة ، فليمتنع عن التلبية ، وهكذا اذا كان الداعي ظالماً او مغتصباً .

السادس : ان يذهب بطريقة لائقـــة لا بدافع الشراهـــة بل تعزيزاً لصداقة الداعي ، .

الفصل الثامن

الحضور

للحضور ثمانية شروط هي :

الاول : اذا حضر المدعو وليمة لايجلس في رأس المتكأ ، وهذه وصية ، (اذا دعيت الى وليمة فاجلس في مؤخرة المتكأ ، لكي اذا حضر الذي دعاك يقول ارتفع ياصديقي الى اعلى فتكون لك كرامة افضل لدى بقية المدعوين معك)

الثاني : ان الذي يوافق على قبول الدعوة ، يجب ان لا يتأخر عن الموعد المقرر ، لئلا يزعج تأخره المدعوين الاخرين ، ويجب ان لا يسبق الموعد كثيراً ،

لئلا يكون حضوره مفاجأة مزعجة لمن دعاه .

الثالث : من يحضر الدعوة لايجب ان يدفع بمنكبيه بقية المدعوين ، اذا كان المتكأ ضيقاً ، ليجتهد ان يجد له محلاً مناسباً على المائدة فيجلس .

الرابع : اذا عيَّنَ له صاحب الدعوة مكاناً محترماً لجلوسه ، لايجب ان يخالفه بل يجلس حيث اشار اليه ، واذا دعاه المدعوون الى الارتفاع فلا يوافق بسرعة ، بل ليكن متواضعاً .

الخامس : اذا كان الداعي متزوجاً ، لايجلس المدعو امام باب مخدع النساء ولا يكثر من النظر الى المحل الذي تجلب منه الاطعمة .

السادس : يجب على رب البيت ، ان يعين للمدعوين جهة الشرق من القاعة لغاية الصلاة ، وكذلك المكان الذي فيه تقضى الشؤون الجسدية الضرورية .

السابع : لما كان وقتان اثنان للتغسيل ، ففي المرة الاولى قبل الطعام يغتسل رب البيت اولا ، ثم المدعوين ، اما المرة الاخيرة في نهاية الطعام فيغتسل رب البيت آخر الكل . ذلك شأن التواضع .

الثامن : اذا حضر المدعو الوليمة فوجد ما يعد خرقاً للناموس فليجتهد ان يبطله اذا استطاع ، والا ، ليعلم الفاعلين ويخرج ، ويقول مجمع اللاذقية : لايسوغ للكهنة والاكليريكيين مشاهدة المناظر المثيرة في الولائم والحفلات ، بل ليخرجوا قبل دخول المغنين والراقصين .

الفصل التاسع

تقديم الطعام

ولتقديم الطعام ستة شروط هي :

الاول : ليقدم صاحب الوليمة الطعام بسرعة ، لئلا يزعج المدعوين بالتأخير والانتظار ، وقال احد الفضلاء : ان التأني جيد ومفيد الا في خمسة امور ، تقديم الطعام للضيف ، ودفن الميت ، وزواج العذراء ، ووفاء الدين ، والتوبة عن المآثم .

الثاني : يجب تقديم الفواكه اولاً ليتشاغل بها المدعوون لانها اذا قدمت بعده غالباً تتلف وتؤذي .

الثالث : يجب تقديم الاطعمة السهلة المشهية لا ما يقل عنها نكهة فانه غالباً يؤكل بصعوبة ، وبعض الناس يفعلون بالعكس ، فانهم في شدة الجوع لا يقدمون الطعام الشهي لانه سيؤكل طبيعياً بشهية كاملة ؛ وهكذا يصبح الطعام كله شهياً ولذيذاً .

الرابع : ان تقدم كل انواع الاطعمة بآن واحد ، لكنه يتناول كل من المتكئين ما يطيب له ، والبعض يقدمون كل نوع وحده ، ليظهروا للمدعوين كثرة انواع الاطعمة ، لكي اذ شبع الآكل من نوع واحد او من نوعين يهمل البقية ، وفي ذلك يتضجر الآكل ويزعج من دعاه .

الخامس : لا يجب رفع الاطعمة عن المائدة بسرعة بل حتى يأخذ كل حاجته منها .

السادس : ليقدم صاحب الدعوة كمية كافية من الاطعمة تبعاً لعدد المدعوين لان قلة الكمية تدل على قلة المعرفة ، وكثرتها علامة الاسراف ، ويجب على رب البيت ان يفرز ما يكفي لاهل بيته ، خشية الا يبقى ما يأكلون فيسبب لهم ذلك الماً شديداً .

الفصل العاشر

الخروج من الوليمة

وله ثلاثة شروط هي :

الاول : ان يشودع رب البيت ضيوفه الى خارج الدار وليشكرهم لانهم شرفوه بحضورهم وأنسوه بصحبتهم .

الثاني : يجب ان يخرج المدعوون مسرورين حتى وان كان صاحب الدار لم يعرف ان يقدم لهم الاكرام اللائق ، ولا يجب التندر عليه ولا يسوغ ذكر ذلك لدى الاخرين وليجدوا اعذاراً لبعض تقصيره .

الثالث : الا يخرج المدعو الا برضى صاحب الدعوة وموافقته ، واذا كان قد قدم من بلدة يجب ان يطلب اليه المكوث اكثر ؛ ولكن لا يسوغ له المكوث اكثر من ثلاثة ايام .

الفصل الحادي عشر

شروط مجالس الشرب

بما ان الفرح لايتم احياناً للمؤمنين بدون شرب الخمر في الولائم والاعراس يجب ان نضع لذلك ايضاً الشروط الواجبة وهي عشرة :

الاول : يجب على المؤمن العلماني ان يشرب الخمرة بحذر وبمقدار معين ، قال احد الحكماء : اذا شربت الخمرة بمقدار معين فانها تولد لك البهجة والسرور ، واما اذا شربتها بدون حد فانها تولد الخصام .

الثاني : لاينقطع المؤمنون عند شرب الخمرة عن شكر الله ، ويجب ان يتحدثوا بما يليق من الكلام المهذب طبقاً لما قال الحكيم نفسه : كالختم على صرة الذهب هكذا شكر الله مع الخمرة ، ومثل اعلاق الذهب والحجارة الكريمة هكذا الكلام المهذّب مع الخمرة .

الثالث : ان يختار الانسان جليساً عاقلا مساوياً له بالكرامة والمنزلة ، وليبتعد عن المهذار والوقح .

الرابع : الصغير بالسن لا يجب ان يتكلم في مجلس الشرب ، بل يسمع ما يتكلم به الحاضرون ،وليحترم كلام الكبير ، وواجب الجلوس ان يتجاذبوا اطراف الحديث بهدوء .

الخامس : يجب على الصديق التحدث الى صديقه بلياقة ولباقة ، وليبتعد عما يثير الشكوك والخصام .

السادس : الرجل العاقل لايجب ان يستأثر بالكلام وحده ، ويستمر في القاء الملح والنكات لكي يؤنس الجالسين ويضحكهم لان ذلك من شأن الشرفاء .

السابع : ان يحذر الانسان من السكر ، ولا يشرب اكثر من مجاليسه ، وان امكنه ذلك ، وحالما يشعر بالسكر يدب في رأسه يتوقف عن الشرب طبقاً لما قال الحكيم : قم الى بيتك وانت صاحٍ عاقل . واذا اضطر الى البقاء اكثر

يعلن انه لن يمكنه الشرب بعد الآن ، واذا كان الجالسون اصدقاءه فلينسحب بحكمة وتعقل وقد قال الحكيم : لمن الويل ، لمن الشرور ، لمن الضربات القاسية ولمن ازورار العينين ؟؟ الا للمدمنين على الخمرة ؟؟

الثامن : يجب ان لا يتناول اقل من رفاقه من الثمار وغيرهما مما يقدم لا للشبع بل للمساعدة على شرب الخمرة .

التاسع : اذا شعر احد بانزعاج في معدته ، حيث يؤدي ذلك الى القيء ليخرج حالا من المجلس وبعد ارتياحه يعود ثانية الى رفاقه .

العاشر : لايجب الاسراع الى مجالس ذكرى المواليد او ذوي المناصب الكبرى . واذا الجأته الضرورة الى ذلك فلا يتكلم الا اذا سئل ، وليسرع في الخروج .

الباب الثاني

الزواج الشرعي

وفيه سبعة فصول

الفصل الاول

البتولية والزواج وايهما افضل

يرتأي البعض ان الزواج افضل من البتولية ويسندون رأيهم على وجود وصية الهية صريحة بذلك وهي قول الله (انموا واكثروا واملأوا الارض) الأمر الذي لايوجد بشأن البتولية ، وقد شهد الرسول بولس بقوله (اما البتولية فلم اتلق امراً من الرب بشأنها ولكن اعطي رأياً) غير ان الحق هو البتولية الحقة افضل من الزواج ، وهي مع الامتناع عن الزواج الامتناع عن سائر الاهواء الجسدية ، والا يكون الزواج افضل واجدى ، وقد قال سيد الملافنة القديس غريغوريوس اللاهوتي في ديوانه : بالنسبة التي تفضل بها البتولية الزواج ، يفضل الزواج الطاهر البتولية الزائفة . لان البتولية تتطلب حياة اسمى من هذا العالم . ويقول هذا

الملفان ايضاً في الكتاب نفسه مشيداً بقيمة البتولية الحقة بهذه العبارات الرائعة : جميلة الوجود ، رفيعة الرأس ، شفافة نيّرة ، اسمى من المادة ، وارفع من الجسد ، غير موزعة بين المسيح والملاك الارضي ، وليس فيها ناموس معطل للحياة ، ولكنها مكرسة كل حبها لله . ولما كانت البتولية سامية بهذا المقدار ، لا يمكن ان يتحملها إلا القلة القليلة من الناس فقط ، اولئك الذين خلعوا العالم كما قال الرب في جوابه للفريسيين في صعوبة انحلال الزواج الشرعي ، (ان الذي خلقهما منذ البدء خلقهما ذكراً وانثى ، وقال : لاجل ذلك يترك الرجل اباه وامه ويلزم زوجته ويكونان كلاهما جسداً واحداً فليس هما اثنين لكن جسد واحد ، فما ازوجه الله لا يفرقه الانسان) ولما سمع التلاميذ ذلك قالوا : اذا كان الامر كذلك بين الرجل والمرأة فخير للرجل ألا يتزوج . أي اذا كان طلاق المرأة بهذه الصعوبة ستصبح المرأة شريرة وقحة كالوحش الكاسر ، وعليه لايجب الارتباط بها بهذا الرباط الشرعي . فأجاب الرب : ليس كل انسان يتحمل هذه الكلمة إلا الذين اعطوا . اي لايستطيع اي انسان كان تحمل البتولية والقيام بكل واجباتها الدقيقة إلا الذي أُعد لهذا منذ الرحم ، وفي التحمل يعود فيقول : يوجد خصيان الخ .. اي الذين عوض اعضائهم اوقفوا افكارهم وقطعوها وزهدوا في اهواء الجسد ليصيروا مثل الملائكة في ملكوت السماء ، ومن يمكنه التحمل فليتحمل ، اي ليقاس هذه الشدة ، وبما ان الذين قد يمكنهم ذلك هم اقل من القـــلة ، لذلك فضل القديسون الزواج الشرعي على البتولية الزائفة .

الفصل الثاني

قيمة الزواج الشرعي

ان موسى سن ناموساً يوضح فيه قيمة الزواج باعتباره اعطي ببركة من الله وقد ورد ذلك واضحاً في الاسفار المقدسة ، واليك قوله (وخلق الله آدم على صورته على صورة الله خلقه ، ذكر أوأنثى خلقهما وباركهما الله وقال لهما : انموا واكثروا واملأوا الارض واخضعوها (تك ١) ولم يلعنه الله عند سقوطه في المعصية لئلا

يبطل قوة هذه البركة بل امن الارض بسببها ؛ وقد تأمل الحكيم سليمان بهذا السر فقال : ان المرأة تخطب للرجل من الله) وهكذا الرسول بولس الذي له فكر المسيح تكلم في هذا السر واثنى عليه فقال : هذا السر عظيم ، اقول ذلك في المسيح والكنيسة ، واما انتم فليحب كل منكم امرأته هكذا كنفسه ، كما احب المسيح الكنيسة وبذل نفسه من اجلها ليقدسها مطهراً اياها . (افسس اص خا) والقديس غريغوريوس اللاهوتي يمتدح امه نونا فيقول : ان امرأة بطلة من يجدها ، فقد سمعت كتاب الله يقول : ان الزواج الصالح الذي يعقده الرب لهو عطية الله العظيمة ، فما اجمل ذلك ، حتى للذين من الخارج ، فلا توجد نعمة ينالها الرجل من الزواج الصالح من امرأة صالحة . وقال ايضاً في تأبين اخته جورجونيا : ان سليمان الحكيم يمتدح الامرأة الفاضلة في امثالها الحكيمة ويطري حرصها على بيتها وحبها لزوجها وبعكسها الامرأة المتطلعة الى الخارج الساقطة تتصيد نفوس الكرماء وهي بعكس الامرأة الفاضلة الهمامة النشيطة التي يداها في الغزل وهي تعد الحلل الكاملة لابناء بيتها .

والقديس ايوانيس (الذهبي الفم) قال في تفسير انجيل متى ، في شرح العبارة التي مطلعها ، (حينئذ قال يسوع لتلاميذه : اذا أراد احد ان يتبعني فليكفر بنفسه ويتبعني : ان الذين تلمذهم الرسل والساكنين في المدن كانوا يمثلون عفاف الذين سكنوا البراري ، وغيرهم ايضاً كانوا يتجردون كبريسقيلا واقولاوس والانبياء كلهم كانت لهم نساء وبيوت كاشعيا وحزقيال وموسى الكليم ، ولم يكن ينقصهم شيء من الفضيلة .

وقال ياونّي رئيس الدير : يقول البعض انه لا يسوغ ان نسمي الرجل المتزوج طاهراً ، وهم لايدرون انه لو اعطيت مفاتيح ملكوت السماء لرجل بتول الجسد لكان قولهم صحيحاً ، ولكن ينقض رأيهم من كانت له حماة ، وكان طاهراً وقد حمل مفاتيح القداسة .

وقال مار يعقوب الملفان في ميمر البتولية : ما احب الزواج وما اجمله فقد رتبه الخالق ، والفراش نقي وكله روعات ، انها الطريق العظمى الخالية من

العثرات ، مهدها الابرار بجمال فضائلهم ، في رأسهـــا آدم وبعده شيت الجميل ، وانوش واخنوخ ونوح وابراهيم واسحق ويعقوب ، فمن ذا يجرؤ على الطعن بطريق سلكها المزيّنون باسمى الفضائل ؟

الفصل الثالث

فوائد الزواج

اننا نعرف خمس فوائد للزواج الشرعي هي :

الاولى : النسل ، وهو الهدف الاساسي من الزواج ، تطبيقاً للوصية الالهية الاولى حيث نصت (انموا واكثروا واملأوا الارض) واما اللذة الناتجة عنه فانها الهدف الثانوي ، لان هذه غرست في الطبيعة لاقتناص النسل ، ولم توجد الاولى من اجل الثانية ، ويطلب النسل لاربعة اسباب هي :

١ — تكميلا لامر الله الموجب بحفظ الجنس البشري

٢ — تشبهاً بالاباء الاولين ابراهيم واسحق ويعقوب وبقية الابرار الصالحين .

٣ — التعزية التي ينالها الانسان بابنائه وخاصة اذا كانوا صالحين .

٤ — ابقاء النسل الصالح بعد الانسان ليصلي من أجله .

الثانية : اخمـاداً لاهواء الجسد وتحفظاً من السقوط ، ولذلك امر الرسول بولس المتزوجين قائلاً : لايمنعن احدكم صاحبه الا اذا اتفقا بسبب الصوم والصلاة ، ثم تعودان الى نفس العمل لئلا يجربكما الشيطان بسبب شـــهوة اجسادكم فالزواج خير من التحرق بالشهوة . وقال الحكيم : حيث لايوجـد سياج تنهب الكروم ، وحيث لاتوجد امرأة فالطياشة واضحة ، فمن يصدق الاعزب انـه مثل الظبي ؟

الثالثة : راحة الافكار وخمود التجارب الشيطانية التي كثيراً ما تقلق الانسان وتبعده عن الفضيلة .

الرابعة : ارتياح الانسان بوجود امرأة تدبر بيته طبقـاً لقول الحكيم : انها تقوم في الليل وتعطي طعاماً لاهل بيتها وعملا لصباياها .

الخامسة : البطولة التي ينالهـا الانسان بالصبر على اخـــلاق النساء وكثرة مطاليهن ، وثقل احمـالهن ، مقابلة بالنساء الفضليات النشيطات اللواتي يحملن اثقال ازواجهن ، الامر الذي يصدف نادراً ، وعليه فان الرجل الفاضل مع المرأة ينقى كالذهب في البودقة ،

الفصل الرابع

هنات الزواج

ان للزواج ثلاث هنات هي :

الاولى : عدم استطاعة الرجل ذي الزوجة والاولاد العدل في احـكامه ، لان من تـكثر نفقاته يجهد نفسه على الحصول عليها باية طريقة كانت ، وربما احتاج الى النهب او السلب ، او الاغتصاب او السرقة او اللصوصية ، وهـــذه اعظم جميع الهنات الباقية واقساها ، وهي مهلـكة للنفس والجسد ، .

الثانية : صعوبة تحمل خلق المرأة ، وعدم القدرة على تلبية جميع مطاليها ، ورجل تواجهه مثل هذه المشكلات ربما يطلب التخلص من رباط الزوجية .

الثالث انهاك الانسان في سـد حاجات المرأه والاولاد وضعفه في الاعمـال الروحية ، وقال الرب في هـذا الصدد : « من يأتي الي ولا يبغض اباه وامـــه واخته وامرأته واولاده وحتى نفسه ، لايمكنه ان يكون لي تلميذاً .

الرابعة : سؤال — ان شهادتـه هذه توصد باب الملكوت امام المتزوجين ، وكيف نصلي دائماً ان ينضم هؤلاء الى احضان ابراهيم وبقية الآباء ؟

الجواب : ليس كل انسان باستطاعته الوصول الى درجـــة هؤلاء الآباء الصديقين ، فيقوم بالواجبين بآن واحد ، فقد تسامت نفوسهم الجبارة الى درجـة الكمال التي لايبلغها الا القلائل ومن اخذ الامور بشجاعة وبساطة بآن واحـد ، وهو من الاجراء لا البنـــين ، فاستطاع تلبية مطاليب النساء وتحمل خلقهن ولم يستطعن منعه ، من اعمال البر والفضيلة فانه يجني فوائد الزواج كاملة ، من انجاب

نسل ، واخماد شهوة ، والذين لا يمكنهم النجاة من شوائب الزواج فأشير عليهم الا يطلبوا فوائده ، لان الجهاد ضد المرض لاينيل الصحة وحـــده .

اما الحكماء المحنكون والذين تساموا الى درجة البنين فلا يقدمون على الزواج بل ليطلبوا حياة اسمى من هذا العالم فقد قال الآباء : ان المتزوج يشبه من ربطت يداه ، وكبلت رجلاه ، وهو وان امكنه السير حيناً ، لكنه يعثر ويسقط احياناً ولذلك قال الرسول القديس بولس : كنت ارغب ان يكون جميع الناس مثلي ، ولكن من اجل الضيقة فليتزوجوا .

الفصل الخامس

الصفات المطلوبة في الخطيبة

هناك عشر صفات تطلب في الفتاة - إذا وجدت - تجعل خطيبها سعيداً وهي :

الاولى : ان تكون مزينة بالتقوى ، ومثل هذه تدعى امرأة فاضلة (والامرأة الفاضلة طوبى لزوجها) تتضاعف ايام حياته واما المرأة الشريرة فان وجه زوجها يذبل .

الثانية : ان تكون وديعة هادئة ، لان المرأة الصخابة كالرجم الساقطة في يوم عصيب ؛ وخير للرجل الجلوس على عمود جارح من الجلوس مع امرأة صخابة ؛ والمرأة الوقحة كالحربة الجارحة الداعية الى الحرب .

الثالثة : الا تكون كسولة متوانية ، بل قوية نشيطة (المرأة الفاضلة من يجدها ثمنها يفوق اللآلىء ، والامرأة الحكيمة بنت بيتها والجاهلة دمرته)

الرابعة : الا تكون مجردة من الجمال لان بشاعة المرأة تحمل الرجل الى التطلع الى الخارج ، والجمال يطلب مع التقوى ، كالشمس المشرقة في السماء كذلك المرأة الصالحة في خدر بيتها ؛ والحسن كاذب والجمال باطل اما المرأة التقية فهي المبتغى وقد قال الحكيم : لا يغرّنك جمال المرأة السفيهة) واعلم ان الجمال الظاهر يدل غالباً على الجمال الباطن ، والعكس بالعكس ، كما يؤيد الفلاسفة ، وقال العظيم بين الملافنة مار افرام : كل ما يوجد في كيان النفس يستطيع الجسد ن يظهره

فاذا كانت الشهوة راسخة في كيانها فان الجسد يظهرها ، وان كانت فيها الكبرياء فالجسد يمكنه تبيانها . ولهذه الاسباب الاربعة قال الحكيم : فتش عنها ثم تجاوب ، وقبل اختبارها لا تقترن .

الخامسة : الا تضع على الرجل اثقالا صعابا ينوء بها ، بل ترضى بما يقدمه وان كان ضئيلاً ، وكما ان المرأة لايجب ان تضاعف المهر على الرجل كذلك الرجل واجبه الا يضاعف النفقات عليها . قال احد الفضلاء : ان من يخطب امرأة ويسألها ماذا تملك فانه لص يريد ابتزازها .

السادسة : ان تكون من جنس الولادات لان من الولد تزداد الحكمة ، وتقوي اواصر الوحدة وتتضاعف السعادة على حد قول الحكيم : الامرأة الولادة تسعد شعبها .

السابعة : ان تكون محافظة على عذرتها ، وهذا اثمن ما فيها وسبب مباشر لحب زوجها ، كما يشهد الاختبار ، فيهيم بها طبقاً لناموس الطبيعة . اما التي جربت رجالا كثيرين وعاشرت رفاقا عديدين فانها لاتنقطع من التذمر على البائس الاخير ، وان استولت على كل ما يملك ، ولذلك قال الحكيم : افرح مع امرأة شبابك الأيلة الغالية والوعلة المحبوبة .

الثامنة : ان تكون من بيت كريم لان الشجرة الصالحة لاتثمر الا ثماراً صالحة وبالعكس طبقاً لآية الانجيل .

التاسعة : الا تكون من الاقارب الاقربين لسببين ، الاول : لان تقارب الابعدين يجعل من الغرباء اقارب ، ومن الاعداء اصدقاء . الثاني : لان الشعور المدرك للذة يدرك المواضيع الجديدة ادراكاً كاملاً ، وأما المواضيع التي اعتاد النظر اليها فانه يملها ، ويدركها بصورة مبهمة ، ولا شك ان ضعف الادراك يؤدي الى ضعف اللذة ، ولهذا السبب تبرد المحبة ، فيولد اولاد المجوس الذين يتزوجون الاقارب الاقربين — غالباً مشوهين غير متناسقي الاعضاء .

العاشرة : الا تكون من بنات الديانات الغريبة ، لان اختلاف العقيدة يولّد التنافر ، وفي الخطبة يجب ان تنشأ الألفة لا الخلاف ، واما قول الرسول بولس ،

الامرأة غير المؤمنة تتقدس بالرجل المؤمن . فذلك كان في فجر البشارة وقلة المؤمنين ، وبعد ذلك لم تبق ضرورة لهذا .

الفصل السادس

واجبات الرجل نحو زوجته

هناك سبع واجبات على الرجل نحو زوجته هي :

الاول : ان يخاطبها بلطف ورقة عظيمين ، ويحبها حباً صادقاً لانهـا عضو من اعضائه ، ولحم من لحمـه وعظم من عظامه ، وقـد قال الرسول القديس بولس : ايها الرجال احبوا نساءكم ولا تكونوا قساةً عليهن . وقال ايضاً : هكذا يجب على الرجال ان يحبوا نساءهم كاجسادهم ، فمن احب امرأتـه احب نفسه ولم يبغض احد جسده قط بل يربّيه ويغذّيه .

الثاني : ان يهدىء روعها اذا غضبت ، وغاضبت ، ويلاطفها بتودد وترغيب وعطف ويضع عقله السليم في مستوى عقلها اللطيف ، ويحقق رغباتها على حد تعبير الرسول بطرس : واما انتم ايها الرجال فاسلكوا مع نسائكم بحكمـة وعاملوهن باكرام كآنية ضعيفة .

الثالث : الا يتمادى معها مدللا فتهبط كرامتـه عندها ، وتعتبره كمغفل ، ويجب على كل رجل ان يفهم خلق امرأته واطباعها ومشاعرها بما يتفق وغرائزها . ويقال ان امرأة شريرة خطبت ابنتها لشاب جندي وعلمتها : اختبري زوجك اولا ثم استولي عليه ، اخرجي نصلا من كيسه وسهماً من جعبته ، فاذا غضب فقطعي اللحم على ترسـه ، واذا رضي فاكسري العظم بسيفه ، وان تحمّل فضعي بردعـة على ظهره واركبيه ، فانه بهيمتك .

الرابع : ان يغار عليها بحدود ، ولا يهملها اذا لحظ فيها حركات قد تؤدي الى كارثة في النهاية اذا اهملت في البداية ، كالنظرات الطائشة والحركات المنحرفـة على حـد قول الحكيم : ان سقوط المرأة بكبريائها ومن جبينها تعرف . ولا يبالغ في الغيرة عليها ، لان الغيرة الملحة تؤدي بها الى ان تخون زوجها الغيّار ويدفعها

الى الرذيلة فيما اذا لم تسقط بعد فيها فكرة سيئة ، والغيرة سوس للعظام .

الخامس : ان يقوم باودها باعتدال لا باسراف ولا تقتير لان كلا منهما يؤدي الى نتائج وخيمة .

السادس : ان يروّضها على الصوم والصلاة ، ويزيد في ايمانها وغيرتها ، ويمرنها على ان تعطف على الايتام والبائسين وتعطي نصيباً للجياع مما يتوفر عن حاجات اهل بيتها .

السابع : اذا تمردت دون اساءة من زوجها فعليه ان يحملها على الطاعة ويبدأ بالنصح والارشاد فان لم تعتدل لجأ الى التوبيخ الهادىء ثم الصارم ، واذا ابت وكابرت يجفوها وهي في داره ، وان تمادت في غيّها فليسلك معها طرق العنف ، وان لم يفد منها ، ابعدها عنه شهراً من الايام ثم يقدمها الى المحاكمة .

الفصل السابع

واجبات الزوجة نحو زوجها

منذ ايام الخطبة يحوز الرجل منزلة السيادة على المرأة ، كما يؤكد الرسول بطرس ناصحاً النساء ان يطعن ازواجهن كاسيادهن ، لان سارة كانت تطيع ابراهيم وتدعوه سيدي ، والقديس بولس يقول : ايتها النساء اطعن ازواجكن كما للرب لان الرجل هو رأس المرأة كما ان المسيح هو رأس الكنيسة . وقال ايضاً : فليس الرجل من المرأة بل المرأة من الرجل ، ولم يخلق الرجل في اجل المرأة ، بل المرأة من اجل الرجل . وعليه فواجب المرأة ان تطيع زوجها في كل شيء ما خلا الامور المضادة للشريعة ، وهذا قانون عام وخلاصة جميع الواجبات التي سنحدد كلا منها كما يلي :

يجب على المراة الصالحة ان تستطيب المكوث في بيتها (تبسط ذراعيها بنشاط ، وتمسك المغزل بيدها) ولا تخرج الا للضرورة ، وبمعرفة زوجها ، فتتدثر باحتشام ولا تمر في الشوارع المزدحمة بالرجال بل بالازقة الخالية من المارة .

ان التي لا تستقر قدماها في دارها فانها ماردة مستهترة ، فتراها شاردة هنا وهناك في الازقة والشوارع واحياناً فوق السطوح ، متطلعة الى الخارج من الكوى والشبابيك . ولا يجب ان تطيل الحديث مع الجيران والجارات ؛ ولا تدخل بيوتهم إلا للضرورة . ولتخجل من زوجها وتحترمه على حد قول الحكيم : الابنة الحيية تخجل من زوجها وانحلال في الأيدي وتحطيم للركب ، الامرأة التي لا تحترم زوجها ، ولا تسمعن للغريب صوتها ولا تطلب حاجة الى اصدقاء زوجها ، ولتستتر عنهم بقدر امكانها ولا تتودد اليهم ، والا لتـّنهدَ زوجها بدون ارادته وهو جالس بين اصدقائه ، واذا غاب زوجها فطلبه احد اصدقائه لا تكلمه ولا تسأله عن حاجته ، فتضع ثقلاً على زوجها ولتقنع برزقها ، وجميل بها ان تكثر من الاصوام ، واحياناً تختار أصواماً اضافية ولكن بموافقة زوجها ، فقد قال الرسول : اذا اتفقتما سوية على التفرغ للصوم والصلاة . وان تربي اولادها ، وبناتها تربية صالحة ، وتحب الخدام والخادمات كاولادها ؛ وتتصدق بموافقة زوجها ، ولا تطيل لسانها عليه ، لانه مثل حمل الرمل على رجلي شيخ هكذا لسان المرأه الطويل على زوجها الوديع . واحتراماً لزوجها اتهتم بشؤون اهله واقاربه قبل اهتمامها بنفسها وبشؤون اهلها واقاربها وانتزن اذا كان زوجها حاضراً ، وبعكس ذلك اذا كان غائباً ، على حد قول الملفان : اذا كان زوجك يحب الزينة فتزيّني له في بيته ؛ ، واذا هام بزينتك فذلك ليس جريرة ؛ ويجب ان تكون هذه الزينة محتشمة ومعتدلة على حد قول الرسول بولس : فلتتزين النساء بالحياء والعفاف . وقال الملفان : ان الزينة غير المحتشمة عار في كل مكان فالغريب يرى ويزدرى ، والقريب يرى فيخجل . وواجبها القيام بخدمة بيتها بقدر امكانها . ولا تكون قد ركبتها العجرفة على زوجها ، بجمالها ولا تحتقرنه اذا لم يكن جميلاً .

الباب الثالث

في نظافة الجسم - وفيه عشرة فصول

(رأينا ان نعرض عن ترجمة هذا الباب برمته ونشره لعدم نفعه في الوقت الحاضر)

الباب الرابع

التربية والتعليم

وفيـــه اربعـــة فصـــول

الفصل الاول

تربية الاطفال

ان جميع المشرّعين يحثون على العناية الفائقة بتربية الاطفال تربية تليق بالانسانية الكاملة ، وسنستمد هنا جزءاً من ذلك الكل ونقطة من ذلك العباب فنقول :

حالما يولد الطفل يجب ان ينتقي له والداه اسماً جميلاً خشية ان يكون الاسم غير الجميل عرضة للسخرية من قبل رفاقه في المستقبل ، وتنتقى له مرضع صالحة ذات ذوق سليم ، لان الاخلاق والغرائز تغرس في الانسان منذ الرضاعة طيبة كانت او خبيثة ، فيصعب او يتعذر استئصال الخبيث منها بأية حال من الاحوال ، واذا انتهت فترة الرضاعة ، ويباشر الطفل بتعلم النطق والكلام ، يجب ان يعلم صلاة (قدوس انت يا الله) فيرددها باستمرار ، وفي المعمودية ينتقى له اشبين (عرّاب) صالح وحكيم .

وبما ان في بداية الحياة تكون اشعة العقل ضئيلة ، يكون الطفل غالباً كذوباً حسوداً ، طماعاً سارقاً قلاباً ، فوضوياً ، غاشاً ، ضاراً لذاته وللاخرين ، وعليه يجب ان تستأصل من تربة نفسه وعقله كل هذه الاخلاق البدائية ويحد من عنفها بحكمة ودراية قبل ان ترسخ في نفسه النامية والا يستحيل كبح جماحها على حد قول الحكيم : ادّب ابنك وهو طفل ، هذب طفلك لئلا يزدرى احن رأسه ولم يزل بعد لدنا ، ذلّل كبرياءه وهو بعد رضيع ، قبل ان يكبر ويقوى ، فيتمرد عليك .

وقيل لسقراط ، لماذا تحب ان تعلم الاطفال اكثر من الكبار ؟ اجاب : لان الغصن ما دام رطباً يمكن تقويمه ، ولكن اذا يبس يستحيل تبديل أوضاعه .

واول دلالة تظهر للعقل في الطفل الحياء ، ولا يجب اهمال ذلك ايضاً ، لأن مثل هذا اذا رُبي تربية صحيحة يصبح رجلا صالحاً ، والطفل الذي لايحمر وجهه خجلاً يستمر غالباً ضعيف الخلق .

واذا اصبح صبياً ، يجب الا يعاشر الصبيان الاشرار الفوضويين ، ويروّض على معرفة الله والايمان بـــه ، فيعلم احترام والديه ويمرّن على الصوم والصـلاة ، والاعراض عن البذخ في المـأ كل ، والمشـرب والملبس ، واذا اتى ذنبـاً فليوبخ بهدوء وتعقل ، وليكن الاقناع اساساً لاصلاحه وليس الضرب ، واذا تمادى لتكن الحكمة واسطة لردعه ، واعادته الى سواء السبيل ، واذا أتى ذنباً خفياً ، فليرشد كيف يقلع عنه ، ويمنع عن شرب الخمرة والنوم الكثير ، ويمرن على العمل المتواصل والنشاط ، ويعلم ان يكون هادئاً وديعاً متواضعاً مع الجميع ، ويرشد الا يقسم لان الانسان الذي يعتمد على القسم كثيراً ما يلجأ الكذب ليصوغ منه الحقّ .

وليوجّه الى العلم الذي يرغبه ويهواه ، او الى المهنة التي يميل اليها ، ويفسح له المجال للعب واللهو البريئـين خوف الملل والسأم . واذا بلغ سن العمل والانتاج فلتعط له الفرصة اللازمـة واذا بلغ سن الرشـد والمال ، فيه ميل للحياة الطبيعية فليخطب له كما اشار الحكيم : اذا رزقت بنين فهذّبهم واتخذ لهم نساء في شبابهم .

ويجب ان ترّبى البنات كما يربى الاولاد ، فيحصنّ ويعلمن ويصنّ ويتلقين المهن التي تناسب قابلياتهن بالاضافة الى القراءة والكتابة ، وان كان بعض المربـين لايحبذون العلم للنساء ، واذا بلغن سن الرشد يُزوجن للرجال صالحين ، على حـد قول الحكيم : اذا رزقت بنات حصنهن ، ولا توسع لهن السبيل اخرج الابنـــة فيزول العار ، وزوّجها من رجل حكيم .

الفصل الثاني

تصرفات الشبان والشيوخ

اذا ترعرع الانسان من الطفولة الى الشباب فالشيخوخة ، واصبح صالحاً لمجالس الكاملين ، لايكن مهذاراً ، ولا يقاطع متكلماً لدى الكلام ، وليوجه كلامه طبقاً للزمان والمكان وقابلية السامعين ، لانه على حد قول الحكيم : مثل الغناء في مأتم كذلك الكلام في غير وقته . واذا ذكره احد في سياق الكلام ليتغافل عنه كأنه لم يسمع ، واذا سأل عنه الاخرون فلا يجيب هو ، واذا سئل هو بالذات فلا يجيب الا اذا فهم السؤال بدقة . واذا تناقش اثنان لايدخلن بينهما ، واذا رأى شخصين يتساوران فلا يقحم نفسه ليسمع منهما ، واذا تكلم مع رجال محترمين في الولائم فليكن صوته هادئاً متزناً رقيقاً ، ولا يكرر كلامه ، واذا اضطر الى ذكر امور مخجلة فليلجأ الى التعابير المهذبة ، واذا تكلم لايحرك يديه ولا عينيه ولا جبينه الا عند الضرورة وبطريقة محببة ، واذا كذب مخاطبه فلا يشهره ، وليحذر من مناجنة النساء ومداعبة الصبيان والسكارى والمعتوهين ، ولا ينطق بكلام فاسفي امام الجهلاء لئلا يسخروا منه ، ولا يقلد ساخراً في كلام او صوت ، وحركات او اوضاع احد مطاقاً ، ولا ينقل الى الرجال ذوي الحرمة والوقار كلام الاخرين ولا يكذب ولا يسرع اذا سار كالمتوهين ولا يبطىء في سيره كالكسلان ، ولا تضطرب خطواته خيلاء كالمتكبرين والمتعجرفين ولايحرك كتفيه في سيره كالمراهقات ، ولا يلتفت الى الوراء كالهاربين ، ولا يحني رأسه وهو يسير كالكئيبين ، واذا جلس لايبسط رجلاً ويرفع الثانية فوقها ، وبحضرة الملك والمعلم والاب ليجلس متأدباً ، ولا يضع رأسه على ركبتيه او كالحزانى ، ولا يلهو بشعر لحيته او بقية اعضائه ، ولا يدخل اصبعه في فمه او انفه ، وليحذر من فرقعة الاصابع والتثاؤب في الاجتماعات ولا يلقي فضلات فمه امام الناس ، واذا اضطر الى ذلك فلا يخرج صوتاً ويلجأ الى المنديل لتنظيف فمه ومنخريه ، ولا يظهر من جسمه امام الملاء غير وجهه ويديه ، واذا غالبه النعاس وهو بين اصدقائه

فليغادرهم ، ولا ينم بقرب صاحبه وخاصة اذا كانت لديه عادة الشخير ، واذا نام اصحابه ، فاما ان ينام او ينتقل لئلا يكون يقظاً بين النائمين ، وخلاصة القول ليجتهد بالا يثقل على احد لئلا يحتقر .

الفصل الثالث

كيفية تصرف الشبان في خدمة الملوك

ان الرسول بولس امر بالخضوع للملوك وذوي السلطان وقال : لتخضع كل نفس لذوي السلطان ، فلا سلطان الا من الله ، والذين هم في السلطان فانهم من الله ، ومن يقاوم السلطان فانه يقاوم اوامر الله .

نقول ان الخضوع الحقيقي يكون في الفكر والقول والعمل ، وترافق ذلك امور ضرورية كاشهار فضائلهم واخفاء عيوبهم ، وايداء الضرائب الواجبة بطيبة خاطر ، وقد قال الرب (اعطوا ما لقيصر لقيصر) ورفع شأنهم تمجيداً وتعظيما واجلالاً ، وفي وقت الشدائد يجب الدفاع عنهم بالمال والدم ، ومن كان لا يصلح لخدمة الملوك فلا يتقدم الى ذلك ، لئلا يثيرهم بجهله فيفقد حياته ، كما قيل : ان سخط الملوك موت فليخمده الحكيم بحكمته ، والذي يصلح لخدمتهم فلا يتظاهر بذلك امامهم دائماً ، لئلا يحتقر ويطرد ، وليعتبر حكم الملك عادلاً وان لم يكن كذلك كما قيل : الوحي في شفتي الملك وفي الحكم يعلن العدل . وكل عمل في العالم يكون صالحاً في شيء وربما طالحاً في شيء آخر ، وعليه يجب ان نجد لكلام الملك مهما كان ؛ اعذاراً وأسباباً وجيهة كثيرة . ويجب اخفاء سره في القلب اخفاء كاملاً كما قيل : اسمع الكلمة ودعها تموت في قلبك فليست نصالاً لتبقرك وتخرج . واعلم ان للملوك ارادة خاصة تختلف عن ارادة بقية الناس ، وهم يرغبون الخضوع التام يقدم لهم من قبل كل انسان ، وهكذا تدعب في عقولهم خيالات كثيرة ، وربما غضبوا على خدامهم بدون سبب واضح ، ويقررون اهلاكهم بطريقة غامضة ، ولذلك قيل : السماء عالية والارض واطئة وفكر الملك لا يدرك ، ومهما عمل فهو ملك ولذلك يجب على خادمه ان يضحّي بمصلحته الخاصة في سبيل مصلحة سيده ، ولا

ينتظرن منه منحة او ينتظر غنى ، وليقدم خدمة نصوحاً ليحوز الغنى فيكرسه لرفع شأن سيده اكثر مما يخص منه لرفع شؤونه الخاصة . ولا يتملك ما هو جدير بالملك فقط ، والا لاهلك حياته وما حازه بآن واحد ، ولا يطمعن باكثر من مرتبة ومن ابتلي بخدمة ملك ظالم او سيد عاتٍ ، فانه بين نارين ، فاما ان يرضى ظلم سيده فيغضب الله ، واما ان يحاول الدفاع عن ابناء الشعب المظلومين فيعرّض نفسه لهلاك اكيد ، قال احد الفضلاء : اذا اسماك الملك اخاً ، فسمه انت سيداً ، ولئن كثر فضلك عليه فاعتبر فضله عليك اعظم ، واجتهد ان تلـــبي وامره بخدمتك الدائمة المستمرة ، لان الملك ينسى سريعاً ان يجعل نهاية كل خير بداية لخـــير آخر . واذا خاطبك فاجعل كل عضو من اعضائك اذناً صاغية ، ولا تفكر بأي فكر او عمل آخر ، ولا تلتفت الى جهة اخرى .

الفصل الرابع

حالات تصرف رجال البر مع الملوك الطغاة

هناك ثلاث حالات لتصرف رجال الصلاح مع ملك طاغٍ او حاكم ظالم . الاولى : ان يذهب رجل الصلاح الى الظالم . : الثانية ان يذهب الظالم الى رجل الصلاح الثالثة : الا يذهب رجل الصلاح الى الظالم . الرابعة : الا يذهب هذا اليه . وعند العارفين ، ترفض الحالة الاولى ؛ وتحبذ الثالثة ، والثانية بين بين ، .

ان يعاشر حاكماً ظالماً يخطىء باربعة امور : بالعمل والسكوت والكلام والفكر . اما في العمل ، فانه عندما يدخل عليه فمن البدهي ان يسلم ، ويؤدي له فرائض الخضوع والاجلال ، وبذلك يكون قد رفع قدر من يحتقر الله واوامره ، الامر الذي ليس حقاً . وفي السكوت ، ان يرى لديه خرقاً للشريعة فيخشى او يخجل ان يصرح بذلك . وفي الكلام ، ان يمدحه ويباركه ويصلي من اجله ، وقد قيل قديماً (الاثيم يبارك والرب يغضب) وفي الفكر ، عندما يتظاهر بتصديق اكاذيبه ويعتبره من الملوك العادلين .

كان موسى يدخل على فرعون ؛ وايليا على آخاب ؛ وناثان على داؤد ، للتأنيب والتوبيخ لا للمجـاملة والمديح . والحظوى عند الظالمين ، كما قد نعمل نحن البؤساء الضعفـاء .

وفي الحالة الثانية ، اذا دخل الحاكم الظالم على الرجـــل البار ، فليرد له السلام باختصار ولا يستقبله الى الخارج ، ولا يقف له اجلالا ، لكي تظهر للظالم مظالمه ، واما اذا دخل عليه بجماعـــة ، فيجب على البار ان يقف له اجلالاً ، ويحترمه ، لئلا يحتقره عبيده فيهلكهم ، فيكون البار قد اشترك باهلاكهم .

وفي الحالة الثالثة ، الافضل الا يخطر الحكام الظالمون ببال الرجل البار ، لكي لا يغضب او يُغضب ، واذا شعر الرجـل البار انهم يريدون لقياه ، فليختف او يبتعد ، كالاب سيمون الذي بلغه ان حاكماً يريد رؤيته ، فربط حقويه حالاً وصعد الى نخلة عالية ، واخذ ينقيها ، ولما وصل رسل الحاكم ، ورأوه على النخلة سألوه : ايهـا الشيخ اين هو الناســـك ؟ فاجاب : انـــه ليس في صومعته ، وهكذا عادوا خائبين .

وبعض النساك الكاملين لا يصلون في كنيسة زخرفهـــا الحكام الظالمون ، ولا يمرون على جسر عليه يمرون ، وفي الفنادق التي يشيدون لا ينزلون ، متشبهين بسيد الانبياء الذي اتخذ له رسلا ومبشرين من الخطاة والعشارين ، وكان يدخـل عليهم لا لكي يرضي عنفوانهم ، بل ليجتذبهم الى غفران خطاياهم .

الباب الخامس

الاعمال اليدوية

وفيـــه ستـــة فصـــول

الفصل الاول

اقوال الآباء في فضيلة الاعمال اليدوية

لما سئم الاب انطونيوس ترءاى له ملاك الرب بشكله جالساً ينسج حصيرة ، فترك (الملاك) عمله وصلى ، ثم جلس ينسج ، ثم قام وصلى ، وسمعـه بعد ذلك يقول : افعل هكذا انت ايضاً يا انطونيوس فتحيا .

قال احد الشيوخ : اذا استيقظت صباحاً ، قل ايها الجسد اشتغل لتعيش ، واستيقظي ايتها النفس تنالي الحياة . وقال آخر : ان كنت غير محتاج فـلا تهمل العمل اليدوي ، اعمل ما استطعت الى العمل سبيلاً ، اعمل بدون اضطراب .

قال الأب نستير : في الاب نبيسطيون نقلا عن الأب اثير : اذهب وقلص معدتك وعظم عملك ولا تضطرب في الصومعة . وقال ايضاً : امكث في صومعتك ونقّ بقولك ، ذلك خير لك من ان تذهب وتطلب من الناس .

قال شيخ من طيبة (تابابيس) لا تأخذ صدقة من أحد ، بل لتكف يداك حاجاتك ، وان لم تستطع التصدق من عملك ، يكفيك ان تسد رمقك من عمل يديك .

وقال الأب امون : ذهبنا مرة . الاب بطيميس وانا ، لزيارة الاب اخيلا ، فوجدناه ليلا ينسج حصراً كثيرة ، وقال لنا : اني حقاً لا احتاجها ، بل اعمل فيها لئلا يلومني الله بكوني استطيع العمل ولم اعمل ، اني اشتغل بكل قوتي .

وقال الاب اوغريس : احرص على ان تعمل بيديك ، اذا استطعت نهاراً وليلاً ، لئلا تثقل على احد ، لان من لا عمل له تتنازعه الاهواء المختلفة .

الفصل الثاني

تعطيل الاعمال اليدوية

قال البعض ، كيف تتفضل الاعمـــال اليدوية والرب قال : تأملوا طيور السماء التي لاتزرع ولا تحصـــد ، ولا تخـزن في اهرائهـــا ، وابوكم السموي يقيتها) ومريم التي لم تكن تشتغل مثل مرتا المهتمة بامور كثيرة وجدت نصيبـــاً صالحاً لن ينزع منها ، وورد في كتاب فردوس الرهبان ، ان احد النساك لم يكن يشتغل البتة ، وكان يـدخل صومعته مساء فيجد خبزه معداً ، واثر عليـه ناسك اخر فحمله على العمل ، ولمـا كان المساء ودخل صومعته وطلب الخبز كعادته فلم يجد شيئاً ، نام كئيباً ، وظهر له من قال : لمـا كنت منصرفـاً اليّ قتك ، واما الان فقد باشرت تشتغل فاطلب قوتك من عمل يديك .

نقول : ان ذلك خليق بمن انصرف بكليته الى الاعمال الروحية ، واما الذي لم ينصرف بكليته ، فعليه ان يشتغل ، لانه ما لم ينصرف الى احد هذين الاتجاهين تصرفه البطالة الى اهوائه المنحرفة ، فلا يمكنه المكوث في الصومعة .

قال القديس بولس : ان الذي لا يريد ان يشتغل فلا يأكل . وقد امر الذين يسيئون التصرف ، وهم لا يشتغلون ، ان يشتغلوا بهدوء ويعيشوا من اعمالهم ، وقد نادى داود بالطوبى والسعادة لمن يعيش من عمل يديه .

جاء احد الاخوة الى الاب سيلونا ؛ ولما رأى الاخوة يشتغلون قال متعجرفاً اعملوا لقوت يفنى ، اما مريم فقد اختارت لها نصيباً صالحاً ، قال الشيخ لتلميذه زكريا : اعطيه كتاباً واذهب به الى صومعة فارغة ، ولا تطعمه شيئاً ، ولما طال الوقت وجاع لامهم لانهم لم يدعوه للغداء ، قال له الشيخ : انت رجل روحاني ولست محتاجاً الى العمل ؛ اما نحن فجسدانيون نشتغل ونأكل . ولما دخل وقدم التوبة قال له الشيخ : ان مريم كانت ايضا بحاجة الى مرتا ، فبعمل مرتا كانت مريم معتزة ومرتاحة .

والعمل اليدوي ؛ يكون اما لسد الحاجة ، واما لاكثر من الحاجة ، والاول ، وان كان بالامكان ان يعيش الناسك بدونه ، إلا ان الافضل ان يشتغل ويعيش . والثاني يكون لتوفير ما يمكن ان يقدم صدقة للمحتاجين ، وهذا مايفعله الابرار كقول الاب اوغريس : ليكن لك عمل يديك للصدقة ، وسد حاجات الغرباء ، وخلاصة القول ترك العمل اليدوي جدير باربعة اصناف :

الاول : للنساك الذين ينصرفون الى العمل اليدوي بالاضافة الى الركوع المستمر والصلاة المتواصلة . ويحذر الاب اوغريس مثل هؤلاء بألا يقللوا من الصلاة بحجة الاعمـال اليدوية .

الثاني : للكاملين المنصرفين الى الاعمال الروحية الصرفة ، وهؤلاء اذا سدوا رمقهم بدون الصدقة فانهم لا يشتغلون .

الثالث : الاكليريكيون الذين يمارسون الخدم الكنسية ، وقال فيهم الرسول : الذين يخدمون المقدس يأكلون ، والذين يخدمون المذبح فمن المذبح يعيشون .

الرابع : الآباء الذين يرئسون الشعب وينشرون بشارة المسيح بروح رسولية وهؤلاء وان كانوا جديرين بان يعيشوا من الحق الاول ولكن الاجدر بهم ان يشتغلوا ، كما قال بولس لاهل تسالونيقي : اننا لم نأكل خبزاً مجانياً من احدكم ، ولكننا كنا نشتغل وندأب ليلاً ونهاراً لئلا نثقل على احد منكم ، ليس لانه لايحل لنا ، بل لكي نعطي لكم بذاتنا قدوة لتتقدوا بنا .

الفصل الثالث

انواع الاعمال

هناك خمسة انواع للعمل الشرعي الذي ينتج الارباح المادية المشروعة ، وكل رجل يرغب ان يعيش كريماً يجب ان يعلمها ، وهي :

النوع الأول : الشراء والبيع ، وله اربعة عناصر اساسية ، الشاري ، البائع ، البضاعة ، الرضى .

الشاري او البائع لايجب ان يكون قاصراً او مجنوناً او معتوهاً ، والعبد ايضاً بدون موافقة سيده لا يسوغ له الشراء او البيع . والبضاعة التي يمكن ان تدر ربحاً مشروعاً يجب ان تكون تحت تصرف صاحبها ، وغير مرهونة ، ومعروفة بجوهرها وحالتها وكميتها بالاضافة الى الرضى ، كأن يقول البائع ، بعت ، والشاري يقول : اشتريت . وذلك في المبيعات الهامة كالعقار والاقمشة والدواجن ، وليس المواد البسيطة كالخضار والخبز وما الى ذلك .

النوع الثاني : البيع مقدماً : كمن يسبق فيدفع ثمن حنطة او شعير او عسل او زيت ، وما إليها ، وذلك قبل ان تكون جاهزة للبيع . وهنا يجب ان يكون الثمن معيناً ليرد الى صاحبه فيما اذا تلف المبيع ولا يمكن ان ينتظر الشاري الى الموسم الثاني . ويجب ان يكون المبيع معروفاً ومعينا بجوهره وحالته وكميته ، والمدة

اي خلالها يجب ان يسلم للشاري ، ويشترط الا يكون البيع متوقفاً وجوده على التنقيب والبحث عنه كالمعادن مثلاً .

النوع الثالث : الايجار : وله عنصران . بدل الايجار واستمهال الأجور ؛ وبدل الايجار يجب ان يكون معيناً ، سواء كان عقاراً او عملاً ، واستمهال الأجور يجب ان يكون ظاهراً وصريحاً ، وعليه فمن يتوسط بين المستأجر والمؤجر يجب ان يعين الثمن ، وبعض المبيعات ليس فيها ارباح اخرى ؛ كلبن المرضع ، وحبر الكاتب ، وخيوط الخياط .

النوع الرابع : التجارة وتتوقف على حصول التاجر على قوة نقدية ، ولهـا ثلاثة عناصر . الاول : النقد نفسه ، الثاني : الفائدة ؛ ويجب ان تكون معينة اي حصة صاحب النقد وحصة التاجر ، والغاء صاحب النقد التجارة فيما اذا وجدت المبيعات وليس فيها ربح ، فيأخذها كما هي واذا درّت ربحاً معيناً يبيعها التاجر والربح الصافي منها يقسم بين صاحب النقد ، وبين التاجر طبقاً للشروط المسبقة بينهما . ويجوز للتاجر نقل البضائع من مكان الى مكان بموافقة صاحب النقد ، واجور النقل والحانوت تسقط من الارباح العامة ما عدا ايجار مسكنى التاجر .

النوع الخامس : الشركة - ولها اربعة اركان ، الاول : مشاركة الرضى كأن يقول كل منهما ، اتفقنا ان تكون شريكي بما لنا وما علينا . الثاني : مشاركة العمل : وهي قسمة ارباح عملها مناصفة ، الثالث : مشاركة القابلية : فيقدم احد الشريكين مالاً ، والثاني نفوذاً وخبرة ، وما اليها . الرابع : مشاركة التملك : ويتم في توحيد ما يملكان قبل الشراء والبيع ، ويقسمان الارباح كل بالنسبة الى رأس ماله ، والركن الاخير شرعي ، والثلاثة المتقدمة جائزة .

وهناك نوع سادس ، وهو الربى والتسليف ، وتمنعه جميع الاديان السموية وتعتبر المرابين والمسلفين اثمة يسلبون اموال الناس ظلماً . ورد في التوراة قولها (وليعيش اخوك ولا تعط له تسليفاً ولا بالربـــى) ثم قيل في الرجل الصالح (فضته لا يعطيهـا بالربى) .

الفصل الرابع

الخطايا الناتجة عن البيع والشراء

يقول الحكيم : بين حجرة واخرى ينزل وتد ، وبين البائع والشاري تكثر الخطايا . والخطيئة هناك تكون بطريقة الاغتصاب . والاغتصاب ، اضرار يقوم من رجل على آخر واما ان يكون عاماً او خاصاً ، والاضرار العام نوعان ، الاول ، الاحتكار ، كاحتكار الغلال الى وقت الضيق والغلاء ، وهذه خطيئة عظيمة لانها متاجرة بارزاق البشر عامة ، وقد قال الحكيم : ان الذي يحتكر الغلة الى زمان الضيق فانه يتركها للأعداء ، والبركة على رأس المبادر في البيع .

والنوع الثاني : التعامل بعملة مزيفة ، وهذا واضح ، لأن من يأخذ عملة مزيفة فانه يخسر ثمنها لعدم شرعيتها واستحالة التعامل بها . واذا دفعها لمن يتعامل بها خلسة فانه يخطيء ايضاً ، ويحمل خطيئة لغيره ، او يدفعها لرجل لا يتعامل بها فيسبب له خسارة ايضاً .

ويجب ملاحظة ثلاثة امور في العملة المزيفة ، الاول : اعادة هذه العملة الى صاحبها الاول — إن عرف — لكي يتلفها او يرميها في بئر . الثاني : وجوب معرفة التاجر المزيف من غير المزيف ، لان ربما يأخذ عملة مزيفة ويدفعها للغير ، . الثالث : يضطر ألا يبيعها باثمان ناقصة ، فيكون قد غش الآخرين ، وتزييف العملة يكون باستعمال معدن يشبه الفضة او الذهب وليس منها . واما العملة الحقيقيه فهي ما اتفقت عليه الحكومات بالنسبة الى النوعية والكيفية لتعامل مختلف الامم بطريقة مشروعة .

والاضرار الخاص : ما خسر به الشاري وحده ، وللتجارة المشروعة اربعة شروط :

الاول : الا تمتدح التاجر بضاعته كاذباً ، فيخطيء ، ويجب ان تكون دعايته للبضاعة صادقة ، وحينئذ لا يخطيء ، ولا يسوغ ان يقسم ابداً .

الثاني : الا يخفي عيوب بضاعته ويظهر الجانب الحسن منها ويخفي الجانب السيء ،

ولا يعرض بضاعته في زاوية مظلمة ، كما يفعل اليوم التجار الروميون الى جانب البحر . يحكى ان رجلاً كان يمزج ماء في حليب بقرته ويبيعه ، فجاء مرة سيل وجرف البقرة ، فقال له ابنه : يا ابي ، ان الماء الذي كنا نمزجه مع الحليب بكميات قليلة تجمع اليوم واصبح هذا السيل فجرف البقرة .

الثالث : الا يغش في المكاييل والمقاييس ، بل ليكل للناس كما يريد ان يكيلوا له ، كقول الله تعالى : اتخذوا لكم ميزان الصدق ومثقال الحق شرعة العدل . وقال الحكيم في هذا الشأن : اختلاف المثاقيل والمكاييل اي تفاوتها ثقلاً وقياساً ، امور مكروهة لدى الرب . ولا ينجو الانسان من هذا الاثم الا اذا اضاف عند العطاء وانقص عند الاخذ .

الرابع : ان يصدق في الثمن في الشراء والبيع ، فاذا خرج تاجر المدينة لشراء قمح من القرى ، يجب ان يعطي نفس الثمن الذي يعطيه في المدينة ، واذا عرض شيئاً للبيع فيجب ان يعين ثمن الشراء الاصلي ، والربح الذي يريده منه .

الفصل الخامس

اسداء المعروف في التجارة

يمكن للتاجر اسداء المعروف في تجارته بستة اشكال :

الاول : اذا اشترى احد منه شيئاً ، وكان الشاري محتاجاً الى ذلك الشيء حاجة قصوى ، ويمكن للتاجر وضع سعر عالٍ على تلك البضاعة نظراً لحاجة الشاري اليها ، ولكنه لا يفعل ذلك فيعد عمله هذا معروفاً .

الثاني : اذا باع التاجر بضاعة لفقير ، واعطاه فرصة خاصة ففي ذلك معروف ، الامر الذي لا يتعامل به مع رجل غني يشتري منه نفس البضاعة .

الثالث : اذا باع التاجر بضاعته لفقير ايضاً ، بثمن اقل من ثمنها الاصلي ، او اقرضه ديناً ، ولم يضايقه بتسديد ذلك الدين حالاً ، فان في عمله معروفاً ، على حد قول الله في التوراة : اذا كان اخوك مديناً لك بشيء فلا تدخل بيته لاسترداد

الدين ، بل انتظر لكي يأتيك به الى السوق ، وان كان فقيراً فلا تنم في ردائه بل اعده له قبل غروب الشمس .

الخامس : اذا اتفق على شراء او بيع بين شخصين ، وحصل كل منهما على حقه ، ولكن ندم احدهما ورغب بالغاء الصفقة ، فاذا وافق عميله على ذلك فموافقته معروف .

السادس : اذا باع التاجر بضائعه للفقراء والمساكين ، ولم يأخذ منهم إلا ربحاً بسيطاً ، واذا وقع احدهم تحت دين له ، يمهله حتى يمكنه دفع الدين ، فذلك كله معروف .

الفصل السادس

حقيقة العدالة في التجارة

العدالة في العمل هي ألا يغدر الانسان ولا يُغدر ، وحقيقة العدالة هي ان يوفر الانسان لنفسه ارباحاً روحية بالاضافة الى الارباح المادية ، ويكون ذلك في سبعة اساليب :

الاول : ان يبدأ التاجر تجارته مستهدفاً الخير ، واستهداف الخير هو الحصول على الأود الضروري للعيش بكرامة مع افراد اسرته ، وليس بقصد الاثراء الفاحش من الطرق المحرمة ، وقد قال الرسول بولس : ان الذين يرغبون في الاثراء يسقطون في تجارب كثيرة متعرضين لاشراك الشر والاهواء المحرمة التي تغرق الانسان بالهلاك والثبور .

الثاني : ان يمارس ذلك بقصد بقاء الجسد سالماً لخير النفس ، وليس بقصد الترف والبطر .

الثالث : ان يمارس الاعمال الضرورية لخير البشر وابتغاء الرفاه لهم ، سواء بواسطة التجارة والصناعة او اي عمل حلال آخر ، لانه اذا تعطلت التجارة وبارت الصناعة واعرض الناس عن التعاون ، لا يمكن ان يستمر العالم . وليحذر الانسان من الاعمال المخجلة والربح الحرام .

واهم الاعمال التي تدر الربح الحلال هي : الزراعة ، الحصاد ، البناء ، الطب ، نساخة الكتب المقدسة ، رعاية الغنم ، صيد السمك ، حياكة الزنابيل وما اليها ، السكافة الخياطة ، القصارة ، الصياغة ، السراجة (عمل السرج للخيل) الدباغة .

واما الاعمال الحقيرة ذات الربح الحرام ، والتي منعتها قوانين الرسل في المادة السادسة هي : السحر ، الرقي ، التعزيم ، التحريز (عمل الحرز) التطير (زجر الطيور) الفأل ، تفسير الاحلام ، تفسير طرقات العين ، تعيين الاقدار ، وتحديد الآجال ، التنجيم ، المصارعة ، السباق بالركض ، السيمياء ، التزمير والتطبيل (عمل الغجر) .

ومن الاعمال المنحطة ، عند ديدسقالية الرسل : الحجابة (كتابة الحجابات) التنكر (انتحال وجوه كاذبة ، تصوير المخازي ، غش الذهب والفضة ، جمع المكوس (التعشير) التلصص ، بيع المسكرات ، القصابة على أنواعها ، عمل الجلادين .

ويجعل بعضهم الحياكة من المنحطة ، ويروى ان العذراء مريم لما كانت تبحث عن يسوع في اورشليم مدة ثلاثة ايام طبقاً لما ورد في الانجيل ، سألت بعض الحاكة عنه فغشوها ، باخبار كاذبة ، فلعنتهم وقالت : ليسحب الرب البركة في عملكم وبيوتكم ، ولتموتوا بالفقر والحاجة ، ولتكونوا محتقرين في عيون الناس ، . غير ان القديس باسيليوس لا يحتقر الحياكة واكد ان تلك الرواية لا صحة لها ، وهي في الخرافات الكاذبة .

ويعتقد البعض ، ان كل صناعة تدخل فيها الجلود المدبوغة وغير المدبوغة انما هي صناعة غير شريفة ، الا ان ليس جديراً بالاعتبار ، لان الرسول بطرس اقام في بيت سمعان الدباغ ، وكان القديس بولس يشتغل سرّاجاً كما يصرح في سفر اعمال الرسل .

الرابع : وخشية ان تسبب التجارة المادية تعطيل الفوائد الروحية فيجب على المؤمن القيام للصلاة في الكنيسة منذ الفجر حتى افتتاح السوق ، وحالما يسمع صوت ناقوس الكنيسة مؤذناً بصلاة الصباح او القداس او صلاة الرمش (المساء) يجب ان يتوقف عن العمل هنيهة (ويتأمل بما لله) يحكى ان صائغاً فاضلاً كان اذا رفع المطرقة وسمع صوت الناقوس لاينزلها حتى يتوقف الناقوس عن القرع .

الخامس : ليردد ذكر الله وهو في حانوته ، فيبعد عنه الغدر والنصب ، وقد قال الحكيم : ان التاجر بصعوبة كبيرة ينجو من الخطايا .

السادس : الا يكون طماعاً ، وليرضَ بارباحه المشروعة . وتظهر اطماعه بحضوره الى السوق قبل جميع التجار جيرانه ، وتركه السوق بعدهم جميعاً ، وبركوبه المخاطر والاهوال في البحار والانهار معرضاً حياته للعواصف واللجج الصاخبة والاعاصير المهلكة ، وقد قال الرسول بولس في هذا الصدد : الذي لا يعمل ويرتبط بمهام العالم ليرضِ الذي جنّده ، والذي لا يجاهد جهاداً شرعياً فلن ينال الاكليل .

السابع : ليس فقط يمتنع عن الظلم بل يمتنع عن الوقوف الى جانب الظالمين ، . يحكى ان أحد الحكام طلب الى سجين لديه قطعة شمع ليختم صكاً كتبه ، فلم يعطه وقال : اعطني الصك لاقرأه اولاً ، فان وجدته خالياً من الظلم اعطيتك الشمع .

الباب الخامس

الصدقات

— وفيه اربعة فصول —

الفصل الاول

— انواع الزكاة واجناسها —

ان جميع الكتب المقدسة تشيد بقدر الزكاة اشارة فائقة . وتفضلها تفضيلاً كاملا على جميع الاعمال الصالحة ، والزكاة في هذا المضار هي ما يقدم صدقة واحساناً وبراً . والزكاة اما أن تكون معينة او غير معينة . والمعينة هي ما ورد ذكرها ومقدارها في الشرائع الآلهية ، مثال ذلك قول الله في التوراة : عشروا كل غلات زرعكم التي تنتجها الارض لكم بعد سنة . وقوله : كل امام الرب

الهك في المكان الذي اختاره لسكنى اسمه فيه . ادفع عشور عبدك وخمرك وزيتك وابكار ابقارك واغنامك .

وغير المعيّنة هي التي يحسن بها الانسان طبقاً لرغبته وبدون حدود ، من ماله الخاص الحلال الذي انعم الله به عليه .

ومادة الزكاة المحدودة . ثلاثة انواع عندنا ، الحيوانات المحلّلة ، وإنتاج المزروعات والعملة . والاول كالبقر والثيران والغنم ومن كان يملك اقل من ثلاثين رأساً فلا زكاة عليها ، ومما فوق الثلاثين يقدم عجل ابن سنتين . كل سنة زكاة . ومن الاربعين يقدم عجل ثلثي ، ومن ستين عجلاً ، ثنّيان ، وهكذا في الاعداد المضاعفة . ومن الاغنام يدفع كبش ابن سنة واحدة ، وتيس ابن سنتين ، واذا ارتفع عدد الاغنام من الاربعين الى المئة والعشرين فيقدم كبشان ، الى حدود المئتين . وتدفع ثلاثة اكباش اذا بلغ عددها ثلاثمئة ؛ وبعد ذلك رأس واحد لكل مئة رأس .

ويجب ان يكون كبش التقدمة سالماً ، فلا يصلح اذا كان اعور اومكسوراً او مجروحاً او مترهلاً ، او اجرب او اجرد ، او مقطوع الأذن او قصير الالية .

الثاني : كالحنطة والشعير والأرز ، والسمسم وما اليها ، فيقدم منها ، ومن ثمار الاشجار ونتائجها كالزيت والخمر والزبيب والتين والبلح ، من هذه كلها يقدم في كل سنة ـ اذا ابلغ النتائج ثمانمئة وزنة ـ يدفع عن كل وزنة مئتين واربعين قرشاً عن كل انسان . ويدفع العشر منها زكاة اذا كانت الارض مروّية سيحاً ، ونصف العشر اذا كانت تروى مطراً .

الثالث : العملة ـ بالنسبة الى الفضة فعن أقل من مئتي قرش لا تدفع زكاة واعتباراً من مئتي قرش تدفع خمسة قروش زكاة ، وهكذا إذا تضاعف المبلغ . واما بالنسبة الى الذهب فعلى أقل من عشرين ديناراً لا تدفع الزكاة ، واعتباراً من عشرين ديناراً فما فوق يقدم ربع العشر زكاة ، وهكذا إذا تضاعف المبلغ .

الفصل الثاني

اصحاب الحق في تناول الصدقة

تقدّم الصدقة من اموال الزكاة للمؤمن الحر ، وقيل هنا الحر ، لأن العبد يهتم سيده بشأنه وقيل المؤمن طبقاً لأمر الرسول بولس حيث قال : ان لنا زماناً لنفعل الخير الى كل أحد ، وخاصة الى اهل بيت الايمان . والعشر وإن كان يدفع طبقاً لاوامر الشريعة ، للاوى والعائد الى الرب واليتيم والارملة اطلاقاً ، ولكن يجب ان يفهم من ذلك الفقراء والبؤساء الذين فيهم وليس الاغنياء . ثم للمرضى والمرزوئين والمقعدين والمفلوجين والعميان ، وطبعاً للفقراء منهم ايضاً وليس للميسورين ؛ ومن هذا يظهر ان الذين يستحقون تناول الصدقة خمسة أقسام :

الاول : للمعدمين ؛ سواء كانوا من الزهاد والرهبان او لم يكونوا ، ويقصد بالمعدم هنا من لا يملك شيئاً ولا يقوى على العمل . ومن كانت له مهنة وليست لديه معداته فانه معدم ، وهكذا من يمكنه ان يؤدي عملاً لا يليق بمنزلته ، ومثله قل عن الذي يمنعه العلم او المرض عن العمل .

والثاني : للفقراء ، وهم الذين دخلهم لا يكفي لسد حاجاتهم الضرورية ، والكاتب الذي لا يملك اكثر من كتابه الضروري هـو فقير . وإذا كان لديه نسختان من كل كتاب ليس فقيراً ، ومن يحوز كتابين في موضوع واحد ، احدهما مطول والآخر مختصر ، اذا كان طالباً فليبع المختصر منهما وليحتفظ بالمطوّل ،وان كان معلماً فليعمل بالعكس .

الثالث : للمدّينين الذين انفقوا ما اقترضوه في طرق عادلة وليس لهم ما يفون الديون ، فيجب ان تدفع لهم الصدقه واذا كانوا قد انفقوها بطرق مضادة للشريعة فليس من العدل ان تدفع لهم ما لم يتوبوا .

الرابع : يجب ان يفتدى الاسرى والمسبيون من اموال الزكاة ولا يتركوا بأيدي الظالمين .

الخامس : المحاربون الذين يدافعون عن مدن المؤمنين وقراهم بشجاعة ضد

اعدائهم ، يجب ان يقدم لهم العون من الزكاة .

واعلم ان الكهنة الذين يخدمون الكنائس ، والآباء الذين يرأسون المراعيث (الابرشيات) فلا يدفع لهم من الزكاة ، بل يتناولون الحقوق الكهنوتية المسماة (الريشيث) او التقدمات المفروضة على المؤمنين .

الفصل الثالث

مايترتب من الشروط على مقدمي الزكاة

هناك ثمانية شروط يجب ان يتقيد بها مقدم الزكاة ، هي :

الاول : اذا وجد بائساً محتاجاً معدماً ، يجب ان يشكر الله الذي عطف عليه ومنحه من الخير اكثر من حاجته .

الثاني : الا يحرج المحتاج ليلح بالطلب ، بل يقدم العطاء حالاً بعطف واشفاق ، فان الله يحب المعطي بسرور .

الثالث : ان يكثر من اعطاء الصدقة والزكاة ، اياماً معينة من السنة ، كالاعياد والمواسم الدينية والاصوام .

الرابع : ان يخفي ما يقدمه ، صدقة بقدر طاقته ، (اما انت فمتى عملت صدقة فلا تعلم شمالك ما تفعله يمينك) طبقاً للامر الالهي ، ان الصالحين كانوا يخفون الصدقات الى درجة كبيرة ، بحيث لايعرف المعطى له من هو المعطي . وهكذا يضعون صدقاتهم بايدي العميان او يلقونها على قارعة الطريق او يصرونها في فقير نائم ، او اذا حضر مع اناس لا يتصدقون ويتصدق امامهم ، فهذا جميل اذا كان ظاهراً .

الخامس : الا يحمّل جميلاً او منّة للفقير الذي يتصدق عليه ، ولا يزعجه بكلمة

السادس : ان يعتبر ما يتصدق به بسيطاً جداً بالنسبة الى ما انعم الله به عليه .

السابع : ان يتصدق من ربحه الحلال ، وليس مما جناه بالحرام والاغتصاب ومن المؤكد ان المغتصب الذي يتصدق هو أفضل من المغتصب البخيل ، وقد مدح الرب وكيل الظلم لا لأنه كان ظالماً بل لأنه تصدّق .

الثامن : ان يختار المستقين لصدقته فقط ، وهؤلاء سبعة انواع :

(١) ان يكون انساناً فاضلاً (٢) قارئاً للكتب وعارفاً قوة الله (٣) من الشاكرين الذاكرين الفضل (٤) من الذين لايمكنهم الخروج الى العمل (٥) ان يكون ذا اسرة كبرى مؤلفة من اولاد كثيرين لا يمكنهم العمل (٦) من الذين لايمكنهم العمل بسبب مرض او سجن وما الى ذلك (٧) يفضل من كان من الاقرباء طبقاً لتعليم الرسول بولس (اذا كان انسان لايهتم باقربائه وخاصة اهل بيت الايمان ، انه ينكر الايمان ، ولذلك هو شر من غير المؤمن .)

الفصل الرابع

الشروط التي يجب ان يتقيد بها متناول الزكاة

هناك أربعة شروط يجب ان يتقيد بها من يضطر الى قبول الصدقة وهي :

الاول : ان يشكر الله مقيته .

الثاني : ان يشكر المحسن ويصلي من أجله ، ويخفي عيوب منحته اذا كانت ضئيلة ، ولا يذكرها بسوء بل يمتدحها ، لان المعطى يعتبر المنحة الصغيرة كبيرة وان كانت صغيرة بالنسبة الى حاجته .

الثالث : الا يأخذ منحة من الاثمة ، فقد امر الرسل القديسون في كتاب الديدسقالية (خير لكم ان تموتوا جوعاً من ان تأخذوا صدقة من الاشرار .

الرابع : ان يأخذ فقط ما هو بحاجة لسد رمقه .



المقالـة الثالثـة

تنقيـة النفس من الاهواء الشريرة

فيهـا اثنـا عشـر فصـلاً

الباب الاول

النفس . قواها . خصائصها . ميولها

وفيـه احـد عشـر فصـلاً

الفصل الاول

تفسير اسماء النفس

ان الكتاب المقدس يسميها تارة النفس ، وطوراً الروح ، واحياناً القلب ، واحياناً العقل . ومن البدهي ان وحدة ذكر هذه المسميات تؤيد وحدة الموضوع واختلاف الاسماء تدل على اختلاف القوى ، ولذلك نبحث هنا عن الوحدة في النفس واختلاف معانيها (باختلاف اعمالها) .

١ ـ اسم النفس : ويدل على ثلاثة معاني :

الاول : القوة الغذائية ، وهذه اما فاعلة او مفعول لها ، والفاعلة اما جاذبة للغذاء او ماضغة او هاضمة ، او داحضة للفضلات . والمفعول لها ، اما مولّدة او مغذّية او مربية ، والنفس باعتبار هذه الحالات تدعى نفساً نباتية .

الثاني : قوة الشعور الحيواني ، وهي القوة الارادية التي بها تتحرك ، والنفس باعتبار هذه الحالة تدعى نفساً حيوانية .

الثالث : القوة المميزة للخير والشر ، والنفس باعتبار هذه الحالة تدعى النفس الناطقة .

٢ ـ اسم الروح : ويدل على ثلاثة معـاني :

الاول : جسم لطيف غازي من الدم ، ويتكون في البطين الأيسر للقلب ، وبواسطة ذبذبة الشرايين يعطي الحياة والحركة والحس للجسم .

الثاني : النفس الناطقة ذاتها ، اذا شرعت تتنقى تطاب الامور الروحية لا الدنيوية .

الثالث : احد اقانيم الثالوث الأقدس .

٣ ـ اسم القلب : وله معنيـان :

الاول : العضو الرئيسي الذي يحمل شكلا مخروطياً ، وهو كائن الى الجهة اليسرى من الصدر .

الثاني : النفس ذاتها ، عندما ينبه الشعور الروحي ، والجمع بين معني القلب (بآن واحد) يفسره النبي داود الذي كان يطلب الى الله قلباً نقياً وروحاً مستقيمة .

٤ ـ العقل : وله اربعة معان :

الاول : الاستعداد لاكتساب المعارف الطبيعية كما هي الحالة لدى الاطفال .

الثاني : وجود هذه المعارف الطبيعية كالكل اكبر من الجزء .

الثالث : المعرفة الناجمة عن الخبرة والتجربة في امور الكون .

الرابع : المعرفة المدركة للمواضع المعقولة الفائقة للاحساس ، وهذه المعرفة تكسبها النفس لا في بداية تطهيرها بل بعد ان تطهر من اوضار الافكار الدنيوية تطهيراً مطلقاً .

وبهذه المعاني يدعى الملائكة ايضاً عقولاً ، والمعنيان الاول والثاني طبيعيان (فطريان) الثالث والرابـــع ، اكتسابيان . والمعنى الاول اصل والثاني فرع وينبجس طبيعيـــاً او فطريـــاً وليس بالتعلـــيم واما الثالث والرابـــع فانهـــما

فرعان للثاني ، وهما ينموان بالتعليم وليس بالفطرة وهذا ثابت من اطلاق اسم العقل على المعاني الثلاثة بآن واحد .

الفصل الثاني

القوى الخادمة للنفس

وهذه صنفان ، الاول محسوس والثاني معقول . والمحسوس اما ظاهر واما باطن . والظاهر يشمل الحواس الخمسة الظاهرة : البصر والسمع والشم والذوق واللمس . والباطن ، يشمل الحواس الخمس الباطنة : الحس المشترك ، والخيال ، والفكر ، والتصور ، والذكر .

والمعقول : يشمل ثلاث قوى ، النطق وهو العقل ، والغضب ، والشهوة . العقل وان كان خادماً للنفس الا ان له منزلة البنين لانه مولود منها . والقوتان الأخريان خادمتان لها . ولذلك نجد العقل مشعاً كالشمس ، والقوتان الاخريان كالسراجين الضئيلين .

وقد غرس الخالق الشهوة والغضب في كيان الانسان لان الجسد يحيا بالغذاء ويستمر محفوظاً بالتناسل . وهذا عمل الشهوة ، وهو بحاجة الى قوة دفاع ضد الفناء ، وهذا عمل الغضب .

ان الشهوة والغضب آمتان خاضعتان للقوة العاقلة المتسلطة ، والنفس هي السيدة الكبرى المتألقة المتربعة على عرش عظمتها ، واذا العقل عصاها متمرداً هبطت من علياء عزها وسقطت من عرش جلالها .

وقد شبه بعض الحكماء العقل بالفارس القناص ، والشهوة بالجواد ، والغضب بكلب الصياد ، وقالوا : اذا كان الفارس القناص شجاعاً ، ومدرباً ، وكلبه مروضاً فالصيد الغزير مأمون ومضمون ، واذا الفارس جباناً والجواد جموحاً والكلب رعديداً فانه ليس فقط لايصيب صيداً بل نصيبه الهلاك المحتم .

الفصل الثالث

أقوال الانبياء في قوى النفس الثلاثية

امر موسى الكليم ، وهو ينقذ الشعب من مصر ، بان يرش دم الحملان على قائمتي الباب يميناً وشمالاً ، وعلى العتبة العليا لئلا يدخل المهلك ، مشيراً بذلك الى قوى النفس الثلاث التي منها تدخل وتصدر الافكار المحتاجة الى التطهير ، وفي مكان اخر حصر النبي هذه القوى الثلاث بثلاثة اركان لتطهير الآنيـــة المدنسة ، النار والماء والاتلاف .

وعلم ان تطهر المعادن بالنار كالفضة والذهب وغيرها ، وفيهـــا سر القوة العاقلة المتطهرة بنار المعرفة وثياب الكهنة وجسومهم تغسل بالمـاء فتطهر وفي ذلك سر القوة المطهرة بالوصال الشرعي خشية الوصال المحرم . والانية الخزفية فطريقـة تطهيرها اتلافها ، وفي ذلك سر القوة الغضبية المطهرة بزوالها فقط .

فانظر الى الحكمة البالغة الكائنة في كتاب الله ، والتي لاتحـــاول اتلاف الفكرة وهي كيان النفس الكريمـة بل تعلم تطويرها وتطهيرها ، ولم تحاول ايضاً اخماد الشعور الجنسي لان بتأثيره يولد الانبياء والرسـل والابرار والكهنـة والآباء القديسون ، واما القوة الغضبيـة فانهـــا تجمع بالانسان ، فتطهيرهـــا لايتم الا باخمادها وملاشاتها .

ورب الانبياء ايضاً اشار الى ذلك بمثل الزرع الساقط في الارض الجيـدة التي انتجت غلاتها بثلاث كميات متفاوتة ، فالبعض اعطى مئة والبعض ستـــين ، والبعض ثلاثين ، . الاولى ، وفيها سر القوة العاقلة وفقاً لسموها فاقت الثانية التي هي القوة الشهوية اربعين ضعفاً ، وهذه بالنسبة الى كونها متوسطة (القوة الشهوية) فاقت بثلاثين ضعفاً . وهي القوة الغضبية فعندها ينتهي كل شيىء دليل نهايتهـا . ولم يقل انها فاقت غيرها . باضعاف كذا وكذا .

الفصل الرابع

خصائص النفس العاقلة

يمتاز الانسان عن بقية الحيوانات بخاصتين واضحتين وهما : المعرفة والارادة العاقلة . فالمعرفة ، هي ادراك المواضيع الالهية والبشرية ، اي تختص بالعالمين . والارادة العاقلة ، هي النزوع الى اصدار نتائج المواضيع التي لها نهاية خيّرة ، وان كان الحصول عليها يكلف جهداً واتعاباً ، وواضح ان ارادة مثل هذه تكون بادراك عاقل ، ولذلك يمتاز ويختلف عن ارادة الحيوانات الشهوية البهيمية ، وهذه القوة المدركة لاتوجد بالفعل عند الطفل ولكنها تنمو بنموه وتتكامل بتكامله . فالطفل يتفقه اولاً بعض المعرفة البديهية ، كمعرفته ان الجسم لايمكن ان يوجد في مكانين بآن واحد ، ويتدرج من هذه المعرفة الفطرية الى المعارف المكتسبة ماراً بمراحل متعددة ، التي تختلف فيها نفس عن نفس اخرى طبقاً لمقدار معارفها العاقلة وكيفية الحصول عليها ، فالجسد اذاً مطية النفس ، والنفس كنز المعرفة ، والمعرفة تجارة ، لأجلها النفس التاجرة تتبوأ سفينة الجسد وتمخر في عباب هذا العالم الصاخب ولذلك اذا هبّت الرياح طبقاً لرغبتها توصلها قوى الجسد الى اهدافها وتغدق عليها غنى لاينضب من المنح الالهية . واذا جرت الرياح ضدها عاتية فليس فقط لاتصيب شيئاً من الغنى بل تتحطم في غمرات الامواج المتلاطمة واللجج الثائرة . وتغرق في قعر الخضم الهائج وفي الهاوية السفلى اللامتناهية . وغالباً تجد حرباً عواناً بين القوى الجسدية والميول النفسية طبقاً لما اعانه الرسول بولس بقوله : اني ارى ناموساً غريباً في اعضائي يتناحر ضد ناموس ضميري .

الفصل الخامس

الحالات المختلفة الطارئة على النفس البشرية

ان الطبيعة البشرية تطرأ عليها اربع حالات متباينة متخذة في كل حالة صفات احدى الكيانات التالية : كيان الوحش ، كيان البهيم ، كيان الشيطان ، وكيان الملاك .

فاذا جمع بها الغضب استحالت الى كيان وحش مفترس ، فتظهر فيها طباعه ، الغضب والبغضاء والحقد . واذا ثارت فيها الشهوة استحالت الى كيان بهيم فتظهر فيها طباعه ، الطمع والشراهة والعهر . واذا الخبث تغلغل فيها استحالت الى كيان شيطان فتظهر فيها طباعـــه ، الظلم بشكل العدالة والنظر القبيح بشكل العفة واذا طهرت مرآتها المكونة على صورة الله استحالت الى كيان ملاك فتظهر فيها طباعه ، الايمان والرجاء والمحبة .

فانساننا الباطن ، لا هذا الظاهر ، ذو القد القويم والمحيا الوسيم ، والاظافر العريضة ـ انساننا الباطن يستحيل إلى كاب بغضبه ، وخنزير بمجموع شهوته ، وابليس بشدة دهائه ، وملاك بتلاشي شهوته بالغضب ، وتلاشي غضبه بالشهوة ، فاذا اخضع هاتين القوتين الوحشية والبهيمية لسلطان القوة العاقلة فانها تندحران وتتلاشيان ولا يبقى لهما مجال للسيطرة والسيادة .

فاذا فاز انساننا الباطن بهذه السيادة وهذا السمو ، يستقدم له الملك وتكمل فيه الفضائل وتصدر في احكامه العدالة ، واذا اهمل ذلك وغفا ولو لحظة واحدة ويده على خده ، سادت عليه القوى التي كانت تحت سلطانـــه ، واذ لته واشقته فيستحيل وضيعاً بعد ان كان ملكاً ، وعبداً بعد ان كان سيداً ، ومعدماً بعد ان كان ميسوراً ، فيتوق ان يملأ بطنه بالخرنوب .

الفصل السادس

النفس الناطقة بالنسبة الى المعقولات

النفس الناطقة بالنسبة الى المعقولات هي كالمرآة بالنسبة الى المرئيات ، وكما ترتسم اشكال المرئيات على المرآة لا المرئيات ذاتها وبجوهرها ، كذلك اشـــكال المعقولات ترتسم على النفس لا المعقولات ذاتها ، ولولا الامر كذلك ، لاحـــترق بالنار كل من عرف النار . وليس الامر كذلك ، فالنفس اذن ، تدرك الصفات المعقولة البسيطة المنتزعة عن المواضيع المادية .

وكما ان المرئيات لا ترتسم على صفحة المرآة لاربعة اسباب هي : عدم قابليتها (كعدم كونها صقيلة) او تراكم الغبار عليها ، او احتجابها وراء ستار حاجب ، او انحراف وضعها . كذلك لاربعة اسباب لاترتسم صور المعقولات على النفس وهي ضعف قابليتها كنفس الطفل ، وتشويش صفائها بالاهواء المنحرفة واحتياجاتها وراء ستار الضلال الذي يحجب الحق عنها وانحرافها عن الطريق السوي الذي يؤدي الى كنه المعقولات مثال ذلك ، ان من لا يعرف كون العالم متلاشياً زائلاً ، يمكنه اكتشاف ذلك بمقابلة الفكرة بما يشبهها ؛ واستنتاج النتيجة منها ، فيعلم ان العالم مركب ؛ وكل مركب متلاشٍ ، فالعالم اذاً متلاش . ومن البدهي إذاً انحراف القياس هذا فلا نتيجة لكبراه وصغراه ، ولولا الاسباب المانعة التي عرضناها لادركت النفس جميع الحقائق كما هي بحقيقتها لانها مكونة على صورة الخالق .

الفصل السابع

★ طبقات العارفين ★

العارفون اربع طبقات ، لان كل معرفة إما أن تكون هبة الهية كمعرفة الانبياء والرسل . او مكتسبة بجهاد روحي طويل كمعرفة النساك الكاملين . او مستمدة من العلم والدرس والتفكير كمعرفة الفلاسفة ، وتبحر علمي وخبرة عملية كمعرفة الملافنة الكنسيين .

ان معرفة الانبياء والرسل منحة الهية ونعمة الاختيار الالهي تأتيهم بدون تعب او جهاد ، فموسى مُنِح الوحي والمعرفة وكان راعياً للغنم ، وصموئيل دعاه الرب وهو بعد صبي عديم الخبرة والمعرفة ، واليشاع كان يحرث والقى عليه الرداء النبوي ، وإشعياء ذكر الله اسمه وهو بعد في حشى امه ، وإرميا قدسه الله قبل ان يكمل تصويره في احشاء امه ، والرسل دعاهم وهم يصلحون شباكهم واعدهم صيادين للناس ، أعطيت الحكمة لكل هؤلاء ورفعوا الى سمو المعرفة والنعمة بينما كانوا يعمهون في الجهل والغباوة .

اما النساك الكاملون فصقلت نفوسهم وأرهفت حواسهم وانتصروا على المادة بجهاد روحي طويل كما تنقى المصقلة الحديد فاتحدوا بالله واستنارت عقولهم بنوره .

يقال ان معرفة الحق مكتوبة بالدم ، ومنقوشة بالآلام ولا تتجلى إلا بعد جوع وظمأ وسهر وتجرد ، ولا ينكر الفلاسفة حقيقة هذا الرأي واستقامته ، ولكنهم يقولون انها طريق شائكة محفوفة بالمخاطر ، ضيقة السبل ، بطيئة النتائج ، لأن في الجهاد القاسي يضطرب الكيان البشري ويتشوش العقل ويهزل الجسد ، ويمضي الانسان قبل ان يصل الى هدفه ، وعلى هذا الاساس يشيرون الى وجوب ممارسة العقل الجهاد العلمي الصحيح لكي يبلغ العقل اهدافه الكاملة من المعرفة بطريقة مأمونة ومضمونة .

اما اللافنة القديسون ، فانهم يجمعون بين الطريقتين لاكتساب المعرفة الكاملة طريقة التبحر العلمي والاختبار الفكري ، وطريقة الجهاد الروحي والعمل النسكي فضروري في رأيهم التضلع العلمي اولاً ثم تلطيف الجسد باعمال الزهد ، وهكذا ينتظر العارف تجلي اسرار المعرفة .

الفصل الثامن

ضد الذين يعطلون اعمال النسك بسبب خطر الامراض

ان الجسد البشري حتما عرضة الآلام ، وعليه فالذين يعيشون مترفين ايضاً يمكن ان تحول الامراض دون ممارستهم اعمال النسك ، وليس من المؤكد انهم سيكونون دائماً متمتعين بصحة كاملة ، ولما كان الأمر هكذا ، لم يبن آباؤنا الاولون صروح الفضيلة على اساس التمتع بالعافية المستمرة بل ابعدوا عنهم كل فكرة تشفق على الجسد ، وعانقوا الفضائل ذاتها وامعنوا في اعمال الزهد الشاقة ، وخاصة اصحاب البطولات الروحية السامية الذين انفردوا في البراري والقفار وزهدوا في كل انواع الراحة الجسدية ، فحفظ بعضهم بعناية الله كل ايام حياتهم صحيحي الجسوم اقوياء كالأب انطونيوس الذي عاش مئة وخمس سنوات ، قضى منها تسعين سنة بكاملها متزهداً متوحداً ، ولم يتسرب الى جسمه المرض او الهزال ،

ولم تسقط اسنانه ولم يضعف بصره ، بينما كان نحيف الجسم رقيقه اكثر من غيره ، والاب سوسايس الكبير الذي سكن في صومعة الاب انطونيوس بعد رقاده اثنتين وسبعين سنة معافى بزهده وتجرده . والاب مقار الكبير ، صاحب الجسد اليابس المقدد ، والاب يوحنا تابيز ، وفاخوميوس وافولو وغيرهم ، ممن صانتهم العناية الالهية من الامراض والاوجاع .

ومما لاشك فيه ان بعض النساك كانت تقاوم اجسامهم فترة من الزمن ، ولكنها ابتليت بامراض مختلفة ، كالاب بنيامين الذي دعي ايوب الجديد ، فانه زهد في الدنيا وقنت لربه ثمانين سنة ونال قوة اجتراح المعجزات ، وشفى كثيرين من الامراض بوضع يديه ، ولكنه ابتلي أخيراً بداء الاستسقاء وانتفخ جسمه وترهل ، وفي بحران آلامه القاسية كان يشكر الله على المحنة والتجربة ويقول : ان هذا الجسد لم يفدني شيئاً وهو صحيح ، ولا الآن يشقيني وهو عليل ، فمن اراد ان يحيي نفسه في هذا العالم فليهلكها ، ومن اراد ان يهلك نفسه من أجلي يجدها .

الى هذا الهدف الاسمى كان يتطلع القديسون في وضعهم الاساس لبنيان النفس ومعظمهم سلكوا طريق تعذيب الجسد واذلاله .

الفصل التاسع

★ البراهين الطبيعية في طبقات العارفين الاربع ★

ان مدركات العقل لاتقاس بالحواس ، وما كان ذلك ليس من الهيّن ان يفهم بالبراهين المحسوسة ، وعلى هذا الاساس يجب الاستدلال على المدركات الخفية بالمدركات الظاهرة .

البرهان : النفس في الجسد كأنها اسيرة في خيمة مغلقة ، وكما ان الخيمة تهبّ عليها ريح عاصفة احياناً فتمزّقها ، ويظهر كل ما فيها وما يحيط بها بوضوح وجلاء ، وتارة يطغي عليها الزمن فتتفتح مسامها ويظهر سداها ولُحمتها فيتسرب اليها النور ولكن بطريقة ضئيلة ، واحياناً وان لم تتمزق ولم تتفتح مسامها الا ان

الساكن فيها يفتح له كوة وينظر الى الخارج ، هكذا الانبياء والرسل بهبوب الروح القدس عليهم تمزقت خيمة اجسامهم امام النفس العاقلة ، ، والزهاد بواسطة رقة اجسادهم وشفوفها تتجدد فيهم الروح المستقيمة ، والفلاسفة تفتحت امامهم كوى النفس بالاقيسة المنطقية المدركة للمواضيع ، وملافنة الكنيسة بتفتح كوى العقل وترويض الجسد انبلجت امامهم انوار معرفة العالم الروحي الحقيقية .

برهان آخر : ان الماء الذي يحيي الجسد هو رمز العلوم التي تحيي النفس ، وكما ان الماء يهطل احياناً غزيراً ويروي الارض الظمأى الى الارواء ، واحيانا تحفر الارض بنصب شديد حتى يتفجر الماء من اعماقها ، دون ان يجد له سبيلاً ليجري على الارض ، ويرويها ، وتارة تجري عيون وينابيع صغيرة على وجه الارض وتتجمع في غدير كبير ثم تؤلف نهراً يهدر ، وطوراً يسحب الماء بتعب شديد في في انابيب على وجه ارض الواطئة فتروى ، وهكذا ماء المعرفة المحيي للنفس يفيض على نفوس الانبياء والرسل كالمطر الغزير ، بدون جهد ، فتسقي الجبال والسهول واما في نفوس النساك فتنسكب المعرفة بعد اعمال الزهد الشاقة متفجرة في الاعماق ولكني اعرف اراضي كثيرة وصل الحفارون الى اعمق اعماقها ولم يجدوا فيها ماء ، واذا وجدوا في بعضها فانه يكفي فقط لاروائها بالذات دون ان يفيض ليروي غيرها . ولذلك يعتبرون رغبة تقويم الاخرين من اعمال الشرير ويقولون : ان الشرير يحرضنا على الانتقال الى المدن من بوادينا من أجل اصلاح الآخرين .

واما عند الفلاسفة فعناصر المعرفة تتألف من الاقيسة المنطقية في مقدماتها ونتائجها ، وبها يدركون المواضيع الكنسية القديسون فبواسطة الانابيب المتقنة الصنع بجهد عظيم تتفجر من قلوبهم انهار ماء الحياة .

★ ★ ★

الفصل العاشر

❋ كيف تتفجر الافكار في النفس ❋

شبّه العارفون النفس بالبحر ، وكما ان البحر تصب فيه انهار كثيرة تارة وطوراً تتفجر من قعره مياه غزيرة ، هكذا النفس ايضاً ، تتألق افكارها تارة بفعل الحواس الظاهرة وطوراً بتأثير التصورات الباطنية . والحالة الاولى تضاف اليها الحالة الثانية فتنبجس من توحيد الحالتين افكار اخرى جديدة ، وهذه الافكار الجديدة اذا اشتدت وتزاحمت فانها تثير الشهوة ، والشهوة تحرك الارادة ، والارادة تولّد القوة ، والقوة تدفع الاعضاء الفاعلة للقيام بالعمل المراد اجراؤه ، فاذا كان هذا العمل صالحاً فان الملائكة تواكبه وتعضده ، وان كان طالحاً فان الابالسة تضرم اواره ، على حد قول الاب اوغريس : ان الملائكة اذا حضرت فانها تظهر لنا الرؤى الروحية وتخفي النزوات الحقيرة ، وهكذا تنشب بين هذين الجيشين من الافكار — الصالحة والطالحة — حرب طاحنة ، لان العقل الناطق نصير الملائكة وعدو الابالسة ، وبالنسبة الى قوته وضعفه يعقد النصر لاحد المعسكرين .

فالحواس الظاهرة والباطنة اذن ، هي ابواب ظاهرة وباطنة الى مخابيء القلب ، وفيه تجلس النفس ملكة واهواء عالمنا الزائل تطل من تلك الابواب وفيها والنفس تشتاق الى ارتشافها .

واعلم ان بالخلوة في الصومعة الصغيرة المظلمة توصد الابواب الخارجية وبذكر القصاص والعقاب توصد الابواب الداخلية ، فلا ترى النفس غير ذاتها متألقة كالملائكة خدام ربها ، وتأييداً لذلك قال احد الفلاسفة : اسدد الكوى يستضيء المسكن .

الفصل الحادي عشر

الميول النفسية الصالحة والطالحة

الميل النفسي او الجسدي ، النابع من حرية الانسان واختياره الذاتي اذا استهدف الفضيلة فهو صالح ، واذا استهدف الرذيلة فانه طالح ، وما لم ينبع من

الحرية فلا يفيد اذا كان صالحاً ولا يضر اذا كان طالحاً . لان الحاكم العدل يحكم في اعمال الارادة والضمير ، وليس في اعمال الطبيعة والاغتصاب ، مثال ذلك : تجد فتىً ابتلي بالانحراف الى اهوائه ، وقد بدأت الشرارة تتقد جذوتها في نفسه من المعاشرات المنحرفة ، والاحاديث التافهة ، وكانت في بادىء الامر فكرة ، والفكرة اثارت الهوى ، والهوى اذا اشتدت ناره وتضاعف اواره ، يخضع له الضمير ويستسلم لانجاز الخطيئة فعلا ويعتبر ذلك الانسان كل حرام حلالاً ، فيبحث الى السبل المؤدية الى العمل بالذات ، فان لم يجد ، فانه يتمادى في اعمال الرذيلة الباقية ، وهكذا يمر الانسان باربع مراحل قبل ان يمد يده الى الثمرة المحرمة ، المخجلة ، الفكر ، والهوى ، وعمل الضمير ، وتصيد الفرص ، وبما ان الفكر والهوى طبيعيان في الانسان فليسا طالحين ، واما عمل الضمير وتصيد الفرص فبما انهما ينبعان من الحرية والاصرار المسبق ، ولا يتم العمل بدونهما ، لذلك هما طالحان قال احد الشيوخ : ان ما كتب في اثام صور مثنى وثلاث والرابع لن ارجع عنه ، هو الاصرار على الاثم بالذات ، وبواسطته يتم عمل الخطيئة فعلاً ، والرب لن يصرف غضبه عنه . قال الاب اوغريس : ان خطيئة المتوحد هي تصوره ممارسة الخطيئة بالفكر .

الفصل الثاني عشر

﴿ الابواب التي منها تدخل الخطيئة ﴾

ان الابواب التي منها تدخل الخطيئة وتسود على النفس كثيرة ، ونذكر هنا بعضها ، والبقية سيأتي ذكرها في موطنها ، وهي :

الاول : الحسد ، وهو الذي حط الشيطان من رتبته الملكية ، .

الثاني ، الشراهة ، وبها سقط آدم من علياء فردوسه ، .

الثالث : الغضب : وهو قهار للطبيعة ، يعلل ذلك ابو العارفين اوغريس بقوله : سألني الاناء المصطفى المصري الشيخ مقاريس لماذا نخطىء اذا غضبنا على البشر ولا نخطيء اذا غضبنا على الابالسة ؟ واذا لم احر الجواب طلبت اليه ان يشرح لي فقال : الغضب في الحالة الاولى قهار للطبيعة ، وفي الثانية طبيعي .

الرابع : الهوى . وهو جبار قهار للطبيعة ايضاً ، وقد صرح احد الفضلاء قال : فلنهرب لئلا نسمع او نرى الثمرة التي لن نذوقها بعد ؛ واني اعجب كيف نعتبر ذواتنا اقوى من النبي داود ، الامر الذي لا يصح .

الخامس : حب الزينة ، وواضح ان الفضيلة لا ترتدي الثياب الفاخرة بل جمال النفس ، فان الذى يتزين بالحلل الفاخرة انه انما يرتدي روح العجرفة ، ولذلك يجب أن نتشح برهبة يوم الدين وخشية جهنم ، وانكتس باعمالنا وحدها .

السادس : التخمة ؛ قيل ان البطن التي تخمت لا يمكن ان تلد فكراً سليما وقيل ايضاً : ان التخمة من المآكل هي ام الرذائل .

السابع : محبة المال ؛ وقد دعاها الرسول بولس اصل كل الشرور .

الثامن : المكر ، ان الطمع يجعل الانسان مكاراً ، فيتودد للناس كاذباً ،

التاسع : البخل ، وهو ينصح بخزن الاموال مذكراً الانسان بالشيخوخة ، ومنذراً بالامراض المستمرة ، والمجاعات الطارئة ، ويصور له التصدق والاستعطاف ومرارتها ، ويمحو عن خاطره التوكل على الله .

العاشر : حب الجدل والحوار وغربلة الافكار وحب الانتصار بالكلام ، والسفسطة ، لا يمكنه التحرر من القلق والاضطراب ، ولا يمكنه البلوغ الى هدوء الافكار واستقرارها ، ومع كونه مهذاراً ينتظر ان يدعى مفكراً وفهامة .

الحادي عشر : المداخلة باحكام الله الغامضة ، كالذين يتسألون : لماذا اعطى الله بعض الناس قلوباً تعرفه على حد قول إرميا ، وللبعض الآخر ضعف الذاكرة فينسونه على حد قول إشعيا ؟ ؟ ولماذا احب الله يعقوب وابغض عيسو قبل ان يعرفا الخير والشر ؟ وما الى ذلك من الامور ، ولمثل هؤلاء قال الحكيم : لا تطلب ما هو اسمى منك ولا تبحث فيما لا يعنيك .

الثاني عشر : احتقار القريب ، كما حدث لأحد الاخوة ان احتقر أخاً آخر سقط في تجربة فطرد من الدير ؛ اذ سقط هو ذاته بالتجربة ذاتها ، ثم ندم ، وكان يعمل الليل كله باكياً في قبر ميت ، فسمع هاتفاً يقول له : لانك احتقرت قريبك في وقت محنته اصابك هذا كله .

الباب الثاني

ترويض النفس واصلاح العادات

وفيه احد عشر فصلاً

الفصل الاول

★ تحرير العادة ★

العادة خلة نفسية بها يندفع الانسان الى عمل بسهولة دون بحث او شعور او تدقيق فيما اذا كان يجب ان يعمل كذا وكذا ، وبما ان بعض هذه الاعمال رفيع وممدوح ، وبعضه مكروه ومذموم، فالعادات ايضاً بعضها ممدوح وبعضها مذموم وكما ان هزال الطلعة دلالة المرض، الامر الذي اذا اشتد يؤدي الى موت الانسان الجسدي ، وهو انفصال النفس عن الجسد ، كذلك العادات السيئة فانها دلائل مرض نفسي خفي ، فاذا اشتد يؤدي الى هلاك النفس ، وهو انفصالها عن الله . وبما ان موت الجسد ينهي حياة وقتية ، وموت النفس يؤدي الى هلاك ابدي ، علينا ان نهتم بمعالجة النفس اكثر من اهتمامنا بمعالجة الجسد ، اذا كنا نحب الحياة الحقيقية .

الفصل الثاني

صحة النفس وامراضها

دلائل صحة النفس اربعة ، هي : الاعتدال في قوة التفكير ، والغضب والشهوة ، والاعتدال في مركبها جميعاً ، وبما ان كل قوة من قواها كائنة بين حالتين الزيادة والنقصان ، فتكون امراضها سبعة ، الستة الاولى الخاصة بالقوى الثلاث ، والرابع الخاص بمركبها العام جميعاً .

سلامة القوة العاقلة تدعى حكمة ، وهذه تكون اذا ميز الانسان بسهولة بين الصدق والكذب ، في النطق والحديث ، وبـين الحق والباطل في العقيدة والرأي ، وبين الخير والشر في العملين النفسي والجسدي .

وسلامة القوة الغضبية تدعى شجاعة ، او بطولة ، وهـذه تكون طبقاً لاوامر العقل ، اذا كان الانسان قوياً شجاعـاً لايرهب المصائب والمصاعب ، واذا احتاج الامر يستسهـل الموت ، وعلى رأي الاب اوغريس ان البطولة هي قهر جميع الاهواء المنحرفة .

وسلامة القوة الشهوية تدعى عفة ، وهذه تكون بممارسة الانسان الاعمال الطبيعية بطريقة مشروعة وسـلامـة المركب العام من هذه القوى ، تدعى عدلاً ، وهذه تكون اذا تساوت الفضائل في النفس ومما مرّ بنا نعرف ان القوى الاربع السالمة هي مصدر الفضائل ، وهي : الحكمة والشجاعـة والعفة والعدل ومرض القوة العاقلة الناجم عن التطرف في التفكير يدعى خبثـاً ، وهذا يكون باحتيال الانسان على الحصول على ما يفوق حاجاته الطبيعية الضرورية ، وضعفه يدعى غباوة ، وهذه تكون بعجز الانسان عن الحصول على أقل من حاجاته الطبيعية الضرورية ، وكلا المريضين يدعيان جاهلين .

ومرض القوة الغضبية يكون بزيادة الغضب ويدعى جسارة ، وهو ان يغضب الانسان بدون سبب ، وبعنف وشدة ، واذا طرأ نقص على هـذه القوة يدعى جبناً ، وهو خوف الانسان حيث لاتوجـد اسباب للخوف ، والحـذر حيث لا حاجة للحذر .

والمرض الناجم عن جموح الشهوة يدعى شبقا ، وهو تمرغ الانسان في حماة الاهواء الرديئة بجموح وافراط ، لا لقوام جسده ، بل امعاناً في اللذات المحرمة ، والمرض الناتج عن ضعف هذه القوة يدعى خموداً (او خنوثة) وهـو عجز الانسان عن القيام بما تتطلبه الطبيعة من شوق ولذة .

والمرض الناتج عن مركبها العام ، هو النفاق ، ويحدث عند عدم التعادل بين فضائل النفس .

ويعتقد النساك ان سلامة القوة العاقلة ان يفهم الانسان لغة البشر والروحانيين ، وسلامة القوة الغضبية الا يخاف الانسان اعداءه الروحيين ويصمد في المصائب . وسلامة القوة الشهوية ، ان ينظر الانسان بدون هوى الى ما يثير الاهواء الهوجاء ، ومرض كل قوة من هذه القوة يضاد سلامتها .

الفصل الثالث

﴿ العادات متبدلة ﴾

ان بعض الجبناء المغفلين المنحرفين الذين يهتمون بالتبذل لا بالتفكير السليم يقولون : كما ان الهيئة ، وهي المظهر الخارجي للجسد لا تتبدل سواء اذا كانت جميلة او دميمة . هكذا العادة ايضاً ، وهي المظهر الباطني للنفس لاتتبدل سواء كانت صالحة او طالحة . ويقولون ايضاً : ان اصلاح العادات يتم باستئصال شافة الغضب والشهوة من اعماق القلب ، وقد تعلمنا استئصالها بالخبرة الطويلة .

نقول : اذا كان بالامكان تبدل العادة في البهائم كالكلب والحصان والدب ، والقرد ، كيف لا تتبدل العادة في الانسان ؟ وهو ذو النفس العاقلة ؟ والغرائز الطبيعية وان كان استئصالها مستحيلاً ، الا انها قابلة الزيادة والنقصان ، بالترويض البشري ، فالقرطب مثلا اذا زرع وروض ، وان كان لايمكن ان يثمر تيناً ، الا ان التنمية المعقولة تحد من أشواكه فلا تؤذي كثيراً ، هكذا الغريزتان الطبيعيتان الغضب والشهوة ، وان كان استئصالهما مستحيلا ، الا ان الحد من عنفها بالترويض ليس مستحيلا .

الفصل الرابع

﴿ الاسباب التي معها يصعب تبدل العادات ﴾

اعلم ان القلب لايتنقى بسهولة ، بل بجهد عظيم ، وجهاد شاق ليستأصل

الشر من النفس ، وسبب هذه الصعوبة : اما عنف متطرف في الكيان البشـــري بالنسبة الى الذين يولدون غضوبين شهوانيين طبعاً ، ويصعب جداً تطويرهم الى مسالمين اعفاء بالترويض ، اما قوة الغريزة وهي تأصل العادة في العمل ، والعادة اذا تأصلت هي طبيعة ثانية ، واما اذا استطاب الانسان عادة سيئة فلا يريد تبديلها ، وبنـاء على ذلك يمكن حصر البشر في أربع طبقات :

الاولى : انسان ساذج ، وهو الذي لا يميز بين العادة الطيبة والخبيثة ، واذا تيسر لمثل هذا مرشد حكيم ، يتبدل في وقت قصير .

الثانية : انسان ساذج ضال ، وهو بالاضافة الى عدم تمييزه بين العادة الطيبة والخبيثة ، تراه ممعناً في العادة الخبيثة ، الامر الذي هو اكثر صعوبة في شفائه من الاول .

الثالثة : انسان ساذج ضال عنيد ، وهو الذي ليس فقط لا يميز بين العادة الطيبة والخبيثة ، وهو ممعن في العادة الخبيثة ، ولكنه يقاوم من يريد اصلاحه ، على حد قول القديس غريغوريوس اللاهوتي : انه يسد اذنيه كالافعى الصماء يقاوم سماع الراقي ، ويمانع ان تقدم له علاجات الحكمة التي تشفى النفس بها ، ومثل هذا داؤه ذبيل اصعب من الاول والثاني .

الرابعة : انسان ساذج ضال عنيد غضوب شهواني بطبيعته ، وهذا منقطع الامل من شفائه .

الفصل الخامس

الامور التي بها تنال العادات الطيبة

ان العوائـــد الطيبة تكون باعتدال قوى النفس الثلاث ، كما قلنا ، وهذا الاعتدال يكون بثلاث طرق : اما بالطبيعة او بالمعاشرة او بالترويض ، والطبيعي كما هي الحالة عند الانبياء والرسل ، وبالمعاشرة كمن يعاشر الصالحين ، ويمتنع عن معاشرة الاشرار ، لان الاحاديث الخبيثة تفسد الضمائر السليمة ، وما اصلح بجهود كثيرة يفقد بلحظة واحدة . اما الترويض ، هو شأن الذين يخضعون النفس برياضات روحية

متواصلة ، فينمون فيها الفضيلة ، وهم وان قاسوا مصاعب كثيرة في البداية الا انهم يصلون الى الراحة في النهاية ، وكما ان في كيان الحيوانات يكون الاعتدال طبيعياً والشذوذ متأتياً عن اسباب خارجية ، هكذا يكون الصلاح اكثر طبيعياً في الانسان ويطرأ عليه الشذوذ لاسباب خارجية ، وكما ان الجسد لايخلق منذ وجوده كاملاً ، هكذا النفس تتدرج في العلم حتى تبلغ الكمال . وكما ان امراض الجسد تزول باضدادها ، هكذا العادات الخبيثة تزول باضدادها ، على حد قول ابي العارفين اوغريس : اذا تاقت النفس الى انواع المآكل الشهية فليمعنن بالانقطاع والجوع لكي يشعر ان مع الاكتفاء بالخبز ، السعادة .

الفصل السادس

تحديد امراض النفس

كما ان كل عضو خلق لعمل خاص ، وبمرض ذلك العضو تشوش عمله ، كالعين المشوشة ، او ضعفه ، كالعين التي تكون ضعيفة البصر ، أو تعطيله كلياً ، كالعين العمياء . هكذا النفس خلقت لمعرفة الله ومرضها يؤدي الى تشويش معرفتها ، فتعتقد ان الله زمني ومحدود ، او الى ضعفها اذا ارتابت بالايمان ، او تعطيلها اذا عبدت الخليقة دون الخالق . والدلالة على معرفة الله محبته ، ودلالة هذه المحبة حفظ وصاياه ، كما قال : اذا كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي . ان من يحب الله لايحب غيره اكثر منه ، واذا احب فانه حقاً مريض ، ومن هذا نستدل ان الذين يحبون الله في عالمنا هم قلائل . واعلم ان امراض النفس هي كالحمى الخفية لايشعر بها الانسان ، ولذلك يهمل الكثيرون من محاولة شفاء نفوسهم . وهناك من يشعر بامراض نفسه ولكنه يهمل شفاءها ، اما لانه لايتحمل مرارة العلاج ، او لعدم استطاعة الطبيب شفاءها ، لان الاطباء هم الآباء وكلهم في عصرنا هذا مرضى .

* * *

الفصل السابع

كيفية معرفة الانسان عيوبه

يستطيع الانسان معرفة عيوبه باربع وسائط :

الاولى : ان يعرض نفسه لشيخ حكيم خبير بالامراض النفسية ، يمكنه معرفة مرضه وكيفية شفائه .

الثانية : ان يختار له صديقاً صدوقاً وحكيماً ، فيمقت كل ما يمقته الصديق ، لان الصديق مرآة صديقه .

الثالثة : ان يعلم عيوبه من اعدائه الناقدين فيعمل على ملاشاتها لان العدو كالذبابة لا يحط إلا على القروح ، وهذا ما قيل : الحكيم يفيد حتى من اعدائه .

الرابعة : ان يعاشر الناس ويحذر من كل ميل وغريزة يهجونها ويحتقرونها .

الفصل الثامن

تمزيق الستار (عن عيون النفس)

اذا كان من يعرف لذة ما يشتاق اليها ، فمن لا يشتاق الى اللذة لا يعرفها ، والمبتدىء (الراهب) الذي لا يشتاق حقيقة الى اللذة الروحية لا يعرفها ، وذلك بسبب الستار المخيم على عيني عقله . وهناك اربعة امور تكون ستارات هي : الاموال ، المجد الباطل ، الضلال ، والهوى .

ان ستار الاموال يتمزق بالزهد ، وهو الا يقتضي المبتدىء اكثر من ضرورياته ، لان عقله سيكون عند كنزه ، طبقاً لقول الرب (حيث يكون كنزكم فهناك يكون قلبكم)

وستار المجد الباطل يتمزق باحتقار المجد الدنيوي الفارغ ، كما عمل ذلك الشيخ الذي الح عليه ابناء المدينة ان يدخل اليهم ، ولما رآهم يحملون المصابيح ويندفعون لاستقباله ، نزع ثيابه حالاً والقاها في النهر وشرع يغسلها وهو عار ،

لكي يعتقدوا انه مجنون ، وقال الاب اوغريس : اذا كنت تعتبر الهوان كالكرامة والهجاء كالمديح فانك لن تموت .

وستار الضلال يتمزق بتمسك المسيحي بايمان المجمع النيقاوي . والاعراض عن المجادلات والخصومات الناتجة عن التحدث في (الطبائع والاقانيم) فالافضل للنساك ان يتكلموا في التقوى ومخافة الله والاعمال الصالحة من ان يتكلموا في معرفة كنه الله .

وستار الهوى يتمزق باعمال الزهد على حد قول احد الفضلاء : لما كانت الاهواء تحاربني كنت ارتدي المسح واذل نفسي بالصوم واستمر بالصلاة .

الفصل التاسع

التزود للسفر الروحي

يجب ان يتزود المبتدىء (الراهب) باربعة امور هامة في سفره الروحي هي : الخلوة ، الصمت ، الجوع ، السهر . ففي الخلوة تتلاشى كل النزوات المقلقة ، وبالصمت تموت عن ذاكرته كل الاحاديث الباطلة ، وبالجوع يتطهر العقل ، وبالسهر تزول كل الاوضار التي تحجب بصيرة النفس . فاذا نال الراهب هذه الفضائل كلها سار في طريق ربه وتعلقت أبصاره في اللانهاية . منتظراً العون والايد من لدن الله ، فان استمر بذلك يستسلم لقول النبي ارميا : اما انا فلم آت الا لاتبعك يارب ولم اشته لذة البشر .

الفصل العاشر

المكوث في الصومعة

يجب ان يدخل المبتدىء الدير اولاً ثم يتدرج الى الانفراد ، وكما يتطهر الذهب في النار ويتوهج ، كذلك المبتدىء الذي يتروّض في الدير يتنقى عقله ويتوهج . ففي ضوضاء الاخوة يتعلم الصبر وطول الاناة ، والوداعة ، والتواضع ، واذا ظفر بكل ذلك فلينفرد ، واذا انفرد ، ان استطاع مجابهة الافكار الصاعدة فليصمد ، والا ليعد الى الدير خشية ان يضطرب عقله .

وإذا عضدته النعمة في الصومعة الصغيرة منفرداً ، فليواصل القراءة والتأمل والمطالعة بعد ان يكمل واجباته الروحية والصلوات الفرضية طبقاً لما كنا قد اوردناه في المقالة الاولى ، ولا يحتاج ان يقول سوى : يارب يارب . حتى تجري هذه الجملة على لسانه بدون شعوره . وليستمر بها حتى تزول عن لسانه ايضاً وترسخ في قلبه فقط . ثم تتلاشى عن القلب ايضاً ككلمات وجمل ويستقر معناها السامي في الذهن فقط واذا ما رسخ هذا المعنى في النفس نهائياً ، تلتهب بحب ربها وتدفع له كل كيانها ، فلم يسبق في خاطره غيرها ؛ وحينئذ تنبجس امامه شقوق بابها رويداً رويداً ، وتتفتح له كوى معرفتها ، ويشرق عليه شعاع الهي كالبرق اولاً ثم يمر بخاطرها خاطفاً ، واحياناً يتلكأ في عودته ، وإذا اعاد يقيم ، واحياناً تطول اقامته ، واحايين تقصر فلا يعطي الله روحه بمقاييس ، بل ينال كل طبقاً لقابليته .

الفصل الحادي عشر

﴿ عثرات الكاملين ﴾

إن الشرير الظمآن الى اذلال الصالحين ياتي عثرات كثيرة ، ليس في طريق المبتدئين فحسب ، بل يحفر حفراً حتى لمن شرع يتدرج في سلم الكمال ، وغالباً يصطاده في فخاخ العجرفة والكبرياء ، وذلك ، والناسك في غمرة حالة روحية لا توصف ، فالرؤى العجيبة تغمر كل كيانه والسعادة المبهجة تضفي عليه ملاءة من النور العجيب مستغرقاً بالاشعة الساطعة التي لم ترها عين ولم تسمع بها اذن ، ولم تخطر على قلب بشر . وهو غائب عن هذا الوجود يحاول تعليلها ، وفي غمرة هذه الحالة الوحيية يفسح المجال لأبليس بالاجهاز عليه ، اذ يغريه بالدخول الى المدن والقرى معلماً ومخلصاً للنفوس وقدوة صالحة لتقويم الكثيرين ، فذا لحظ احد اخوته متألقاً في خطابه جذاباً للنفوس في تعاليمه ؛ يتسرب الى قلبه الحسد المرير ويحاول الطعن في كرامته ، والنيل من مواهبه ، كما حدث لاهرون الاسكندري ذي العقل المتألق والخاطر المرهف ، والفضيلة الوضاءة والذي كان يأكل مرة واحدة في كل ثلاثة ايام ، ان هذا ركبة الغرور فاظلم عقلة وهبط الى دركة التمريض

بالطوباوي اوغريس واخذ يقول : ان الذين يسمعون تعليمه يضلون ضلالا ، لانه لا حاجة للمعلمين سوى المسيح ، فقد قال تعالى (لا تدعوا لكم معلماً على الارض) ثم وسوس له الشيطان ان يذهب الى الاسكندرية ليراه الناس ويقتدوا به ، ولما ذهب، اغراه الهوى فشرع يرتاد المراقص والملاهي ثم لطمته الرذيلة وابتلي بامراض خبيثة ، وشفي ، ثم عاد الى صوابه .

الباب الثالث

✶ الشراهة وعلاجها ✶

وفيــه تســعة فصــول

الفصل الاول

★ كلام الاباء في الحذر من الشراهة ★

جاء الشيخ اخيلوس مرة الى صومعة الاب إشعيا ، ورآه يأكل ، وكان لديه في الصحفة ماء وملح ، لان حنجرته كانت يابسة ؛ ولم يستطع ان يأكل الخبز متحجراً ، قال الشيخ : هلموا انظروا الاب إشعيا يأكل مرقاً ، في الاسقيط ، (برية مصر) اذا كنت تريد مرقاً فاذهب الى مصر .

قال شيخ آخر : من هو قوي كالاسد ، ويسقط في الفخ من اجل بطنه ؟ هكذا نحن نسقط اذا قهرنا بطننا .

وروى شيخ آخر قال : ان آباءنا في البرية كانوا يقولون لا نضايقن نفوسنا كثيراً بالخبز والملح ، وهكذا كانوا شجعاناً في عمل الرب .

كان الاب فومان يقول : لو لم تهاجم شهوة البطن النفس ، لما غلب العقل على امره في الجهاد ضد العدو .

وقال الاب ابيفانيوس : لاتخضع نفسك للطعام الذي تستلذه ، وخاصة اذا كنت سليماً .

قال الاب اوغريس : لا يقلقنك فكرك باعداد ما لذ وطاب بسبب الضيوف الغرباء ، واقتد بارملة صرفة صيدا كيف استقبلت النبي ايايا ، فاذا كان لديك خبز وماء وملح فانها كافية لمكانة الضيوف . والاجر الصالح ، وان لم يكن لديك فاستقبله بلطف وبكلمة نصح مفيد ، وستنال مكافأتك كاملة .

وقال ايضاً : ان الذين ينعمون سارحين بين المروج الروحية ويتناولون طعام الروح من العلي ، ويسيرون في النور اللامتناهي ، لاتستطيع شهوة البطن ان تسودهم وتشوش عقولهم .

وقال ايضاً : كان احدهم يقرأ كتاباً ، وكان يتثاءب باستمرار ، ويداعب صفحاته ، ويحصي كراريسه ، ويعد سطوره ، وقد ذهب الكسل بلبه ، فسئم الكتاب ووضعه تحت رأسه واراد ان يغفو هنيهةً ، الا ان الجوع كان ينهش احشاءه ، فيوقظه ليفكر بالطعام .

وقال ايضاً : المضطرب الفكر مهتم بخدمة المائدة ، يجهز على الطعام بشراهة ويظن انه يكمل ناموس الله .

وقال ياوني رئيس الدير : اني اعجب كيف يمكن ان يتحرر من شهوة البطن من لا يسكن في القبر .

وقال ايضاً : اليهودي يفرح بيوم السبت والراهب الكبير البطن بيومي السبت والاحد .

وقال ايضاً : ضيّق بطنك واسدد فاك ، لان من يملأ بطنه يوسع امعاءه ، ومن يضيقها يقلص الامعاء ، واذا الامعاء تقلصت يصبح صائماً بالطبيعة .

وقال ايضاً : ان سقوط آدم ، وهلاك عيسو ، وبوار بني اسرائيل ، وفضيحة نوح ، وانخذال لوط ، وموت اولاد عالي ، كلها نتيجة سيئة للشراهة .

الفصل الثاني

الاهواء الناتجة عن الشراهة

الرذيلة وليدة الشراهة ، ومحبة المال وحب الرئاسة هما كذلك وليدتاها كما يقولون ، لان في كثرة المال دافع اساسي للترف ، وحافز رئيسي للشراهة ، ومنها ينتج الاستغراق في الشهوات ، ومنها ايضاً يتولد الخطف والظلم والقسوة . وهذه تولد المراآة والكذب والعجرفة ، وعنها تتولد الضغينة والبغضاء والحسد ، وواضح ان هذه الميول جميعها سيئة ومهلكة ، وبالتالي ان الشراهة امها جميعاً ، وهي اعظم خطراً من جميع الامراض ، ويجب على الانسان ان يسرع بمعالجتها ، ولا نجد في كتاب الطب الروحي دواءً لمعالجتها سوى الجوع ، ولذلك يجب ان نعدد فوائده .

الفصل الثالث

فوائد الجوع

وجد العارفون للجوع عشر فوائد ، هي :

الاولى : نقاء النفس ، لان من يقلل غذاءه يضيىء عقله ، ويرق تفكيره ولذلك دعى مفتاح الحكمة .

الثانية : الشعور باللذة الروحية ، لان الامعان في اللذات المادية يعطل كل شعور باللذة الروحية .

الثالثة : تواضع الروح والوداعة ، وقد قيل ان الجسد اذا بطر لا يخضع الا بالجوع .

الرابعة : التفكير بالمساكين والبائسين والجياع والمعذبين ، وقد سئل احد الملوك الصالحين ، وكان يصوم كثيراً ، لماذا تمعن في الجوع ولك كنوز العالم ؟ قال : اني اخشى ان انسى الجائعين .

الخامسة : اخماد الاهواء المثيرة للخطايا ، ولذلك يجب قهر البطن قبل ان يقهرنا .

السادسة : التخلص من ثقل النوم ، ان الذي يشبع يشرب ، ومن كثر شربه للماء زاد نومه .

السابعة : الا ينشغل الانسان باعداد الطعام فينسى واجباته الروحية .

الثامنة : صحة الجسد على رأي الاطباء فالذي لا يأكل حتى يجوع واذا اكل لا يشبع ينجو من امراض كثيرة .

التاسعة : قلة النفقات على رأي الاب اوغريس : لا تأكل مرتين في النهار لئلا تكثر نفقاتك وتضطرب افكارك .

العاشرة : ان يوفر الانسان كمية يمكنه ان يشبع بها المحتاجين . فالمسرف في الطعام : لا يكفيه ماله ومال الآخرين .

الفصل الرابع

★ تقليص كمية الطعام ★

يجب على المبتدىء (الراهب) ان يقلص طعامه ، بقدر المستطاع ، وهذا التقليص يجب ان يكون تدريجياً فمن يأكل رغيفين في النهار ويرغب ان يكتفي برغيف واحد ليقلص في كل يوم جزءاً من ثلاثين ، وهكذا في شهر واحد يكتفي برغيف واحد ، دون ان يضعف اويتضرر .

وفي نظام الكمية اربع درجات ، الاعلى والعليا ، والوسطى والسفلى .

الاولى (الاعلى) وهي الاكثر سمواً ؛ ومقدارها لا يمكن ان يقتات باقل منه كما بلغنا عن احد الكاملين انه كان يأكل في النهار ما زنة قرش واحد فقط .

الثانية (العليا) ان يروض الانسان نفسه على ان يأكل في يوم واحد (الليل والنهار) ثلث الرغيف ، او ما زنته ثمانون قرشاً .

الثالثة (الوسطى) ان يكتفي بنصف رغيف .

الرابعة (السفلى) ان يكتفي بثلثي الرغيف ولما سمع الاب مقاريس الاسكندري عن ناسك يأكل لتراً واحد من الخبز اي ما زنته مئة وعشرون قرشاً ، في كل يوم

كسر خبزه والقى الكسر في جرة ضيقة الفم ، ولم يكن يأكل غير ما تخرجه يده الواحدة مرة واحدة فقط من الجرة . وكثيرون من النساك في ايامنا لا يزنون خبزهم ، ولكنهم لا يأكلون اذا سغبوا تماماً ، واذا تناولوا الطعام لا يشبعون .

وهناك دلالتان للجوع الحقيقي . الاولى : اذا حضر الخبز يرغب غمسه في الماء والملح . والثانية : اذا بصق على الارض لا يجتمع الذباب على بصاقه ، وهذا دليل على ان معدته خالية من الادهان .

الفصل الخامس

﴿ نوعية الطعام ﴾

نقصد بنوعية الطعام هنا ، نوع الخبز وما يؤوم به ، ولكل منها اربع درجات الاعلى والعالية والوسطى والسفلى .

الدرجة الاعلى من الطعام بالنسبة الى الخبز هي ان يخبز من طحين الشعير غير المنخول . وكثيرون من الكاملين لا يقتاتون بالخبز بل بالجراد وعسل البر مثل يوحنا المعمذان ، او بالاعشاب واصول الشجر كالقديس برصوم ورفاقه .

الدرجة العليا : ان يخبز الخبز من طحين الشعير المنخول .

الدرجة الوسطى : ان يخبز الخبز من طحين الحنطة غير المنخول .

والسفلى : ان يخبز من طحين الحنطة المنخول .

والدرجة الاعلى في الادام ، الماء والملح او الخل . والعليا : الاعشاب . والوسطى : بعض البقول المطبوخة بدون زيت ، . والسفلى : بعض البقول المطبوخة مع الزيت .

اما البيض والحليب والجبن والسمن والسمك ، فذلك للرهبان الذين يعيشون في الديورة ، وليس للنساك المتوحدين .

قال الاب دانيال في الاب ارسانيوس : عندما كان يسمع بنضوج الاثمار كان يطلب ان يقدم له منها ، وكان يأكل مرة واحدة في السنة من كل ثمرة ، وذلك فقط ليشكر الله .

وسأل أحد الاخوة اخاً اخر قائلاً : اني اكل كثيراً من العشب ، فقال له : كل خبزاً وقليلاً من الاعشاب ، ولا تزر احداً ، . واعتقد انـــه قال ذلك لئلا يرى بعض الاطعمة فيشتهيها في زيارته لابناء العالم .

الفصل السادس

أوقات الطعام

ولاوقات الطعام ايضاً اربـع درجات ، الاعلى والعليا ، والوسطى ، والسفلى :

الدرجة الاعلى ، وذلك مما لايوجد في كل جيل ، وهي خاصة بالـكاملين ، الذين امعنوا في تجفيف اجسادهم ، فيأكلون مرة واحدة في كل اربعين يوماً .

والعليا : درجة الـكاملين الذين يأكلون مرة واحدة من الاحد الى الاحد .

والمتوسطة : درجة الذين يأكلون مرة واحدة فقط في كل مسائين .

والسفلى : درجة جميع النساك المنظمين الذين يأكلون مرة واحدة في اليوم الواحد (الليل والنهـار) ان في دير الاب فاخوم ـ وكان رهبانـــه يومئذ الفاً وثلاثمئة راهب ـ كانوا يأكلون في اوقات متفاوتة فبعضهم في الساعـــة الثالثة ، والبعض في السادسـة (ظهراً) والبعض في التاسعـــة (عصراً) وبعضهم مساء ، وبعضهم مرة واحدة في كل يوم ، والبعض مرة واحدة في كل اسبوع ، كل بحسب قابليته ومقدرته .

الفصل السابع

شرب الماء

وفي شرب الماء ايضاً يلاحظ الآباء النساك الكمية والكيفيـة والوقت ، اما الكمية ان يقلصوا شربهم للماء بقدر المستطاع ، قال الاب اوغريس : ان قلة الماء تساعد كثيراً على العفة ، ويؤكد ذلك بنو اسرائيل يوم كانوا مع جدعون وعددهم ثلاثمئة رجل احتلوا مدينة مديان . وقال ايضاً : زرت مرة ابانا القديس مقاريوس

وكنت محترقاً عطشاً ، فطلبت ماء لاشرب فقال لي : يكفيك الندى ، فان كثيرين من المسافرين في السفن محرومون منه .

والكيفية ، ان يقللوا من عذوبة الماء بقدر الامكان ، كما كان يفعل الاب يوسف فقد زاره اثناء حر الهجر الاب اولوغيس وطلب ماء فذاقه ، ولم يستطع الشرب لانه كان خليطاً من ماء البحر والنهر . وكانوا يفعلون ذلك خوفاً من اراحة الجسد ويقولون : كم من مرة روّع الاسد من هيّجه وهيج الجسد من اراحه .

وبسبب ذلك يعرض العارفون عن تناول الخمر والمسكر ، قال الاب فلاديس : زرت يوما احد الآباء ولما جلسنا للطعام الفيته لايتناول شيئاً من المسكر ، بل تناول البلح ثم الماء فشرب ، فقلت له باسماً : اذن انت حاقد على المسكر ايها الاب ؟ انك تناولت البلح وشربت الماء فلم لاتشرب المسكر ؟ قال : اذا اخذت باحدى قبضتيك تراباً وبالثانية ماء ورشقتها في انسان اتظنه يتألم ؟ قلت : لا ، قال : ولكن اذا مزجت الماء بالتراب وضغطتها ضغطاً قوياً وجففتها وضربت انساناً الا ترجّ هامته ؟ قلت بلى ، ايها الاب . قال : اذن ، لاترغب ان تكون مثل بعض أبناء الدنيا الذين يقولون لماذا لا تأكل كذا وكذا ، أفي ذلك خطيئة ؟ ؟ وهم لا يدرون ان بعض الامور وان كانت بذاتها خالية من الخطيئة ، ولكن اذا ركبت تهيج الاهواء ، وهذه تقتلنا .

والاباء يلاحظون الوقت ايضاً ، فانهم بعد صلاة النوم لا يشربون ماء لئلا يستغرق الجسد بالنوم اذا ترطب .

الفصل الثامن

الجوع يفيد المبتدئين اكثر مما يفيد الكاملين

ان الكاملين من البشر يضحون كالملائكة الروحانيين ، مجردين من الاهواء ، وبما ان الملائكة لا الشبع يضرهم ولا الجوع يضنيهم ، وكلاهما عدوا

الانسان اللدودان ، وعلى هـذا الاساس يجب الابتعاد عنها والتمسك بالاعتدال في كليها في نهاية الجهاد الروحي . ان المبتدىء في مطلع جهاده انما يجاهد ضد الجسد متمرداً على الطبيعة جوعاً وعطشاً وعذاباً ، وفي منتصف طريق الجهـــاد يتضاءل الشعور بالالم ، واذا ما بلغنا درجة الكمال ، ووصلنا الى نهـاية الشوط ، فحينئذ يقضى على ارادتنا البشرية فتتألق حياتنا الجديدة وتتسامى فوق الاهواء في عبادتنا العقلية كالملائكة مضطرمين بحب الله وحده . وعليه ، اذا كنت ايهـــا المبتدىء لم تزل مريضاً ، فلا تعتقد انك بلغت درجة الاصحاء الـكاملين ، والا لزججت نفسك في امراض قاتلة ، واذا كانت فضتك لم تتنقّ بعد من ادرانهـــا في البودقة ، فلا تكن فلساً مزّيفاً ، وتطبع ذاتك في عملة الـكاملـين ، واذا زارك اخ غريب ، فلا تظهر له محبتك بالنهم وتتخذ كرمك بالنهم وتتخـــذ كرمك لاخيك حجة في تغذية جسدك ، فتقبل على الخمـرة متوهمـــاً انك بخفي فضيلتك ، فانك متصبح عبداً للأهـــواء .

الفصل التاسع

الاهواء التي تثور في المتوحدين

يثور في المتوحدين نوعان من الاهواء وبالـكاد ينجون منها :

الاول : التظاهر الـكاذب ، وهـذا يحدث اذا ثارت في المتوحـــد شهوة الطعام اللذيذ من جهة ونزوة المجد الباطل من جهة ثانية ، فالنزوة الاولى تحرضـه على حل نذره ، والثانية تزين له التبجح بفضيلته ، واذا قهرته النزوتان بآن واحد ، يسمح لنفسه بان يأكل خلسة ، الامر الذي لايأتيه صراحة ، ويبرر ذلك بقوله : اذا حللت نذري صراحـة وظاهراً فسأكون سبباً في شكوك للـكثيرين ، وبالتالي اكون شريكهم في الخطيئة ، ولا يعلم هذا الشقي انـه يصبـح حينئذ قبراً مكلساً وهدفـــاً للويـــل الانجيلي .ويعالج هـــذا الداء بحيث اذا ثارت الرغبة متأججـــة

في الناسك النذير ، فليكافحها ، ولا يرخي لها الحبل على غاربها ، وهكذا حتى تخمد ، فاذا خمدت فحينئذ يمكنه حل نذره باطمئنان وثقة .

والثاني : المجد الباطل : ويثور هذا الهوى اذا اعترف الناسك النذير عن الطعام وامعن في الزهد طمعاً في الشهرة والمديح فقط ، فاذا لم يصبها ، يركبه القلق ، ومثل هذا شقي جداً . لانه قهر الشهوة فقهرته الكبرياء ، ويعالج هذا الداء ، بان يحل الناسك نذره فيأكل ولكن دون الكفاية .

الباب الرابع

احجمنا عن ترجمة هذا الباب بكامله

نظراً لعدم فائدته لابناء الجيل

الباب الخامس

عثرات اللسان

وفيه تسعة عشر فصلا

الفصل الاول

كلام الاباء في لجم اللسان

صعد الاخوة من الصعيد لزيارة الاب انطونيوس ، ومعهم شيخ فاضل ، فركبوا السفينة واخذوا يروون كلام الاباء والكتب المقدسة واعمالهم اليدوية ، وعندما بلغوا الاب انطونيوس ، قال للشيخ : ما احسن الاخوة الذين يرافقونك ايها الاب ، فاجاب الشيخ : اجل ما احسنهم ، ولكن ليس باب لدارهم ، قال ذلك لانهم قد تكلموا كل ما لديهم .

قال احد الشيوخ للاب فومان : ظننت انكم اغلقتم الباب في الصوم الكبير قال : اننا لم نتعلم ان نغلق باب الخشب ، بل ان نطبق باب لساننا .

وسأله احد الأخوة قائلاً : اذا رأيت عملاً من الاعمال ارغب روايته . فقال : اذا سئلت اروِ ، وإلا فاسكت . وقال ايضاً : ان كل شيء يعرض الانسان في السكوت فوزه .

وقال الاب آلونيس : اذا ذكر الانسان انه مكتوب ، من كلامك تتبرر ومن كلامك يحكم عليك ، يعلم انه يجب عليه الصمت . وقال الاب ارسانيوس : تكلمت فندمت مرات كثيرة ، وصمت فلم اندم مرة واحدة . ذهب الاب اوغريس الى احد الشيوخ في الصعيد وقال له : قل لي كلمة ، كيف يمكنني الخلاص ؟ اجاب الشيخ : اذا زرت احداً لا تتكلم حتى تُسأل .

وقال احد الاخوة للاب طياثوس : اني اريد صيانة نفسي من المضار ؛ قال : كيف نصون نفوسنا وباب لساننا مفتوح ؟ وقال الاب اوغريس : الافضل للانسان ان يلقي حجرة باطلة من القائه كلمة باطلة .

وقيل عن احد الآباء ان تلميذه قضى عنده ولم يسأله ما اسمه . وقال الأب اوغريس : ان كثرة الكلام يقلق راحـــة النفس والنوم الكثير يقسي القلب .
وقال شيخ آخر : اذا كان لسانك غزير الكلام فقلبك منطفيء بعيد عن الميول الطاهرة ، وان كان لسانك صامتاً وقلبك تضطرم فيه الميول المقدسة فالطوبى لك .

وقال مار اسحق : كما ان كثرة الطعام شراهة الجسد ، فكثرة الكلام شراهة النفس ، واما السكوت فانه ثمرة الحكمة .

وقال ياونّي رئيس الدير : ان كثرة الكلام عرش المجد الباطل ، وفي دورانه يمكنه اظهار نفسه وامتداحها وقال ايضاً : ان الصمت مع المعرفة يضاعف المعرفة ، ويخلق الافكار الجليلة ، وقال ايضاً : السقوط من علٍ افضل من سقطة اللسان . وقال ايضاً : السيطرة على سيل جارف اهون من السيطرة على لسان لا لجام له .

الفصل الثاني

فضيلة الصمت

ان اللسان اصغر جميع الاعضاء ولكنه اعظمها قوة ، فيه يعلن الايمان وفيه يذاع الجحود ، هو يشجب وهو يبرر ، ويقرب ويبعد ، واذا لم يلجم بلجام الصمت ولم يخضد جموحه بالسكوت فانه يغرق في بحر خضم . والدليل على ان الصمت افضل من الكلام هو ، ان كلام المتكلمين اكله مفيد او كله ضار ، أولا فائدة ولا ضرر فيه ، وواضح انه يجب اختيار النوع الاول فقط ، واجتناب الانواع الثلاثة الباقية ومن كون الكلام الذي يظن انه مفيد لا يسلم ايضاً من بعض المضار والطبيعة أيضاً تبرهن على ان الصمت افضل من الكلام بوجود اذنين ولسان واحد .

الفصل الثالث

الكلام الباطل

الكلام الباطل هو الذي لا اذا قيل يفيد ولا اذا لم يقل يضر ، والميل الى ذلك له سببان ، الاول : رغبة الكلام بصيغة المحبة ، وبواسطة ذلك يهبط بعض الناس الى ممارسة الكلام الباطل ، مع الذين يعاشرونهم .

والثاني : البطالة التي من جرّأتها يسترسل الانسان في الكلام الباطل تضييعاً لوقته التافه ، ومعالجة هذا الداء ايضاً له طريقتان . نظرية وعملية ، فيفكر الانسان ان كل كلمة بطالة يعطى عنها جواباً في يوم الدين ، والثانية ، ان يخلد الى السكون ويمرن لسانه على الصمت . فان بعض الناس يلجمون افواههم بحصاة . قال احد الشيوخ : كان الآباء مرة جالسين يتسامرون وبينهم شيخ ذو رؤى ، فاذا تكلموا بما يفيد كان يرى فوق رؤوسهم ملائكة تحوم ، واذا تكلموا الكلام الباطل كان يرى خنازير ملطخة بالاوحال تتمرغ بينهم .

الفصل الرابع

★ كثرة الكلام ★

لهذا الداء سببان ، الاول القابلية الطبيعية لاطلاق العنان للسان ، والثاني : المهارة الفائقة في رواية الاخبار وايراد اقاصيص الاولين ، ويتخلله عادة الكذب او المبالغة على حد قول الأب اوغريس : احذر ان يجرفك الهذر فبين طياته يكمن الكذب ، وعلاجه كعلاج سابقه .

الفصل الخامس

الكلام المبطن يؤثم

انه كلام يجلب الاثم ، ويصدر باسلوب لا إثم فيه كمن يروي اخباراً عن الملوك الاولين ، وعظمتهم ؛ وسلطانهم ، وغزارة الغنى عند المنحرفين المنافقين وامتداد اعمارهم ، ومن يروي ذلك يظن انه لا يخطيء لانه لم يشاركهم في اعمالهم الشريرة ولكن من يسبب الاثم الآخرين فانه يأثم ومثل هذا يسبب الشكوك لدى البسطاء الذين يظنون ان الله يرضى بالوثنية ولولا ذلك لما سمح بنجاحها . ويعالج هذا الداء بان يرتل المزمور القائل : لا تغر من الاشرار ولا تحسد عمال الاثم ، ولا تغر من الرجل الأثيم الناجح في طريقه ، والاشرار اخرتهم للهلاك . ان لم يكن في هذا العالم ففي الآتي حتما ، كما يبرهن مثل الغني والعازر .

الفصل السادس

المشاجرة

المشاجرة مجابهة الآخرين بغليظ الكلام ، وسببه رغبة الانسان في اظهار فضيلته وفضح نقيصة الآخرين ، وكلاهما ميلان مهلكان ، ويعالجان بكبح جماع الكبرياء المحرضة على اظهار فضيلة كاذبة وطمس فضيلة حقيقية ، واذا كانت المشاجرة نقاشاً

تدعى جدلاً ، وكل كلمة تقال صدّقها ايها الأخ اذا كانت صادقة واعرض عنها اذا كانت كاذبة واصمت شريطة الا تكون ضد الايمان .

يروى ان بعض الناس جاءوا الى الاب اغاثون بغية اغاظته فقالوا له بلغنا انك ساقط ومتكبر ، قال : نعم ، قالوا : أأنت اغاثون الهذار الوقح ؟ قال نعم قالوا أأنت اغاثون الضال ؟ قال : لا. قالوا لماذا لم تتحمل كونك ضالاً كما تحملت بقية الكلام ؟ قال : ان التهم الاولى ربما تفيد منها نفسي ، اما الضلال فانه الابتعاد عن الله .

الفصل السابع

☼ الخصام ☼

الخصام حرب كلامية تعلن لاستيفاء دين او استعادة حق مهضوم ، وهو عمل بغيض بدليل كلام الآباء ، فقد قالوا : ان شيخين سكنا سوية سنوات عديدة ولم يتخاصما ، وقال احدهما لأخيه يوماً ، فلنتخاصم نحن ايضاً كما يفعل الناس ، قال : سأضع هذه القصعة في وسطنا وأدعي انها لي ، وانت قل : لا ، انها لي ، وهكذا نتخاصم ، ولما وضعها ، قال : انها لي ، قال رفيقه : نعم انها لك ، خذها وامض ، وهكذا لم يستطيعا ان يتخاصما .

واعلم انه ليست كل خصومة اثماً ، الا ما كان ضد الحق ، ويقصد كسر شوكة الخصم ؛ ومهما كان الامر خير للمظلوم ان يراضي خصمه ما دام معه في الطريق وان لم يرضَ ذلك فليدعه وشأنه لكي يطبق أمر الانجيل (من اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضاً) .

الفصل الثامن

★ الشتم ★

للشتم سببان ، الاول : رغبة الانسان في اغاظة المشتوم واثارته ، والثاني : المادة السيئة الراسخة في النفس من معاشرة الاشرار ، والرب يعلن فداحتها بقوله : (من

قال لاخيه راقاً يستوجب لوم الجماعة ، ومن قال يا احمق يستوجب نار جهنم) .

قيل ان الاب مقاريس كان يصلي في صومعته فسمع هاتفاً يقول : يامقاريس ، انك لم تبلغ درجة امرأتين تسكنان في المدينة الفلانية ، فقلق كثيراً وسار الى تلك المدينة ليرى عملها ، فتعرف عليها وعرف انها متزوجتان ولم يجد لديها اية فضيلة سوى كونها سكنتا في دار واحدة سويّة ولم تقل اية منها كلمة سوء في رفيقتها .

ومن يُشتم لا يضع اللوم على شاتمه ، بل يلم ابليس الذي حرك ذلك الانسان ليشتمه ، وهكذا ينجو من البغضاء .

الفصل التاسع

الحرم واللعنة

الحرم هو طلب فصل انسان من الله ، كقولك : من لا يحب ربنا يسوع المسيح فليكن محروماً . واللعنة ، هي الطلب بزيادة الشر للغير . سواء كان ابليس او جماداً او حيواناً او انساناً . ويأذن ملافنة الكنيسة بالحرم واللعنة لثلاثة ، الجاحد ، والضال والشرير . اما النساك القديسون فانهم يتمثلون في قول الرب (باركوا ولا تلعنوا) وهم لا يلعنون او يحرمون الا ابليس الميئوس من توبته ، ويعتقدون ان الجاحد ، ممكن ان يؤمن بالله ، والضال ممكن ان يهتدي ، والشرير ممكن ان يتوب عن شره ، وعليه لا يطلبون ابعاد الناس عن الله ولا يرغبون لهم مضاعفة الشر .

الفصل العاشر

الغناء والشعر

ان كل غناء تكمن وراءه الميول المحرمة والاهواء المنحرفة حرام سماعه ، وما كان غير ذلك فانه حلال . واما الشعر فيجب قراءة ما كان بعيداً عن اثارة الميول الشريرة وما اليها . خاصة ما يحض على الفضيلة مثل اشعار القديس غريغوريوس اللاهوتي التي نظمها ضد الوثنيين المتغنين باشعار هوميروس ، ومثلها اشعار القديس افرام السرياني واضرابه .

الفصل الحادي عشر

الهزل

الهزل كلام يثير الضحك تأنسه وليس كله اثماً ، واننا نرى حتى بعض القديسين مارسوا الهزل في رسائلهم ، كما كتب القديس باسيليوس الى القديس غريغوريوس اللاهوتي يقول : ذهبت الى البنطس ابحث عن مكان يصلح للسكنى ، فوجدت ذلك البلد صالحاً لانتاج الاثمار وعليه يمكنه ان يقدم لي ثمار الوحشة ، وهي احب الثمار الي . انه يربي ايضاً الحيوانات ، ولكن ليس الدببة والذئاب كالتي تعيش عندكم ، كلا ، بل غابات من الاشجار وقطعاناً من المعز البري ، واسراباً من الارانب . فاجابه القديس غريغوريوس يقول من رسالة : انك تسخر وتهزأ مما في بلدنا ، حسناً تفعل اذا كان ذلك يطيب لك ويسعدك ، واذا كنت حقاً تحتقر ما في بلدنا فذلك لا يغيظنا قط ، بل نريدك ان تكون مسروراً ، واخلد في سكينتك .

وقال ايضاً : اوشكت تمدحني ان امتدح بنطس ، واطرىء ديرك الصالح للهروب ، فاذكر لي ذلك المقام الذي لاسقف له ، ولا باب ، وتلك الاثفية الخالية من الدخان ، والموائد الخاوية ، والخبز اليابس الذي كان كالحصى تحت اسناننا ، ولولا كرامة امك الفاضلة لقلت غير هذا ، لاني اخجل من الملح الذي تشاركنا فيه يوماً . هذا بعض الهزل الذي مارسه هذان المصباحان الوهاجان في البيعة المقدسة . ولاحظ ان الهزل الذي يرد بكلام صادق لا اثم فيه كمن يقول لصاحبه : ان في عينيك بياضاً ، وهو يقصد البياض الذي يحيط البؤبؤ ـ او كما قال احدهم لشيخ فاضل انك لن تدخل الجنة لانك شيخ ، وهو يقصد ان الذي يدخل الجنة سيصبح شاباً في القيامة العامة . وطلب صديق الى صديقه غنمة فقال : ليست لدي غنمة بل بنت الغنمة ، والحقيقة ان كل غنمة انما هي بنت الغنمة .

ومهما كان الامر فان بعض الهزل فيه امور كثيرة لاتستساغ ، لانه يكثر الضحك الذي يميت القلب : ويقتل الكرامة ، . قال شيخ لرجل : ان الهزل انما هو ريح السموم يحرق الثمار في وقت الحصاد ، . وقيل عن الاب فمبو : انه

لم يبتسم ولم يضحك ، وضحك مرة على الابالسة يوم قرروا ان يضحكوه فعلقوا ريشاً في خشبة وكانوا يصرخون (هيللو هيللو) وقال الاب مقاريس : احذر من الهزل فيجب على الناسك الا يهزل حتى مع نفسه .

الفصل الثاني عشر

السخرية

السخرية احتقار يظهر عيوب الآخرين بطريقة مضحكة ، وتمتاز عن التعيير والهزء بكون هذين لا يطرحان بطريقة هزلية ، وجميع هذه الامور مؤثمة لانها تحتقر كائناً بشرياً ، وعلاجها وصفه احد الشيوخ بقوله : نحن والقريب لنا وجهان فاذا اجتهدنا بتطهير مرآة نفوسنا فحينئذ نبصر السارية في عيوننا ، ونصرف النظر عما في عين القريب .

الفصل الثالث عشر

★ الكذب ★

الكذب اعلان شيء غير موجود كأنه موجود ؛ وما هو موجود كأنه غير موجود . وسببه الوقاحة . ولاحظ ان الكذب ليس دائماً كذباً بالمعنى الصحيح كأن تعلن شيئاً بقصد فائدة روحية غير آثمة . كما فعلت راحيل اذ جلست على اصنام ابيها واعلنت انها لا تستطيع الوقوف بسبب وجيه . وبناء على ذلك قال احد الاباء انه يمكن ممارسة ذلك ولكن مع الحذر والتحفظ اذا احتاج الامر .

وعلى كل حال يجب ان يحذر الانسان دائماً لانه قيل (افواه الكذبة تسد) وكان احد الاباء يرسم دائرة ويقول لتلميذه ، قل انه ليس هنا - اي ضمن الدائرة - اذا ناداه من لا يرغب استجابة ندائه . وآخر جاءت اخته لتزور ابنه المريض فقالت له : كيف أنت يابني ؟ قال لها : هل انتِ ارضعت ابني هذا ؟ قالت : لا . قال : لماذا اذن لم تقولي كيف انت يا ابن اخي ، ولِمَ تكذبين ؟

الفصل الرابع عشر

★ الاغتياب ★

الاغتياب ذكر نقائص الاخرين في غيبهم وله عشرة اسباب :

الاول : اخماد الغضب بذكر مساوىء القريب

الثاني : الزلفى ـ اذا اتفق المغتاب ومغتابون آخرون رغبة في استرضائهم

الثالث : الحذر ممن يرغب فضح امره فيغتابه قبل ذلك خشية ان يصدق قوله

الرابع : اذا شجب الانسان بسيئة ما يدّعي ان فلاناً فعل ذلك او اشار به

الخامس : ظن الانسان ان ذكر مساوىء الغير يرفع من شأنه .

السادس : يجهد الانسان نفسه في اظهار معايب الممدوح حسداً .

السابع : الاستهزاء بالآخرين بطريقة مضحكة .

الثامن : ايراد الاغتياب بطريقة التعجب ، فيقول مثلاً : اعجب من فلان كيف فعل كذا ولم يخجل ؟

التاسع : ايراد ذلك بطريقة الاشفاق كأن يقول : اني اشفق على فلان انه لبائس ، كيف أتى القرية الفلانية . ومثل هذا يوبخه الاباء بقوله : دعك عن هذا الاشفاق ، فلو كنت مشفقاً ، صل في الخفاء ولا تغتب الرجل .

العاشر : الغيرة ، كمن يظهر نقيصة قريبه لكي يستيقظ ، وهذا امر ممدوح .

ويعالج هذا الداء بان يفكر الانسان ان هناك اناساً يظهرون فعل نقائص صغيرة ويبطنون ارتكاب الكبائر ، فيتمسك الثلابون بخيط من دخان عوض وضع يدهم على النار ذاتها ، والاجدر بهم البحث عن العنب من ان يحثوا جهلا عن الحطب . وسأل تلميذ معلمه : هل اذا سمعت بزلة لأحـــد اقولها ؟ قال الشيخ : حتى اذا رأيت بعينيك مرات كثيرة فاعتقد ان العينين تخطئان .

وقال ايضاً : لاتخجل من الذي يغتاب قريبه امامك ، بل قل له : صه ايها الاخ . فاني انا ذاتي افعل اعظم من ذلك كل يوم . وهكذا بدواء واحـــد تشفي نفسك وقريبك .

وقال الاب اوغريس : اذا اغتم صاحبك عندما يمدحك الناس ويتفجر باطلان اخبار كاذبة عنك فلا تحزن وتسكر عقلك بسلافة معكرة ، لان ابليس يتحين الفرص لكي يحرق ذلك الانسان حسداً ، ويعذبك غماً . وقال ايضاً : لا تثلب من هرب من العالم خشية ان تتأصل فيك هذه العادة فتنصب نفسك كما على الاحياء والموتى .

الفصل الخامس عشر

﴿ الثلب ﴾

الثلب هو ذكر النقيصة بطريقة المحبة امام من قيلت فيه او افقت عليه ، وله ثلاثة اسباب :

الاول : الاساءة الى الذي افشى النقيصة او اختلقها .

الثاني : اخبار من نقلت عنه النقيصة .

الثالث : التملص بالكلام على حساب الاخرين ابتهاجاً بنقائص الغير .

ومن يطرح الثلب امامه عليه بحفظ اربعة امور :

الاول : الا يُصدق الثلاب . الثاني : ان ينتهره . الثالث : ان يحتقره . الرابع : الا يدقق في البحث في المثالب التي سمعها .

قال احد الحكام العدول لثلاب : اننا سندقق البحث في قولك فاذا كنت صادقاً سنحتقرك ، واذا كنت كاذباً سنعاقبك ، فغاب الثلاب خزياً . وقال الاب اوغريس : ابكم افواه الذين يلأون اذنيك على اخوتك ، ولا تعجب اذا شتمك الكثيرون ، فان الابالسة يوطئون لذلك لانهم يسوؤهم ان يتحرر الرجل الكامل من البغضاء والحقد .

الفصل السادس عشر

﴿ النفاق ﴾

النفاق هو الادلاء بكل ما قال خصم امام خصمه الاخر ، فيمدحه في وجهه ويهجوه في غيبته ، وقال الحكيم في ذلك : واللسان الواشي ملعون فقد اثار قتولاً

كثيرة . وحدد المرتل ذلك بقوله : الرجل مع رفيقه بشفاه متلونة ، وهم يتكلمون بقلوب منقسمة ، ليبد الرب جميع الشفاه المتلونة والالسنة الناطقة بالعظائم . وعلى من يحضر بين المتعاتبين اما ان يسكت او ان يصلح ذات البين ، او يمتدح من كان بريئاً سواء اكان حاضراً ام غائباً .

الفصل السابع عشر

المديح

تلحق المدّاح اربعة اضرار : الاول الكذب لامتداحه انساناً بما ليس فيه الثاني ـ المراءاة ، اذا بالغ في المديح الثالث ـ الضلال ، اذا قال في انسان ما لا يعرفه عنه حقيقة . الرابع ـ العقاب ، اذا فرح الاثيم بمآتيه . وقد قيل ان الاثيم يُبارَك والرب يغضب . وبناء على ذلك سأل احد الاخوة الاب فمبو : ايجدر بالانسان ان يمتدح قريبه ؟ قال : الاجدر به ان يسكت .

والممدوح يلحقه ضرران : الاول ـ الكبرياء التي تركبه ، والثاني ـ الغرور والعزوف عن نوال الفضائل ، وما اجمل ما قال رب الحق : الويل لكم اذا مدحكم الناس .

الفصل الثامن عشر

* الكلام الساذج *

مثال ذلك اذا قال رجل ساذج جهلا : لولا فلان لنهب اللصوص دارنا في هذه الليلة ، وكان الاجدر به ان يقول : لولا الله الذي قيّض لنا فلاناً لحدث كذا وكذا .

الفصل التاسع عشر

★ بحث ما لا يفيد ★

مثال ذلك ان يبحث الانسان امور لاتفيده اذا عرفها ولا تضره اذا

جهلها . اجتمع الاخوة مرة في الصعيد (مصر) لكي يبحثوا امر ملكي صادق ودعوا الاب قوفروس مستوضحين ، اما هو فضرب على فمه ثلاث مرات وقال : ويحك ياقوفروس اهملت ما امرك به الله واخذت تبحث ما لم يأمرك ؟ فاختفى الاخوة حالاً في صوامعهم .

وهناك عثرات للسان كثيرة ولكن اكتفينا بما ذكرنا كجزء من كجزء من كل .

الباب السادس

﴿ الغضب والحسد والحقد ﴾

وفيـــه خمسة فصــــول

الفصل الاول

(★ اقوال الآباء في الحذر من الغضب ★)

اراد بعض الآباء اغاظة الاب موسى امتحاناً له فاحتقروه قائلين : لمـــاذا يدخل هذا الزنجي بيننا ؟ ولما سمع ، سكت . قالوا له بعدئذ : ايها الاب موسى الم تغتظ ؟ قال : وان اغتظت ، ولكن لم اتكلم .

قال الاب اغاثون : حتى اذا اقام الرجل امواتاً فانه مرذول . وسأل احد الاخوة الاب ثيودورا : لماذا يخافك الشيطان بهذه الدرجة ؟ قال الشيخ ؟ : لاني لا ادع الغضب يدخل سقف حلقي .

دعي الاب يوحنا مرة الى الكنيسة ، فاحتاطه الاخوة وكانوا يستفتونـــه في أفكارهم . قال فيه احد الشيوخ : ان الاب يوحنا كالعاهرة التي تتزين لتجتذب اليها المحبين ، فتنحنح الاب يوحنا وقال ؛ صدقت ايها الاب . قال له احد محبيه : الم تغضب في داخلك ؟ قال : اني في داخلي كما انا في خارجي . قال الاب آمون : تعبدت اربع عشرة سنة في البريّة متضرعاً الله لينصرني على الغضب . وقال الاب

اوغريس : لاتغيبوا الشمس على غضبكم لئلا يأتي الابالسة فيقلقوا نفوسكم باشباح مخيفة رهيبة . وقال ايضاً : كان ملاك كنيسة تدمر يقول : ان المحبة تخمد ضرام الغضب . وقال ايضاً : كما تحجب الغيوم أشعة الشمس كذلك الغضب يحجب ضياء النفس . وقال يوحنا ابو الدوالي : ان شيطان الغضب يذكّر النفس بما مضى وما سيأتي من الشؤون اثارة للغضب ، ويسقيها كأس الغضب ، الا ان النفس حتى في ذلك لاتتدنس اذا لم تقذف الغضب بواسطة اللسان او تثير احداً بالكلام . وقال ياونّي رئيس الدير : هناك ميل نفسي عنيف يحرق حنطة النفس ويفسدها بلحظة واحدة ولذلك يجب التحفظ بتعقل . وقال ايضاً ان الممعن في اللذة يمكن ان يفسد ذاته فقط او من يحفظ سره ، اما الغضوب فانه يقلق مجتمعه كله ، فذئب واحد يمكنه اقلاق القطيع برمته .

الفصل الثاني

★ الاسباب التي من أجلها غرس الغضب في طبيعة الانسان ★

لما كان الانسان كسائر الكائنات الحية قابلاً للفناء اعطاه الله الغضب سلاحاً للدفاع عن كيانه عند الحاجة . واسباب فنائه اما باطنية : الاحجام عن الطعام الذي به يدوم وجوده الى ان يأتي اجله ، ولكن اذا منع عن الطعام عنوة فان الغضب يدفعه الى ازالة ذلك المانع حفظاً لوجوده . واما خارجية : وهي كل من يناصبه العداء من بني جنسه او نوعه ، وهكذا اذا عودي تضطرم نار غضبه ويحمر وجهه فيما اذا كان واثقاً من قوته ومن ضعف خصمه . فاذا كان خصمه اقوى منه يندفع الدم من الوجه الى داخل القلب فيخضر الوجه وينقلب الغضب الى خوف فالغضب الطبيعي في الجسد هو الرغبة في الانتصار ودفع الاذى . والغضب في النفس يوضحه اوغريس بقوله : اذا لاح في مخيلتها ما تكرهه فانها تبعده عن ساحتها بالتفكير .

★ ★ ★

الفصل الثالث

اسباب الغضب ومعالجتها

اسباب الغضب هي : العجرفة ، الكبرياء ، المهاترة ، المناهضة ، الجشع في الاموال . المجد الدنيوي . وتتم المعالجة باستقامة التفكير والعمل المجدي السريع وذلك باربعة امور :

الاول : ان يفكر الانسان انه بقدر ما هو اللطف حميد تكون الجفوة مقيتة وقيد قيل ان اللطف صخرة موضوعة فوق بحر الغضب تتكسر عليها كل الامواج الصاخبة ، وهي ثابتة لاتتزعزع وقال الرب : تعلموا مني فانني وديع ومتواضع القلب .

الثاني : ان يتأمل الانسان قائلاً : اذا كنت لا اغتفر غلطة واحدة سقط فيها اخي فكيف يغتفر لي الديان العادل كثرة اخطائي ؟ فقد قال : اغفروا يغفر لكم .

الثالث : ان يشمئز من سماجة الهيئة التي يتخذها اثناء الغضب ، فقد قيل ان الغضوب فيه جنون ارادي ، ولا يمكنه بارادته اخماد عادة تأصلت فيه .

الرابع . ان يتأكد ان الشيطان وسوس للذي اغاظه ولذلك يعتبره لايستحق اللوم ، فقد قال الاب اوغريس : اذا شتمك اخوك او سبك فلا تحمله تلك الجريرة ولكن اعتبر ان ذلك اعتراه من ابليس . فان لم تعتبر الامر كذلك فانك تثير ضد نفسك زخماً من الافكار .

وتستقيم سلامة العمل ايضاً بتحمل التذمر الذي يحدث في مجتمع الاخوة ، فقد قيل : كما ان الحجرة الخشنة اذا صقلت بحجارة ملساء ناعمة تزول خشونتها وتصبح صقيلة براقة ، هكذا النفس الفظة اذا روضت باعمال عنيفة تزول فظاظتها . وقيل ايضاً : من لا يتغلب عليه الغضب يبلغ ميناء الراحة والنجاة ، اي اذا تغلب على فظاظة بعض الاخوة وتحمل غلاظتهم فانه يغسل اثواب نفسه . وهوذا بعض ابناء الدنيا اذا شتموا احداً مواجهة يعتزون بذلك ويقولون : لقد غسلت فلاناً . وهذا صحيح . اما الصبر فانه يغسل ادران النفس .

ويخمد الغضب ايضاً بكلمات خاصة توجه الى مثير الغضب ، ويجب ان تكون لطيفة منعشة مزيلة للغيظ ، فاذا قال لك احد : من انت ؟ الست من العشيرة الفلانية ؟ ومتى ظهر شيء فيه صلاح في بلدك ؟ ؟ يمكنك اخماد غضبه بلطف وتؤدة بقولك : اجل اني من العشيرة الفلانية ، ولا ضير سواء ظهر من قومي شيء فيه صلاح او لم يظهر فالصالح هو الله وحده .

الفصل الرابع

[الضغينة [الحقد]

الضغينة او الحقد نتاج الغيظ على حد تعبير الحكماء ، فالغيظ يحبل فيلدهما ، فاذا ما ترعرعا واصابا النمو الكافي تلدان ثماني بنات او تؤديان الى ثماني نتائج :

الاولى : ان يحشد الانسان من ضغن عليه . الثانية : ان يبغضه . الثالثة : ان يفرح بمصائبه . الرابعة : ان يحتقره . الخامسة : ان يهزأ منه . السادسة : ان يثلبه . السابعة : ان يعرضه للخسائر . الثامنة : ان يحجب عنه الفوائد .

ويحذر العارفون شر هذه المساويء حذرهم من السم الزعاف ، وقد قال الاب اغاثون : اني لم انم قط حاقداً على احد ، ولم ادع احداً ينام وهو حاقد عليّ . وقال الأب اوغريس : ان الحقد يحيل العقل ظلاماً ، والصلاة سباباً ، ولهذا (دع قربانك على المذبح واذهب اولاً صالح أخاك ، ثم تعال وقدم قربانك) غير قلق . وقال احد الآباء : ان من هو حاقد ويعتبر نفسه تائباً يشبه من يركض وهو نائم . ويعالج الحقد بازالة سببه ، اي الغيظ ، او بما يقدم من الهدايا للحاقد على حد قول الاب اوغريس : ان الهدية تخمد الحقد كما فعل يعقوب اذ قدم الهدايا لعيسو ، وقد خرج عليه باربعماية مقاتل . وبما اننا نحن بؤساء فيكفي ان نسد رمقنا بمائدة بسيطة .

الفصل الخامس

★ الحسد ★

يتولد الحسد من الحقد كما يتولد الحقد من الغيظ ، ولا يحسد انسان إلا على

نعمة اولاه الله اياها ، ولكن اذا رأيت ـ ايها الأخ ـ نعمة اوليت او تولى اخاك قد يحدث لك احد الامرين : اما ان تكره بقاءها او تتمنى زوالها ، وهذا يعرف بالحسد واذا حدث بطريقة اخرى ، اي ان تتمنى نوالها او نوال مثلها فهذا يعرف بالغيرة . فالاول مقيت ، والثاني حميد .

وللحسد ستة اسباب : الاول : البغضاء . الثاني : الكبرياء ، حيث ان يتألم الانسان بتعالي غيره عليه . الثالث : يتمنى ان يكون الغير اقل منه شأناً حتى ولا مساوياً له . الرابع : او يطلب لنفسه الخير الذي اصابه غيره . الخامس : المجد الباطل : اذ يرغب ان يكون وحده فريد عصره. ووحيد دهره . لذلك يحسد من يرغب التشبه به . السادس : الخلق السيء الطبيعي ، مثل الكثيرين الذين لا يحبون العلم ، واذا وجدوا غيرهم فاقهم معرفة فانهم يحسدونه .

ويعالج الحسد ان يتأكد الانسان بان الحسد يضر فيه وحده ويقّض مضجعه واما المحسود فلا تصيبه أية مضرة ، وعليه يجب ان يفرح ويشكر الله الذي اولاه نعمته .

الباب السابع

☆ الشهوات الباطنة ☆

وفيه اربعة فصول

الفصل الاول

★ اقوال الآباء في تفاهة الشهوات ★

ذهب احد شيوخ الصعيد لزيارة رئيس الاساقفة في الاسكندرية ، ولما عاد قال للاخوة : سمعتكم تقولون ان في الاسكندرية جموعاً غفيرة من الناس ، وقد ذهبت

الى هناك فلم ار وجه انسان سوى البطريرك وحده ، ولما سمعوا قلقوا جداً وقالوا : هل غيبوا في الارض ؟ قال : لا ، ولكن لم يتغلب على فكري فانظر وجـه انسان ففهم الاخوة الا ينظروا الى شهوات العالم الباطلة .

قيل مرة للاب ثيودورا ، ناسك البرية : ان الاخ الفلاني عاد الى الدنيا ، قال لا تعجبوا من هذا بل اعجبوا اذا هجر احد الدنيا هجراً تاماً . وقال الاب فومان : ان كل امر لا يستأصله الانسان من نفسه يستمر متعلقاً به . وقال شيخ آخر كلما دخل جندي المعركة فانه يهتم بنفسه ، هكذا حارس المثل العليا يجب ان يتأكد ان الغنى وذوي القربى والحكمة ، كلها نفاية بدون الاعمال الصالحة . وقال الاب سوسايس : ان قول دانيال : (لم اكل خـبز الشهوة) معناه الا يخضع الانسان لشهواته .

وقال الاب اوغريس : كما ان الانسان لا يمكنه رؤية وجهه في ماء عكر ، هكذا العقل لا يمكنه رؤية الرب كما في المرآة الصافية ما لم يطهر قرارة نفسه من الشهوات . وقال ايضاً : كما ينقي الانسان ينبوع الماء من الاوحال المتراكة ، ثم يستقي الماء النقي ، كذلك يجب تنقية النفس من الهموم الدنيوية ، فيجد في داخله كنزاً من المعرفة ، وقال ايضاً : ان الشهوات قيود يصعب كسرها . وقال ايضاً : دع كل هم في الدنيا ، الرئاسة والسلطان ، يكون غير مأسور لتلك الهموم وهكذا يمكنك تهدئة روع نفسك بسهولة . وقال شيـخ آخر : ما اغبى من يظن انه سيأخذ من العالم - عند موته — اكثر من قبره .

وقال مار اسحق : ان الناسك بجهاد طويل يقطع صلته بالعالم وشهواته ، ويربط مصيره بالعالم الجديد وامجاده . وقال ايضاً : الاعراض عن الشهوات يكون اما خوفاً من العذاب او طمعاً بالثواب

الفصل الثاني

ـ اشباه العالم الباطلـة ـ

١ ـ كالظل الهارب المسرع ، وان لم نشعر به ، هكذا العالم وان اغتر بعض الاغبياء ببقائه .

٢ ـ كما تحلم بلذة او الم فاذا استيقظت لا تجد شيئاً ، هكذا الناس يرقدون واذا ماتوا يستيقظون .

٣ ـ كالفتاة التي تتصبغ وتتزين لاجتذاب الرجال واذا خطبت بذّرت اموال خطيبها ، هكذا محبة الدنيا تبدد فضائل النفس .

٤ ـ كما ان الامراض تميت شاهية الطعام هكذا الشهوات تقتل ميول المعرفة .

٥ ـ كما ان المآكل الشهية تؤول الى الزوال هكذا الشهوات الدنيوية عند الموت .

٦ ـ هناك ثلاثة ازمنة لسير الحياة العامة ، الماضي ، وهو منذ الازل الى وجود الانسان ، والحاضر ، وهو فترة حياة الانسان ، والمستقبل ،وهو منذ زوال الانسان الى الابد . ولما كان القسم الثاني كطرفة عين بالنسبة الى القسمين الاخرين فكيف يغتر الانسان الحكيم به ؟

٧ـ كان بعضهم يسيرون في بيداء مقفرة ، فنضب ماؤهم ، ونفد طعامهم ، وهم لا يعلمون هل الشوط الذي قطعوه اطول ام الشوط الباقي لهم ان يقطعوه ، توقفوا واجمين ، فتراءى لهم رجل كانت خصل شعره تقطر ماء ، فسروا برؤياه ، وتمنوا لو دلهم على الينبوع ، فاشفق عليهم ، وقال : هنال ينبوعان ، قريب اجاج ، وبعيد عذب ، اما هم فمالوا الى الينبوع القريب واستعذب معظمهم اجاجته (ملوحته) ولم يرضوا عنه بديلاً ، وقليلون هم الذين اختاروا التعب والعذاب وتبعوا الدليل الى الينبوع العذب . هكذا العالمان ينبوعان احدهما قريب مُرّ أجاج ، وبعيد عذب ، وقليلون هم الذين يطلبونه .

الفصل الثالث

الشهوات واقسامها

الشهوات الدنيوية امور تلذ الانسان في هذه الحياة الدنيا . والامعان بها يحول بينه وبين العمل الروحي ، وهذه الامور اما ضرورية واما مناسبة ، والضرورية اربع هي :

الغذاء والكساء والزوجة والمسكن . والمناسبة ، اما طبيعية ، كالعشيرة وذوي القربى . او مكتسبة : كالرئاسة والسلطان والغنى واليسار والجنائن والرياض والعبيد

والاماء ، والحكمة (الدنيوية) ايضاً وهي جهالة عند الله وقد رذلها الله ، تعتبر من الشهوات الباطلة ، فبواسطتها تتقن الصناعات والفنون ويمكن ان تجنى من هذه الثمار الرديئة ، حتى المعادين والوعاظ الجوالين المتنقلين يعتبر تعليمهم جهالة وان كان كنسياً لانه يستهدف خلاص نفوس السامعين بل ابتزاز اموالهم ، وكيفما كان الامر فان كل الامور التي ذكرناها اذا تطرف بها الانسان اكثر من الحاجة الضرورية فانه ينجز رغبة الشرير ، وفيها تغرق نفسه غرقها في حمأة آسنة .

الفصل الرابع

اختلاف ارادة الناس في الرغبة بالشهوات

يقول البعض انه لا سعادة للانسان إلا بالاكل والشرب والتمتع انحرافاً مع المنحرفين الاقدمين الذين قالوا : لنأكل ونشرب وغداً نموت . وقد وبّخ الرسول بولس بهذا القول أهل كورنثوس ، وذكره ايضاً النبي إشعيا ، وهكذا يعيش مثل هؤلاء كما تعيش البهائم حياتهم كلها .

ويقول غيرهم ان سعادة الانسان في ان يكدّس الغنى واليسار فيحتاجه الجميع وهو لا يحتاج احداً ، وهم دائبون في تكديس ذلك ليلا ونهاراً ولا يذوقون منه الا ما يسد الرمق فقط .

ويقول آخرون : ان سعادة الانسان في ان يمدح حياً وميتاً ومثلهم الأعلى (الصيت الحسن خير من الدهن الجيد) ولذلك يفعلون الخير مرآة وزلفى . وهم لا يعلمون ان الذين يرضون الناس يخزيهم الله .

ويقول غيرهم : ان سعادة الانسان في الرئاسة على الآخرين والتسلط على رقاب الناس ، وهم يتوصلون الى ذلك اما قهراً واما بالرشاوى او الوعود .

ويقول غيرهم : من الذين ينظرون الى الامور بمنظار الخيال ان كل ذلك من الامور التافهة ، واما امجاد عالم الروح فهي وحدها الباقية ، وهذه يجب الحصول عليها والوصول اليها . ولذلك يقتلون اجسادهم تعذيباً لينالوا هذه الآمال السامية ، ومثلهم مثل انسان سمع الحكماء يقولون : ان الفلسفة هي التفكير بالموت ، وسمع ايضاً افلاطون يقول في كتاب الجمهورية : لنهرب اذن يا (ثيودورا) (يعني عن نفسه) لان الشرور معششة ،

انهرب من هنا . سمع الرجل ذلك فالقى نفسه من السور فمات عاصياً شقياً . ولم يعلم هذا الغبي ان الموت الذي يقصده الفلاسفة هنا ، هو الهرب من الشهوات والاعراض عنها . وقد اراد افلاطون بقوله : (انهرب) الرغبة عن الشهوات ، وقد فسّر الحكيم اوغريس نوع هذا الهرب تفسيراً سامياً فقال : ان انفصال النفس عن الجسد هو عمل الله ، واما تسامي النفس عن الجسد فانه عمل طالب الفضيلة ؛ ويشبه آباؤنا الهرب عن الجسد بهجر المسكن .

ويرتأي آخرون انه لايجب هجر العالم بدون تطهير النفس من اهواء الجسد ولذلك يمارسون الزهد العنيف ويقومون باعمال تفوق الطاقة البشرية جهلاً ، ولما لم يثمر حينئذ يقولون ليتحرر الضمير من اعمال العصيان (يقصدون به النسك) ومن قراءة الكتب والصلاة والترتيل والصوم والسهر والخلوة والانفراد والتهجد المستمر ، لان هذه الامور كلها تجلب القلق والتشويش للعقل ولذلك معظم النساك لا يبلغون درجة الكمال او التحرر من الاهواء ، فيتصورون ذواتهم كانهم يجب ان يعيشوا هنا كما يعيش الابرار بعد القيامة حياة جديدة ، وهناك غيرهم يضلون ضلالاً ارادياً وكلهم يتمسكون بالظل دون الحقيقة ، هو الطريق الذي سار فيه اباؤنا القديسون فنالوا الظفر .

الباب الثامن

محبة المال

﴿ وفيه سبعة فصول ﴾

— الفصل الاول —

★ اقوال الآباء في الحذر على محبة المال ★

قال راهب لاحد الشيوخ : ارغب ان اوفر فلسين ليوم الحاجة او المرض ، قال له الشيخ : لا حاجة بك ان توفر غير قوتك الضروري ، فان حدث وفقد منك الفلسان فان لك من يهتم بامرك فالق همك عليه .

حدّث شيخ آخر عن بستاني كان يشتغل ، وما يوفره يعطيه صدقة ، فحدثته افكاره بعد ذلك ان يوفر له بعض المال لحاجة الشيخوخة ، فوّفر وجمع وملأ اناء كبيراً ، وابتلي يوماً بقرحة في رجله ، وانفق ذلك المال على الاطباء ، ولم يفيدوه بل قالوا له ان لم تقطعها فانها تتلف جسمك كله ، وكان يئن باكياً ، فتراءى له طيف من ورائه يقول : اين الدراهم ؟ قال : لقد اخطأتُ يا سيدي فاغفر لي ، فدنا منه وشفيت رجله .

قال الاب اوغريس : اذا سأل الانسان عن سبب خلقة الذهب ، فالفكر الملائكي يجيب : انه خلق من اجل سير العالم المنظم ، والفكر الشيطاني يقول : انما خلق للتمتع بالغنى والنعيم الجسدي والمجد الفاني في هذا العالم .

وقال ايضاً : اذا أُخضع شيطان محبة المال قهراً للنساك ، يحتال لابساً قناع إعالة المساكين ، فيزور السجون في المدن ، ويفتدي الاسرى ، ويلج بيوت النساء الموسرات ويشرح لهن احوال الفقراء ويحرّض ذوي الاكياس المربوطة على هجر العالم .

وقال ايضاً : لا تشته ان تكون غنياً ، بحجة التصدق على الفقراء فان ذلك لضلال من الشرير يجذبنا الى المجد الباطل ، ويوسوس للفكر باسباب فارفع نظرك الى السماء وانظر الى الرب يمتدح الارملة التي اكملت برها بفلسين اكثر من الاغنياء الذين القوا كثيراً في الخزانة ، فهؤلاء القوا من فضل مالهم واما هذه فالقت كل ما كانت تملك .

قال ياونّي : لا تقبض لجج البحر ولا ينضب الغضب والضيق لمحب المال .

الفصل الثاني

= الغنى سبب يفيد منه بعض الناس =

ان الغنى ليس ضاراً او بدون جدوى اذا اصابه بعض الناس ، وذلك واضح من الذين لا ينجحون في نوال بعض الفضائل حيث يكون الغني لديهم سبباً في تولد العطف والرحمة فيهم وذلك اذا عرفوا كيف يوجهونه ، واعلم ان السعادة الابدية موضوعة بين ثلاث فضائل :

الاولى : فضيلة النفس ، وهي معرفة الله والملائكة وعوالم الروح معرفة حقيقية . الثانية : زهد الجسد ، الثالثة ، الرحمة ، وهي تكمل بالغنى ، وهذا النوع من الفضيلة وان كان سامياً إلا انه احط درجة من النوع الثاني ، وهذا احط درجة من النوع الاول . لان المعرفة تطلب من اجل ذاتها ، والزهد من اجل المعرفة او تنوير النفس ، واما الغنى فمن اجل حياة الجسد ، وحياة الجسد من اجل الزهد وواضح ان ما يطلب من اجل ذاته هو افضل مما يطلب من اجل غيره ، فذلك مخدوم وهذا خادم ، وطبقاً لهذه الحقيقة ، ان الذهب والفضة هما احط قدراً من جميع انواع الغنى الاخرى ، لانهما لا يطلبان من اجل ذاتهما بل من اجل بقية الحاجات الضرورية لقوت الجسد وللزهد والاستنارة . ومن هنا نعرف ان فضيلة النفس تكون طبقاً للهدف او الرغبة النهائية المتصورة ، واما الوسائط ، طبقاً لقربها او بعدها عن الهدف تكون افضليتها قريبة او بعيدة .

الفصل الثالث

﴿ فوائد الغنى ﴾

فوائد الغنى اما زمنية او أبدية ، والزمنية معروفة ، اما الابدية فهي ثلاثة انواع فاما ان ينفق الانسان غناه على ذاته ، او على اناس آخرين معينين ، او على أي كان .

فالنوع الاول : يريد به الانسان أوَده المحدود ، وبهذا يمكن ان ينزع الى الزهد ، فتصبح فائدته ابدية ، والنوع الثاني : مضاعف ، فاما ان ينفق الغني العلماني غناه في سبيل الصدقات والهبات ، واما في سبيل الولائم ، وهذا النوع اذا لم يقصد به ربحاً زمنياً يصبح ربحه ابدياً ، كما قال المخلص : اذا اقمت وليمة او دعوة فادعُ اليها المساكين والبائسين والعجز والعمي فتكون سعيداً ، لان ليس لديهم ما يكافئونك به . والنوع الثالث : هو القيام باعمالٍ نفعها عام ، كبناء الكنائس والملاجيء والجسور ، واحداث الينابيع والانهار والغدران في المناطق القاحلة .

★ ★ ★

الفصل الرابع

مضـار الغنـى

ومضار الغنى ايضاً اما زمنية واما ابدية ، والزمنية كالمشاق التي يقاسيها الانسان في جمعه ، وما يحاك ضده من احابيل بعد جمعه من الحكام واللصوص والسراق ، والحسد الذي يثور ضده من اقربائه ، والابدي ثلاثة انواع :

الاول : لان الغنى يهيج الانسان على القيام باعمال لا تليق كالتبذل والمجد الباطل والشراهة وغيرها .

الثاني : ان محب الغنى لا يمكنه جمعه بطريقة مشروعة إلا نادراً ، فيمضي في الاحتيال والسرقة والكذب .

الثالث : واذا لم يكن من اهل الشر فان التفكير باغنائه وحفظه يبعده عن عبادة الله ، فلا يستطيع عبد ان يعبد سيدين كما قال رب الحق .

الفصل الخامس

★ معـالجـة الطمـع ★

يعالج هذا الداء بستة ادوية ، هي :

الاول : ان يتصرف الانسان باموال بطريقة معقولة .

الثاني : اذا تيسرت له حاجة يومه لا يهتم بما يطلبه الغد ، وليعتبر في مثل الانجيل في الغني الغبي اذ قال لنفسه : يانفس ! لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين عديدة ، فاسعدي وكلي واشربي وتنعمي . قال له الله : يا جاهل ، هذه الليلة تنزع نفسك منك وهذا الذي اعددته لمن يكون ؟ .

الثالث : ليفكر الى أية دركة حقيرة يهبط الجشع على جمع الاموال ، وأية عظمة ينال القانع القنوع .

الرابع : ليقابل بين سعادة الاغنياء الوهمية في هذا العالم وبما ناله الانبياء والرسل والزهاد الذين زهدوا في الحياة الدنيا ، من نعيم دائم ، وهكذا تهبط قيمة المال في عينه .

الخامس : ان يعلم اي عذاب اليم وتعاسة يقاسي الممعنون في جمع المال .

السادس : ان ينظر دائماً الى الذين هم اقل درجة منه وليس بمن يفوقه .

الفصل السادس

★ السخاء والبخل والاسراف ★

يقول البعض : ان السخاء هو ان يعطي الانسان كرماً بدون تحميل الجميل ، ويقول آخرون : ان السخاء هو ان يفرح الانسان بمن يطلب اليه ويتضاعف فرحه اذا اعطاه . وطبقاً للتفكير السليم ، ان العطاء موضوع بين حدين الاكثار والاقلال ، اما الاكثار فيدعى اسرافاً ، والاقلال بخلاً ، والاعتدال سخاء ، وهذا يكون بأن يعطي الانسان بقدر ما يجب ان يعطي ، وان كان بحاجة اليه ، وذلك لمن يستحق اولا يستحق . وفقاً لرأي بعضهم ، انه اذا اعطى لمن لا يستحق فذلك يدعى اسرافاً لا سخاء . والحقيقة ان الاسراف هو انفاق المال بطياشة في سبيل اهواء مختلفة سواء على نفسه او على غيره ، وقلنا ان يعطي حتى ما كان بحاجة اليه ، لان من يعطي ما فاض عن حاجته فانه يحرص على ما كان لا يزيد عن حاجته ، والحريص ليس سخياً . يقال ان الاب اغاثون رأى الاب نستير لابساً ثوبين فقال له : اذا طلب اليك مسكين ثوباً فأيّاً منها تعطي ؟ قال : احسنهما ، قال وان جاءك آخر وطلب اليك ؟ قال اعطيه نصف الباقي . قال : وان جاءك ثالث ؟ قال اعطيه البقية واجلس عرياناً حتى يقيّض الله لي ما اكتسي به .

الفصل السابع

سبب البخل ومعالجته

ان سبب البخل هو محبـة المال اما لذاته كمال ، او من اجل هدف آخر لا ينال بغيره . وهذا الهدف اما ان يطلبه الانسان من اجل ذاته او من اجل ذريته . والداء الاول لا يعالج ، لان الفضة بذاتها لا تؤكل ولا تشرب ولا تلبس ، ولا تصلح بذاتها لاية حاجة اخرى ، انما هي واسطة فقط ، فمن يحبها كفضة فقط . فانه ولد اعمى من بطن امه وبالكاد الخالق نفسه يمكنه ان يخلق له عينين . واما الثاني ، فانه يعالج بنفس الادوية التي يعالج بها الجشع

سواء اذا طلب لذاته الحاجة التي تجلبها الفضة او لذريته ، فان هذا يعالج بالايمان ، لان الذي يخلق الولد او الذرية يمد له قوته . ويعالج الجشع ايضاً في ما يهجى به فيشمئز منه ضميره ويذكر الامجاد التي يسجلها الاسخياء .

الباب التاسع

محبة المجد الباطل

وفيه اربعـــة فصـــول

الفصل الاول

★ كلام الآباء في الحذر من المجد الباطل ★

جاء احد الاخوة الى الاب اوغريس المصري وقال له : قل لي كلمة لاحيا بها ؛ قال له الشيخ : اذهب الى المقبرة واشتم الموتى . فذهب وشتمهم ، وجاء واخبر الشيخ ، فسأله الشيخ ، هل قالوا لك شيئاً ؟ قال : لا ، قال له الشيخ : اذهب غداً وامتدحهم وقل لهم : ايها الرسل القديسون ؛ ايها الابرار . فذهب وامتدحهم وعاد واخبر الشيخ . قال الشيخ : هل سمعت منهم جواباً ؟ قال : لا . قال له الشيخ : كن هكذا انت ايضاً اذا اردت ان تحيـــا ، لا تبالِ ؛ اذا ذمك الناس او مدحوك .

قال احد الاخوة للاب مطاويس : ساذهب الى المكان الفلاني لاسكن فماذا تريدني ان اقول عنك ؟ قال له الشيخ : لا تنشر لي صيتاً للمديح كأني لا آكل ولا اشرب ، فهذه الامور تنشر صيتاً كاذباً ، وانت اعمل كل ما ترى رجال الله الاتقياء يفعلون ، فتسعد ، والناس اذا رأوك قد اصبحت مساوياً للجميع فيعتبرونك اعتبارهم للجميع ، وهكذا لا تشقى .

سأل احد الاخوة شيخاً ، ماذا افعل فان رغبة المجـــد تقتلني ؟ قال له الشيخ ، حسناً تفعل ، فانت خلقت السماء والارض . فندم ذلك الاخ وتاب

ذهبت امرأة مبتلاة بداء السرطان تفتش عن الاب لونحينا ، فوجدته يلتقط عيداناً من ساحل البحر وهي لا تعرفه . قالت : ايها الاب ، اين يسكن عبد الله لونحينا ؟ قال : ماذا تريدين من ذلك الصلف الدجال ؟ ان لونحينا لا يمكنه مساعدتك وباركها وأردف : اذهبي الرب يشفيك .

قال شيخ آخر : ان من يُحترم اكثر مما يستحق يخسر كثيراً ، ومن لا يحترمه الناس فان الكرامة تهبط اليه من العلى .

قال الاب اوغريس : ان المستغرق في المجد الباطل يسؤه ان يمتدح غيره اكثر منه ، وقال ياونّي : ان الناسك المستغرق في المجد الباطل يهتم بارضاء الناس اكثر من اهتمامه في ارضاء ربه ، فلا فائدة منه ترجى حتى اذا اذاب جسده نسكا . وقال ايضاً : المجد الباطل يخلق من الرهبان الكسالى ابطالاً ، طالما العلمانيون في الدير ، ويحيل ذوي الصوت الاجش بلابل والنوّامين يقظين ، فيطلب الراهب الطامع في المجد الباطل الى رئيس الشمامسة ان يعطيه قيادة المرتلين ، وان يدعوه اباً ومعلماً حتى يبرح العلمانيـــون .

الفصل الثاني

☆ تحديد الطمع في المجد الباطل وسببه ومعالجته ☆

الطمع في المجد هو الباطل الرغبة في حيازة الكرامة ثمناً للفضيلة ، وسببه الرغبة في حيازة مطاليب اخرى زمنية بواسطته ، التي وان امكن حيازتها عن طريق المال إلا ان الكرامة تنيلها باسهل ما ينيلها المال ، ولذلك ثلاثة اسباب :

الاول : ينال المال بالكرامة اكثر مما تنال الكرامة بالمال .

الثاني : تجريد الانسان من المال اهون من تجريده من الكرامة .

الثالث : المال ينال باتعاب ومشقات كثيرة ، وليست كذلك الكرامة ، لان بواسطة المال والكرامة تنال بقية المتطلبات . وكما ان حيازة المال الكافي لضروريات الحياة ليس رديئاً ، كذلك حيازة الكرامة الحقيقية توصلا الى بعض الامور البريئة ليس عاراً ، وان كان التطرف فيه امراً قتالاً . ويعالج التطرف في حيازة الكرامة

والمجد الكاذب بان يمارس الانسان ما يجعله طبيعيا وبسيطا امام الناس ، او اقل مما هو عليه من الكرامة ، كما فعل الاب ثيودورا الفرمي اذ جاء لزيارته احد الولاة فوجده لابساً ثوباً خلقاً ، عرياناً صدره وقبعته مائلة الى الامام . ولما ذهب قال له احد الاخوة : ماذا فعلت ايها الاب ؟ فقد أمّك هذا النبيل ليفيد منك ، ولعله عاد يائساً ، قال الشيخ : رح لشانك ايها الاب ، ان من يريد ان يفيد او ان ييأس فالامر له ، اما انا فاقابل مثل هؤلاء بهذه الطريقة ، . فمن لا يمكنه ، ان يفعل ذلك فليبتعد عن سكنى البشر ، وليعش نكرة لكي يحيا .

الفصل الثالث

— درجات الممدوحين —

الممدوحون ست درجات ، درجتان تخصان المرائين واربع تخص الفضلاء .

الدرجة الاولى من درجتي المرائين : يتوق الانسان الى المديح بدرجة بذل خسارة فادحة في هذا السبيل اذا كان غنياً ، او باعمال نسك قاسية كاذبة اذا كان ناسكا . والدرجة الثانية : ألا يحاول الانسان اكتساب المديح ، ولكنه يفرح اذا امتدح . ومثل هذا ما لم يستأصل الهوى من قلبه قسراً ، يسهل هبوطه الى الدركة الاولى .

والدرجة الاولى من درجات الفضلاء هي : اذا سمع المديح لا يفرحنّ به ولا يحزن . والثانية ، ان يحزن الانسان بمديح يكال له وان كان في محله ، ولكنه يسكت ولا يجيب ، كالاب آلونيس حيث امتدحه الشيوخ من اجل خدمته فلم يجب وقال : لو اجبت لاصبحت كمن يبهجه المديح . والثالثة : ان يهرب من حيث يمتدح كالناسك المصري الذي كان يسكن القسطنطينية فزاره الملك تيودوسيوس متنكرا ، ولما لم يجد شيئاً في صومعته غير زنبيل صغير فيه خبز ، امتدحه كثيراً ، فعجل ذلك الناسك بالهرب الى مصر . والدرجة الرابعة : هي درجة الكاملين الذين اذا امتدحوا غضبوا على ممتدحيهم فينتهرونهم ويكذبونهم ، ومهما كان يجب على من يمتدح ان يفكر بنفسه قائلاً : لو عرفني هذا معرفتي لنفسي لما امتدحني .

الفصل الرابع

درجات المشتومين

المشتومون اربع درجات ، اثنتان تخصان التافهين واثنتان تخصان الفضلاء . واولى درجتي التافهين ، ان يحزن عند الشتومة ويحقد على شاتمه ، والثانيـــة ان يحزن فقط دون ان يحقد على الشاتم .

واولى درجات الفضلاء ان يعتبر الشتم ربحاً او شرفاً ، والهجاء مديحاً ، والثانية ، ان يحب شاتمه ويشكره لانه اظهر له عيوبه ، وعرفه بمثالبه ، وكان سبباً في معالجة نقائصه .

الباب العاشر

التظاهر او المراءاة

وفيه ثمانية فصـــول

الفصل الاول

كلام الآباء تحذيراً من المراءاة

كان الاب سوسايس جالساً مرة وبقربه احد الاخوة وهو لا يعلم بوجوده لانه كان مختطفاً في تأملاته باعمال الله ، فتنهد ، ولما شعر بوجود ذلك الاخ اعتذر له قائلاً : سامحني ايها الاخ فاني لم اصر بعد راهباً لاني تنهدت بحضورك .

قال الاب دانيال : زرت مرة الاب فومان بصحبة بعض الاخوة ، ولما تناولنا الطعام معاً ، ذهب الاخوة ليرتاحوا قليلاً ، ومكثت لاختلي بحديث مع الاب ، فدخلت صومعته ووجدت الاب فومان جالساً على الارض بعيداً عـــن حصيرته ، ولما رآني اقتعد حصيرته وتناوم وظن اني لم أره . وهذه كانت عادة

الاب الشيخ ان يعمل كل شيء في الخفاء .

والاب زينون جاءه راهب من مصر الى سوريا زائراً ، وأخذ المصري يظهر مساوئه امام الشيخ ، ولما سمع الاب زينون تعجب وقال : ان المصريين يخفون دائماً فضائلهم ويظهرون مساوىء ليست فيهم أما السريان واليونان فيدعون فضائل ليست فيهم ، ويخفون المساوىء التي فيهم .

جاء الاب اولوغيس من القسطنطينية الى مصر لزيارة الاب يوسف املاً ان يجد فضيلة تفوق فضائله ، وفي الايام الثلاثة التي مكثها هناك لم ير الاب (يوسف) أو تلميذه يصليان أو يركعان ، لانهما كانا يفعلان ذلك خفية ، ولما خرج ليذهب ضل طريقه صدفة وعاد فوقف امام صومعة الشيخ ، وقبل ان يقرع الباب سمعهما يرتلان واصاخ طويلاً ، واخيراً قرع الباب ، وحالاً توقف الاب يوسف وتلميذه عن الترتيل ، وهكذا علمه الاب يوسف هذه الحكمة ان يخفي فضائله عن الناس .

الفصل الثاني

﴿ تحديد التظاهر ﴾

التظاهر ، تضليل باخفاء البواطن السيئة واظهار الفضائل المتصنعة ، ويحد ايضاً بكونه عدم التناغم بين البواطن السيئة والظواهر الصالحة . والاب فومان قال ان المراءاة ذاتها ، فيعلم الانسان قريبه فضيلة ليست فيه على حد قول الرب : يا مراءِ كيف تستطيع ان تقول لاخيك دعني اخرج القذى من عينك وانت لا تخرج السارية التي في عينك ؟

وقال يا وّني : ان التظاهر خلة كريهة مغلفة بالكذب والرياء ، وهي بعيدة عن التقوى ويؤيد القول الالهي ان التظاهر مراءاة حيث ندّد الرب بالكتبة والفريسيين وقال ، ان كل اعمالهم يعملونها لكي يراهم الناس .

الفصل الثالث

﴿ اقسام التظاهر ﴾

التظاهر خمسة اقسام :

الاول : التظاهر الجسدي ، شأن الذين يظهرون باجسام نحيلة وملامح كئيبة ووجوه قاتمة واصابع يابسة ، كأن كل ذلك حدث من طول الصوم والصلاة والتهجد والركوع ، وقد فضح الرب امثالهم بقوله : انهم يغيرون وجوههم ليظهروا للناس صياماً ، واما انت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك .

الثاني : التظاهر باللباس ، وهذا يكون إما بنوع اللباس كالمضللين الذين يظهرون بالاردية الخلقة الخشنة فيرفعون قبعاتهم ويتمنطقون بالحبال . واما بتغيير نوع اللباس ، شأن الذين ندّد بهم الرب بقوله : يعظمون اردانهم ويطيلون اهداب ثيابهم . وقد رأيت ناسكا في ملطية متوشحاً بالسلاسل ومنتعلا خفاً من حديد وفي يده عكاز من حديد ولما منعته من التجول هجر المسيحية .

الثالث : التظاهر الصوتي ، شأن الذين يرخمون اصواتهم تصنعاً ، ويخفضون حديثهم ، وينصحون الآخرين وهم لا ينتصحون على حد قول الرب : يربطون احمالاً ثقيلة قاسية الحمل ، ويضعونها على اكتاف الناس وهم لا يريدون ان يحركوها باحدى اصابعهم .

الرابع : التظاهر بالاعمال ، شأن الذين يظهرون الوداعة ويعنون في الصمت ويلجمون شفاههم ، وفي قلوبهم يصوغون الخبائث وقد دعاهم الرب : (من الخارج حملاناً ومن الداخل ذئاباً خاطفة)

الخامس : التظاهر بالمريدين ، شأن الذين يكثرون من الاتباع والمرافقين والمدّاحين ، اجتذاباً للناس ليتبعوهم ويتبركوا بهم ويدعوهم سيدي سيدي .

الفصل الرابع

﴿ درجات المتظاهرين ﴾

المتظاهرون اربع درجات :

الاولى : درجة الذي لا يهتم بالثواب الروحي عن طريق الفضيلة إلا اذا رآه الناس.

الثانية : درجة الذي يهتم بالثواب عن طريق الجهاد ولكن بجهاد ضعيف حتى اذا انفرد لا يصلي ولا يسهر .

الثالثة : درجة الذي يتساوى لديه الأمران ، الثواب والعمل ، اي انه يعمل لجعلها متساويين ، ولا يهتم بتفضيل اي منهما على الآخر .

الرابعة : درجة الذى تشجعه انظار الناس الى العمل دون ان يكون هدفه بالتظاهر ، اي يجهد نفسه في العمل اذا رآه الناس وان لم يروه لا يهمله ، ومثل هذا هو قريب من الخلاص بعض القرب .

الفصل الخامس

★ اسباب التظاهر ★

للتظاهر ثلاثة اسباب في سبيلها يتقمص الرجل المضلل : ؟

اولاً : ان يتوصل الى اشباع رغائبه المنحطة كالمضللين الذين يتجولون بزي المبشرين وهم يأكلون بيوت الارامل ، ولذلك ينالون عقاباً اعظم .

ثانياً : ان يمكّن نفسه من حيازة مال اوفر .

ثالثاً : ان ينظر اليه زملاؤه بعين الاحترام لا الاحتقار شأن الذي يصوم اذا رأى زملاءه يصومون ، ويصلي معهم اذا رآهم يصلون ، ومن كان على هذه الشاكلة هو قريب من الخلاص اذا زامل النساك طويلاً .

الفصل السادس

★ فرح الناسك باشتهار فضائله ★

ان الفرح الذي يحدث للناسك باشتهار فضائله اما طالح وإما صالح ، ويكون طالحاً اذا استهدف الاهداف الثلاثة التي ذكرناها في الفصل السابق . وللصالح اربعة اسباب :

الاول : من حقه ان يفرح لان الله ــ الراغب في حياة البشر ــ كشف فضائله للخاملين لكي يقتدوا به ويحيوا .

الثاني : ان يعتبر ذلك عنواناً للكرامة التي سينالها في قيامة الصديقين ، وهذا ما يبهجـــه .

الثالث : ان يفرح بالخلاص الذي سيناله عارفوه المقتدون به .

الرابع : اذا رأى الذين يكرمون الاتقياء يفرح بعمق ايمانهم بالله .

وهذه الاسباب ، وان كانت صالحة ولكن وراءها يختفي الشر ، وعليه يجب على الناسك اخفاء فضائله جهد امكانه ، لئلا يجهز عليه الابالسة .

الفصل السابع

علاج التظاهر

يعالج هذا الداء بثلاثة امور :

الاول : ان يحتقر المصاب به المديح الذي يأتيه من الناس ، روي عن الأب ارسانيوس والأب ثيودورا ، انهما كانا يكرهان مديح الناس كرهاً شديداً . فان الاب ارسانيوس لم يكن يرضى مقابلة الناس ، والاب ثيودورا وان كان يرضى بذلك إلا ان مقابلته لهم كانت كالسيف البتّار .

الثاني : ان يفرح اذا ابغضوه وناصبوه العداء وعيروه لكي ينال الطوبى الانجيلي (طوبى لكم اذا عيروكم الخ)

الثالث : ان يقطع امله من فوائد الناس فيلقي همه على الرب وهو يعوله ويكسوه . فاذا مارس الناسك المجاهد هذه الامور فانه يشفى سريعاً ، وليحذر من التزلفى للبشر .

الفصل الثامن

★ اسباب اظهار الفضائل الخاصة ★

اننا لا نجد سبباً واحداً من اجله يظهر الرجل الفاضل فضائله او يتحدث باعماله الصالحة ، سوى الرغبة في تنبيه الغافلين ان يقتدوا به ، وعليه يجب ان يتقيـــد بشرطين اثنين من يرغب في اعلان فضائله الخاصة او التحدث عنها .

الاول : الا يظهر ذلك اعتباطاً وبطريقة مبتذلة بل حيث يتأكد ان كلامه سيؤثر تأثيراً صالحاً في سامعيه ، وسيفيدون منه ، كما قال الاب مقاريس للعارف الاب اوغريس : في مدة عشرين سنة لم اشبع خبزاً ولا ماءً ولا نوماً ، فكنت آكل بمثقال وأشرب بمكيال ، وكنت احياناً استند الى جدار فاسترق قليلاً من النوم .

الثاني : وان حقيقة طيب الارض التي يلقي فيها بذاره فليلقه ، ولكن يجب ان يفحص نفسه اولاً ويختبر خفايا قلبه ، فان شام ميلاً خادعاً يثور فيه ليحجم عن اظهار فضائله ، لانه كما قال الاب اوغريس : هناك نفر تخلّف وقطع صلته باعماله الاولى ، ولكي يخفي العجز الذي طرأ عليه من جرّاء اهماله يلجأ الى التبجح باعماله الاولى امام الناس .

الباب الحادي عشر

= الكبرياء =

وفيه سبعة فصول

الفصل الاول

★ كلام الآباء تنديداً بالكبرياء ★

قال احد الشيوخ : اذا ارتفعت الكبرياء الى السماء فانها ستهبط الى الهاوية ، وقال شيخ آخر : اذا خطر لك خاطر الكبرياء فافحص ضميرك هل حفظت جميع الوصايا ؟ هل احببت اعداءك ؟ هل فرحت بامجاد عدوّك ؟ وهل حزنت بحزنه ؟ هل اعتبرت نفسك عبداً بطّالاً ؟ وانك اخطأ جميع الناس ؟ اذا اكملت ذلك فلا تتعجرف ، لانك تعلم ان هذا الخاطر (خاطر العجرفة) سيلاشي جميع الفضائل ويطفؤها .

وقال الاب ابيفانيوس : كلما هاجمك خاطر الكبرياء وملأ قلبك صلفاً قل : ايها الشيخ انظر الى عارك . وقال الاب اوغريس : ما اعنف شيطان الكبرياء وما اقساه

فكلما هاجم احد الاخوة المجاهدين فانه يغرق صلفاً ، ويدفع به الى هوة التجديف ويجعله يعتقد انه انما يجاهد بمجرد قوته وليس بقوة الله ، ونحدث ذلك عندما لا يرى ضميره مستيقظاً .

وقال يوحنا ابو الدوالي : ان شيطان الكبرياء يتمدحك من اعماق افكارك ويثير فيك العجرفة ، بكونك انقطعت عن الخلوة وصمدت ، وروضت ذاتك في الجهاد ، ونلت الظفر الاكيد ، والمعرفة النامية ، فلا تغترنّ بذلك ولا تقلقنّ كالاغبياء بل اذكر نقائصك ، وذلّل نفسك واكبح جماحها ، فيهدأ روعك ويطهر قلبك . وقال ياونّي : ان الكبرياء ليس فقط تمنع الارتفاع والتسامي ، ولكنها تحط من العلياء .

الفصل الثاني

= كلام الآباء في امتداح فضيـــلة التواضع =

قال الاب انطونيوس : رأيت جميع فخاخ العدو منصوبة على الارض ، فتنهدت وقلت : من ينقذني منها ؟ قيل لي ان التواضع ينقذك ، فالفخاخ لن تبلغ شأوه . وقال شيخ آخر : ان عظمة الانسان في تواضعه ، فكما يتنازل الانسان الى التواضع هكذا يتعالى الى العظمة . وصام احد الشيوخ سبعين اسبوعاً ، وكان يأكل مرة كل اسبوع ، وطلب الى الله تفسير جملة كتابية ولم يفتح عليه ، فتراءى له ملاك الرب وقال له : ان في صومك لم تتقرب الى الله ، ولكن لما تواضعت فزرت اخاك ، أُرسلتُ لكي انقل لك ذلك واريحك .

وقال احد الشيوخ : لا تكن متواضعاً في اقوالك فحسب ، بل في اعمالك ايضاً .

قال يوحنا القلوبي : ان الباب الذي يؤدي الى الملكوت هو التواضع ، وقد دخل الآباء مدينة الله بتجشمهم الهوان الكثير .

وقال الاب هوفركيوس : تشبّه بالعشار لئلا تشجب مع الفريسي ، واختر تواضع موسى لكي تحيل قلبك الصخري الى ينبوع ماء . وقال الاب فومان : كما أن الارض لا تسقط لانها هادئة كذلك من يتواضع لن يسقط . وقال الاب اوغريس : ان الابالسة لا تخشى أية فضيلة اخرى خشيتها التواضع ، فان موسى اول الانبياء بهـا

تمجد ، فقد دعي متواضعاً ، وصرّح داود بقوله : اذكر يارب داود وكل تواضعه .

وقال مار اسحق : ان التواضع بدون فضائل اخرى يغفر كثيراً من الخطايا اما الفضائل بدون تواضع ليست بدون فائدة فحسب ، بل تعدنا لكثير من الشرور وقال ياونّي : اذا كان بدون أية اهواء اخرى سقط الساقط من السماء بسبب الكبرياء فيجب ان نعتقد انه بواسطة التواضع يمكن التسامي الى السماء بدون أية فضيلة اخرى .

الفصل الثالث

﴿ تحديد الكبرياء ﴾

الكبرياء خلة نفسية تدخل في ورع الانسان انه اعلى من الآخرين ، وتختلف الكبرياء من الخيلاء ، بان الخيلاء تتولد من مباهاة الانسان بفضائله دون النظر الى الآخرين ، والكبرياء هي مقابلة الانسان بينه وبين غيره ، واعتبار ذاته ارفع من ذلك (الغير) وهذا اما ان يكون الله تعالى بالذات ، او الانبياء والرسل الذين هم بين الله والبشر منزلة . او البشر بالذات . وقد تجبر فرعون على الله وقل : ان النهر لي وانا خلقته ، وحاكم صور قال : اني انا الله وقد جلست مجلس الله في قلب البحار . ونبوخذنصر تبجّح قائلاً : سأصعد فوق كواكب السماء واضع عرشي فوق الغيوم وأكون مثيلا للعلي ، . وقد استعلى على الانبياء والرسل جميع مضطهديهم من جميع الامم . ويستعلي مضللو العقول على اقرانهم ويعتبرون فضيلتهم نقصاً في الآخرين .

الفصل الرابع

★ اسباب الكبرياء ★

للكبرياء اربعة اسباب :

الاول : الخيلاء او المباهاة ، وعنها تصدر الكبرياء من القلب اولاً ثم تظهر الى الخارج .

الثاني : الحقد ، والحقد لا يدع الحاقد ان يساوي نفسه بالغير : او يتواضع للذي حقد عليه ، وان عرف انه ارفع شأناً منه . الثالث : الحسد ، وهو يحمل

الانسان على انكار فضيلة الفضلاء ، ولا يدعه ان يفيد منها . الرابع : التظاهر ، كما نجد الكثيرين يفتحون الكتاب ويقرأون على معلم ، فاذا غاب ، وسمعوا وطأة اقدام القادمين يلقون الكتاب جانباً ، ويتطاولون في الكلام على من علمهم ويتظاهرون بمناقشته .

الفصل الخامس

ميزات الكبرياء

للكبرياء ثماني ميزات في المتكبر :

الاولى : ان يحب السلام في الاسواق وان يقف الناس له احتراماً عند مروره الثانية : لا يمشي إلا وفي معيته مرافق . الثالثة : لا يزور احداً وان عرف انه سيفيد منه . الرابعة : ان يحب رأس المتكأ في الولائم وأول المجالس في المجامع . الخامسة: ان يشمئز من ذوي العاهات والامراض كما كان يفعل الغني مع لعازر . السادسة : الا يقوم بأي عمل في بيته . السابعة : الا يتحمل اي شيء بل يحمل الآخرين . الثامنة : ان يحب التجمل .

قيل ان احد الاخوة دخل كنيسة الصوامع ، وكان لابساً جبة صغيرة تتدلى الى منكبيه ، ولما رآه الاب اسحق طرده قائلا : هنا يسكن النساك ، اما انت فدنيوي ولا يمكنك السكنى هنا .

الفصل السادس

علاج الكبرياء

يعالج داء الكبرياء بمعرفة الانسان نفسه ، وكيف تكون هذه المعرفة يعلمنا الاب اوغريس بقوله : اذا اردت معرفة ذاتك لاتبحث عما انت فيه ، بل ابحث عما كنت فيه سابقاً ، اي مما خلقت ، والمعروف ان الانسان كان سابقاً في العدم ، ثم خلقه الله من تراب حقير ، ثم احاله الى نطفة سائلة ، ثم خلق فيه عظاماً ولحماً وشرايين ، فتكونت اعضاؤه ثم نفخ فيه نسمة الحياة ، وهكذا احاله من ذرة جامدة الى كائن حي ثم جعله ناطقاً ، ولجهله لُعنت الارض بسببه ، وامر ان يأكل خبزه بالاتعاب والآلام ثم يعود الى الارض التي أُخذ منها ، لانه تراب والى التراب يعود . اسمعوا هذا ياذوي الالباب

واحكموا ، كيف يسوغ ان يتكبر من كان هـــذا شأنه ؛ ولِمَ يتعجرف من كانت تلك بدايته وهذه نهـايته ؟ اذا فكر الانسان بمثل هذه الافكار الشافية ، اعتقد انه يشفى من داء الكبرياء .

الفصل السابع

ميزات من يشفى من داء الكبرياء

انها خمس ميزات :

الاولى : اذا اذعن للحق عند ظهور الحق في النقاش مع أحد اقرانه دون ان يثور . الثانية : اذا جلس في مكان متواضع في الاجتماعات دون تـــبرم . الثالثة : اذا لاطف البؤساء والفقراء مسروراً . الرابعة : ان يشتري بنفسه لوازمه من السوق اذا كان علمانيا فيحمل ما اشتراه دون الشعور بالخجل . الخامسة : ان يلبس ثياباً بسيطة بين الناس دون ان يحزن .

قيل ان الاب ارسانيوس كان يلبس افخر الثياب في حياته العادية ، فاصبح يلبس الثياب البسيطة في حيـاته النسكية ، ويقف وراء احد المواميد اذا حضر للصلاة في الكنيسة .

الباب الثاني عشر

الخيلاء او التفاخر

وفيـــه اربـــعة فصـــول

الفصل الاول

★ كـــلام الاباء في الحـــذر من الخيـــلاء ★

قيل ان في المقبرة المجاورة لصومعة الاب فولا كان يكمن ضبع ورأى الاب فولا كومة حطب هناك ، فقال لتلميذه يوحنا : اذهب أجلبها الى هنا ، قال التلميذ : ابتِ ماذا افعل بذلك الضبع ؟ اجاب الشيخ مبتسما : اذا هاجمك فاربطه وأتِ به الى

هنا . ولما أمست هاجمه الضبع ، فربطه وجاء يقوده ، اما الشيخ فاراد ان يسلب منه خيلاءه فصفعه وقال : ايهـا الجبان ، أجلبت كلباً جباناً؟ فحله واطلقه .

كان احد الاخوة يفتخر على بقية اخوته الرهبان قائلا : اني اسكن هنا منذ وقت طويل ولم ادخل القرية ، فكيف تدخلونهـا انتم دائما ؟ واخبروا عنه الاب فومان انه قال ذلك للاخوة ، قال : لو كنت محله لذهبت الى القرية ليلا وطفت في ازقتها لئلا تفتخر افكاري باني لم ادخلها البتة .

وقال شيخ آخر : كل شيء عملته فنجحت به وافتخرت ، اتلفه ، فلا يجب على الراهب ان يفتخر باعماله ، وإن افتخر سقط .

وقال شيخ آخر : لاتفتخرن في قلبك على اخيك وتقول اني اكثر زهداً منه وافوقه كثيراً في تجشم الصعاب ، ولكن اخشع امام نعمة المسيح بروح متواضعة بعيداً عن المراءاة ، لئلا تفقد جهادك بروح متعجرفة ، فقد كتب : لا يفتخرن الذي ظن انه قام لئلا يسقط .

وقال الاب اوغريس : ان التفاخر يذري الفضيلة . وقال يوحنا ابو الدوالي : لا شفاء لمرض الخيلاء ، فبالقدر الذى يتعالى فيـــه تتعالى عنه معرفة الله فيهبط الى غياهب الظلام .

الفصل الثاني

* تحديد الخيلاء *

الخيلاء هي فرح الانسان بكمال متوهم ، معتقداً انه صادر عنه وليس عن غيره ، ولذلك لا يخشى زواله ، والكبرياء والعجرفة هما كالاخوين التوأمين وبوجود احدهما لابد ان يوجد الاخر ، وبانعدام احدهما لابد ان ينعدم الاخر على حد قول احد الآباء الافاضل : لا يستطيع من غلب الخيلاء ان يحضى بالكبرياء ، ولا من اصيب يالكبرياء ان ينجو من الخيلاء . والحقيقة ان الخيـــلاء بالنسبة الى الكبرياء هي كالحنطـــة بالنسبة الى الخبز ، وكالطفل بالنســـبه الى الرجل .

فمن الخيلاء تتولد الكبرياء ، ومن الكبرياء ينتج التعالي على الخالق والمخلوق ، كما قلنا : ان الخيلاء لا تمحو مساويء الانسان بل تنسيه اياها ، وان ذكرها فانه يعتبرها صغيرة ، ويعتبر اعماله الصغيرة كبيرة وجليلة

الفصل الثالث

ينابيع الخيلاء

الخيلاء كما قلنا تتولد من كل ما يتوهم الانسان حيازته ، وكهل مثل هذا سبعة انواع :

اولاً : العجب بالمعرفة كما يفعل بعض المتعالين الجهلاء ، الذين ينظرون الى الاميين نظرهم الى البهائم ، وهم يريدونهم ان يأكلوا التبن عوض الخبز . ولا يعلم هؤلاء الاغبياء ان لهم ويلاً مضاعفاً لانهم يعلمون ولا يعملون ، والذي لا يعرف يضرب قليلا .

الثاني : العجب بالفضائل : عجب ذلك الفريسي الذي راح يصلي : اللهم اني اشكرك ، فلست مثل بقية الناس الخطفة الفجار الاثمة ولا مثل هذا العشار ، اصوم يومين في الاسبوع وأعشر كل اموالي . قال احد الفضلاء : اذا سمعت انساناً يقول ان جميع البشر قد فسدوا ، فاعلم انه اولهم قد فسدت طرقه ، اما الابرار فلا يقولون هكذا ، بل كما قال يونان ابن متى عندما ثارت الامواج على الذين في السفينة : لقد اضطرب البحر بسببي ، فخذوني والقوني في البحر فيهدأ البحر عليكم .

الثالث : العجب بالعشيرة والاسلاف : كمن اذا غضب من احد يقول : الست فلاناً ابن فلان ؟ الست من العشيرة الفلانية ؟ وانت الست ابن الحقير فلان ؟ ومن جنس حقير ؟

الرابع : العجب بالجمال ، على الاغلب يستولي العجب بالجمال على الصبيان والشبان ، والفتيات الصغيرات ، الذين يمتازون بجمال وبهاء الطلعة .

الخامس : العجب بالغنى ، وهو يوجد في بعض حديثي النعمة الذين يفاخرون امام احد الاقران فيقول احدهم مثلا ؟ : ايها البائس المعدم لو شئت لاشتريت من

هو ارفع منك شأناً فيخدمني .

السادس : العجب بالقوة البدنية والبطولة .

السابع : العجب بكثرة الخدم والحشم والخول والاتباع .

الثامن : العجب بالدين ، اذا يحدث كثيراً ما يتجادل شخصان ينتميان الى ديانتين مختلفتين ، فيفخر كل منهما بان ديانته هي الحق وديانة خصمه كل الباطل .

الفصل الرابع

★ معالجـــة الخيـــلاء ★

تكون معالجة كل مرض بضده ، وقطع اسبابه ، وسبب العجب او الخيلاء انما هو الجهل ، ليس إلا ، فمعالجته اذن تكون في المعرفة الحقة وهي ضد الجهل وتتم في ان يعرف الانسان ان الله وحده هو الذي يؤثر في شيء فيه وبيديه وبقوته نوجد ونحيا ونتحرك ، كما قال القديس بولس وأيّد ذلك القديس باسيليوس بقوله : ان منه وبيديه ومن اجله كل حركة وسكنة ، وحياة كل عقل ونفس وكيان ، وفي هذه المعرفة ذاتهـا يثبت الانسان ويبلغ الكمال المنشود سواء المعرفة أو البر ، او الجنس او الجمال او الغنى او القوة او الخدم والحشم او العقيدة الحقة ، فكل ذلك ليس من الانسان بل من الله ، وعليه لا يفتخرن احد ، وان افتخر فليفتخر بالرب . واذا عُولج المصاب بداء الخيلاء بهذه العلاجات فليتغذ بأغذية الروح التي يقدمها الآباء الشيوخ لمرضاهم ، اي بأن يفكر الانسان باستمرار في مساوئه وتوقع الموت بثياب بسيطة ويختار له المقام المتواضع ، ويبادر الى الاعمال المفيدة بتواضع ولا يؤم الاجتماعات الصاخبة ، وليبق غير معروف لدى الكثيرين ، فيبقى فكره في حرز حريز من النمامين والمغتابين والحساد ولا يهمه امر احد غير خلاص نفسه .

واعلم ان هذه العلاجات مفيدة لمعالجة الكبرياء والمجد الباطل ايضاً .

★ ★ ★

المقالة الرابعة

تجميل النفس بأنواع الفضائل

★ وفيه ستة عشر باباً ★

الباب الاول

العلم

وفيه ثمانية فصول

الفصل الاول

★ آي الكتاب في فضيلة المعرفة ★

(١) الحكمة افضل من اللآلىء ولا يشبهها الديباج النقي ولا تعوض عنها الحجارة الكريمة والزمرد ايوب ٢٨ : ١٢ - ٢١

(٢) فرأيت ان الحكمة تفضل الحماقة كما ان النور يفضل الظلمة الجامعة ٢ : ١٣

(٣) لا تكن احمق لئلا تموت قبل ساعتك الجامعة ٧ : ١٨

(٤) حكيم الشعب ينال كرامة واسمه ثابت في حياة الابد ابن سيراخ٣٩ : ١٢و١٣

(٥) أبكِ على الميت لانه فقد النور وأبكِ على الاحمق لانه فقد العقل ابن سيراخ ٢٢ : ١٠

(٦) انتم تبحثون في الكتب لانكم تحسبون ان لكم فيها الحياة يوحنا ٥ : ٢٩

(٧) كل كاتب متعلم في ملكوت السموات يشبه رجلاً رب البيت يخرج من كنزه جدداً وعتقا مت ١٣ : ٥٢

(٨) الفضيلة سمو في الكرامة لا في المراتب (الثاولوغوس)

(٩) ان الكيان العاقل كله وجد لتعلم معرفة الحق (الاب اوغريس)
(١٠) ان قوة النفس العاقلة هي اكثر كرامة من جميع قواها لانها تشارك حكمة الله . (الاب اوغريس) .

الفصل الثاني

تقسيم العلوم

العلم اما كنسي واما دنيوي ، والكنسي مثلث العناصر ، فاما ان يكون اساساً واما بناء واما مثبتاً للدعائم .

والاساس : العهدان (القديم والجديد) والبناء الذي يشيد على هذين الاساسين ، اما ان يكون خاصاً بالمنتخبين ، او عاماً لجميع المدعويين .

والخاص ، هو تعليم المعادين النساك المبتدئين الذين يعاودون تطهير وعاء القلب وتنقية مرآة النفس .

والعام : تعليم ملافنة الكنيسة الثقات .

والعلم المثبت لدعائم الاساس هو تفاسير الكتب المقدسة وشرحها ونصوصها .

والعلم الدنيوي ، هو ايضاً مثلث العناصر ، فاما ان يكون صالحاً واما فاسداً او بعضه صالح وبعضه فاسد .

العنصر الاول : العلم الصالح : اما ضروري واما كمالي ،

والضروري كالطب ، الذي بدونه لا تكون الحياة الحاضرة سليمة . والمحاسبة ، التي بدونها لا تسير دفة التجارة والبيع والشراء والوصية والارث وما اليها . والمكمل كاللغة والنحو الامور التي تعطي العبارة نصاحة وجمالاً .

والعنصر الثاني : العلم الفاسد ، وهو الذي يؤدي الى خسارة روحية او جسدية ، والعلم الذي يؤدي الى الخسارة الروحية هو كعلم التنجيم الذي يجعل المخلوقات عوض الخالق اسباباً مباشرة للخير والشر في العالم ، وواضح ان علماً مثل هذا يسلب الانسان خشية الله والتقوى . وما يؤدي الى الخسارة الجسدية ، كالفأل والسحر الذين يحدثان المضار الكثيرة بالطرق الشيطانية .

والعنصر الثالث من العلم الدنيوي الذي بعضه صالح وبعضه فاسدهو علم الفلسفة ، وهي اربعة علوم : المنطق والطبيعي والرياضي واللاهوت .

والمنطق هو الجمع بين القضايا والمقابلة او الموازنة بين الفكرة السليمة والخاطئة ، والرياضي ، يتناول الهندسة والحساب والمحاسبة والموسيقى ، وواضح ان تعلم هذه العلوم قد يحرف الفكر ولا يصلحه . والعلم الطبيعي ، الخاص بالحكمة الخارجية واصنافها اربعة .

الاول ـ ازلية . العالم الثاني ـ عدم امكان انشقاق الفضاء وتمزقه . الثالث ـ عدم امكانية وجود ما انعدم . الرابع ـ الخالق المعبود ، وتخضع ارادته لطبيعته وليس طبيعته لارادته ، اي الخير يفيض منه طبيعياً كما يفيض النور من الشمس ، والشمس لا يمكنها إلا ان تنير .

ان هذه الامور معرضة للفساد اذا لم تتدبرها الحكمة بتعقل وهدوء ، والباقية صالحة ومفيدة ، ولكن لما كانت حنطة هذه العلوم ممزوجة بالزؤان قد لا يسلم البسطاء منها اذا استقصوا غوامضها ، كمن لا يعرف السباحة لا يمكنه النزول عميقاً الى النهر هائج .

الفصل الثالث

كيفيـــة تـــدرّج المبتدئـــين في العـــلوم

وانت ايها الاخ المبتديء اذا اردت ان تكون من المفديين مفديي الرب ، تأنَّ بتصاعدك ولا تمد رجلك الى الدرجة العليا وانت لازلت تزحف على الارض ، بل ابدأ اولاً بالمزامير وافهم معانيها وانتقل بعدها الى اسفار العهدين القديم والجديد وتفاسيرها ، وخذ ذلك عن معلمين ثقات ، واكتفِ من اللغة والنحو بما يصون قرأتك من الاخطاء . وبما ان هذه الحياة قصيرة والعلوم واسعة فلا تصرف ايامك كلها في دراستها ، بل امعن في دراسة العلم السامي الذي يدعى المعرفة ، واذا ما تعلمتها فاكبح جماح جسدك برياضة متقشفة ، ثم اهتم باقتلاع جذور الشر من نفسك وغرس جذور الخير فيها لكي تجملها ، وتتلخص في اربعة اهداف ، هي اركان المعرفة ، وتتعلمها من المقالات الاربع الواردة في هذا الكتاب ، فاذا قمت بذلك تحي نفسك وتنشلها من هوة الهلاك وترفعها الى اوج السماء وتنجح في اعمالك ويهبط الوحي عليك بغزارة ،

وترى في مرآة ، خفايا الله ظاهرة منذ انشاء العالم على حد قول الاب اوغريس : ان المعرفة تجتذب النفس العاقلة الى العلى وتسرحها في مرابع الروحانيين وتريها الربع المليء بالبهجات ، فلنجنِ المعرفة اذن فهي توصلنا الى اوج العلاء .

الفصل الرابع

آي الكتاب في فضيلة التعلم

يرشد القديس بولس تلميذه تيموثاوس بقوله : واظب على القراءة الى حين قدومي وعلى الوعظ والتعليم ١ تي ٤ : ١٣ ويقول له ايضاً : وانك منذ الطفولة تعرف الكتب المقدسة القادرة ان تصيّرك حكيماً ٢ تي ٣ : ١٥ - وعلّم المؤمنين ايضاً بقوله :حيث انكم لما كان الواجب عليكم لتمادي الزمان ان تكونوا معلمين ، احتجتم ان يعلمكم احد اركان بداءة اقوال الله عبرانيين ٥ : ١٢ .

وقال الرسول يعقوب : وان كان احدكم تنقصه حكمة فليسأل الله الذي يؤتي الجميع بسخاء خالص بغير امتنان فيعطى يع ١ : ٥ .

وقال مار افرام : لتكن الكتب مائدتك فتشبع من اطايبها ولتكن هي فراشك فتنام هانئاً .

وقال مار اسحق : لا يوجد شيء يبعد افعال الشر من النفس ويخمد ما يثور من النزوات الباطلة في القلب كالاغراق في محبة العلم والغوص وراء تعاليم الكتب .

وقال ايضاً : لا تطلب مشورة من الذي ليس هدفه هدفك في الفضيلة وان كان متعلماً ، فالبسيط الخبير بالامور اصدق من المتعلم الذي يخوض بحوثاً هو عديم الخبرة فيها .

الفصل الخامس

الشروط التي يجب ان يتقيد بها طالب العلم

هناك ثمانية شروط يجب ان يتقيد بها طالب العلم هي :

الاول : ان يطهّر نفسه مسبقاً لان الحكمة لا تسكن نفساً مزقتها الشرور .

الثاني : ان يقطع صلاته من المشاغل الدنيوية والتفكير بالاهل والاقارب ،

لانه على حد قول مار اسحق : كلما تحرر الفكر من المشاغل كلما تنقّى ، وكلما تنقى كلما شغف بحب العلم ، وكلما شغف تسامى عــن الميول الدنيوية المرهقة وتعلم ان يرى الله كما هو لا كما يراه الآخــرون ، وان لم يصب نعمة الوحي فلا يعرف ذلك .

الثالث : الا يتعجرف ولا يتعالى على معلمه او يبحث عن نقائصه : ويطيع الاب اوغريس القائل : اذا ارشدك احد الى الفضائل فلا تكن حاكماً على اعماله بل كن مدركاً لتعاليمه واقواله ، ففي نفوسنا عادة سيئة ان نفكر باعمــال مرشدينا لكي ييأسوا من فوائد ارشادهم .

الرابع : ما زال المتعلم مبتدئاً لا يميلن الى المماحكة والنقاش العقــيم ، بل ليتعلم اولاً بدقة ما يجب ان يتعلمه ، لان محــب النقاش الفارغ والاعتراض السقيم لا يتحرر من اضطراب الفكر وتشوشه ، ولا يتوصل الى هدوء الفكر ونقائه .

الخامس : يجب على الطالب ان يضطلع بجميع العلوم ويعرف اهدافها ، ثم يتضلع بما هو ضروري وواضح وما كانت فوائده دائمة فذلك هو الضروري ، اي العلم الذي يجمّل النفس نظرياً وعملياً .

السادس بما ان الحياة قصيرة لا تكفي لتلقي جميع العلوم ، لذا يجب على المتعلم المبتدىء ان يهتم اولاً بخلاص نفسه ، ثم يختار من كل علم ما هو النافــع له ، ويتعمق في العلم الدقيق ، علم تطهير الضمير الذي غايته رؤية الله .

السابع : ان يعرف الطالب ان علماً يفضل علماً ، اما بقوة حججــه ، او بغزارة فوائده ، مثال ذلك . اذا قيست الحاسبة بالطب وان حجج الحاسبة اكثر قوة الا ان فوائد الطب اعظم ، ولذلك فضل الطب بفوائده وفضّل الحاســبة بحججها ، وبما ان الحجة تورد للفائدة ، وكل فائدة علمية فائقة هي اكثر منفعة ، اي العلم الذي يحيي النفس .

الثامن يجب ان يكون هدف طالب العلم المبتدىء اولاً تجميل نفسه بالفضيلة ، وآخراً التعلق بالله وملائكته ونفوس الكاملين الطاهرة .

★ الفصل السادس ★

كلام الآباء في ان المعلم يجب ان يعلم بالعمل

قال الاب فومان : علّم قلبك ان يحفظ ما يقوله لسانك . وقال ايضاً الاب سيريون : اذا أردت ان تفيد تلميذك اسحق فعلمه بالعمل لا بالقول لان العمل يرسخ فيه فيتعلم .

وقال شيخ آخر : الانسان إذا علم ولم يعمل يشبه جرناً قذراً مايئاً بماء مطهر ، فيطهر الآخرين ولا يمكنه تطهير ذاته .

وقال الاب اوغريس : ان الذين يتعلمون عليك ، يدعونك دائماً (معلمي تقدم الى الاعلى) فالاجدر بك اذا ارتفعت بعلمك ان تتواضع لسامعيك . وقال ايضاً : ان علمك تعززه اعمالك ، فالاعمال افضل من الكلام .

الفصل السابع

★ الشروط التي يجب ان يتقيد بها المعلم ★

للانسان في علمه كالانسان في غناه اربع مراحل ، يتاجر اولاً ثم يدخر ، ثم يكفي حاجاته ثم حاجات قريبه ، ويعظم قدره في المرحلة الأخيرة ويدعى كريماً ، وهكذا في العلم فان المرحلة الأخيرة هي الافضل والاسمى ، ولذلك يشبه الانسان الشمس الساطعة تضيء للاخرين ، وكما ان لطالب العلم ثمانية شروط ، كذلك للمعلم ايضاً ، هي :

الاول : ان يكون مشفقاً ، ويعتبر تلاميذه كاولاده ، لان الاب الروحي هو سبب الحياة الباقية والاب الطبيعي علة الحياة الفانية ، فالمعلم اذاً ، اعظم فضلاً .

الثاني : ألا يطلب اجرة ولا يلتمس مكافأة دنيوية على حد قول الاب اوغريس : انظر الى نفسك واحذر ان تعمل في سبيل فائدة مادية أكثر من عملك في سبيل التعليم نفسه ، فتفصل من الرهط الالهي كما فصل الذي كان يبيع الحمام في الهيكل .

الثالث : ان يسعف تلاميذه دائماً بارشادات بنّاءة ويثبت في قلوبهم كون العلوم

انما تطلب لتنمية فضائل النفس وليس لكي يدعى أستاذاً ومعلماً ، فالاغراس التي تسقى ماءً اجاجاً تجف عاجلاً ولا يمكنها ان تأتي ما لم تشرب ماء السماء النقي .

الرابع : ان ينصح تلميذه بهدوء وان اساء لا يوبخه بعنف مواجهة وصراحة بل بالاشارة ، اي يلقي تبعة الاساءة الى شخص مجهول ، او يتكلم مع نفسه كيف كان صبياً غريراً ، او يهاجم الاساءة ذاتها ببساطة فيقول : ما احقر الكذب ، وما ابشع الشتم ، اذا كان التلميذ قد كذب او شتم ، فان التوبيخ الغاضب قد يمزق قانون الوقار او يحمل الموبخ على التمرد .

الخامس : اذا علم احد العلوم لا يحتقرن بقية العلوم ، كمن يعلم قراءة الكتب المقدسة ويحتقر الموسيقى الكنسية ، فيقول مثلا : لا يمكن ان يرضي الانسان الله باللحن .

السادس : ان يمرن كل تلميذ بحاجة اليه ويفيده ، على حد قول الاب اوغريس : لا يجب ان نلقي عذب الكلام للغارقين في الاهواء ، بل نعلمهم ان يثوروا على اعدائهم (اهوائهم) فالغارقون في الاهواء الباحثون في الامور التافهة يشبهون المرضى الذين يريدون ان يأكلوا طعام الاصحاء . وقال ايضاً : اطلب الى الشيوخ ان يكظموا غيظهم ، والى الشبان ان يتغلبوا على اهوائهم ، فالشيوخ تحاربهم اهواء النفس ، والشبان تهاجمهم اهواء الجسد .

السابع : اذا اراد ترويض المبتديء بسؤال ما لا يقول له : ان وراء هذا الكلام فكراً أكثر عمقاً ودقة ولا يمكنك الآن التوصل الى ذلك . وان اضطر ان يتنصل عن الجواب في بعض الامور الغامضة فلا يأبهن ان يقول : لا اعلم . لان كلمة (لا اعلم) لا يعتبرها الفلاسفة عدم المعرفة بل نصف المعرفة ، فقد قال الاب اوغريس : يجب احياناً ان نقول (لا نعرف) لاجل السامعين الذين لا قبل لهم ان يفهموا ، وحينئذٍ يمكننا القول : اننا لم نزل بشراً ولا نعلم علم الحقائق الروحية

الثامن : ان يظهر في شخصه براهين تعليمه وان كانت اعماله وبالاً على اقواله كالعصى والظل ، هكذا المعلم والتلميذ ، اذ كيف يستقيم الظل ، والعصا ملتوية ؟

الفصل الثامن

﴿ ميزات المعلم الصالح ﴾

كل من يعرف ويعلم كيف يرضي الانسان الله يدعى بحق معلماً صالحاً ، في فن تطهير الضمير ، وما دام هو ذاته لا يتقي الله باعماله لا يدعى صالحاً ، وللمعلم الصالح ثماني ميزات :

الاولى : الا يطلب بواسطة العلم مجداً دنيوياً ، على حد تعبير الاب اوغريس : اذا رغب احد ان يرشد البسطاء من علم يكتنه ، فليحذر ان يميل الى المجد البشري ، فيكون علمه وبالاً عليه ، فاذا شعر بنفسه ان الكبرياء تهاجمه ليدنُ من (يثرون) ويتأمل نصائحه للنبي موسى .

الثانية : الا يستغرق في النعيم والهوى ، فيفرط في البذخ أكلاً وشرباً وكسوة وبيوتاً واثاثاً ، وليستعمل الضروري منها فقط ، وبقدر الامكان يميل الى الاقلال منها .

الثالثة : الا يفرط في زيارة الحكام والزعماء ، وان أكثر من زيارتهم فليحذر من معاشرتهم لأن معظمهم ظالمون على حد تعبير الاب فومان : لا تتعرف الى حاكم لئلا تتخلق بخلقه ، بالاصغاء الى كلامه .

الرابعة : الا يتسرع في الجواب إذا سئل ، بل إذا كان متأكداً من المعرفة فليجب بهدوء ، والا يقول : لا أعرف ، لانه على حد تعبير الأب اوغريس تكفيه معرفة بعض الامور ، فاذا افلتت منه معرفة موضوع ما ، فلا ييأس من ذلك ، لان الملاك فقط لا تفلت منه احدى المعارف الروحية .

الخامسة : ان يتتبع غوامض تطهير الضمير أكثر من تتبعه ظواهر المعارف الكتابية وتفاسيرها ، لان هذا العلم يُنال بالرياضة الروحية وليس بالقراءة ، ان العارفين علّمتهم الخبرة الطويلة على حد تعبير القديس باسيليوس : ان المعرفة التي ننالها من البشر تتوسع بالتتبع المستمر والدرس المتواصل واما المعرفة التي ننالها من النعمة الالهية فالبر يصونها والتقوى تعزّزها ، والاولى يمكن ان ينالها الذين هم في قبضة الاهواء ، واما الثانية فلا ينالها إلا المتسامون عن الاهواء ، فانهم في لحظات الصلاة يبصرون أشعة نور عقولهم تسطع متألقة فيهم .

السادسة : ان يكون كل هدفه تثبيت الايمان في نفوس الطلاب ، لأن اعمال الناموس وحدها لا تكفي لشفاء النفس شفاءً تاماً ، ما لم يرسخ فيها الايمان الحق .

السابعة : ان يتصور غمرات النار المظلمة في أعماق الارض ، والهبوط الى الهوة السحيقة ، ولذلك ليخشع متهيباً ، وليأسِ متألماً ، ولتبكِ عيناه دماً ، وليكن خداه مصعّرين شحوباً ، متصوراً الدينونة الرهيبة ، الخالية من رحمة الله ، كما فعل الآباء الذين اجتمعوا حول الاب اوغريس وقت انتقاله إذ شرع الشيخ يقول لهم : لنبكِ ياأخوتي قبل ان نذهب الى حيث تحرق اجسادنا دموع مآقينا ، فبكى الجميع وسقطوا على وجوههم وقالوا : يا ابانا صلِ من اجلنا .

الثامنة : ان يميز ما يضر قبل تمييزه ما يفيد ، فيعلم لا ماذا يفعل بل ماذا لا يفعل ، لان المرض ان لم يذلل فلن تأتي العافية .

الباب الثاني

النصح والتوبيخ

وفيه خمسة فصول

الفصل الاول

★ لا حق للنساك ان يوبخوا بل للمدبرين ★

ان صلاح الآخرين هو عمل الرؤساء والمدبرين المرسلين من الله للتبشير ، الانبياء والرسل والاساقفة والكهنة والشمامسة ، وهذا ثابت من كونهم اذا اهملوا التوبيخ بداعي الخوف او الحياء فانهم ينالون عقاباً من الله ، ويكفي لذلك برهاناً عدم توبيخ إشعيا لعوزيا ، فاحتجبت عنه النبوة . اما النساك فيجب ان يهتموا بنفوسهم فقط ، وقد علمّنا الانجيل المقدس بقوله : (إذا أخطأ اليك اخوك فوبخه بينك وبينه ، او

امام شاهد او شاهدين او امام البيعة) ولم يقل كل من يخطيء ، والقديس بولس اوجب النصح والتوبيخ على الرئيس ، اما العاماني فقال له : وأنت من أنت حتى تدين عبداً ليس لك ؟ وبعض النساك إذ سمعوا القديس باسيليوس يقول : من شعر ان رجلاً اخطأ ولم يطلب اليه الامتناع عن ذلك ، ويحمله على التوبة يُمنع من الخدمة اسبوعين .

وان سمعوا معلماً آخر يقول : (الساكت عن الحق يدفن في الارض ذهباً) اقول اذا سمعوا ذلك يضطرون الى نصح المسيىء ولكن بهدوء وتواضع ، مرة واحدة فقط ، وبعضهم لا يلجأون الى ذلك مطلقاً كما نستدل من كلامهم ، وخلاصة القول ان الناصح او الموبخ يغار غيرة للرب الاله ، اذا رأى مخالفة للناموس وليس ذلك من اجل ذاته اذا شتم على حد قول القديس افرام في ايليا النبي : كم كان غيوراً في سبيل الله ، كم كان متواضعاً في سبيل نفسه ، فدفاعاً عما لحق الهه من اهانة أنزل ناراً من السماء ، اما بشأن الاهانة التي لحقته فقد طلب الموت لنفسه .

الفصل الثاني

★ كلام الآبـــاء في الامتنـاع عـــن التوبــيخ ★

قال بعض الشيوخ للأب فومان : اتأمر ، ان نرفس بعض الاخوة الذين ينعسون اثناء الاجتماعات الروحية لكي يستيقظوا ؟ قال اذا رأيت أخي ناعساً اضع رأسه على ركبتي واريحه .

قالوا : وماذا تقول امام الله ؟ قال : اقول له انك انت قلت اخرج اولاً السارية من عينك وحينئذٍ تبصر ان تخرج القذى من اخيك . وقال ايضاً : لا يوجد ناسك يلوم احد في شيء ، ولا يوجد ناسك غضوباً . وقال ايضاً : أمن الضروري ان يبني الانسان بيت غيره وبيته متهدم ؟ .

والاب اغاثون عندما كان يرى أمراً يريد عذله كان يقول لنفسه : يا اغاثون لا تفعل كذا وكذا ، وهكذا كان يرتاح ضميره ويسكت .

وقال احد الشيوخ : ان غيرة الناسك لله يجب ان تكون بتواضع ووداعة ، واما ذو السلطان فيجب ان يفعل ذلك بحرارة وشدة .

ورأى الاب مقاريس رجلاً يرتكب كبيرة ، فلم يوبخه ، وقال : اذا كان الله الذي خلقه يطيل عليه اناته فمن انا حتى اوبخه ؟

وقال يوحنا ابو الدوالي : اذا كان من يخطيء زميلنا ولا بد من نصحه فليرشدنه بدون توبيخ ، فان سمع منا فذلك أمر جميل وإلا ، نهرب منه لئلا يبعدنا عن الله .

وقال مار اسحق : احذر ان تبتلي بداء إصلاح الآخرين وانت لست رئيساً او مدبراً ، بل احد المرؤوسين ، فخير لك ان تتعرض للخطيئة من ان تذكر زلة احد في وجهه ، او تشير بذلك امام احد ، حتى وان سئلت عن شخص ضعفه معرفة اكيدة ، قل : اني لم اشعر بهذا ، فلم تكن لي فسحة بسبب ضعفاتي ان احفظ ضعفات الآخرين .

وقال ايضاً : ان من لا يفهم من كلمة واحدة فلا تكثر عليه الالحاح ، فخير لك ان تكون طويل الاناة من ان تنصب نفسك مصلحاً . واذا كان تلميذك او اجيرك فانصحه مرة واحدة فان لم ينتصح ابعده عنك ، وان كان صديقك فابتعد عنه ، وخاصة اذا كان يلومه كثيرون من الصلحاء ، وكان يعلم بنقيصته ولم يصلحها .

الفصل الثالث

★ عناصر التوبيخ ★

يتألف التوبيخ من اربعة عناصر :

الاول : الموبّخ . الثاني : الموّبخ . الثالث المادة التي عليها يكون التوبيخ . الرابع : نوع التوبيخ .

الاول : الموبخ او المؤنب - يجب ان يكون رئيساً باراً مؤمناً ، والرئيس اما رئيس كهنة او كاهن ، او شماس ، ذلك لان التوبيخ أمر ، والأمر يقع من الاكبر الى الاصغر . وقيل (مؤمناً) لان التوبيخ تأييد الايمان ، وكيف يؤيد الايمان من ليس مؤمناً ؟ وقيل (باراً) لان من كان ذا نقيصة يلام عليها كيف يمكنه لوم الآخرين ؟ فيقال له ايها الطبيب اشفِ نفسك . وهكذا لا يقبل كلامه .

الثاني : الموَبخ ـ او المؤنَّب ـ يجب ان يكون انسانـــاً ذا شعور وان كان طفلاً او مضطرباً ، لان الطفل والمعتوه ايضاً يوبخان .

الثالث : ـ المادة التي عليها يكون التوبيخ ـ المعصية ـ وهي كل عمـــل يظهر في الحاضر مخالفاً للشريعة . وقيل مخالفاً للشريعة ، لان السرياني مثلاً اذا حل صومه مساء الجمعة واليوناني صباح السبت ، يعرف كل منهما انـــه لم يخطىء لانه هكذا تسلم من معلمي كنيسته وآبائها ، ولذلك لا ينبغي ان يوبـــخ احدهما الآخر ، وقيل (معصية ظاهرة) لان الخفية لا يعرفها الا الله فاحص القلوب . وقيل (في الحاضر) لان الذي يحاول ان يخطيء يمكن ان يندم على ذلك قبـل القيام بالفعل ؛ ويحجـم عن اتيانه ، ولذلك لا يجب ان يوبخ او يؤنب بـــل ان يرشـــد فقط .

الرابـع : نوع التوبيـخ ، وهو سبع مراحل :

الاولى : يكون التوبيـخ بعد معرفة المعصية معرفة حقيقية ، فقد قال الاب فـــومان : انه مكتوب ان قلْ ما رأت عيناك ، واما انا فاقول لكم : ان لم تلمسوا بايديكم لا توبخوا ؛ لان احد الاخوة اظهر له الشيطان ان احد اخوانه يرتكب خطيئة ، وظن الامر حقيقياً ، فتقدم وضربه برجله وقال : كفـى كفى الى متى ؟ وحالاً ظهر له ان الذي رفسه لم يكن الا كيساً للحنطة .

الثانية : الا يدقق في الخطيئة الـتي ترتكب خفية ، الا اذا كان مرتكبها يتظاهر بها متبجحاً ، وحينئذ يوبخه ، واما الذين لا يفرحون بالخطيئة بل يخجلون من اتيانها فيجب ان يستر فعلهم جهد الامكان ، كما كان يفعل الاب اوغريس ، فقد كان يخفي ويستر النقائص التي يشاهدها ، كأنه لم يشاهدها ، التي يسمعهـا وكأنه لم يسمعها وكان يقول : اذا سترنا نقائص اخينا ؛ فان الله يستر نقائصنا ، واذا فضحنا نقائص اخينا فان الله يفضح نقائصنا .

الثالثة : ان يسلك طريق التعليم مع البسطاء الذين يزلون ، لان كثيرين يزلون لانهم لا يعرفون ، واذا عرفوا سماجة الخطيئة فعندئذ يحجمون عنها ، ومثل

هؤلاء يجب ان ينصحوا بتقوى وتواضع ومحبة على حد تعبير الرسول : اذا رأيتم احداً يخطيء فاصلحوا انتم الروحانيون مثل هذا بروح التقوى .

الرابعة : يجب ان يسلك طريق الترهيب والتخويف من الدينونة الرهيبة مع الذين يعرفون الخطيئة ويفعلونها ، ويذكرهم بالنار التي لا تطفأ . والدود الذي لا يموت وجهنم الرهيبة التي تنتظر الخطاة لكي تحرقهم بدون رحمة .

الخامسة : ان يسلك طريق التهديد مع الذين لم يفد معهم النصح ، وان لم يرجعوا عن طريق الشر يرذلون عن الايمان ويكونون غرباء عن حقوق المؤمنين .

السادسة : ان يسلك طريق التهديد الصارم والتأنيب الشديد والمنـــع من شركة المؤمنين مع الذين لم يؤثر فيهم التهديد العادي . فالرسول يأمرنا بقوله : ان كان احد لا يطيع قولنا بالرسالة فاعزلوه ولا تخالطوه ، حتى يخجل . واذا ظهر ان الموبخ سيبلغ به الامر الى اليأس يجب ان يكون التوبيخ ممزوجاً بالمحبة كما امر الرسول نفسه اهل كورنثوس بشأن الرجل الذي اخطأ في مدينتهم قال : عاملوه بمحبة اكيدة لئلا يقضي بحزن شديد .

السابعة : ان يلجأ رئيس الكهنة او الكاهن الى الحكام المدنيين ليعاقبوا من لم يرتد عن اثمه حتى بعد ابعاده ورذله فيحدوا من جماح شره بالعقوبات القانونية ، اما هو فلا يمارس العقاب وما اليه ، فقد اوصاه الرسول الا تكون يده مسرعة للضرب ، وقال ايضاً احـــد الفضلاء : وبخ ، عظ ، ارشـــد ، لا تضرب اذا استوجب الضرب ، وخاصة بواسطة الآخرين ، فلا تفعل كما فعل فنحاس الذي لم يستطع كظم غيظه تجاه الخطيئة فقد قتل بيديه فان الامور العتيقة قد زالت .

اعتراض ـ اذا كان ضرب المسيء ممنوعاً فكيف استعمل الرب ذلك في الهيكل ؟

الجواب ـ ان لرب ضرب الثيران والحملان بمقرعة وليس الباعة العقلاء ، وذلك ثابت من قوله لباعة الحمام : ارفعوا هذا من هنا ولا تجعلوا بيت ابي بيت تجارة ، صحيح ان الحمام لا يضرب بالمقارع ولكن بقية الحيوانات تضرب بها ، اما البشر فقد سلك معهم طريقة النصح والتوبيـــخ .

الفصل الرابع

الاعمال التي يجب ان يُمنع فاعلوها من فعلها

تنحصر هذه الاعمال في خمسة انواع يُقدم البشر على فعلها ويجب أن يمنعوا عن ذلك ، وهي :

الاول انواع الخطايا التي ترتكب في الكنيسة – وتشمل انشاد المداريش المجهولة والاناشيد الصعبة ، وتنويع الالحان المنحرفة التي يقوم بها بعض المتبجحين لاطالة الصلوات وتخجيل بعض زملائهم الضعفاء . والاحاديث الدنيوية التي قد تدور اثناء الصلاة والعبادة والقداس ، والمباهاة الفارغة التي يتظاهر بها بعض خدام المذبح بالحلل المذهبة والمقصبة الفاخرة التي قدمها المؤمنون اكراماً لبيت الله ، والتماثيل التي تنحت للقديسين على طريقة الاصنام التي يعبدها الوثنيون ، وتعليم الوعاظ الذين يمزجون المواضيع الكنسية بأقاصيص هزلية ويخلطون العبارات الدينية بالامثال الدنيوية الرخيصة ، فينالون المديح الفارغ من الاميين البسطاء او ينظمون اسواقاً في الكنيسة ايام الاعياد الحافلة فيملأونها بالاطايب ويتقدم اليها الكبار والصغار ، بشراهة ، وليس ذلك فقط بل يضعون موائد للصيرفة في الكنيسة الامر الذي شجبه الرب فيجعلون بيت الله مغارة للصوص .

الثاني : الخطايا التي ترتكب في المتجر – الكذب في اسعار السلع واخفاء عيوب البضاعة والغش في المكاييل والموازين ، فيشترون بمكيال او ميزان كبير ويبيعون بالصغير وبيع آلات الطرب على انواعها وعرض التماثيل الفاحشة باحذيتها المغرية وثيابها المثيرة .

الثالث : الخطايا المرتكبة في الشوارع – اقامة المقامر على السبل ورفع العواميد لربط البهائم ، واطلاق الكلاب الكلبة على قارعات الطرق ، وتحميل الاحمال الثقيلة للبهائم تفوق طاقتها ، والقاء كناسات حوانيت الجزارين على ابواب الجيران او الطرق المسلوكة فيحيلونها الى مزابل .

الرابع : الخطايا المرتكبة في الحمامات العامة – اظهار الاجسام العارية وعرضها للناظرين والقاء الاقذار فيها لايذاء الآخرين .

الخامس : الخطايا المرتكبة في الولائم ـ الادمان على الخمرة والسكر الشديد والعربدة ، وعقد حلقات الرقص الفاحش والشراهة في الطعام وغيره .

الفصل الخامس

نصح الملوك والسلاطين

من انواع التوبيخ المشار اليها آنفاً يحق للرئيس الديني الكبير ان يستعمل نوعين للحكام والسلاطين ، وهما : التعليم والارشاد ، فيخيفهم من الدينونة وعقاب الله الصارم ، ويمكن احياناً اذا احتاج ان يلجأ الى العبارات العنيفة فيقول للحاكم مثلاً : ايها الظالم ، العاتي ، الفتاك ، يا من لا تذكر اليوم الأخير . ولكن ليلاحظ فيما اذا كان لم يؤدِّ ذلك الى زيادة الظلم بقطيعه ، فيحتمل عاقبة ذلك وحده ، دون ابناء رعيته او زملائه في الخدمة كما كان يقول القديس اثناسيوس للاكليروس ـ عندما غضب عليه الملك قسطنطين وارسل شرطاً للقبض عليه ـ كان يقول : يجب ان اقاسي ذلك وحدي دون ان يمس باذى أحدكم ، وهكذا يجب ان يخوض غمار التضحية وحده حتى الدم . كما وبخ ناثان النبي داود الملك في قضية امرأة اوريا ، والنبي ايليا اخاب والملكة ازابيل على قتل نابوت اليزرعيلي واغتصاب كرمه فاسمعها كلمات اكثر عنفاً وقوة من ذلك ، وتوبيخ يوحنا المعمدان للملك هيرودس بشأن هيروديا امرأة أخيه ، حيث قال له : لا يسوغ ان تكون لك امرأة لانها قاتلة ومن اجلك سمّت زوجها .

والقديس يوحنا الذهبي الفم كان يهاجم الملكة اودكسيا بعنف وشدة وكان يقول لها اذا هددته : ان هيروديا تتململ وترقص من جديد طالبة رأس يوحنا على طبق ايضاً .

وامثال ذلك كثيرة كان يقوم بها الابرار الاولون في عصورهم مع ملوكهم ، واما الان فقد لجمت ألسنة الرؤساء بمحبة المال والمجد الباطل ، فانقلب المعلمون الى عيي اللسان ليست لهم قوة يتكلمون بها امام الملوك لكبح جماح مظالمهم والحد من غلوائهم توبيخاً وتأنيباً على حد قول القديس افرام : ان المغتصب رفع رأسه والثلاب تمادى في غيه ، وهذه هي رغبة الذئاب ان ينام الرعاة .

الباب الثالث

= الايمان =

وفيه تسعة فصول

الفصل الاول

★ آي الكتاب في فضيلة الايمان ★

١ - من آمن بي فلا يدان يوحنا ٣ : ١٨

٢ - لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية يوحنا ٣ : ١٥

٣ - ان من يسمع كلامي ويؤمن بمن أرسلني له الحياة الابدية ولا يصير الى دينونة بل قد انتقل من الموت الى الحياة يوحنا ٥ : ٢٤

٤ - اذا لم تؤمنوا اني أنا هو تموتون في خطاياكم يوحنا ٨ : ٢٤

٥ - ومع ذلك لعلمنا بان الانسان لا يبرر باعمال الناموس بل انما بالايمان بيسوع المسيح غل ٢ : ١٦

الفصل الثاني

تحديد الايمان

حدّد القديس بولس الايمان بقوله : اما الايمان فهو الثقة بما يرجى كأنه معلن فعلاً ، واجتلاء امور لا ترى . عبرانيين ١١ : ١ . وهذا التحديد عام ينطبق على الايمان مهما كان ، وهذا يؤيده ايمان كل انسان ، من أية ديانة ، اذ يؤمن بامور لا ترى ويتمسك به كأنه واقع بالفعل . والاب اوغريس لما اراد ان يدلل على كون المسيحية نلناها من المخلص المسيح قال : ان المسيحية هي تعليم المسيح محيينا ، المؤلف من عمل الفضيلة ومعرفة الطبيعة والايمان الحقيقي الواجب نحو الله ، اما انا فاقول : ان الايمان هو التسليم لتعاليم الانجيل ، التسليم الذى يكمل باعتراف اللسان وحفظ الوصايا .

وقيل باعتراف اللسان ، لان رب الحق قال : من اعترف بي امام الناس أعترف به امام ابي الذي في السموات وامام الملائكة . وقيل ايضا بحفظ الوصايا ، على حد تعبير القديس يعقوب : الايمان بدون اعمال ميت . وقال الاب اوغريس : ان لم تحفظ وصايا الرب فلا تعتبر نفسك مؤمناً . وقال ايضاً : ان الاعمال الصالحة وليدة حفظ الوصايا ، فالاعمال الصالحة هي خشية الله وحفظ الوصايا هو الايمان .

الفصل الثالث

★ الايمان ثلاثة انواع ★

بما ان جميع المسيحيين يؤمنون ايمان الآباء الثلاثمئة والثمانية عشر (آباء مجمع نيقية سنة ٣٢٥) فالعارفون الحريصون على خلاص نفوسهم اياه يعتنقون ، وما زاد على ذلك من الخلافات والاهواء المنحرفة يهملون ، ولاهداف الايمان هذه ثلاثة اركان : الاول : الايمان بالله ، الثاني : الايمان بتجسد الكلمة . الثالث : الايمان بالحياة الجديدة .

الركن الاول : ان يؤمن الانسان بان الله موحّد الذات مثلّث الاقانيم ، الآب الضابط الكل خالق السماء والارض ، وما يُرى وما لا يُرى ، والابن الوحيد المولود وغير المخلوق والمساوي للآب بالجوهر الذي به كان كل شيء . والروح القدس الرب المحيي الكل المنبثق من الآب ومع الآب والابن يسجد له ويمجد .

الركن الثاني : ان يؤمن ان الابن ولد من الآب قبل كل الدهور ، من اجلنا نحن البشر ومن اجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء وصار انساناً وصلب من اجلنا في ايام بيلاطس البنطي وتألم ومات ودفن وقام بعد ثلاثة ايام كما اراد ، وصعد الى السماء وجلس من جانب الله الآب الأيمن .

الركن الثالث : ان الابن كلمة الآب سيأتي في نهاية الازمان ممجداً على سحب السماء بعين الجسد المتخذ من طبعنا ، وجميع ملائكته القديسين معه ، ويجلس على عرش مجده ، ويرسل ملائكته مع البوق العظيم ليسمع جميع من في القبور صوته ويقوم الأشرار الى العذاب الابدي والابرار الى النعيم والحياة الخالدة .

★ ★ ★

الفصل الرابع

كيف يثبت هذا الايمان في القلب

يثبت الايمان في القلب بواسطة التربية منذ الطفولة ، لاهجاً في هذه الشرعة التي يعتنقها جميع ابناء المعمودية اليوم ؛ ثم ينتقل الى القراءة بدءاً من المزامير ثم الانجيل المقدس ، ثم اعمال الرسل القديسين فرسائل القديس بولس ، متأملاً في التعاليم الالهية الكامنة فيها ، ثم يدرس بعض كتب الآباء وقصص القديسين ، ويمرّن نفسه على الالفاظ الروحية المرددة في خدمة القدّاس الالهي ، وهكذا يغرس في نفسه شجرة الايمان فتمتلىء منها ساحة قلبه ، وتظلّل اعضاءه ظلالها الوارفة واوراقها المليئة باسرار الله ، فتتسامى الافكار السايمة المنبثقة عنها ، وترسل اغصانها الى بحر العالم ، وافنانها الى جميع الانهار ، وهي الامم والشعوب . قال احد الفضلاء في الايمان : لست أعني بالايمان الاساس العام للبشر ، بل القوة الجبارة التي تنعش القلب وتضيء الضمير بألق من الضياء وفي شهادة الضمير التي تضرم في النفس محبة الله ويكون ذلك اذا ما غرست كرمة الايمان بيد الرب وسقتها الامطار والانداء من السماء . فان لم تحرسها العناية ، يمطرها ابليس بوابل من سهامه فتتأرجح بين الريب والشكوك وتصبح عرضة للصوص والتفكير والتدقيق والبحث والتحقيق ؛ فلا تجد راحة بالبراهين العقلية والشهادات الكتابية .

الفصل الخامس

الدفاع الجدلي عن الايمان

اننا نجد رأيين متضادين في الدفاع عن الايمان ، منهم من منع منعاً باتاً الجدل في امور الايمان ، وهم النساك والآباء والرهبان المتوحدون ، ويقولون : يجب ان نبحث انواع الفضائل وخشية الله وليس في امور علمية مولدة للجدل العقيم ، فقد قيل عن الاب فومان أن زاره ناسك فاضل من مكان بعيد ولما سأله في الروحيات والسماويات التفت الى الوراء وقال : انني من الارض ، واتكلم

في الامور الارضية ، وعندما سأله عن اهواء النفس فرح الشيخ وقال : الآن حسناً فعلت فافتح فمك فاملأه بالاطايب .

والبعض منهم مارسوا ذلك ولكن نادراً ، وهم الملافنة الاثبات واساطين البيعة المقدسة ، وهم يرون ، ان الجدل وان أثار بعض الخصومات الا انه بمثابة طبيب حاذق فانه يستعمل احياناً ادوية قاسية ضارة في سبيل الفائدة الكامنة فيها ، وذلك عند الضرورة ، وهكذا نحن يجب ان نمارس الحوار اذا ما دعت الضرورة على حد تعبير القديس الثاولوغوس : لا تطيب للمؤمنين المماحكات الكلامية واذاها ، ولكن يكفي ان نمارسها ولو مرة واحدة عند الضرورة ، مثل الادوية بالنسبة الى الامراض لكي يعلم الخصوم انهم ليسوا حكماء في كل شيء وليس دائماً يغلبون ، وخاصة فيما يخص تعاليم الانجيل . ويقولون ايضاً : كيف يعاب الجدل وقد مارسه الرب بنفسه ؟ فقد سأله اليهود ، هل يحل له ان يشفي يوم السبت ؟ لكي يشجبوه ، وقد ابكمهم ، تمجد اسمه ، بقول جامع مانع (ان الانسان افضل من الشاة) التي اذا سقطت في الحفرة يجب ان تنشل ، وعليه يجب ان يشفى الانسان المعذب في السبوت ، اذا وضع العذاب بمثابة الحفرة والشفاء بمثابة الانتشال ، وهكذا ايضاً ابكمهم عندما سألوه بأي سلطان تفعل هذا ؟ بسؤال عسير فقال : (معمودية يوحنا من السماء كانت ام من الناس ؟) وبذلك كال لهم صاعاً بصاع ، ثم هاجمهم بسؤاله الشهير ، (ان المسيح هو ابن داود ، فاذا كان انساناً بسيطاً — كما يعتقد كتبتكم — كيف دعاه داود ربه ؟ وكذلك بولس مهندس البيعة حاور كثيراً في اثينا الفلاسفة الابيقوريين والرواقيين واليهود الناطقين باليونانية .

الفصل السادس

★ لا يجب ان نتوقف عند المعنى الحرفي لكل آية كتابية ★

ان حكمة الله تنطق احياناً بالالغاز وتظهر رغبتها بالامثال والحجى ،

ولذلك يجب التأمل لا بحرفية الآية بالمعنى الخفي البعيد الكامن وراءها ، طبقاً لما يأتي :

الشكل الاول : عندما يكون الموصوف بعيد المنال متسامياً عن العقل ، ولا يمكن وصفه بكلمات بشرية عادية ، فاما ان يعلن ببساطة وصراحة وإما لا يعبر عنه مطلقاً ، والنوع الاول : كما عبر عن لوحي الشريعة انهما كتبا بأصبع الله ، وانهم ابصروا إله اسرائيل ، وتحت قدميه موطيء العقيق ، وظهر ايضاً شبه شيخ عتيق الايام لباسه ابيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي . والنوع الثاني : كما عبر عن النعم المحفوظة للصالحين : ما لم تره عين ولم تسمع به اذن ، ولم يخطر على قلب بشر .

الشكل الثاني : اذا كان الموصوف قريب المنال إلا ان الحديث عنه ضار للسامعين ، فاما ألا يوضح مطلقاً ، واما يفسر بطريقة مبّطنة . والنوع الاول : مثل السؤال عن زمن نهاية العالم ، اذ عندما سأل التلاميذ الرب في هذه النقطة فقال : لم يعطَ لكم ان تعرفوا الازمنة والاوقات التي حددها الاب بسلطانه المطلق . والنوع الثاني : كقوله لهم ، ان في نهاية العالم يشك كثيرون ويسلمون بعضهم بعضاً ، وتبرد المحبة في الكثيرين .

الشكل الثالث : اذا كان المعنى قريب المنال وليس ضاراً ، ولكن مدحاً للمعنى او ذماً له ، يحاب بما يفوقه جلالاً او يكون أقل منه قيمة . الاول : طبقاً لقول الكتاب : (الجداول والانهار تبهج مدينة الهنـــا) و (رقصت الجبال كالأيل والآكام مثل صغار الغنم) و (مياه الحياة تجري من اورشليم ، نصفها الى البحر الشرقي ونصفها الى البحر الغربي) المذكورة في نبوة زكريا . والثاني : كما قال حزقيال عن الابنة (ابوها اموري وامها حثّية ، ولم تُقطع صرتها) .

الشكل الرابع : اذا كان المعنى قريب المنال غير ضار ، لا رفيعاً ولا تافهاً، فيؤدى بطريقة رمزية ، اما اظهاراً لعناصره واما اختباراً للسامعين . والاول : كما قيل في الأسد ان له جناحين كالنسر ، والدب في فمه ثلاثة اضلع ، وما الى ذلك ، وقد عبّر دانيال بذلك عن الممالك المختلفة . والثاني : مثل احجية شمشون (من الآكل خرج أكل ، ومن المر شهدٌ) .

الشكل الخامس : اذا كان مجرداً كلياً من العناصر المشار اليها ، ولكن يمكن

ان يلقي بصوره مبطنة لأن السامعين لا يستحقون سماعه ، كما قال الرب (لاجل ذلك اكلمهم بأمثال لانهم ينظرون ولا يبصرون ، ويسمعون ولا يفهمون ولا يعون)

الفصل السابع

★ الآيـــات الـتي يجب ان نسلم بهـا كما هي والآيـــات المفـــسرة ★

يؤخذ من الفصل السابق ان بعض الآيات ان لم تفسر لا يمكن ان تقرر ، وعليه ان الاولين لهم ثلاثة آراء في ذلك :

الاول : ان بعض اليهود وغيرهم لا يفهمون بعض الآيات الكتابية إلا بطريقة مادية حتى انهم يحسبون احياناً ان الله جسم مركب ، وهو خالق الكائنات المركبة وغير المركبة ، لانهم يجدون في كتب الانبياء ان لله عيوناً وآذاناً ويدين وقدمين .

الثاني : ان بعض المفسرين الكنسيين يفسرون نصوص الكتاب المقدس تفسيراً رمزياً وروحياً فقط ، مثل تفاسيرهم في فرعون ومركباته وغرقها ، وعماليق والاردن وارض الميعـاد . والاب اوغريس شجـعهم بقوله : لا تفسر تفسيراً روحياً جميـع الآيات التي ليست امثالاً او حجى ، إلا بمـا يزيد في فائدة الآية ، فاذا تكلمت مثلاً في سفينة يونان تضطر ان تأخذ كل كبيرة وصغيرة في السفينة بمعنى روحي ، فانك في ذلك ليس فقط لا تعود بفائدة لسامعيك بل سيضحكون منك .

الثالث : ومن شأن الملافنة الثقات الذين يفسرون جميع الايات والمواضيع تفسيراً حرفياً ، او جميعها يفسرونها تفسيراً روحياً ، بل يزنون جميع الايات بميزان العقل ويفسرون الاية التي لا معنى حرفي لها تفسيراً روحياً ، كأصبع الله وعينيه واذنيه ورجليه وغيرها ، الامور التي اطلقت على الله كتعبير رمزي وبعض المفسرين يفسرون حتى الفردوس والعذاب تفسيراً روحياً ، كما فسر القديس غريغوريوس اللاهوتي شجرة المعرفة ، واعلن ان الشجرة كانت خيالية فقط ، وفسر غريغوريوس النوسي النار بقوله : اذا سمعت عن النار فافهم معنى غير هذا المعنى ، ان تلك لا تنطفيء ، اما هذه فانها لاسباب كثيرة تنطفيء ، وهكذا قال في الدود الذي لا يموت : ان قول الكتاب : لا يموت ، يوضح انه شيء روحي .

الفصل الثامن

فوائد الايمان

بما ان الفوائد التي تجنى من الايمان الحق كثيرة ومتشعبة ، نذكر فقط اربع منهـا وهي الاساسية والهمة :

الاولى : شكر الله تعالى ، لان الانسان اذا آمن ان الله مسبب كل الكائنات وبدون معرفته لا تسقط شعرة واحدة من الرأس ، يعرف ان البشر انما هم وسطاء في تأدية الخير او الشر الى بعضهم البعض ، فيشكر الله شكراً مستمراً على الخير والشر الذى ربما يصيبه ، فيعتقد ان الخير يمنح له نعمة والشر يصيبه عدلاً وتأديباً وهكذا لا يتذمر في المصائب على حد قول النبي داود : أدباً أدّبني الرب وللموت لم يسلمني .

الثانية : التوكل على الرب : لان الذي يؤمن ان الرب يعرف حاجته ويمنحه اياها ، لا يرتبك فيما يأكل غذاءً او فيما يشرب او فيما يلبس ، بل يتوكل على الله كما تفعل الطيور التي لا تزرع ولا تحصد ، ولا تخزن في الاهراء . وزنابق الحقل التي لا تتعب ولا تغزل والله يوشحها ، هكذا يمنحه كل خير لانه افضل من جميعها كثيراً .

الثالثة : الجهاد في سبيل الخير ـ والحذر من الشر ، لان من يؤمن ان كلاً يجازى بحسب اعماله خيراً كانت ام شراً ، لا يتقاعس عن اكتساب الخير والشر والصلاح والابتعاد عن الشر والطلاح ، مثل من يعرف ان الخبز مسبب للشبع فيحرص على الحصول منه قليلاً او كثيراً ، وان السم مميت ، فيحذر من قليله او كثيره .

الرابعة : مطابقة بواطن الانسان لظواهره ـ لان الانسان اذا آمن ان كل خفاياه ظاهرة لعين الله اليقظى ، يصون ثروته الروحية كما يفعل الحكيم بصيانة ثروته من اللصوص الكامنة في طريق الملكوت ، واذا ما دخل مدينة الملك العظيم فانه يكافئة مكافأةً ظاهرة على فضائله الخفية .

* * *

الفصل التاسع

★ عظم الايمان وضآلته ★

يؤيد العقل والنقل ان الايمان يزيد وينقص ، اما العقل فيعرف الايمان خلة نفسية ، وكل خلة تخضع للزيادة والنقصان ، فالايمان اذاً هذا شأنه . والايمان ايضاً يقاس بحفظ وصايا الله والاعمال الصالحة . والاعمال ايضاً تزيد وتنقص ، فالايمان اذاً يزيد وينقص .

اما النقل (الكتاب) فانه يؤيد ذلك على حد قول الرب : (يامرأة عظيم ايمانك) و (لِمَ شككت يا قليل الايمان ؟) وقوله (إذا كان فيكم ايمان مثل حبة الخردل) الامور التي تؤيد ما نحن بصدده ، وعليه ، فان النعم تعظم وتتضاءل بالنسبة الى عظم ايماننا وضعفه .

الباب الرابع

☆ التوبة ☆

وفيه اثنا عشر فصلاً

الفصل الاول

كلام الآباء في فضيلة التوبة

سأل جندي احد الاباء القديسين : هل يقبل الله توبة الخطاة ؟ قال : وهل اذا تمزقت خوذتك تطرحها حالاً ؟ قال : لا ، بل اخيطها فاعود واستعملها . قال الشيخ : اذا كنت انت تشفق على حاجتك افلا يشفق الله على خليقته ؟

وقال شيخ آخر : ان الناسك الذي يخطيء هو كالبيت الذي يتهدم ، فان اهتم بتجديد بنائه يمكنه ان يأخذ للبناء مادة كثيرة مما تهدم ، اي الاسس والحجارة والبلاط وما الى ذلك ، اي ليستمد الناسك من اعماله النسكية الاولى في الترويض النفسي والخدمة والاعمال اليدوية وليس هكذا اذا باشر البناء من جديد .

سأل احد الاخوة الاب سوسايس : ماذا اعمل ايها الاب فقد سقطت ؟ قال الشيخ : قم ، قال : قمت ثم سقطت . قال : قم ايضاً ، قال : حتى متى ؟ قال الشيخ : حتى النهاية ، اما بالفضائل واما بالسقوط ففي ايهما ينتهي الانسان فيه تتم الجولة .

قال الاب فومان : انني افرح برجل اخطأ وأذنب ثم تاب ، اكثر من الرجل الذي لم يخطىء ولم يتب ، فالاول له ضمير متواضع ؛ اما الثاني ففي ضميره يعتبر ذاته صديقاً .

كان الاب ثيودورا يقول : الانسان التائب غير مقيد بالناموس . وقال الاب ايليا : ماذا تستطيع ان تعمل الخطيئة والتوبة موجودة ؟ وماذا يفيد الحب حيث توجـــد المجرفة .

وقال مار اسحق : ان التوبة الخالية من ندامة قلبية لا تختلف عن توبـة ايزابيل ، ففي اللحظة التي فيها ، يخشع القلب وييتئس ويدمع ، ويقول لله مــــع النبي داود من اعماق ضميره : اني اخطأت ؛ ان الرب يسمع ويمحو الجريرة فلا يموت ، فتفيض النفس سلاماً وابتهاجاً وعزاء .

وقال ياوثني : رأيت بعض التائبين وكأنهم فقدوا رشدهم وشردوا عقولهم ألماً وحسرة وأسفاً . يائسين من الحصول على المغفرة ، ورأيت آخرين جالسين بكل هدوء وتعقل ، مطرقين الى الارض راحوا يهزّون رؤوسهم ويئنون من اعمـاقهم كالسباع الزائرة ، وآخرين يقرعون صدورهم فتسيل منها الدماء وهم يطلبون الى مرشديهم ان يكبّلوا ايديهم ويغللوا اعناقهم ويقيدوا ارجلهم بقيود من حديد ، والا يبتلعهم القبر وليس كالقبور .

الفصل الثاني

= تحديد التوبة =

التوبة عاطفة عاقلة تهدف الى تبديل الشر بالخير ، ولهذه العاطفة ثلاثــــة عناصر تبرزها الى الوجود هي : المعرفة ، والارادة ، والعمل .

فالمعرفة هي ادراك بشاعة الخطيئة التي تفصل الانسان عن الله ، وهذه المعرفة تفجر في الانسان ارادة تعمل لتبديل الشر بالخير ، وطبقاً لعمق هذه المعرفة يكون العنصر الاساسي للتوبة . ادراك الخطيئة ، لان منها تنبثق الارادة العاقلة في التغيير المشار اليه . فتكون التوبة عندئذ كاملة وأصيلة ، اذا انطبقت مع الازمان الثلاثة اي بندامة صادقة على حوباء سلفت ، وحذر شديد من رغبة طرأت ، واستعداد كافٍ لصد جرائر ازمعت ، وقد قال مار اسحق : التوبة هي دعاء حار يرفع الى الله في صلاة مليئة بالندم طلباً لمغفرة ما سلف ، ورجاء سخين حذراً مما قد يأتي من الموبقات ، وكأني بهذا الفاضل قد تناسى الامور الحاضرة .

وقال ياوني : التوبة هي تطهير الضمير والصمود مع الله في الحياة الجديدة ، وهذا ايضاً يتناسى ما سلف من الآثام ، فان كثيرين يحددون التوبة انها ندامة عن الخطايا السالفة فقط ، وواضح ان توبة كهذه ناقصة غير كاملة .

الفصل الثالث

التوبة مقبولة دائماً

العقل والوحي الالهي يثبتان ان التوبة كيفما قدمت تُقبل ولا ترفض ، اما العقل ؛ فيؤيد ان الجريرة تحجب عين النفس كالغمامة الدكناء فلا تدعها تنظر الى شمس البر المضيئة او تهتدي بانوارها ، وواضح ان بازاحة ما يسبب الظلام يعود النور الى الظهور .

والوحي الالهي يقول : اسألوا تعطوا اطلبوا تجدوا اقرعوا يُفتح لكم ، وقال ايضاً : لم آتِ لادعو الصديقين بل الخطاة للتوبة ، ولا يحتاج الاصحاء الى طبيب بل المرضى . وقال ايضاً : هكذا يكون فرح في السماء بخاطيء واحد يتوب . وقال اشعيا ليترك الخاطيء طريقه ، والرجل الاثيم سبيله ، ويعود اليّ فارحمه . وقال ايضاً : اقسمت بذاتي يقول رب الارباب ، لا اشاء بموت الخاطيء بل يرجع اليّ ليحيا ، وقال يونان : فرأى الله اعمال اهل نينوى انهم تابوا عن طرقهم الشريرة ، فرد عنهم غضبه . الى ما هنالك من الآيات .

الفصل الرابع

﴿ اقسام الخطايا التي نتوب عنها ﴾

اوضحنا في المقالة الثالثة ان الكيانات الغريبة التي تتصل بكيان الانسان ، اما ان تكون ملائكية او شيطانية او بهمية او وحشية . والكيان الملائكي اذا اتصل بالانسان ، ان لم تعطف عليه عناية الله فانه يولد في النفس الكبرياء والغرور والمجد الباطل والعجرفة ، ومن الكيان الشيطاني تتولد البغضاء والغش والخداع والاغتياب . ومن الكيان البهيمي ، الطمع والجشع ، والشراهة ، ومن الكيان الوحشي ، الغضب والحقد والاغتصاب والقتل وما الى ذلك .

وبعبارة اخرى : كل من يخطيء ، اما ان يخطيء ضد الله او ضد القريب او ضد نفسه ، والاول هو الالحاد والضلال ، والثاني التجني والاغتصاب ، والثالث ، الشراهة والجشع .

وبعبارة اخرى : كل خطيئة اما كبيرة او صغيرة ، فالكبائر هي التي قال فيها الرسول بولس : ان فاعليها لا يرثون ملكوت الله ، كالجحود والقتل والارتكاب ضد الطبيعة والعهر والرذيلة ، والسلب والقهر والسكر وشهادة الزور والقسم الكاذب . والصغائر هي : التي كتب عنها الرسول نفسه الى اهل كورنثوس : اخشى ان آتي اليكم فاجدكم لا كما اريد ان تكون بينكم خصومات وحسد ومغاضبات ومنازعات واغتياب ونمائم وانتفاخات واضطرابات ٢ كو ١٢ : ٢٠ .

الفصل الخامس

الاسباب التي تضخم الخطايا

ان الخطيئة الصغيرة تتضخم باحد الاسباب السبعة الآتية : الاول ـ ان يسقط فيها الانسان مرات متوالية . الثاني ـ ان يعتبر الانسان الخطيئة صغيرة ، فقد قيل : ان البار يرى الخطيئة الصغيرة كبيرةً . الثالث ـ ان يخطيء الانسان متعمداً ، فيقول في

نفسه : ان الله تواب غفار الذنوب . الرابع ـ ان يقول في قلبه : ماذا يهم الله من خطيئتي ؟ فيعاقبني ! الخامس ـ ان يفرح ويبتهج بالخطيئة كأنها صادرة عن غيره . السادس ـ ان يفعل الخطيئة جهاراً مفاخراً بها . السابع ـ ان يكون من صنف المرشدين ، فمثل هذا تكون خطيئته الصغيرة كبيرة ، لانه يجر وراءه المقتدين به الى الخطيئة .

الفصل السادس

﴿ المخادع التي يصير اليها الخطاة ﴾

كما ان المنازل المعدة للأبرار في بيت الآب كثيرة كذلك المخادع المعدة للخطاة متنوعة ، وقد حصرها العارفون بستة مخادع :

الاول ـ وهو احط جميعها ، مخدع الجاحدين الذين انهوا حياتهم بأعمال أثيمة فـآل امرهم الى اليأس الاكيد والهلاك الابدي . الثاني ـ مخدع الجاحدين الذين يظهرون الاعمال الصالحـة . الثالث ـ مخدع الجاحدين الذين لا يتظاهرون باعمال صالحة او طالحة . الرابـع ـ مخـــدع المؤمنين فاعلي الشرور المتمردين العصاة . الخامس ـ مخدع المؤمنين المجردين من الاعمال الصالحة والطالحة بآن واحد ، الذين صوّرتهم كلمة الفادي بالعذارى الجاهلات اللواتي اخذن مصابيحهن ولم يأخذن معهن زيتاً . وبما انهم مجردون عن الاعمال الصالحة فانهم مؤمنون كاذبون . السادس ـ مخدع القاصرين عقلاً وسناً : وهم الذين لم يبلغوا معرفة الخير والشر ، فهؤلاء لم يأتوا صلاحاً فيثابوا ولا طلاحاً فيعاقبوا .

ويقول بعضهم : ان الذين نالوا نعمة العماد لن يحرموا من الصلاح ، وطبقاً لرأي القديس غريغوريوس النوسي ان اصحاب المخدعين الثاني والثالث يخلصون في معمودية الاسف في العالم الروحاني ، وقال ايضاً : ان الذين اغتسلوا بحميم المعمودية من اقذار الخطيئة لا يحتاجون الى هذا النوع من التطهير الثاني ، والذين لم ينالوها فانهم حتماً بحاجة اليهـا .

والقديس الثاولوغوس يبسط قضية التطهير بصورة مطاقة ويقول : يجب ان يعتمدوا

بالاسى هناك ، ومثله يرتأي تلميذه العظيم اوغريس ويقول : ان العذاب هو الكآبة بواسطة الاسى المؤلم حيث تطهر ادران النفس في الدينونة .

الفصل السابع

اصناف التائبين

هناك اربعة اصناف للتائبين :

(١) : التائبون عن طرقهم الشريرة السائرون في طرق الصلاح حتى النهاية .

(٢) : التائبون المتحفظون من الكبائر ، الذين لم ينجوا من الصغائر الطارئة جهلاً وسهواً .

(٣) : التائبون الحذرون من الكبائر والصغائر جهد الامكان ، والذين اذا هاجمتهم شهوة رعناء سقطوا ، وفي حالة سقوطهم يستمرون باعمال الزهد والنسك آملين ان تسعفهم عناية الله فيثوبوا الى رشدهم .

(٤) : التائبون الذين يرتدون الى الاعمال الخسيسة المريضة بعد خلعهم الانسان العتيق واتشاحهم بالانسان الجديد المبدع من الله ، فيهوون ويسقطون في الشهوات ويستسلمون للأهواء الطائشة ، فيطول سقوطهم والى رشدهم لا يثوبون ، الا ، ومن الحياة يقبضون ، وقد قيل فيهم : ان القلوب الهاربة من مصر ارتدت اليها من جديد قبل ان ترى اورشليم الارض الطاهرة .

والخلاصة ان الصنف الاول هو الاعلى والاسمى ، والرابع هو الاحط ، والثاني للأول والثالث للأخير .

الفصل الثامن

★ ماذا يجب ان يفعل التائب العاثر ★

ان من ثاب الى رشده بعد الخطيئة ثم عاد اليها ، يجب ان يثوب من جديد ويجهد نفسه ان يغسل الحوبة بالتوبة ايضاً ، ويكون الاغتسال في ثلاثة امور : القلب واللسان ، وبقية الحواس .

اما في القلب فسبيله الاغراق في الندم العميق والامعان في التهجد السحيق ، طلباً للمغفرة من الله ، واللسان ، ســـبيله الاعتراف بالخطيئة ، لان من يخفي خطيئته لن يتوب ؛ ومن يعترف بخطاياه ينجو على حد قول الحكيم سليمان . وفي بقية الحواس ؛ مفكراً بالصوم والقنوت . وقد قال احد العارفين : ان التائب تغفر خطاياه بثمانية اعمال : اربعة منها نفسية واربعـــة جسدية . فالنفسية ، بان يكره الخطيئة كرهاً تاماً ويتوب ، ويرهب الدينونة المزمعة ويثق بان الله سيغفـر له . والجسدية ، ان يصلي صلاة مقرونة بشعور قلبي ويقول : سبعين مرة : اخطأت يارب ارحمني ، ثم يتصدق ثم يصوم .

الفصل التاسع

= الاسباب التي يزل بها المؤمنون =

هناك اربعة اسباب تجعل زلل المؤمنين هيناً هي :

الاول : وان آمن الانسان بوجود عذاب للخطاة ، ولكن بما ان هذا العذاب خفي عن العيون ، والتنعم الدنيوية ظاهرة للعيان ، فالنفس تستسلم للحالة الحاضرة .

الثاني : قرب المتعة بالشهوات وبعد ضررها عن المخيلة ، ومن البديهي الا تهمل المتعة القريبة في سبيل خسران بعيد ،

الثالث : كون الكثيرين على المؤمنين يتواكلون على امر التوبة فيخطئون ، ولانهم لا يذكرون ساعة الموت فلا يتوبون .

الرابع كون الانسان معتمداً على رحمة الله يسقط في زلات كبيرة الامر الذي يكون سبباً مشجعاً للمؤمنين على استسهال الخطايا ، اما غير المؤمنين فهناك سبب واحد يجعلهم يخطئون وهو عدم ايمانهم بالدينونة والعقاب المحتوم .

* * *

الفصل العاشر

★ العلاجات المجربة للتائبين ★

يجب ان نعلم ان شفاء التائبين لا يكون إلا بعلاجات ضد الخطيئة ، ومن لا يعرف اسباب المرض لا يعرف ايضاً العلاج الشافي لذلك المرض وهناك امران يسببان الخطيئة. الجهل واليأس ، اما الجهل فعلاجه المعرفة ، واما اليأس فعلاجه الصبر والثبات . ومن هنا يتضح انه لولا القوة التي تعادل بين عذوبة المعرفة ومرارة الصبر لما وجد دواء للتائبين . وبما ان الخطيئة بالنسبة الى النفس هي كالمرض بالنسبة الى الجسد فيجب على التائب ان يحيط علماً بأربع معارف هامة :

الاولى : كما ان لصحة الجسد ومرضه اسباباً فعالة كذلك لصحة النفس وعلاجها اسباب فعالة معينة اهمها حفظ الوصايا . واسباب مرض النفس مخالفة تلك الوصايا .

الثانية : كما ان المريض يحتاج الى طبيب نطاسي معالج يكون خبيراً باسرار مرضه وعليه ان يشفيه ، هكذا الخاطيء يجب ان يكون له مرشد حكيم يمكنه مد يد المساعدة له ، فينتشله من الهلاك على حد قول ياونـّي : كلنا نحن الذين من مصر نرغب رغبة صادقة في الهرب من عبودية فرعون ، فكلنا اذاً ، بحاجة الى (موسى) وسيطاً عند الله ، فيضل الذين ينسون نفوسهم ويعتقدون انهم غير محتاجين الى مرشد .

الثالثة : كما ان المريض يجب عليه استعمال العلاج الذي يصفه له الطبيب والحذر من كل ما يحذره منه ، هكذا الخاطيء يجب ان يتقيد بنصائح المرشد واوامره .

الرابعة : وكما انه خير للمجروح ان يضمد جرحه قبل التسمم هكذا الخاطيء من الضروري ان يهب ّ الى التوبة قبل استفحال الخطيئة ، لان الجرح ما دام جديداً وحاراً يكون شفاؤه اقل صعوبة ً ، اما الجروح القديمة المقيحة فانها تحتاج الى جهود شاقة وقطع وكـَي .

الفصل الحادي عشر

الامـــور الــــتي بهـــا يصلح المرشد التـــائب

هناك اربعة امور يمكن للمرشد ان يصلح بها التائب هي :

(١) ـ ان يذكره بالاعذبة المعدة للخطاة بطريقة روحية صرفة ، ويعلن له انه كما يُلتقط الزؤان ويُحرق بالنار هكذا سيكون في نهاية العالم ، يرسل الله ملائكته ويلتقطون جميع المخالفين للشريعة ويلقونهم في اتون النار ، وهناك يكون البكاء وصرير الاسنان ، اما الصديقون فيضيئون كالشموس في ملكوت ابيهم .

(٢) : ان يشرح له العقاب الذي سيلحق بالاثمة مثلما عوقب آدم بالطرد من الفردوس ، وشاول الذي لم يكن مستقيماً امام الله أزيل الملك عنه وعن جميع نسله واعطي لملوك آخرين ، الذين كانت نهاية معظمهم الهلاك بسبب خرقهم الشرائع .

(٣) : ان يشجعه بألا ييأس من رحمة الله ، ويشرح له الفرح الذي يحدث في السماء بخاطيء واحد يتوب ، ويدلي له بمثل المئة خروف وبقية الامثال المشابهة له ، ويضرب له مثلاً قضية داود النبي الذي قتل اوريّا واخذ امرأته ، ولما بكى بكاءً مراً وافترش المسح والرماد ولم يأكل ولم يشرب ، قيل له بفم النبي ناثان ان الله غفر له جريرته ، فلن يموت . وقضية الله وانكاره ، ثم توبته وبكاءه الحار وقبول الرب له ، ثم إئتمانه على مفاتيح ملكوت الله .

(٤) : ان يفرض قانوناً مناسباً على الخاطيء المقبل الى التوبة ، فاذا كان غنياً يفرض عليه التصدق واطلاق العبيد والاماء ، وان كان صحيح البدن يفرض عليه الصوم والصلاة وبعد ان ينفذ كل ذلك يقيم الكاهن احتفالاً روحياً ويصلي الى الله من اجله .

الفصل الثاني عشر

الآيات الكتابية في فضيلة الاعتراف

(١) كان يخرج اليه اهل اورشليم وكل اليهودية وجميع بقعة الاردن فيعتمدون منه في الاردن معترفين بخطاياهم . متى ٣ : ٦ .

(٢) وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون معترفين ومخبرين بخطاياهم . اعمال ١٩ : ١٨ .

(٣) اعترفوا بعضكم لبعض بزلاتكم وصلوا بعضكم لاجل بعض لكـــي تبرأوا يع ٥ : ١٦ .

(٤) وان اعترفنا بخطايانا فهو أمين عادل فيغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم ١ يو ١ : ٩ .

(٥) وكل الاهتمام الذي نحن بحاجة اليه هو ان نعلن مرضنا لكي نشفى ، غير اننا نبالغ بالهرب من الشفاء ، ونحن ابطال ضد نفوسنا ، وحكماء ضد شفائنا او مستخدمين لعبودية الخطيئة ، وقد اخفينا عللنا وامراضنا في قرارة نفوسنا ، كأني بنا نريد الاختفاء عن نظر الله ويوم الدين ، هذا اذا امكننا الاختفاء عن عيون الناس . (غريغوريوس اللاهوتي)

(٦) ولاتحابِ لنفسك ولا تخجل ان تعترف بزلاتك وتتوب ، فامتنع عن اتيان السيئات بالاعتراف بخطاياك (ابن سيراخ)

الباب الخامس

☀ الصبر (الثبات) ☀

★ وفـــيه سبـــعة فصـــول ★

الفصل الاول

= أقـــوال الآبـــاء في فضـــيلة الصـــبر =

قال احد الشيوخ : اننا لا ننجح باعمالنا لاننا لا نعرف قوتنا وليس لنا صبر وثبات في العمل الذي نبدؤه ، فنطلب بلوغ اوج الفضيلة بدون جهاد .

وقال احد الآباء : ان مطلع الثمار الزهور ، ومطلع الاعمال الصبر . ان ثواب العمل في الجهاد ، هو اضعاف ثواب الفضائل في الراحة ، فالعمل المضني

في غياهب الصومعة لقضاء على الافكار الشريرة ، خير من ذبيحة طاهرة خارجها مع افكار هادئة .

يقال عن الأب يوحنا الصغير الثيبي تلميذ الاب آمون او الاب بمواي : انه خدم معلمه اثنتي عشرة سنة في مرضه ، ولم يقل له المريض مرة واحدة احسنت ، بل كان ينفر منه ويعنفه ، ولما شارف الشيخ من الموت قبض على يده وقال : احسنت يابني ، بخٍ بخٍ ، وقدمه للشيوخ وقال : ان هذا ملاك لا انسان .

قال الاخوة مرة للاب انطونيوس : اخبرنا ايها الاب كيف نعيش ، قال لهم : انه مكتوب (من ضربك على خدك الايمن فحول له الآخر) قالوا : لا يمكننا ان نفعل ذلك ، قال : ان لم تحولوا الخد الآخر فاصبروا على الاول ، قالوا : ولا هذا يمكننا عمله ، قال : اذاً لا تتذمروا بأنكم صبرتم ، قالوا : ولا هذا ايضاً يمكننا ، قال الشيخ لتلميذه : اعدد لهؤلاء الاخوة شيئاً من الطعام فانهم مرضى .

كانت الام سارة تسكن مغارة مشرفة على نهر مدة ست سنوات ولم تنتبه مرة واحدة لوجوده .

قال الاب فومان : ان يوسف الصديق بيع للعبودية في مصر وهو ابن سبع عشرة سنة ، واجتاز التجربة منتصراً ، فمجده الله . وايوب البار لم يخر حتى النهاية مستعيناً بالله ، ولم يستطع اعداؤه زحزحته عن رجائه .

وقال الاب ارسانيوس : اذا وضعت اللبنة الهشة في اساس محاذٍ لنهر لن تثبت ساعة واحدة فاذا احرقت اصبحت حجرة صلدة ، هكذا الانسان ذو الفكرة الجسدية ان لم يحترق ملتهباً بكلمة الله يذوب عاجلاً .

الفصل الثاني

★ تحديد الصبر ★

الصبر هو الاغراق في الجهاد ، وهو موضوع بين نظر سابق وعمل لاحق فالنظر هو الاول لأنه يعطي الانسان مجال التفكير والمعرفة

الحـــقة بان النعيم الدنيوي المادي يؤدي الى عـــذاب النفس الابـــدي . والعمل هو الاخير لان الاعراض العقلي عن المتعة المادية ، وهو الاحجام عن اي نشاط مضنٍ يتبعه ، وهذا هـــو الصبر . ومن البدهي ان هذا العذاب لا يُطلب لذاته ، بل لانه سبب النعيم المرتجى ، وهناك عذاب قريب وآخر بعيد . وامام كل عذاب نعيم ، وهو ايضاً قريب او بعيد ؛ وبما ان العذاب القريب هو سبب النعيم البعيد والنعيم القريب هو سبب العذاب البعيد ، فمـــن العدل ان يختار العارفون الذين لهم ذهن المسيح العذاب القريب الآتي ، في سبيل النعيم الخالد هنـــاك . ويضحـون بالنعيم الزائل هنا تخلصاً من العذاب الاليم هناك ، وكلا العذاب ، والنعيم البعيدان . وهما خفيان مجهولان هنا ، فانهما يظهران ويتجليان بعد القيامة ، الاولى ، هذه القيامة الصغرى التي هي الموت ، حيث به تقـوم النفس من قبر هذه الحياة ، والثانية ، القيامة الكبرى ، وبها يقوم التراب جسداً ممجداً ، ففي هذه الاولى بصورة جزئية مبهمة ، وفي الثانية بطريقة واضحة صريحة ، وبما ان القيامة ولادة جديدة ، تكون القيامة الصغرى بالنسبة الى القيامة الكبرى هي كنسبة ولادة الانسان الصغرى الى الولادة الكبرى ، اما الولادة الصغرى فانهـا الولادة من صلب الاب الى رحم الام المظلم ، وهو صورة لهذا العالم الحـــالك ، والولادة الكبرى هي التي يخرج الانسان فيها من الرحم ـ العـالم المظلم الضيق ـ الى عالم واسـع مشرق ، وهو صورة خروجه الى عالم الروح الذي فيه يستنشق النسيم المنعش النقي .

الفصل الثالث

تنوع اسماء الصبر

تتنوع اسماء الصبر بالنسبة الى تنوع الامور التي منها وفيها ومن اجلها يكون الصبر ، فاذا كان الصبر تحملاً الآلام الجسدية كالامراض يدعى تحملاً ، وما كان صبراً على الاضطهاد والاعذبة يدعى شجاعـــة ، وما كان صبراً على التجارب

الشيطانية يدعى ثباتاً ، وما كان اعتكافاً في الصومعة يدعى اناة ، وما كان اخفاء وستراً للأسرار يدعى وداعة ، وما كان ضد الغضب والغيظ يدعى حلماً ، وما كان تحملاً للعار والازدراء يدعى تواضعاً ، وما كان ضد الشراهة يدعى زهداً ، وما كان ضد الاهواء المنحرفة يدعى عفة ، وما كان تحملاً للعوز يدعى شمماً ، وينطبق على تجشم كل هذه الامور اسم (الصبر) ومن للصبر على احدى هذه الآفات حتى النهاية تنطبق عليه الآية الكريمة (من يصبر الى المنتهى يخلص)

الفصل الرابع

طبقات الصبر

هناك ثلاث طبقات للصبر ، **العليا والوسطى والسفلى . فالعليـا هي طبقة الذين** يصمدون في ميدان الجهاد ولا يهنون حتى النسمة الاخيرة ، اشبـاه ايوب الصديق ويوسف البار وكل الشهداء البواسل والآباء الكاملين . والوسطى طبقة الذين يتغلبون على الاهواء تارةً وطوراً يخذلون ، او يتغلبون على بعضها وينـدحرون امام الاهواء الباقية وهكذا يستمرون ظفراً وانخذالاً حتى النهاية . والسفلى : طبقة الذين ينتصرون على الاهواء فترة من الزمن ثم يهربون مخذولين فتلاحقهم حتى تمحقهم .

والصبر اما ان يكون ضد اهواء الجسد واما ضد نوازع النفس ، وكل منها اما ان تكون عنيفة او ضعيفة ، وبديهي ان من يصبر على المحنة اكثر يضاعف له المجـازي العـادل الثواب .

الفصل الخامس

★ عنـاصـر الامـور الـتي يجـب الصبر عليهـا ★

من البدهي ان الانسان مركب من نفس وجسد ؛ فالجسد يشتهي ما هو ضار للنفس ، والنفس تشتهي ما كان ضد الجسد ، على حد تعبير القول الالهي . وعليه كل امر يواجه الانسان في حيـاته الدنيـا ، يكون اما موافقاً للجسد واما موافقاً للنفس ، والعنصر الثاني اما ان يكون ارادياً واما قسرياً ، او بعضه ارادي وبعضه

قسري ، ومن هنا تصبح عناصر هذه الامور اربعة طبقاً لما شرحناه ، واليك بيان ذلك :

(١) : ما كان مطابقاً لرغبة الجسد ، كالاهواء الجسدية ، وهي التي يجب الصبر عليها ، وتأييد هذا العنصر يكون عمل الاب ارسانيوس الذي كان اباً للملوك ، في العالم ، ومربياً لالوف من المتمنطقين بمناطق الذهب ، والمتقلدين قلائد الياقوت ، والمتوشحين بالخز والبرفير ، فاعرض عن كل ذلك وازدراه أملاً بالحياة الباقية متحملاً كل تلك التضحية منزوياً في البرية .

(٢) ما كان مطابقاً لرغبة النفس ، كاعمال النساك الارادية ، وايضاح هذه الامور يكون في عمل القديس بولس الذي كان يذلل جسده ويستعبده ، والآباء القديسون الذين لم يشبعوا لا خبزاً ولا ماءً ولا نوماً ، ووقفوا كالاطواد الراسخة ضد الاهواء : ولم ينقطعوا عن ذكر الله .

(٣) ما كان مطابقاً لرغبة النفس بطريقة قاهرة ، الامور التي تنجم عن تخلي العناية الالهية كما حدث للصدّيق ايوب الذي أسلم بيد الشيطان ليجربه هو واولاده وامواله ، وقد امر ان يحتفظ بنفسه ، وبناء على صبره جاءت ايامه الأخيرة اسعد جداً من ايامه الاولى .

(٤) : طبقاً لرغبة النفس ، كالعـار الذي يصبر عليه الانسان بارادته ، بينما كان بامكانه ان يصبر او ألا يصبر ، واحياناً رغم ارادتـه ، لان الانسان قـد يتجنى عليه قهراً وعدواناً ، وقد ظهر ذلك في كثيرين من الابرار ، وقد شكى احد الاخوة الى الاب سوسايس قائلاً : تجنّى عليّ زميلي ، وارغب في الانتقام لنفسي فطلب اليه الاب بالحاح ان يصفح فأبى ، قال له الاب : اذاً فلنصل ، اطاع فبـاشـر الاب بالصلاة قائلاً : (اللهم اننـا لا حاجة بنـا إليك ان تعني بنا فانا قادرون ان ننتقم لنفوسنـا) ولمـا سمـع الأخ ذلك ، قـدم ، والقى امـره على الله .

* * *

الفصل السادس

انواع التجارب

كل تجربة تثور على الانسان تكون اما اختباراً له او تأديباً ، وتكون كل منها اما جسدية او نفسية ، وهذه انواعها اربعة هي :

الاول : التجارب الاختبارية الجسدية ، الكسل التواني ، الضعف العضوي ، اليأس ، الفقر ، الامراض ، **الثاني** : التجارب الاختبارية النفسية وهي : اضطراب الفكر ، القنوط الوقتي ، ظلام العقل ، انعدام الأيد البشري ، وما الى ذلك ؛ الامور التي يلقيها الخالق على قدر الطاقة ، وبها يختبر العبد الصالح فيظهر حبه لله ، اذ يصبر ولا يجحد ، ويتحملها ولا يتذمر . **الثالث** : التجارت التأديبية للجسد ، وهي تراكم المصائب والمشكلات العسرة الحل ، مقابلة الاشرار الكافرين بصورة مستمرة ، او ربما سقوط مروع من كهف تأديباً للجسد . الرابع : التجارب المؤدبة للنفس ، وهي : الشعور بثورة عنيفة للاهواء المنحرفة ، الضعف امام الغضب ، ضعف الارادة ، الرغبة في الانتقام بكلمات بذيئة ، قلب هزيل ، ظلام مبين للعقل ، التجديف على الله ، ابتكار تصورات كاذبة ، تنبؤ خادع ، تجرد القلب من الاستعانة بعناية الله . وخلاصة القول جميع المشائب التي تفوق طاقة الانسان والتي تطلق عليه خضداً لكبريائه وعجرفته . وعلاج كل ذلك هو الصبر الذي يكون بتواضع القلب ووداعة النفس .



الفصل السابع

❋ العلاجات المقوية للصبر وعلاماتها ❋

العلاج الوحيد الذي يقوّي الصبر هـــو خضد عنف الشهوات الجسدية ، وانعاش الرغائب الروحية ، وشهوة الجسد انما هي روح التمرد على العفـاف التي يمكن التغلب عليها بثلاث طرق :

اولاً : الزهد في المواد التي من شأنها اثارة هذه الروح ، وشعال نيرانها ، واهمها المـآ كل الدسمة المتنوعة ، فقد قيل ان الذي يمعن في الشراهة ويريد خضد شوكة الشهوات يشبه من يحاول اطفاء النار بالزيت . **ثانياً** : التغلب على الاسباب التي تضرم وتثير هذه الروح ، وذلك بالانقطاع عن المعاشرات الرديئة واهمال مـا اليها اهمالاً كاملاً ، لانه قيل ان الذي يرتاح الى عشير رديء يرتاح لذكر رداءته وشروره ، فمن اشمأّز من عشير السوء يشمئز ايضاً من الاقتداء بشره ، ومن البديهي عندئذ ان يهرب من ذكره هربه من النار المحرقة . **ثالثا** : اطفـاء ضراوة الاهواء المنحرفة بالزواج الشرعي طبقاً للامر الرسولي اذا كان من صنف البتولين المحترقين بالشهوة ، او بالتفكير برفيقة حيـاته اذا كان متزوجاً وهو يمـــيل الى غيرهـا .

ورغبة الروح تنتعش بالامرين التاليين : **الاول** ـ ان يكثر من التفكـير في فضيلة الصبر والحياة الجديدة المعـــدة للصابرين الى المنتهى . **الثاني** ـ ان يروض الانسان قواه على الجهاد الروحي ضد الاهواء ، واللذة الروحية التي يشعر بها بعد انتصاره واندحارها ، الامور التي تشجع فيه البطولة على مهاجمتها دائماً .

وللصبر الحقيقي علامتان اثنتان التحمل المستمر وانعدام التذمر ، واضـاف احدهم علامة ثالثة ، انقطاع الانين .



الباب السادس

الشكر

وفيه ثلاثة عشر فصلاً

الفصل الاول

اقوال الاباء في فضيلة الشكر

قال الاب يوسف : ثلاثة امور كريمة لدى الله ، الاول : اذا ابتلي الانسان بمرض وزيدت اتعابه ، فيقابل ذلك بالشكر . الثاني : متى كانت جميع اعماله طاهرة امام الله ، وليس لديه شيء بشري. الثالث : ان يكون الانسان خاضعاً مطيعاً لابيه منكراً ذاته ، اما انا فقد اخترت الامر الاول .

وقال الاب قوفر : طوبى لمن يصبر على التجربة بالشكر . وقال الاب بنيامين : الشكر يطلب الى الله عوض الضعف . وقال مار فلاديس : اللاحظة التي تنقطع فيها جميع الاصوات فاملأ انت فمك تمجيداً ولسانك شكراً . وقال مار اسحق : ان الذين هم ابناء حقيقيون ، اذا اراد ابونا الرحيم ان يعضدهم بتجاربهم ، لا يرفعها عنهم بل يمنحهم صبراً جميلاً لكي يقابلوا بالشكر جميع الخيرات اكمالاً لنقص نفوسهم ، فليجد علينا المسيح بنعمة قوة الصبر على الضيقات حباً به ، وبقلب شكور ، آمين .

الفصل الثاني

تحديد الشكر

الشكر هو الاقرار بالجميل الذي يُنال او يرتجى ، وذلك اما ان تسبقه التجربة او تليه ، والحالة الاولى تشرحها اقوال الآباء وسنتطرق اليها في نهاية هذا

الباب . والاقرار بالجميل يكمل في ثلاث حالات : بالتصور السابق ، والشعور ، والعمل المعد . فالتصور هو ، ان يعرف الانسان نوع الجميل ، ومن الذي منحه ، لكي يأتي شكره مطابقاً لعظمة الجميل وسمو المانح . والشعور هو : الابتهاج الذي يملأ جوانح الانسان بالنعمة التي ينالها او يرتجيها . والعمل يكون في ثلاث حالات : في القلب واللسان وبقية الجوارح . اما في القلب ، بان يشكر خالقه بالروح والحق . وباللسان ، ان يخبر بغزارة النعمة التي نالها او سينالها . وفي بقية الجوارح ان يستخدمها طبقاً لرغبة المانح ورضاه . وجميع هذه الحالات ، أي المعرفة والابتهاج والعمل ، المثلث ، الانواع يحصرها قيثار روح الله داود بقوله في مطلع المزمور التاسع (اشكر الرب من كل قلبي واخبر بجميع عجائبه ونعمه ، افرح وابتهج بك ، وأرتل لأسمك العلي .

الفصل الثالث

☆ النعمة التي هي سبب الشكر واقسامها ☆

كل شيء مرتجى بالنسبة الى طالبه هو نعمة وخير ، إلا ان النعمة الاساسية هي السعادة الابدية ، وما عداها فباطل ؛ ومغلف باسم براق وجميع الامور المطلوبة عامة تسمى نعمة ما ، وهي خمسة اقسام :

(١) : كل عمل اما ان يكون مفيداً في هذا العالم وفي الآتي ، واما ضاراً في كليهما ، او يكون مفيداً في هذا العالم وضاراً في الآتي ، او ضاراً هنا في هذا العالم ومفيداً في الآتي . والنوع الاول ، هو نعمة اطلاقاً ، والثاني تجربة اطلاقاً ، والثالث محنة للحكماء ومنحة للجهال . والرابع ، منحة للحكماء ومحنة للجهال .

(٢) : الامور الدنيوية ، اما ان تفوق فائدتها ضررها كالغنى والشرف ، او ضررها يفوق فائدتها ، كغزارة اليسار والاموال ، او تتساوى فائدتها وضررها . والنوع الاول : يميل اليه ابناء العالم الابرار . وفي الثاني : يبتهج به ابناء العالم الجشعون ، وفيه قال النبي داود : اذا كثر الغنى لا يفرحن به قلبك . والثالث : يتعذب بـه البلهاء .

الثالث : كل شيء اما يطلب من اجل ذاته ، كالأكل والمشرب والمسكن ، او من اجـــل ذاته ومن اجل غيره ؛ كالأكل والمشرب الفائضين عن الحاجة . او يطلب من اجل غيره فقط ، كالدراهم والدنانير التي تُطلب من اجل المعيشة . والاول ، مطلب عدل ، واما الثاني والثالث فاذا كانا حلالين فانهما عدلان .

الرابـع : كل مطلب اما ان يكون مفيداً او جميلاً ، او لذيذاً . والمفيد اما ان يفيد في الحاضر او في المستقبل . والجميل ، ما كانت جميـع خواصه جميلة ومحبوبة حباً طاهراً . واللذيذ ، اما عقلي ، وهو الاهم ، وهذا خاص بالانسان فقط ، او مادي ، ويشترك به الانسان مع بعض البهائم ، كحب الظافر ، والتزعم الامور التي توجد لدى الاسد والنمر . او مادي صرف ويشترك به الانسان مع البهائم جميعها ، كشهوة الطعام والجماع ، وهذه الاخيرة طبقاً للتعلق الانساني بها . فانها تفوق جميـــع اللذات لدى البشر ، والتي قبلها متوسطـة . والاولى ، طبقاً لعناصرها فانها ضعيفة جداً .

الخامس : كل خير اما ان يطلب لذاته كخير ، او لغاية اخرى ، والاول هو الخير الحقيقي ، والسعادة الاساسية لانها متعة لا تزول وابتهاج لا يحـــول وغنى لا ينضب ومجد لا يأفل ، والخير الثاني ، اذا طلب في سبيل الاول هـــو اربعة انـــواع :

النوع الاول : الخير النفسي ؛ وهو اربعة انواع ، نوعـــان نظريان ، كالمعرفة والايمان ، ونوعان عمليان ، كاخماد الشهوة واطفاء الغضب . والنوع الثاني : الخير الجسدي ، وهو كذلك اربعة انواع ، الصحة والقوة والجمال والشجاعة . والثلاثة الاولى يحتاجها الزهد ، والجمال الظاهر يعتبر من النعم لانه يدل على جمال النفس الباطن . والنوع الثالث : نعم الحاجات الجسدية وهي اربع ايضـاً : الغنى والشرف والاقارب والمساعدين ، وهذه تعتبر نعماً لانها تساعد على الصدقـــات واسعاف الفقراء . النوع الرابـع النعم التي ينجح بها الانسان وهي اربع ايضاً : العقل والبركة والايد والرصيد ، وهذه الامور حصرها داود في كلمات يسيرة

حيث قال : هو خالقهم وعاضدهم ، الرب ذكرني وباركني ، الصغار مع الكبار ، فليزدهم الرب ، اي ايزدكم تذكراً وبركة وعضداً .

الفصل الرابع

نعم الله لاتنضب

اعتبر ايها الاخ ، ان نعم الله عليك لاتنضب ، اذا رأيتها ست عشرة نعمة وهي : نعم كلية ، لان في كل منها تنضوي نعم كبيرة لا ينتهي تسلسلها ، مثلاً : صحة الجسد ، وهي احدى النعم المشار اليها ، فاذا اردنا احصاء النعم المنضوية تحتها ربما لا نستطيع ، فقط نتطرق الى احد اسباب الصحة وهو الغذاء ؛ ومن البدهي انها عمل يصدر عن دافع ، وهذا الدافع يكون بواسطة الجسم الآلي ، ويكمل بالقوة والارادة وادراك ما يغذي واعداده وكميته وما يناسب على الحصول عليه ، واتقانه واكماله . ولنحص ايضاً اسباب الادراك ثم الارادة ثم القوة ثم الكمية ثم الحصول ثم الاتقان ثم الكمال ، وهذه سبع نعم الهية سنتطرق اليها في فصول خاصة .

الفصل الخامس

النعم الكامنة في اسباب الادراك

ان الله – تعالت نعمته – خلق الانسان بطريقة لا يمكنه البقاء بدون غذاء شأن كل كائن حي ، وخلق فيه قوة الشعور ، وقوة اخرى تتحرك لنواله . والاول – الحس – خمس قوى او حواس . الاولى حاسة اللمس ، وفيها قوتان ، الاولى معرفة الموضوع المحرق مثلاً ، والثانية قوة الهرب او الابتعاد ، وبما ان هذه الحاسة تشعر بالمواضيع الملموسة القريبة فقط ، خلق الله حاسة الشم لمعرفة المواضيع البعيدة ، وبما ان هذه الحاسة تدرك الرائحة فقط الا انها لا تعرف الناحية التي تصدر عنها خلق الله لهذا الكائن حاسة البصر لتعيين الجهات وادراكها ، وبما ان

البصر لا يمتد الى المواضيع المحجوبة وراء الستار ، خلق الله له حاسة السمع ليدرك ما كان خفياً وراء الستار . وكل هذه الحواس لم تكن بذات فائدة لولا حاسة الذوق ، التي بها يدرك الانسان الغذاء الصالح ويميزه من غير الصالح .

ولو توقفت الامور عند هذه الحواس فقط لاشبه الانسان البهائم ، غير ان الله جمله وميزه بالعقل الذي بواسطته قد يرفض الطعام اللذيذ الضار ويختار الطعام المر النافع ، وهذه اعظم نعم الله على الانسان اعطاها له للادراك والمعرفة . ولا نعتقد ان الأمـــر توقف عند هذا الحد ، فان الحواس الظاهرة ليست إلا بعض اجهزة مدركة ، والبصر بعض هذه الحواس الظاهرة ، فالعين التي تبصر وتميز ليست إحدى هذه الاجهزة ، وهي مركبة من سبع طبقات ، وثلاثة مجالات رطبة وتلك الطبقات يشبه بعضها نسيج العنكبوت ، وبعضها يشبه القماش ، والمجالات الرطبة ، تشبه احداها بياض البيضة ، والاخرى الزجاجة الشفافة ، والاخرى الجليد ، ولكل منها شكل خاص ، ولون خاص ، ومكان خاص ، فاذا تلف احد هذه الاجهزة ولو جزئياً ، فان مهرة الاطباء عاجزون عن اعادته الى حالته الطبيعية ، ناهيك عن الاوعية الدموية والاوردة والشرايين والمفاصل والعضلات المختلفة الكائنة في تكوين العين ، وعلى ذلك يجب ان تقيس عجائب الله في بقية الحواس .

الفصل السادس

﴿ النعم الكائنة في تكوين الارادة ﴾

لو خلق للانسان حاسة البصر التي بها يدرك الغذاء من بعيد فقط دون شاهية تحفزه الى تناوله لما افاده البصر شيئاً ، ولكن خلقت له حاسة اخرى (الارادة) يميل بها الى نوال ما يفيده ، وقد تسلطت عليه هذه الحاسة بصورة طبيعية دون روية ، وخلقت فيه حاسة الاكتفاء بها يتوقف عن الطعام اذا شبع ، ولولا ذلك لاستمر في التهام الطعام حتى التخمة فالمرض فالموت ، كما يحدث لكثيرين

من الذين لا يلجمون تلك الحاسة ، وبما ان الميل الى الطعام يبقى على الانسان كشخص مفرد فقط ، خلقت فيه ميول الجماع للانسال وحفظ النوع البشري ، وهذه الميول ايضاً لم تكن ناجحة لولا خلقت في هذ الكائن القوة الغضبية ، وبها يدفع كل اذى قد يلحقه من اضداده ، وبما ان هاتين القوتين ـ الشهوة والغضب ـ تفيدان فقط ضد الاذى الحاضر القريب ، خلقت للانسان ارادة اخرى تخضع للعقل العارف نتيجة العمل البعيدة والنهاية التي سيؤول اليها في المستقبل . هذه النعم كلها فاضت عليه من خالقه الصالح .

الفصل السابع

النعم الكامنة في قوى الحركة واجهزتها

بما ان ادراك الطعام والميل اليه لا يفيدان بشيء ما لم يكن هناك جهاز للانسان يتناوله به ، خلق الله للانسان اليدين لكي يتناول بها الطعام ، وبهاتين اليدين ينجز اعمالاً عجيبة اخرى ، لا يمكن حصرها ، ثم خلق الله المعدة وبها يهضم الطعام ، وعمل له حنجرة كانبوب او سبيل يأتيها الطعام عن طريق الفم ، ونظم في فيه طواحن واسناناً ، بعضها للقطع ، كالاسنان التي تشبه السكاكين ، وبعضها للكسر كالانياب ، وبعضها للمضغ كالطواحن الداخلية ، وروض الفك الاسفل لكي يتحرك بسرعة وسهولة ، وجعل الفك الاعلى ثابتاً لكبره واتصاله بالاجهزة الرئيسية المتعلقة به وجعل اللسان متحركاً في الوسط ليحول الطعام من جانب الى آخر ، وفجر تحته ينبوعاً يسيل رضاباً رطباً به يمكن ان يعجن الطعام . وجعل باباً الى اسفل يؤدي الى المعدة بطريقة لا يفلت منها الطعام حتى يحول الى سائل ، واضرم فيها حرارة صادرة عن الاجهزة المحيطة بها كالكبد الكائن الى الجهة اليسرى ، والشحم من الجهة الامامية . وعندما يهضم ينفتح له باب فيسيل (الكيموس) في الامعاء . وهناك يصفى ، فيندفع الى الكبد باقنية ، والفضلة تطرح الى الخارج ، وفي الكبد يستحيل الى دم ، وينقى الدم بواسطة المرارة ، فأسوده يجتمع في

الطحال ، واحمره في المرارة ، والرطوبة المائية التي فيه تجذب الى الكليتين ، ومنها الى الحوض . وانبت الله من الكبد اوردة كثيرة تتفرع من الرأس الى القدمين ، وتغذي الجسم كله . ومن دم القلب يتصاعد بخار هوائي لطيف يدعى ريحاً ، وينتشر في كافة انحاء الجسد بواسطة الشرايين ليحيا . وقد شبه الاطباء الحكماء القلب بالمصباح ، والريح بالشعاع ، والدم بالفتيلة ، والغذاء بالزيت ، والحياة بالنور . وهذه نقطة في بحر النعم الكائنة في اجهزة التغذية .

الفصل الثامن

﴿ النعم الكامنة في الاطعمة ﴾

كل طعام اما ان يكون من جنس العقاقير او الفاكهة او الغذاء ، ولنتناول هنا جنس الغذاء المتكون من جميع انواع النباتات فنقول :

اذا وجد الانسان حبة الحنطة يحتاج الى اكثارها لانه اذا اكلها فقد انتهت ، ولا تكفي لحاجته ولا لبعضها ، ولكن خلق الله في الحبة قوة تتغذى بالماء والتراب والهواء الدافيء ، وهذه اربعة قوى عنصرية ، بواسطتها تنمو حبة الحنطة وتتكاثر اذا زرعت ، فانظر الى ما يحتاجه كل منها للقيام بعمله ، فالماء بحاجة الى الينابيع والانهار والعيون والامطار والانداء ، وهذه بحاجة الى وسائط اخري توصلها الى الحبة لكي تسقيها بالمقدار والوقت المناسبين . والهواء بحاجة الى سكة تفتح الارض ليلجها ، والحرارة لا يمكن ان تتخلل الماء والتراب لكونهما باردين ، فخلق الله الشمس تدفيء الارض باشعتها ، وخلق القمر وجعل فيه قوة الرطوبة خوفاً من ان تحترق الحبة (النبتة) بقوة الحرارة الصادرة عن الشمس ، وهكذا وضع الله في كل كوكب فائدة ما لا نعرفها ، وهذه الكواكب احتاجت ان تكون كالكرات فكانت ، وهذه الكرات احتاجت الى حركة والحركة بحاجة الى قوة محركة فكانت .

* * *

الفصل التاسع

★ نعم الوسائط الناقلة للاطعمة ★

بما ان انواع الاطعمة لا توجد دائماً وفي كل مكان بل في بعض المناطق ، وفي بعض الفصول ، وهي بحاجة الى ان تنقل على اكتاف الناس لايصالها من مكان الى آخر ، وهذا لا يمكن طبعاً ، لذلك خلق الله الحيوانات واخضعها للانسان ليركبها ويحمّلها حاجياته ، وهيّأ سفناً تطوف على سطح البحار ، وبهذه الوسائط تنقل جميع الحاجيات فتصل مأمونة من اطراف المعمورة الى اطرافها . (يكتفي انسان تلك العصور بهذه الوسائط للنقل ، ولكن اذا جاءوا اليوم ؟ ؟)

الفصل العاشر

★ نعم اعداد الاطعمة ★

من البدهي ان ما تنتجه الارض ، ما لم يعد اعداداً كاملاً لا يصلح للغذاء ، فلنأخذ مثلاً هذا الرغيف ، فهو بحاجة الى ان يصير صالحاً للغذاء ان تحرث الارض وتسقى ويحصد ويدرس ويطحن ويعجن ويخبز ، فتأمل في هذه المراحل التي اوردناها والتي لم نوردها ، وبعدد الاشخاص والآلات وصناعها ، وانظر الى كل ما يحتاجه كل صانع لانجاز عمله ، اقول ان الرغيف الذي تأكله لا يصل اليك إلا بعد ان يشترك في اعداده الف عامل ماهر ، هؤلاء الذين ان لم يفتقر احدهم الى الآخر ، لما اتفقت ارادتهم لانجاز العمل ، وهؤلاء العمال يحتاجون الى مرشدين ، والمرشدون الى معلمين ، وهؤلاء الى الانبياء والرسل ، وهؤلاء الى ملائكة ، والملائكة الى ربهم .

الفصل الحادي عشر

= نعم انجاز عمل الاطعمة =

بالحقيقة ان انجاز عمل الاطعمة ليس اعدادها فحسب ، بل ان تكون هناك قوة لاستخلاصها ، (اخذ خلاصتها) في الجسم المتغذي ، كاللحم والعظام وما اليها

فمن الضروري ان يكون في كل عضو قوة تجذب الغذاء ، واخرى تهضمه ، واخرى تحيله واخرى تدفع الفضلات الى الخارج ، وقوة اخرى توزعه في الجسم واخرى تصور منه اشكالا متنوعة ، وهذه كلها وما ذكر في الفصول السابقة هي نعم من الله على الانسان في تغذيته فقط ، وهي بالنسبة الى بقية النعم ، نعم الله ، كشعرة واحدة بالنسبة الى شعور الرأس ولا توجد في كل عضو نعم لا تثمن فحسب ، بل في كل نسمة ، اذ يحتاج الانسان الى الوف مثلها في الساعة الواحدة ، وهناك نعمتان اخريان عظيمتان ، الزفير الذي يزفر فيه الهواء من القلب ، والشهيق الذي بواسطته يدخل الهواء النقي الى القلب ، ولولم يتخلص الانسان من الاول ويتنفس من الثاني لانطفأت حياته حالاً ، فانظر ايها الانسان اللبيب الى كل ما انعم الله به عليك من نعم توجب عليك ان تشكره عليها في كل لحظة .

الفصل الثاني عشر

★ الاسباب التي تمنع الشكر ★

هناك سبب واحد فقط يمنع الشكر ، هو جهل النعمة ، واعتبارها كأنها ليست نعمة فيتوقف الشكر من اجلها وفي سبيلها ، فاننا نرى كثيرين لا يؤدون الشكر لله على هذا النسيم الذي يستنشقونه مثلاً ، وبه ينتعشون ، ولو انقطع عنهم لحظة واحدة لقضي على حياتهم عذاباً واختناقاً وان صدف فنجا احدهم ، يعرف حينئذٍ قيمة هذه النعمة ، فيشكر الله من اجلها ، وما اغبى الانسان الذى لا يشكر الله بعد زوال النعمة وعودتها .

هناك بعض الناس يشكرون الله على بعض النعم فقط ، وينسون معظمها . وقيل ان معدماً تقدم الى احد الابرار وشكا اليه فقره وضيمه ، قال له البار : اترضى ان تكون مقعداً وتنال الف دينار ؟ قال لا ، قال : اعمى ! ! وتأخذ اربعة الاف دينار ؟ قال : لا . وهكذا عدد اعضاءه عضواً عضواً ، مضاعفاً الثمن ، وفي كل منها كان جوابه ، لا . قال له : كيف اذن لا تخجل من منحك كل هذه النعم فتتذمر ، وهي اثمن من عشرة الاف دينار ؟ ؟

ومعالجة الجهل المانع للشكر يكون بطريقتين ، **الاولى** : التأمل فيما يمكن معرفته من نعم الله العظيمة اللامتناهية . **والثانية** : ان ينظر الانسان الى الذين هم اقل منه شأناً ، فيقابل بينه وبينهم ، ويتأمل بالبائسين المعدمين ، كما كان يفعل احد الصلحاء ، اذ كان يزور المستشفيات يومياً ويرى المرضى يتألمون من امراضهم ، وكان يخرج من هناك الى ساحة يعذب فيها المجرمون ، وكان يشكر الله الذى انقذه من كل هذه المحن ، ويعود الى عمله .

الفصل الثالث عشر

الاسباب التي تجمع بين الشكر والصبر

الشكر يؤدى في سبيل نعمة مفرحة ، والصبر يكون على محنة مؤلمة ، ولذلك يعسر ان يجتمعا في صعيد واحد ، الا بطريقة خاصة لتضادهما . وذلك في خمس حالات :

(١) : اذا عرف الانسان انه يمكن ان يبتلي بمحنة اعظم من هذه المحنة ، فواجبه عندئذ الصبر ؛ وشكر الله لانه انقذه من أعظم من ذلك .

(٢) : اذا عرف كل تجربة جسدية هي اهون من التجربة النفسية ، فواجبه الشكر والصبر على المحنة الجسدية ، كما حدث لاحد الآباء اذ دخل عليه اللصوص ليلاً ، فقال للاخوة الذين معه ، اتركوهم يعملوا عملهم ونحن نعمل عملنا ، فقدم لهم بعض الاخوة مغسلاً ليغسلوا ارجلهم ، وآخرون قالوا لهم : عجلوا قبل ان يأتي بقية الاخوة .

(٣) اذ عرف الانسان ان كل عذاب هنا زائل وعذاب الاخرة باقٍ ، فيصبر ان يفي الفلس الاخير ويشكر الله ان ينجو هناك .

(٤) اذا عرف الانسان انه لا بد ان يأتي الشكوك فاذا جاءت يصبر عليها . ويشكر الله لانه اراحه منها .

(٥) اذا عرف الانسان ان الثواب هو اضعاف العذاب هنا ، فيصبر

مسروراً ويشكر الله لانه سيمنحه الثواب الكامل كالمريض الذي وان تألم تحت مبضع الطبيب الا انه سيفرح بالشفاء .

الباب السابع

الرجاء

وفيـــه اربعة فصول

الفصل الاول

اقوال داود النبي في فضيلة الصبر

(١) بالرب اعتصمت فكيف تقولون لنفسي اهربوا الى جبالكم كالعصفور مز ١١ : ١

(٢) انت الذي اخرجتني من البطن وانت متكلي من ثديي امي ، السيك القيت من الحشا مز ٢١ : ١٠

(٣) هذا هو جيل طالبيه ملتمس وجهك يا اله يعقوب مز ٢٣ : ٦

(٤) احكم لي يارب فاني سلكت في سلامتي وعلى الرب توكلت فــلا ازل مز ٢٦ : ١

(٥) بك اعتصمت يارب فلا اخزى الى الابد بعدلك نجني مز ٣٠ : ١

(٦) ما اكثر اوجاع المنافق ، اما المتوكل على الرب فالرحمة تكتنفــه مز ٣١ : ١٠

(٧) توكلت على الرب واصنع الخير ، اسكن الارض وارعَ الامانة ، تلذذ بالرب فيعطيك سؤل قلبك مز ٣٦ ، ٣

(٨) والآن ما الذي ارجوه ايها السيد انما انت املي مز ٣٨ : ٨

(٩) اليك يارب ارفع نفسي ، الهي عليك توكلت فلا اخزى مز ٢٤ : ١

(١٠) انتظرت الرب انتظاراً فالتفت اليّ واستمع استغاثتي وانتشلني من

جب الهـــــلاك ، ومن طين الحمـأة ، واقام على الصخرة قدمي ، ثبت خطواتي مـز ٣٩ : ٢ و ٣

(١١) عند الله خلاصي ومجدي وفي الله صخرة عزي ومعتصمي ، توكلوا عليه كل حين ايها الشعب مز ٦١ : ٨

(١٢) الذين يتكلون على الرب عم جبل صهيون غير المتزعزع الثابت الى الابد مز ١٢٤ : ١

(١٣) قد باد عني كل ملجأ ليس من يسأل عن نفسي ، صرخت اليك يارب قلت انت معصمي انت حظي في ارض الاحيـاء مز ١٤١ : ٥ و ٦

(اعتمدنا في تسجيل هذه الآيات على الترجمة اليسوعية)

الفصل الثاني

= تحديد الرجاء =

الرجاء هو اشتياق النفس الى نوال ما يحبه ، بعد اعداد بعض الوسائط التي ينال معهـا المحبوب . وهذا هو الرجاء الحقيقي الذي لا يخيب ، لان من يرتجي امراً ولا يعد له الظروف اللازمة ، فرجاؤه ليس رجاء ، مثل الجهلاء . وهكذا من يأتي ضد ما هو بحاجة الى اتيانه ، ويطمع ان ينال ما يبتغيه فان رجاءه يخيب مع الخائبين . وبمـا ان نعمة الله جل شأنها ، هي وحدها تستحق ان ترتجى ، فما اعظم حكمة الانسان الذي يرتجيهـا ويعد العدة الكافية توصلا الى نوالها . حتى وان لم تكن تلك الوسائل كافية كلهـا ، فيكون حينئذٍ امله قوياً ورجاؤه راسخاً .

الفصل الثالث

✡ اسباب الرجاء ✡

هناك اربعة اسباب للرجاء في نوال نعمة الله ، وهي :

(١) : الاكتفاء بالحاجة الضرورية في المادة التي بها يكون بقاء الجسد .

(٢) : مطابقة الاعمال الجسدية للشرائع . (٣) : تنقية النفس من الاهواء المنحرفة . (٤) : التحلي بالفضائل التي تجمل النفس .

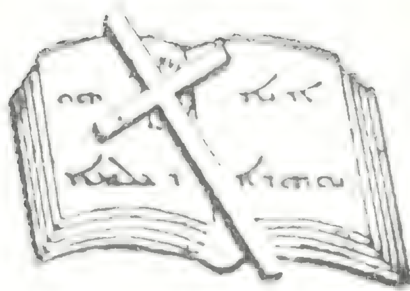
وكيفية اعداد هذه الاسباب الاربعة قد شرحناه في كتاب الايثيقون هذا امتناداً الى آيات الله البينات ، وتعاليم الآباء القديسين بصورة كافية .

الفصل الرابع

★ العلاجات التي تعزز الرجاء ★

يعزز الرجاء بعلاجين اصليين ، (١) : ان يتأمل الانسان بانواع هذه النعم التي نلناها كنقطة من بحر ، وشرحناها في الباب السابق ، وليحكم الانسان عدلاً ، وليقل في نفسه : اذا كان الله قد اعد لجسدنا الفاني كل هذه النعم العظيمة كيف يجرد هذه النفس ـ التي تفضل الجسد اضعافاً ـ من نعمه ؟ (٢) : ان يتأمل بأقوال الله التي تنفي اليأس وتقوي الرجاء ، كقوله تعالى : اسألوا تعطوا ، اطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم ، فكل من يسأل يأخذ ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له .

وليتأمل ايضاً بالأسرار والحجى والامثال التي نطق بها ربنا في هذا المضمار كقوله : من منكم ، اذا طلب اليه ابنه خبزاً يعطيه حجراً ، او سمكة فيعطيه حية ، اذا كنتم وانتم الأشرار تحسنون ان تعطوا اولادكم المطايا الصالحة فكم بالاحرى ابوكم السموي يعطي الخير للذين يطلبونه ؟ .



الباب الثامن

التقوى (خشية الله)

وفيه خمسة فصـــول

الفصل الاول

— اقوال الاباء في التقوى (خشية الله) —

كان احد الاباء يقول : لا يجب ان يفكر الانسان الا بخشية الله فقط . وسأل احد الاخوة شيخاً ، كيف ان نفسي متمردة ولا تريد ان تخشى الله ؟ فقال له الشيخ : ان النفس يا بني ، ترعب في التقوى وخشية الله لكنها لم تبلغ تلك الدرجة ، فان التقوى وخشية الله هي الكمال بعينه .

وقال الاب فومان في الاب فامبو : انه كان ينقل عن الاب انطونيـوس متحدثاً انه كان يتقي الله بدرجة جعلت روح الله ساكناً فيه . وقال الاب ايضاً : ان خشية الله تعلم الانسان جميع الفضائل . وقال الاب يعقوب : مثـــل السراج الذي ينير في الظلام كذلك خشية الله ، اذا انسكبت في قلـب الانسان تنيره وتعلمه جميع الفضائل وصايا الله .

سأل احد الاخوة شيخاً ، قال : ماذا افعل فليس في نفسي شعور ؛ ولا اخشى الله ؟ قال الشيخ : فتّش عن انسان لا يخشى الله وعاشره ، فتتعـلم منه كيف تتقي الله وتخشاه .

الفصل الثاني

تحديد الخوف

الخوف كـآبة قلبية تنجم عن معرفة العذاب المزمع ، وتكون عملية ونظرية شعورية . فالنظرية هي معرفة العثرات والمعاصي التي تسبب العذاب . وهـــذه

المعرفة تولد في النفس شعوراً بالاسى بداهة وبفعل هذا الخوف تظهر مفاعيل خاصة تؤيده وتشير الى عمقه ، ففي الجسد ، الهزال واصفرار الوجه ، وَقَفُ الشعر، وارتعاد الفرائص ، وفي بعض الاحوال يرافق كل ذلك الصراخ والغثيان ، واما في النفس ، فيتولد كره للخطيئة واستئصال شأفة الاهواء من اعماق القلب ، وهذا الخوف اذا اشتد ، يجعل الانسان حذراً حتى من الامور البريئة ، ومن العدل ان يدعى هذا باراً .

الفصل الثالث

درجات التقوى

للتقوى ثلاث درجات ، صغرى و كبرى ووسطى :

فدرجة التقوى الصغرى ، درجة الذين اذا سمعوا ببعض التهديد المحتوم على الاشرار ، يرهبون ويكتئبون ، وحالما يزول عن سمعهم ذلك تخف ايضاً خشية الله من قلوبهم فيعودون الى حالتهم الاولى .

ودرجة التقوى الكبرى ، درجة الذين تتطرف فيهم الرهبة من العدالة الى درجه اليأس الا كيد ، من رحمة الله ويقولون : اذا انتقمت الرحمة فلِمَ الاعمال ؟ وهكذا يحجمون عن العمل .

والدرجة الوسطى ، درجة الذين تتساوى لديهم المخاوف عنفاً وهوادة ، فيرهب ذلك الانسان العدالة ولكنه لا ييأس من رحمة الله ، والابرار يرجحون جانب العنف (الاغراق في الخوف) ويميلون اليه اكثر من ميلهم الى جانب الهوادة . على حد قول اليفاز التيماني : قف شعري ، وهزت الرهبة كياني .

الفصل الرابع

★ اقسام مادة الخوف ★

ان الضيق الذي ينشأ عن مسبل المعرفة ومنه يتكون الخوف ، اما جسدي

في هذا العالم ، كالحريق والغريق وما اليها ، وإما نفسي في العالم الآتي كجهنم التي نارها لا تنطفيء ، والدود الذي لا يموت .

والقسم الاول من هذا الخوف يرفضه العارفون ، ويعتبرونه جبناً ، ويهجونه ويحتقرونه بشجاعة ويقولون : ان عبد الرب لا يخشى إلا الرب ، ومن لا يخاف الله فانه يخاف ظله مرات كثيرة ، وقد سأل احد الاخوة الاب ثيودورا الفرمي : اذا حل الخوف ألا تخاف ؟ قال : اذا انطبقت السماء على الارض فان ثيودورا لا يخاف وقال الاب اوغريس : لم نأخذ روح الخوف ولذلك اذا سمعنا بالاضطراب فلن نضطرب ، لانه لم يكن سلطان علينا حتى للخنازير . وسأل اخ أحد الشيوخ قال : لماذا اخاف اذا سرت في الصحراء وحدي ؟ قال : لانك لم تزل حياً .

والقسم الثاني من الخوف ، هو الذي يمتدحه العارفون ويرفعون شأنه ، وقيل ان ثلاثة شيوخ زاروا الاب سوسايس لسماعهم بأنه رجل بار عظيم ، فقال له الاول : ايها الاب كيف يمكنني النجاة من بحر النار ؟ وسأله الثاني ، كيف يمكنني ان اخلص من صرير الاسنان ؟ وقال له الثالث : ماذا افعل ايها الاب ان اذكر الظلمة الخارجية يقلقني ؟ وبعد وقت قصير قال لهم : طوبى لكم ايها الاخوة فاني قد غرت منكم فاذا كان فكركم محصوراً بهذه الامور فلا يمكن ان تخطئوا ، فماذا افعل انا الجامد القلب ؟ ان قساوة قلبي لاتسمح لي بأن اشعر ان هناك عذاباً ينتظر الناس ، وعليه اني اخطيء دائماً ، فلما سمع الشيوخ ذلك ، قدموا امامه التوبة وقالوا : كما سمعنا هكذا رأينا .

الفصل الخامس

﴿ الوسائط التي بها تثبت خشية الله (التقوى) ﴾

ان السعادة التي تنالها النفس البشرية آخر المطاف ، هي ملكوت الله ، وهذا الملكوت يكتسب بالمحبة ، والمحبة تنمو بالمعرفة ، والمعرفة بالتفكير ، والتفكير يكمل بالاعراض عن الدنيا ، ويعرض عن الدنيا باستئصال شهواتها بحفظ الشرائع والوصايا

وهذه تحفظ خشية الله (التقوى) وخشية الله تتولد خوفاً من خمسة امور : إما العقاب الآتي في هذه الدنيا ، واما من الاملاق في هذا العالم ، واما من عذاب جهنم ، واما من النعيم في الفردوس ، او من عدم استحقاق الانسان رؤية الله ، وهذه هي الملكوت بالذات .

والخوف من الصنفين الاول والثاني ، ويحدث للذين لم يزالوا يحتاجون اللبن كالاطفال ، ويثبتان بسماع اخبار البركات واللعنات في الكتب .

والخوف من الصنفين الثالث والرابع ، يحدث للذين بلغوا درجة اكثر كمالاً ، ويرسخان في القلب بذكر الوعد والوعيد الانجيليين ، اي بالتأمل بمجيء ابن الله وجلوسه على عرش مجده ، واجتماع الامم امامه ، وتمييز الصالحين من الطالحين كالحملان والجداء ، ودعوة ابناء اليمين (يا مباركي ابي) وتمتعهم بالملكوت المعد لهم ، ولعنة الجداء ابناء الشمال وطردهم الى النار المعدة لابليس وجنوده . وتصور ملائكة الغضب ، والهوة اللامتناهية واللهب التي تحت الارض ومزالق المغاور الضيقة .

ان العارف لا يخاف من جميع هذه المخاوف ، ويضطرم شوقاً الا يحرم من رؤية الله ، واذا ما سمع ذلك الوعد القائل (حيث اكون انا تكونون انتم ايضاً) يخشع دامعاً خوف ان يحرم من ذلك ، وحرصه فقط ان يكون اهلاً لذلك النعيم ، وهكذا يتوجه الى الله بالصلاة قائلاً : انني اطلبك يا ابانا الذي في السموات ، ولست اطلب ما لديك ، ولا شيء من براياك ، انك ينبوع الحياة ، فاسكب فيّ نورك ، واضرم فيّ نارك ، اسعدني بجمالك ، ارني اشعتك ، ادخلني الى حجالك ، وضمني الى خدرك ، اضناني حبك فلينعشني سعدك .



الباب التاسع

الفقر « الاختياري »

وفيه خمسة فصول

الفصل الاول

★ اقوال النبي داود في فضيلة الفقر « الاختياري » ★

١ — ويكون الرب ملجأً للملهوف في آونة الضيق مز ٩ : ١٠

٢ — فان المسكين لا ينسى على الدوام ورجاء البائس لا ينقطع الى الابد مز ٩ : ١٩

٣ — قد سمعت يارب بغية البائس فاهب قلوبهم واصغِ باذنك مز ٩ : ١٧

٤ — فانه لم يزدرِ ولم يسترذل بؤس البائس ولا حجب عنه وجهه واذا استغاث به استجاب مز ٢١ : ٢٥

٥ — ويهدي البائسين الى العدل ويعلم البائسين طريقه مز ٢٤ : ٩

٦ — بالرب تفتخر نفسي ، يسمع البائسون فيفرحون مز ٣٣ : ٣

٧ — ان هذا المسكين دعا الرب فسمع ، ومن مضايقه خلصه مز ٣٣ : ٧

٨ — اما الودعاء فيرثون الارض ويتلذذون بكثرة السلام مز ٣٦ : ١١

٩ — قد استل المنافقون السيوف ووطئوا قسيهم ليصرعوا البائس والمسكين ويذبحوا المستقيمي الطريق ، سيوفهم تجوز في قلوبهم وقسيهم تنكسر ، ان يسير الصديق خير من وفر منافقين كثيرين مز ٣٦ : ١٤ - ١٦ .

١٠ - والصديقون يرثون الارض ويسكنونها الى الابد مز ٣٦ : ٢٩

١١ - وانا بائس ومسكين السيد يهتم بي ، انت نصرتي ومخلصي يا الهي فلا تبطيء مز ٣٩ : ١٨

١٢ ـ ويرى البائسون فيفرحون وتحيا نفوسكم يا طالبي الله ، لان الرب يسمع المساكين ولا يرذل اسراه مز ٦٨ : ٣٣ و ٣٤

١٣ ـ اللهم اجعل احكامك للملك وعدلك لابن الملك ، فيحكم لشعبك بالعدل ولبائسيك بالانصاف مز ٩١ : ١ ـ ٣

١٤ ـ لا يرجعن الملهوف في خزي ، وليسبح لاسمك البائس والمسكين مز ٧٣ : ٢١

١٥ ـ احكموا للكسير واليتيم وانصفوا البائس والفقير ، نجوا الكسير والمسكين وانقذوا من يد المنافقين مز ٨١ : ٤ و ٥

١٦ ـ امل يا رب اذنك واستجب لي فاني بائس ومسكين احفظ نفسي فاني صفي مز ٨٥ : ١ و ٢

١٧ ـ هذه هي راحتي الى الابد ههنا اسكن لاني احببتها ابارك طعامها بركة ، اشبع مساكينها خبزاً مز ١٣١ : ١٤ و ١٥

١٨ ـ قد علمت ان الرب يجري الحكم للبائس والقضاء للمساكين مز ١٣٩ : ١٣

١٩ ـ الرب يحب الصديقين الرب يحفظ الغرباء وينعش اليتيم مز ١٤٥ : ٨ و ٩

٢٠ ـ الرب ينعش الودعاء ويسقط المنافقين الى الارض مز ١٤٦ : ٦

(اعتمدنا في تسجيل هذه الآيات على الترجمة اليسوعية)

الفصل الثاني

تحديد الفقر واصناف الفقراء

الفقر هو التجرد عن المادة التي تكمل حاجة الانسان ، ويقول بعضهم : ان الذي لديه اربعون او خمسون درهماً فانه يقف بين درجتي الفقراء والاغنياء ، وبالتجرد عن المادة يكون الفقراء ستة اصناف :

(١) الفقير الذي يتساوى لديه الغنى والفقر ، فلا اذا كان معدماً يضطرب ، ولا اذا اضحى غنياً يحجم عن عمله .

(٢) : الفقير الذي يتسامى عن المادة وان تهيأت لديه بغزارة ، امثال ذلك الشيخ الذي طلب اليه الاسقف ان يأخذ (مادية) ان لم يكن لحاجته فلحاجة المحتاجين ، قال الشيخ : ان في ذلك عاراً مضاعفاً ، اولاً : ان آخذ صدقة ولست محتاجاً ، ثانياً : ان ادفعها بعجرفة وهي غريبة عني .

(٣) : الفقير الذي لا يرغب في المال حتى عند الاملاق ، ولا يختزنه بكثرة بل يعطي كما يأخذ ، وليس هذا النوع مذموماً ، بدليل ان الاب زيتون لم يكن يتناول في باديء امره شيئاً ، وكان يلاحظ الذين يقدمون اليه ذلك يرجعون حزينين والذين يطلبون اليه يعودون خائبين ، لان ليس لديه ما يأخذون ، فشرع يأخذ من الذي يقدم له ويعطي للذين يطلبون اليه ، وبذلك ابهج الطرفين .

(٤) : الفقير الذي وإن رغب في نوال ما يفيض عن الزهد ، إلا الرغبة في الاموال تستولي عليه ، فيندفع لتحصيلها ، وهذا هو الضعف الذي ينضوي تحته الافاضل من النسك في عصرنا .

(٥) : الفقير الذي لا يحجم عن جمع المال كرهاً به ، بل لانه لا يستطيع اولاً يعرف ، كيف يجمعه ، وتحت هذا الصنف ينضوي النساك البسطاء في عصرنا .

(٦) : الفقير الذي لا يمكنه اعداد ما هو ضروري لحياته العادية ، كالمأكل والملبس ، وهذا الصنف ليس ممدوحاً ، بدليل ان الآباء في الصعيد (مصر) كانوا يعدون خبزاً لعدة ايام وسئل احدهم : لماذا تخالفون وصية الانجيل القائلة (لا تهتموا بما للغد) ؟ قال اننا نعد قوتنا لعدة ايام لئلا نهتم بذلك كل يوم .

الفصل الثالث

✡ معارضة الفقر والغنى احدهما الاخر ✡

اننا نجد رأيين اثنين في هذه المعارضة ، (١) : رأي العارفين الذين يفضلون الاملاق مع الصبر على الغزارة مع الرحمة ، (٢) : رأي الابرار العلمانيين الذين يعتقدون بالعكس ، ويعتبرون الغزارة مع الرحمة افضل من الاملاق مع الصبر ، ويجب ان نعلم ان الغنى لا يرفض لذاته كغنى ، بل لانه يشغل عن ممارسة الاعمال

الروحية ، وكذلك الفقر لا يرفض لذاته كفقر ، بل لانه يهيء فرصة للاعمال الروحية فكم من غني لا يمنعه غناه عن العمل ، وهو موغل في الرحمة ، وكم من فقير يقلقه فقره ولكنه لا يتوقف عن السعي ، ولكن اذا وجد شخصان غني وفقير يعتبران الغنى مثل الماء الجاري ، فلا يقلق حارسه ، ولا ييأس معده ، فيكونان متساويين في عدم التوقف عن العمل ، ولكن هيهات وجود مثل هذا الغني ، انه لأمر عسير ، ولذلك يبتعد الفقير اكثر من الغني عن المحنة ، كيف لا وهوذا كلمة الله تؤيد صعوبة دخول ذوي اليسار الى السماء اكثر من دخول الجمل في ثقب الابرة ، وتمنح الطوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السماء ، ولذلك قال الاب اوغريس : احذر لئلا تسقط مشغوفاً بحب المال بسبب عطفك على الفقراء ، كأنك تريد ان تتصدق ، ان شأنك ارفع من شأن المتصدقين ، فالتصدق نظام ينشأ منذ الصغر ، واما الزهد فانه طريق الكمال : وقال ايضاً : ان صدقات المتصدقين دموع اجفانهم وانين ارقهم .

الفصل الرابع

الشروط التي يجب ان يراعيها الفقير

يجب على الفقير البار ان يراعي عشرة شروط :

(١) : ان يقاسي فقره بدون تذمر ، ولا يخجل بذلك ، وليلق كل همه على الرب على حد قول الاب اوغريس : لنلق همنا على الرب فذلك يكفي حاجتنا فيمكننا ان نخلع المجد الباطل ، واذا ظن احد ان الفقير يزدري فلينظر الى القديس بولس فقيراً مملقاً ينتظر اكليل البر .

(٢) : ان يترفع فيقبل جهد امكانه ما يقدم له هدية لا صدقة .

(٣) : الا يكون مماذقاً مداجياً للاغنياء بل يحتقر غناهم ولا يدنو منه ان امكن .

(٤) : الا يتوقف عن عمل الفضيلة بدافع الفقر فينقلب زهده سبباً للطمع .

(٥) : الا يختزن قوتاً غزيراً لزمن طويل ، فاذا كان واجبه في العالم فليعد ما يكفيه ليوم واحد ، وان كان يسكن ديراً قريباً من المناطق الآهلة فليعد ما

يكفيه لمدة اربعين يوماً ، وان كان من سكنة البرية فليعد ما يكفيه لسنة كاملة ، كما يفعل النساك المصريون الذين يخرجون الى الحصاد فيعدون قوتهم سنة فسنة .

(٦) الا يطلب ، اذا تهيأت له الحاجة بدون طلب ، والا فليطلب ، وان فاض عن حاجته فليعطِ للمحتاجين على حد قول الاب اوغريس : اذا كنت بحاجة الى غذاء او كساء ، فلا تخجل ان تقبل ذلك ممن يقدمها لك ، فذلك مما فاض لديهم ، فان فاض لديك فاعطِ ايضاً للمحتاج ، فقد علم الرسول بولس اهل كورنثوس بقوله : ليكن ما يفيض لديكم لسد عوز المحتاجين ، لكي يكون ما يفيض عنهم لسد عوزكم ايضاً ، لتتم المساواة كما هو مكتوب : من اخذ كثيراً لم يزد شيئاً ومن اخذ قليلاً لم ينقص .

(٧) ان يفحص ما يقدم له فان كان من مال الظلم فليرفضه .

(٨) ان ينظر الى هدف الواهب وليميز هل هــو يعطي سخـاء او تساخياً طمعاً في المديح والشهرة ؟ وحينئذ يرفض تلك الهبة .

(٩) لينظر هل يوجد غيره اكثر حاجة منه ؟ فلا يأخذ حينئذ ، بل يشير الى الواهب ان يعطي لذلك المحتاج ، واذا كان بعيداً فليأخذ الهدية او العطية ويرسلهـا اليه .

(١٠) ليتأمل ذاته ؛ فاذا وجد في نفسه نقصاً خفياً لو عرفه فيه الواهب لما اعطاه ، فليظهر له ذلك النقص ، او يرفض قبول تلك العطية .

الفصل الثالث

الاسباب التي تجيز الطلب او تمنعه

يجب ان نعلم ان الطلب بذاته غير شرعي وغير جائز ، ولولا الضرورة القصوى لما اجيز ، وعدم شرعيته يعرف من ثلاثة امور :

(١) لان طلب الفقير يعقبه غالباً التذمر على الله تعالى الذي يُفقر ويغني .

(٢) لان الفقير الذي يطلـــب يعتمد غالباً على النـاس وبذلك لا يعتمد على الله .

(٣) لان الطالب غالباً يزعج ويقلق الذين يطلب اليهـــم .

اما الضرورة التي تلجيء الى الطلب وتبرره ، فتكون اذا تضايق الفقير جوعاً ويخشى الموت الاكيد ، او عرياً وهو في فصل الشتاء القامي ، هذا اذا لم يستطع العمل بسبب ضعف او مرض او الانشغال بالعلم او العمل الروحـــي ، فحينئذ يبرر طلبه .

وحاجة الفقراء الضرورية تنحصر في ثلاثة امـــور : **المأكل والملبس والمسكن** ، وضرورة المأكل تكون ليوم واحد او لاربعـــين يوماً ، او لسنة كاملة ، وضرورة الملبس تتألف من رداء وقميص وقبعة للنساك ، ويضاف اليها غطاء الرأس للعلماني . وضرورة المسكن يعتبر البيت واثاثه ، ويجـــب على الفقراء الطلب البسيط من كل شيء فمن الخبز مثلاً ليكتفِ بخبز الشعير ، او الدخن ، ومن الملبس ، من الكتان او الصوف ، ومن المسكن في كوخ متواضـــع من الطين ومن الاثاث الحديدية والخشبية والخزفية منها ، وقطعة واحدة فقط من كل نـــوع .

الباب العاشر

الزهد

وفيه ثمانية فصـــول

الفصل الاول

★ اقوال الآباء في فضيلة الزهد ★

قيل ان الابوين فاخوم ويوحنا كانا يسكنان الدير معوية وكانا زاهدين ولم يكن لديهما الا خشية الله . الابوان تيودورا وادور كانا لابسين جلود الحملان ، وقال احدهما لرفيقه يوماً : اذا زارنا الله الآن فماذا نفعل ؟

قال الاب سرافيون : ان احد الاساقفة زار احد الرهبان فوجـــد

شباكه كدست عليه الكتب ، وطلب اليه الراهب ان يقول كلمة لحياته الروحية ، قال الاسقف : ماذا اقول وشباكك كدست فيه اموال الايتام والارامل ؟ وقال الاب تيودورا الفرمي للأب مقاريس : لدي ثلاثة كتب جليلة افيد منها انا والاخوة ايضاً ، قال له الشيخ : انها حقاً لمن جليل الاعمال إلاّ ان الزهد اجل منها .

قال راهب لاحد الشيوخ : كيف يجب ان احيا ؟ فنزع الشيخ قبعته وربط حقويه ، ورفع يديه وقال : هكذا يجب ان يكون النساك مجردين عن المادة الدنيوية ومجاهدين جهاداً عقلياً كالابطال .

قال الاب انطونيوس : ان من يرغب في الدنيا ، ولم يزل محتفظاً بالاموال يشبه رجلاً حمل على جسمه قطعاً من اللحم في احدى الصحارى ، فتهاجمه الكلاب وذوات الجناح مُستبيحة جسده . وكان احد الرهبان يملك انجيلا فقط ، فباعه واعطى ثمنه قوتاً لبعض الجياع ، وقال : ان الانجيل نفسه امرني ان ابيع كل ما لدي واعطيه للمساكين ، وعليه فقد بعته لاكون خاضعاً لاوامره .

وقال الاب اوغريس : ان الامور المحسوسة هي صورة الامور المعقولة ، وكما تعيق الثياب المصارع في الحومة ، كذلك تعيق الافكار الدنيوية العقل ، لان العقل يحوم حول كنزه كما قال الرب: (حيث كنوزكم هناك قلوبكم) وقال : من اعدّ نفسه للزهادة ، فقد اراح ضميره ، ومن كان مرتبكاً بالاموال فالقلق نصيبه : وقال ياونّي رئيس الدير : ان الزاهد هو سيد العالم وبايمانه يسود جميع الناس لانه لا يُطاع انساناً على حاجته ، فان قُدّم له شيء فكأنه يناله من يد الرب . وقال ايضاً من تذوق عذوبة المتع الروحية يحتقر المتع الدنيوية بسهولة ، ومن لم يذقها فهو يتهج بالاموال ، والناسك الجاهل يخسر الجولتين لانه يتجرد من الاموال ويحرم من النعيم في الاخرة .

* * *

الفصل الثاني

تحديد الزهد وعناصره

الزهد هو الاعراض عن امر مرغوب نزوعاً الى ما هو افضل منه ، وعناصره ثلاثة انواع : **نظري وعملي وشعوري** .

فالنظري هو معرفة اكيدة بتفاهة امر زائل والاعراض عنه ، وسمو امر باقٍ والنزوع اليه ومن هذه المعرفة يتولد شعور باحتقار الامور الزائلة حباً بالنعم الباقية ، وهذه الافعال العملية تسبب الاعراض والنزوع المشار اليها وبما ان الصالح جل جلاله ، هو الاصلح والافضل ، وقد نزع اليه واعرض عن سواه ، فلذلك هو الزاهد الصادق .

يختلف الزهد عن الفقر بكون الزهد تجرد عن الغنى بترفع اختياري ، والفقر قد يكون بعد التجرد ، بترفع او لا يكون ، ولكن هذا التجرد يمكن ان يكون غير اختياري ، بدليل قول احد الآباء لمن سماه زاهداً : لماذا تدعوني زاهداً فانا فقير .

والاب ارسانيوس كان بحق زاهداً وقد كان مدة اربعين سنة مربياً ومرشداً للملك تيودوسيوس وولديه بعده هونوريوس واركاديوس ، فاحب الله ، وزهد في كل تلك العظمة معرضاً عن مباهج الدنيا .

الفصل الثالث

★ درجات الزهاد ★

للزهاد ثلاث درجات **سفلى ووسطى وعليا** . فالسفلى ، درجة الزّهاد الذين يزهدون في مباهج الدنيا ومسراتها خوفاً من العذاب ، وحذراً من ان يحتاجوا الى (لعازر) مسكين يبل طرف اصبعه بالماء ويبرد غليلهم ، وهم يتقلبون في اللهيب ، كما يتمتع الغني الغبي بلبس الخز والارجوان وباطايب الحياة وغناها .

والوسطى ، درجة الزّهاد الذين يعرضون عن المتع الحاضرة طمعاً في النعم

المزمعة واما العليا فهي درجة الزّهاد الكاملين العارفين الذين يطلبون الصالح وحده ، وعما سواه يعرضون ، وآيتهم الذهبية هي اقوال المرتل (اليك صبا قلبي ووجهي يطلب وجهك) (وان نفسي ظمأى الى الاله الحي) وغيرها .

وقد شرح الفاضل ياوّني هذه الدرجات الثلاث في كتابه الجليل بقوله : ان جميع الذين اعرضوا عن العالم باختيارهم ، انما قاموا بذلك اما خوفاً من فيوض الخطايا ، واما طمعاً في الملكوت المزمعة ، او حباً بالله وحده ، وفيما عدا هذه الاسباب الثلاثة فالاعراض جهل .

والنوع الاول من الزهد يعتبره العارفون باطلاً ، حيث لا توجد خطيئة ولا خوف من العذاب ، وكذلك النوع الثاني ، وعندهم ، ان من يعرض عن مباهج الدنيا طمعاً في نعم الآخرة انما هو رحى حمار ، تراه خبلاً موتوراً ، اما من يعرض عن متع الحياة حباً بالله يكتسب في باديء امره حرارة روحية تشبه النار فتحرق ما بقي لديه من ادران المادة ثم تتأجج رويداً رويداً حتى تصبح لهيباً عالياً .

الفصل الرابع

الزهد في الطعام

لانواع الطعام طول وعرض فيجب على المتزهد ان يقلصها ويكتفي ، ولكي يجعل الطول قصراً لديه ثلاث درجات : **الاولى** : ان يعد الطعام ليوم واحد ، **والوسطى** : طعام اربعين يوماً ، **والسفلى** مؤونة سنة كاملة .

وتقليص العرض ايضاً يكون بثلاث درجات : في **الكمية والكيفية والزمن** ، فبالنسبة الى الكمية للدرجة العليا ، بان يعد نصف منّ : والوسطى منّاً واحداً ، والسفلى منّاً ونصف منّ ، وبالنسبة الى الكيفية ، فللدرجة العليا : عداد خبز الدخن والملح والبقل والخل ، والوسطى خبز الشعير ، والزيت ، والسفلى : اعداد خبز الحنطة والسمك والجبن والبيض والحليب والزبد .

وبالنسبة الى الزمن : فصاحب الدرجة العليا يطوي ثلاثة ايام صائماً قانتاً ، وصاحب الدرجة الوسطى يطوي يومين ، وصاحب الدرجة السفلى يأكل مرة واحدة في اليوم .

وهذه هي درجات الزّهاد عامة وهم غير الذين اشرنا اليهم في المقالة الثالثة ، المتروضين الجدد في اعمال الزهد .

الفصل الخامس

﴿ الزهد في الملبس ﴾

وللملبس ايضاً كمية وكيفية ، فالدرجة العليا بالنسبة الى الكمية ، درجة الكاملين الذين يرتدون ما يغطي الجسم الى الركبة فقط ، وهم يتمنطقون بمنطقة من جلد ، والدرجة الوسطى ، درجة الذين يرتدون رداء ويتدثرون بغطاء ، ويتخذون منطقة ونعلا ، والسفلى : درجة الذين يضيفون الى ذلك جبة وقميصاً .

اما الدرجة العليا بالنسبة الى الكيفية فانها ثياب من شعر المعزى ، والوسطى ثياب من الصوف ، والسفلى ثياب من الكتان .

ان الاب اسحق قسيس الصوامع كان يقول نقلا عن الاب فمبو : ان الثوب الذي يمكن للزاهد ارتداؤه ، هو ما طرح ثلاثة ايام خارج الصومعة فلم يأخذه احد ، وكان يقول ايضاً : ان الاب فمبو وبقية الآباء كانوا يلبسون الثياب الخلقة المرقعة ، وانتم الان ترتدون الثياب الثمينة ؟ فاذهبوا من هنا فقد دمرتم هذه الديار . والاب ارسانيوس الذي كان يرتدي افخر الثياب في حياته الدنيوية اخذ يلبس ابسطها في حياته النسكية في الاسقيط . (صحراء مصر)

الفصل السادس

﴿ الزهد في المسكن ﴾

وللمسكن ايضاً ثلاث درجات **العليا والوسطى والسفلى** . فالعليا : درجة المتزهد الذي لا يبني مسكناً خاصاً معيناً ، بل يسكن حيث وجد ، ان كان هيكلا

او كوخاً ، واذا طرد من مثل هذه الاماكن بل ليعتز بذلك ، لانه تشبه بسيده الذي قال : (للثعالب اوجرة ولطيور السماء اوكار ، واما ابن الانسان فليس له اين يسند رأسه) والوسطى : درجة الناسك الذي يسكن صومعة من لبن او حجارة مساحتها اثنا عشر شبراً (طولاً وعرضاً وارتفاعاً) لان بيتاً اوسع من ذلك هو بيت غني لا بيت ناسك .

الفصل السابع

الزهد في الاثاث

وكذلك للاثاث ثلاث درجات ، **عليا ووسطى وسفلى** . فالعليا : درجة الاب مغتيس فقد قيل عنه انه اذا كان خارج صومعته وجال في خاطره الانتقال الى ربع جديد لم يكن يعود الى صومعته ليأخذ منها شيئاً ، اذ لم يكن في صومعة غير ابرة واحدة ، كان يثقب بها سعف النخل الذي كان يجد له ، فقد كان يشتغل كل يوم بقدر حاجته فقط ، ويروى ان ناسكاً آخر كان يملك مشطاً وكوزاً للماء ، ورأى يوماً رجلاً يمشط لحيته باصابعه فطرح المشط ايضاً .

وبما ان ابناء زماننا يصعب عليهم بلوغ هذه الدرجة فدرجتهم العليا هي : ان يملكوا ما كان ضرورياً من اثاث فخارية وان كانت بعضها مكسورة . والدرجة الوسطى : درجة الذين يملكون اواني غير مكسورة ، وبقدر الامكان يستعمل اناءً واحداً لحاجات كثيرة . والدرجة السفلى : درجة النساك الذين يستعملون لكل حاجة آنية خاصة تناسبها .

الفصل الثامن

الزهد في المال

لا درجات للزهد في المال طبقاً لرأي العارفين ، لان الزهد الحقيقي هو عدم وجود مال للزاهد . وفقاً لتعاليم الانجيل (اذا اردت ان تكون كاملاً فبع كل ما لديك واعطِه للمساكين ، فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني)

قيل ان راهباً سأل احد الشيوخ قائلا: اتجيز ان ادخر لي درهمين لوقت الحاجة، عند هزال الجسد؟ قال: نعم، ولاحظ الراهب ان الشيخ بدا كئيباً، فعاد اليه ثانية وقال: الا بحق الرب صرّح لي بشأن الدرهمين فقد قلقت افكاري فيها، قال الشيخ: لا حاجة بك ان تدخرهما، فلو فقدا صدفة فهل تعتقد ان الله سيهتم بامرك؟ فلنلقِ عليه همنا وهو يهتم بنا دائماً.

ويرتأي البعض ايضاً، اذا كان الانسان لا يمكنه ان يعمل عمــــلاً يدويا، واضطر ان يزاول التجارة يجوز له ان يملك مؤونة تكفيه سنة واحدة، ولا يسقط بذلك من درجة الزهد.

الباب الحادي عشر

التوكل

وفيه عشرة فصول

الفصل الاول

★ اقوال الآباء في فضيلة التوكل على الله ★

كان احد النساك لا يعمل عملا يدوياً مطلقا، وكان يصلي بدون انقطاع، وكان يعود الى صومعته مساءً فيجد خبزاً فيأكله ولما زيّن له بعض النساك العمل، عاد في ذلك المساء كعادته الى صومعته فلم يجد شيئاً من الخبز، فنام على الطوى، وظهر له الرب قائلا: اذا كنت معتمداً عليّ "قتّتك، والآن وقد باشرت تشتغل فاطلب قوتك من عمل يديك.

والاب افوس يوم كان ناسكاً كان يقتات من نعمة الله، ولما رسم اسقفاً انقطع عنه ذلك فانطرح امام الرب مصلياً وقال: يارب ابسبب الاسقفية احتجبت عني النعمة؟ فقيل له: لا، بل يوم كنت في البادية لم يكن هناك من يقيتك فكان الله يهتم بامرك، والآن انت في العالم والناس سيهتمون بك.

سال احد الاباء الاب سوسايس وقال : اذا سكنتُ القفر وهاجمني اللصوص ليقتلوني هل اقتل منهم من يمكنني قتله ؟ قال الشيخ : لا، سلّم نفسك لله وانتظر، وليعتبر الانسان كل محنة تصيبه انما هي عقاب الخطيئة ، وكل نعمة تأتيه انما هي عطف الهي .

قال الاب سيرينوس : انني قضيت حياتي كلها في العمل حصاداً ونسيجاً وخياطة وفي هذه الاعمال كلها لو لم يقتني الله لما شبعت . وقال الاب اوغريس ان اهتمام الجسد يوقف الاعتماد على الله . وقال مار اسحق : لا يمكن للانسان عمل شيء بقوته الخاصة ، فمن البدهي ، عند كل حكيم ، ان معونة الله والارادة القوية تقدران على تذليل كل عقبة . فذلك فقط ممكن . وقال ايضاً : ان الناسك الذي يمارس اعمال التوبة ويستغرق بالزهد والفضائل على انواعها ويتكل على بره وليس على النعمة ، لا يختلف بشيء عمن يجمع حجارة لقبره .

الفصل الثاني

تحديد التوكل وعناصره

التوكل تسليم الانسان قيادة اموره لتدبير الخالق ، سواء في نوال نعمة او في دفع نقمة ، وللتوكل — شأن جميع الفضائل التي تجمل النفس — ثلاثة عناصر ، **نظري وعملي وشعوري** .

فالنظري ، هو معرفة الانسان ان لا نصير في هذه الطبيعة غير الله الذي يهمه امر البشر ، لان منه وفيه كل شيء ؛ ومن دونه لم يكن وأن يكون شيء ، وبما انــه عادل فانه يدبر كل شيء ، ولكونه قهّاراً قادراً على كل شيء ، فهو يشفق على كل انسان . فيه نحيا ونتحرك ونوجد ، ويحيي ويميت ، ويجرح ويضمّد ، وليس من يتمرد على حكمه ومن هذه المعرفة ، يتولد التوكل على الله بقرب معوناته وزوال المضار ، هذا الفعل العملي يولّد في النفس الشعور بالراحة والاطمئنان والنجاة من القلق في امور الجسد .

* * *

الفصل الثالث

درجات التوكل

للتوكل ثلاث درجات: **سفلى ووسطى وعليا** ، فالسفلى ان يتوكل الانسان على ربه توكل صبي على وصيه بسد جميع حاجاته . والوسطى : ان يتوكل الانسان على الله توكل الرضيع على امه ، وهو لا يعرف سواها ولا يطلب حاجة من غيرها . والدرجة العليا : ان يعتبر الانسان ذاته بهيمة امام ربه ، يذهب به حيث يشاء .

وحدد النبي داود الدرجة الثانية بقوله : لانك انت ملجأي من الرحم ، ورجائي ثديي امي ، عليك طرحت من الرحم ، منذ احشاء امي انت الهي ، فلا تعرض عني .

وحدد الدرجة الثالثة بقوله : كنت جاهلا ولم اعرف ، وكنت كالبهيمة امامك ، فدبرني بعطفك وحنانك .

والدرجة الاولى اقل قيمة من الثانية ، والثانية من الثالثة بدليل ان الطفل يحاول الاعتماد على نفسه يوماً بعد يوم ، متطلعاً الى اليوم الذي فيه يتحرر من سلطة وصيه ، وليس هكذا الرضيع الذي لا يعرف الاعتماد على نفسه قط ، ولكن بعد حين ، يدرك عدم حاجته على مرضعه ، وذلك بعكس البهيمة التي تعتمد على صاحبها الى نهاية حياتها .

وبما ان التوكل البشري اما ان يكون طلباً للفائدة او حفظاً للنعمة ، او حذراً من اذى متوقع ، او دفعاً لضرر حاضر ، لذلك سندرس كلا من هذه الانواع الاربعة من التوكل بفصل خاص .

الفصل الرابع

التوكل طلباً للفائدة

التوكل الحقيقي على ثلاث درجات ، طلباً واستمداداً للنعمة ، عليا ووسطى وسفلى :

فالعليا هي درجة الكاملين العارفين، الذين يتوصلون الى اسمى ذروات الكمال، فيهجرون الوسط البشري الى البراري المقفرة بدون زاد، والوسطى: درجة الكاملين العارفين الذين يطوفون بين الغرباء وينفردون في الكنائس وغيرها، ويقتاتون بما يقدم لهم بدون طلب، واذا لم يصيبوا شيئاً لا يتذمرون. والسفلى: درجة الذين اذا احتاجوا تاجروا، وان اخفقوا في التجارة عمدوا الى الاعمال اليدوية، واذا فشلوا لجأوا الى الطلب، وما يصيبونه من التجارة او العمل او الطلب يعتبرونه كأنه من يد الرب الذي يتوكلون عليه.

والدرجة العليا، ليست هينة، بحيث يبلغها كل انسان، ولما منع الرب رسله من اخذ زوادة في الطريق لم يمنعهم من ذلك عند سفرهم في القفار، بل اذا جالوا في مدن اسرائيل وقراه، بدليل قوله لهم: — بعد ان نهاهم من حمل الذهب والفضة وما الى ذلك فاردف: وأية مدينة او قرية دخلتموها وفتشوا عمن كان مستحقاً وهناك اقيموا حتى تخرجوا. ولما سار في القفر مع تلاميذه وجد معهم خمس خبزات وسمكتين، وكان مرة اخرى في الجبل الى جانب بحر الجليل، وكان لديهم خبزات وشيء قليل من السمك، واذا كان احد الابرار يمكنه الاقتيات بالاعشاب او اصول الشجر او الجراد، ويمكنه الانقطاع اسبوعاً كاملا، حيث يأمل ان يقابل انساناً في كل اسبوع، فهذا يمكنه السير في القفر بدون زوادة، والا يصبح توكله عثرة له اذا اضطربت افكاره، ولا يتورع ان يجدف على المقيت الاسمى.

والرهبان الذين يسكنون الديورة، اذا دفعت لهم حصة معينة سنوياً من ريع اراضيها او حقولها فهم مجردون من التوكل (على الله) وهكذا الذين يرسلون من يجمع لهم قوتاً وكسوة. فالمتوكلون الحقيقيون على الرب هم الذين ينزوون في صوامعهم ويقتاتون مما يصيبهم بدون الطلب.

* * *

الفصل الخامس

التوكل حفظاً للنعمة المعدة

درجات التوكل حفظاً للنعمة الحاضرة المعدة ثلاث : **عليا ووسطى وسفلى .** فالعليا : هي درجة العارفين الذين يتناولون ما يكفيهم مؤونة يوم واحد ، وما يفيض عنهم يعطونه للمحتاجين ، اذا كانوا بقربهم ، او يحفظونه لهم الى حين حضورهم ، والوسطى : هي درجة المتوسطين سليمي الرجاء والتوكل على الله بصورة مطلقة ، فهم يحفظون مؤونة اربعين يوماً ، والسفلى : درجة المجردين من الرجاء فيدخرون قوت سنة كاملة .

الفصل السادس

★ التوكل حذراً من الخطر المتوقع ★

كل خطر متوقع اما ان يكون ممكناً اما حتمياً ، والمتوقع كتوقع الامراض التي قد يبتلي بها الانسان نتيجة لاسباب مختلفة مما يفوق الطبيعة كالجوع والسهر والجهد والحركة الدائبة وما الى ذلك ، والتي يمكن الا تسبب دائماً اي خطر ، واما الحتمي : فهو الخطر الذي يسببه السقوط في هوة سحيقة او سطح عال ، والتعرض لسيف بتار في الحرب او السقوط في اتون نار ، الامور التي لا يمكن ان ينجو الانسان منها غالباً . ولا يعرف القديسون الحذر من الخطر الممكن ، بل يعتمدون على حفظ العناية الالهية ، وهم يمارسون هذه الاعمال آلياً ، وهم يعتقدون ان الحذر من مثل هذه الامور يفقدهم درجة التوكل الصادق ، بعكس الاخطار الحتمية التي يجب الحذر منها بدليل تحذير الرب بني اسرائيل بواسطة موسى بقوله : اذا فتح رجل جباً او حفر بئراً فليغطه . وقال ايضا : اذا شيدت بيتا جديداً ارفع جدرانا لسطحه لئلا يسقط منه انسان فيهرق دم في بيتك .

واذا اعترض معترض ان كثيرين من الابرار توكلوا على ربهم نجوا من الاخطار الحتمية كما نجا دانيال من الاسود ، واولاد حننيا من النار المسبعة

الاضعاف ، وقول الرب : ان الذين يؤمنون يمسكون الحيات والعقارب ولا تؤذيهم وان شربوا سماً مميتاً فلا يضرهم . نقول : ان كل ذلك صحيح ، ولكن تلك النعمة خاصة وليس كل انسان يستحقها وعليه لا يجب على الضعفاء التذرع بهـا .

الفصل السابع

متى حمل السلاح يدل على التوكل

اذا سأل سائل ، كيف يتوكل على ربه من يحمل سلاحاً ، في الطريق ؟ او يغلق بابه بالأغلاق القوية والمساند ؟ نقول : اذا كان ذلك الانسان مؤمناً فليس مجرداً من التوكل على الله ايضاً ، اقول الايمان هنا اذا تأكد الانسان ان عزمه وسلاحه وقوة ابوابه باطلة بدون معونة الله ، والاغلاق والاسناد ليست الا وسائط آلية فقط ، بواسطتها يظهر عمل الخالق جل شأنه ، على حد قول النبي داود : لسنا على قسينا متوكلين ولا على سلاحنـا ليخلصنا انت خلصتنا من اعدائنا ، الملك لا ينجو بكثرة جيشه ، ولا الجبار بشدة بأسه ، كاذب هو خلاص الفرس وبشدة قوته لا ينقذ فارسه ، وان لم يبنِ الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون ، وان لم يحرس الرب المدينة فباطلاً يسهر حراسها ، وما الى ذلك من الآيات البينات ، الامور التي كان الابرار يستخدمونها حذرين منتظرين معونة الله .

الفصل الثامن

شروط التوكل (على الله)

لمـا كان واحداً الانسان التوكل على الرب بمختلف انواع التوكل واشكاله فاننا نتناول نوعاً واحداً للبرهان ونقول : هناك ستة شروط يجب ان يتقيد بها من يتوكل على الله بحفظ بيته فيما اذا غادره :

(١) : ان يغلق الباب دون ان يكثر الحذر والحيطة بطريقة تفوق المألوف .

(٢) : الا يترك في بيته ما يغري لئلا يكون سبباً في اجتذاب اللصوص لابتزازه

ومن فعل ذلك انما يحمل اللص على السرقة ،فهو شريكه في الجريمة . الثالث : اذا لم يستطع ابعاد نفائسه من البيت ، فليودعها الى عناية الله وليقل في نفسه ، اذا سرقت نفائسي هذه فربما تنجو بقية اموالي . الرابع : اذا سرقت امواله لا يحزن اذا امكن ، وليقل في نفسه ، لو كانت هذه الاموال لخيري لما سلبت مني ، هناك امر الهي يشجع على هذا الفرح وهو قول الرب : اذا سلبك رداءك فاترك له القميص ايضاً . الخامس : الا يلعن السارق ، بل ليصلِ من اجله ، طبقاً لما نطقت به حكمة الله (صلوا من اجل الذين يسلبونكم) ومثل احد الابرار ، لماذا لا تلعن من سلبك رداءك ؟ قال : لا اريد ان اكون رفيقاً للشيطان الذي يرغب في اسقاطه (اللص) في فخ الهلاك ، وان عملت انا ما يرغب فقد صرت شريكه . السادس : ان يتألم لان اللص اغاظ الله في عمله كما قال احد الصديقين : ان حزني على السارق يحول دون حزني على اموالي المسروقة .

الفصل التاسع

دفع الخطر الحاضر

كل سبب يدفع الخطر الحاضر اما حتمي ، كالماء بالنسبة الى الظمأ . اما ممكن ، كالعلاجات بالنسبة الى الامراض ، واهمال الاسباب الحتمية لا يدخل في حساب التوكل كما يفعل من يمعن في الزهد أكثر من طاقته ، معرضا ذاته لخطر الموت الاكيد وهذا العمل ليس ممدوحاً ، على حد قول الاب فومان ، اللاب اسحق : اننا لم نتعلم ان نكون قتلة للاهواء ، . واذا كان استعمال الامور الممكنة (دفعا للخطر) بالاضافة الى الصلاة والايمان ، فذلك لا ينقص امر التوكل على الله بدليل ان الرسل القديسين كانوا يمسحون بالزيت المرضى فيشفوهم ، كما ذكر في اعمال الرسل ، وقال ايضا الرسول يعقوب : اذا كان احد منكم في ضيق فليصلِ ، وان كان فرحاً فليرتل ، وان كان مريضا فليدعُ قسوس الكنيسة ليصلوا عليه ويمسحوه بالزيت باسم الرب ، وصلاة الايمان تشفي المريض ، وان كان قد فعل خطيئة تغفر له .

الفصل العاشر

﴿ الاسباب التي من اجلها يهمل الابرار المعالجة (الطبية) ﴾

ان معالجة الامراض واستئصال شأفتها بالعقاقير والادوية لا تقدح بالتوكل على الله والرجاء به ، وإلا ، كيف اقدم آباء قديسون معروفون وملافنة ثقات اثبات على المعالجة الطبية بالعقاقير ؟ فقد ورد عن القديس غريغوريوس الثاولوغوس (اللاهوتي) ممتدحاً اخاه الاسقف قيساريوس بكونه برع في علوم الطب ومهر في معرفة اسرار المواد الطبية واسباب الامراض بطريقة فائقة جداً ، حتى اصبح مقداماً ورئيساً للهيئة الطبية في زمانه ، هذه امور واقعية ومعروفة ، غير اننا نجد كثيرين من المؤمنين يهملون معالجة الامراض بالادوية والعقاقير ، ليس لان المعالجة الطبية تقدح في عقيدة الرجاء والتوكل على الله ، بل لاسباب اخرى نذكر منها ستة اسباب هي :

(١) : كون الطب والمعالجة لا ينقذان من الموت لانه لا يموت انسان إلا بارادة الله ، ولا يأخذ الله نفساً إلا لغاية لا تخطر على بال بشر ، كما برهنت تعزية الحكيمة التقوعية لداود النبي في قتل حمنون الذي قتله ابنه ابيشالوم ، وربما تحد المعالجة الطبية من عنف الآلام الجسدية الناتجة عن الامراض ، إلا ان الذين لا يكترثون براحة الجسد ولا يحاولون الحد من آلامه لا يلجأون الى المعالجة الطبية .

(٢) : كون معالجة امراض النفس بالتوبة تحول دون قيام بعض الابرار من الاهتمام بمعالجة الجسد معالجة طبية ، ولذلك نجد احد الابرار سأله تلميذه وهو مريض مم يشكو ؟ قال : من آلام خطاياي ، قال التلميذ ، ماذا يطيب لك ؟ قال : غفران خطاياي .

(٣) : كون فائدة الادوية غالباً وقتية او وهمية ، لذلك لا يعتمد عليها الابرار .

(٤) : كون البار يرجو اجراً صالحاً وزيادة بر بتحمله آلام مرض طويل الامد . ولذلك لا يرغب زواله ، وهو يعتقد ان ضيقاً وقتيا وألما طفيفاً في هذا العالم يسبب مجداً عظيما لا متناهيا خالداً .

(٥) : عقيدة البعض ، بان المعاصي والذنوب يمكن محوها بتحمل آلام جسدية وقتية في هذا العالم ، وعلى هذا الاساس يُظن ان القديس بولس — الذي كان يوماً المضطهدِ لكنيسة الله — كان يفرح ويفاخر بامراضه الوبيلة .

(٦) : اذا عرف الرجل البار سوء افعاله في حالة الصحة يفرح في حالة المرض ولا يرغب ان يشفى ، لانه متأكد ان في حالة المرض يقهر اهواءه ، الامر الذي ليس متأكداً منه في حالة الصحة ، ويعلن مهندس البيعة (القديس بولس) عنف قوة الجسد بقوله : انني ارى ناموساً جديداً في اعضائي يحارب ناموس ضميري ، ولذلك افعل الشر الذي لا ارغب فيه ، لا الخير الذي اتوق اليه . وعليه اقول : لو حاول الانسان فعل الشر في مرضه لما امكنه ذلك .

الباب الثاني عشر

المحبة الاخوية

وفيه سبعة عشر فصلا

الفصل الاول

★ اقوال الآباء في المحبة الاخوية ★

انتقل يوماً الاب مطوايس مع اخيه يوساب من منطقة الى منطقة جديدة ، والزم اسقف تلك المنطقة الشيخ مطوايس فرسمه قسيساً ، ولما كانوا على مائدة الطعام قال الاسقف : سامحني ، يا ابتِ ، اني اعرف عدم رغبتك في هذا الامر ، ولكني قمت بهذا العمل لاتبارك منك . قال الشيخ ، بوداعة وتواضع : اني متألم لهذا لانه سيجبرني على ترك اخي يوساب . قال الاسقف : اذا كنت تعرف انه مستحق ارسمه ايضاً . قال الشيخ : لست اعلم فيما اذا كان يستحق ام لا ، انني اعرف شيئاً واحداً فقط ، وهو انه افضل مني . فرسمه ايضاً ، وعاش الاخوان سوية طيلة مدة حياتهما .

قال الاب نيكيتا في اخوين آخرين : انهما اتفقا على ان يفعل كل منهما ما يرضي الآخر ، فحسدهما الشيطان ووقف امام الباب ، وتراءى لاحدهما بشكل حمامة وتراءى للثاني بشكل يمامة ، فتجادلا في ما يبصران ، وتناقشا وتخاصما ، ثم افترقـا ، وبعد ثلاثة ايام ، عرفا ان ذلك كان تجربة من الشيطان ، فعادا واتفقا وعاشا بقية حياتهما معاً .

زار احد الاخوة راهباً ، ولما ودعه قال : سامحني ايها الاب فقـد عطلت عليك قانونك ، قال الشيخ قانوني هو ان اريحك ، واوفر لك الهدوء .

قال الاب باسيليوس : بما اننا أمرنا ان نحب قريبنا مثل نفوسنا ، فلنحاول ان نعرف هل ان الله يسعفنا على ذلك ؟ من ذا لا يعلم ان الانسان ليس مارداً او متوحشاً ، ولا يمكنه ان يعيش لذاته ، ولكنه اجتماعي يألف ابناء نوعه ، فلا يوجد غريزة راسخة في كياننا البشري رسوخ غريزة المشاركة لابناء بجدتنـا ، بالفضائل او غيرها ، ونحن بحاجة ان نحب بعضنا بعضاً . فان بذار المحبة هذه ، منحنا اياه ربنا وسيطلب منا ثمارة ، وقد جعل رابطاً قوياً المحبة بعضنا لبعض مع محبته ، (بهذا يعلم العالم انكم تلاميذي اذا احب بعضكم بعضاً)

قال الاب اوغريس : لا يمكن ان نحب جميع الاخوة بدرجة واحدة ، ولكن يمكننا ان نقابل الجميع بقلوب متحررة من البغضاء والحقد واقول : حتى ان الرب كان يحب اصغر تلاميذه اكثر من الباقين .

الفصل الثاني

✶ اقسام المحبة واسبابها ✶

كل محبة اما ان تكون طبيعية ، كمحبة الاباء والابناء والاخوة والاقارب ، او شرعية كمحبة الرجل لزوجته ، او قسرية كمحبة السادة والعبيد ، او عرضية ، كمحبة الجيران والمرافقين في الطريق وابناء الصنف الواحد ، او ارادية ، كمحبة الاصدقاء ؛ وهنا ندرس النوع الخامس من المحبة ، نقول : ان من يُحَب ، اما يُحب

من اجل ذاته كشخص معين وليس لسبب آخـر ، ويحدث هذا الحب لمتعة روحية يشعر بها المحب في رؤية محبوبه ، وسبب هذا الشعور ، ليس جمالاً باطناً او ظاهراً بل تجانس خفي سري يشترك فيه شخصان ، لعلاقة روحية مشتركة بدليل ان كثيرين يحبون شخصاً ، حتى الموت دون وجود جمال ظاهر او باطن جذاب كرجاحة العقل واستقامة الرأي ودماثة الاخلاق الى ما هنالك من الصفات الفاضلة .

رُوي ان الاب جالينوس ابا الطب ، مدحه شخص جن لشربه بعض العقاقير التي تثير المرة السوداء وتسبب الجنون ، قال ابو الطب : لو لم يجد فيّ بعض ما فيه من الميول لما احبني . وقال احد الشعراء : ان نفساً تكره نفساً اخرى بدون ذنب اتته ، وتحب نفساً اخرى بدون صنيع جنته ، ان العقل السليم يؤيد هذا الرأي وإن خفي عن معظم الناس .

(٢) : يُحب بعض الناس في سبيل فائدة مادية ، وهذه الفائدة اذا كانت بقصد اسعاف الانسان في عمل روحي وليس في سبيل متعة زمنية او اية غاية مبتذلة تكون محبة ممدوحة حقاً ، وصادقة ، وإلا تكون كاذبة سببها الهوى .

(٣) : المحبوب الذي يُحب في سبيل فائدة نفسية ، كالمعلم الذي يحبه تلميذه ، لانه يعلّمه ويرشده الى معارف نظرية وعملية .

الفصل الثالث

الخواص التي يجب ان يتحلى فيها من يُحب

هناك خمس خواص تفرض محبة الاخوة ، وكل أخ لا توجد فيه هذه الخواص الخمس مجتمعة لا يستحق المحبة ، وهي :

(١) : ان يكون عاقلاً مهذباً ، لان الحكماء يفضلون العدو العاقل على الصديق الجاهل .

(٢) : ان يكون عفاً شريفاً لان المعاشرة السيئة تفسد الضمائر السليمة على حد تعبير الرسول .

(٣) : الا يكون ضالاً متفلسفاً على حد قول الرسول : ابتعد عن الرجل

الضال ، بعد نصحه مـــرة او مـــرتين ، واعلم ان من كان كذلك هـــو ملتو افّاك عدو لنفسه .

(٤) : الا يكون طماعاً ، مغرماً بجمع الغنى الزائل ، لأن صديق الاغنياء يجتهد ان يصبح نظيرهم ، ولذلك سيصبح باب الملكوت اضيق من ثقب الابرة امامه لأن الطبعين سيتمازجان وتتحد الخلال اتحاداً تاماً .

(٥) : ان يكون لطيفاً غير عنيف ، يروى ان أخاً جاء الى البرية (الاسقيط) وكان مشتاقاً جداً ان يرى الاب ارسانيوس حتى انه لم يذق شيئاً قبل ان اخذه احد الاخوة اليه ، لان صومعته كانت بعيدة ، ولما دخل سلم عليه فصليا وجلسا صامتين ، وقال الراهب الذي صحبه : الآن اعود صلّيا من اجلي . ولما رأى الأخ الغريب انه لم ينل حظوة لدى الشيخ ، خرج هو ايضاً مع ذلك الأخ ، وطلب اليه ان يأخذه الى الاب موسى الذي كان سابقاً من عصابة لصوص ، ولما وصلا اليـــه ، استقبلهما الشيخ بابتسام ، وبعد ان لاطفهما صرفهما . فسأل الراهب ذلك الغريب ، أيا منهما احببت ، ارسانيوس ام المصري ؟ قال : اني احببت المصري الذي صرف ساعة كاملة في ملاطفتي .

الفصل الرابع

واجبات الاصدقاء بعضهم نحو بعض

يجب على الاصدقاء اشراك اصدقائهم بما لديهم من خير ، ولهذه المشاركة اربع درجات ، **سفلى ووسطى وعليا ، وممتازة** .

فالسفلى ، هي ان يعتبر الصديق صديقه كأحد اتباعه ، فيعطيه ما يفيض عن حاجته .

والوسطى ، ان يعتبر الصديق صديقه كنفسه ، كما فعل الاب سوسايس ، لما وجد فضلات الجمل التقط منها بعض حبات الشعير فأكل الواحدة ، وحفظ الثانية ولما جاء اخوه قال له : اهذه هي المحبة ان أكلت وحدك فلم تدعني ؟ قال له : لم اغدر بك يا أخي ، فقد حفظت حصتك في يدي . وكان الرسل القديسون في

بادىء امرهم يعتبرون كل شيء لهـم مشتركاً بينهم ، وكانوا حينئذٍ في الدرجة الوسطى من المحبة .

والعليا ، هي ان يقدم الصديق فائدة صديقه على فائدته الخاصة ، كما فعل الأخ الذي سمع احد اخوته يقول له ، ماذا افعل فقد قرب الموسم وليس لدي قبضات لزنابيلي ؟ ذهب حالاً فحل قبضات زنابيله وقدّمها لاخيه ، وقال : ان هذه هي زائدة عندي ، خذها وضعها لزنابيلك . وهكذا ترك عمله وشجع عمل أخيه .

والدرجة **الممتازة** ، هي ان يلقى الصديق نفسه في محنة من اجل صديقه ، كما فعل الفادي الالهي حيث قال : ما من حب اعظم من هـذا ان يبذل الانسان نفسه لاجل اصدقائه .

الفصل الخامس

واجبات الاصدقاء في المساعدة

ليس واجب الصديق ان يساعد صديقه بالمال فحسب ، بل في كل ما تدعو الحاجة اليه ، وللقيام بهذا الواجب ثلاث درجات **سفلى ووسطى وعليا** .

فالدرجة **السفلى** هي ان يابي الصديق طلب صديقه بعد الطلب الملح ، كما مثل الرب فيقوم ويعطيه ، ان لم يكن من اجل الصداقة فمن اجل اللجاجة .

والوسطى ، ان يابي الصديق طلب صديقه بعد الطلب ، ولكن ذلك الطلب ليس ملحاً او ملزماً .

والعليا ، ان يسد حاجته مسروراً ومغتبطاً قبل الطلب .

الفصل السادس

— واجبات الاصدقاء في كتم اسرار اصدقائهم —

ان واجب الكتمان المؤيد للصداقة هو احجام الانسان عن ذكر مساويء صديقه ونقائصه ، وان يتظاهر بعدم معرفتها ، ولا يقاطعه اذا تكلم ، واذا صادفه في الطريق

لا يسأله الى اين هو ذاهب لئلا يحمله على الكذب تحفظاً ، ولا يفضح اسراره ؛ ولا يحتقر اصدقاءه ، ولا يهجو اقاربه ، ولا يبلغه ما يفتري الناس عليه ، لانه قيل : ان من ينقل اليك الشتائم فانه يشتمك ، وليبلغه فقط ثناء اصدقائه ، لان اخفاء الثناء نتيجة للحسد ، ولا يدقق في نقائصه لان العلماء يسمون مثل هذا ذبابة يطلب قروحاً مجثماً له ، واذا وجد فيه نقيصة ما فليعلم ان كل انسان ناقص .

الفصل السابع

واجبات الصديق في الكلام

الواجبات في الكلام هي ، ان يطلب الصديق دائماً خبر خير عن صديقه ، فيسأله عنه ، ويزوره عند المرض ، ويشاركه في آلامه ، ويفرح لافراحه ، ويتحدث بكل ما يعرف ويشهر من فضائله ، ويمتدح شمائله ويطريها ، او اذا كان بعيداً عن حكمته واطباعه واخلاقه ، وكتابته وتدبيجه الرسائل الامور التي تعزز الصداقة وتؤيدها ، ويذكره بكل خير ويقاول مقاوميه ويدافع عنه ، لانه اذا سمع مذمة صديقه وسكت فانه بذلك يهدم الصداقة ويدمرها ، وخلاصة القول ، اذا كان الصديق بعيداً عنه ليعتبره واقعاً وراء الباب يتسمع ما يقال فيه ، واذا عثر صديقه فخالف الشريعة فلينصحه بمحبة ولا يسمعه كلاماً لاذعاً ، ويوبخه سراً ، وليجعل من قلبه لصديقه ستاراً .

الفصل الثامن

★ واجبات الاصدقاء في المسامحة ★

تعلمنا الحكمة الالهية قائلة : اذا غفرتم للناس زلاتهم فابوكم السموي يغفر زلاتكم . وروى الاب فومان عن الاب ايسيدور — قسيس الصوامع — انه كلما كان يخاطب الاخوة في الصوامع وفي الكنيسة كان فقط يردد هذه الجملة : يا اخوتي ، انه مكتوب : سامح اخاك لكي تستحق انت ايضاً المسامحة . ويقول بعض المفسرين

ان الرب لما سأله بطرس : اذا اخطأ اليَّ اخي الى كم مرة اغفر له ، هل الى سبع مرات ؟ قال له يسوع : لا اقول لك سبع مرات بل سبعين مرة سبع مرات) قالوا : ان الرب قال ذلك لكي تجد عذراً لاخيك اذا اخطأ اليك اربعمئة وتسعين نوعاً من الخطأ فتعتبره معذوراً .

الفصل التاسع

★ واجبات الاصدقاء في الصلاة ★

كل صديق مدين لصديقه بالصلاة ، وقيل ان ابراهام تلميذ الاب سوسايس جرَّبه الشيطان مرة فلما رآه الشيخ قد سقط ، بسط يديه الى السماء وصلَّى قائلاً : يا رب لن اتركك حتى تشفيه ، فشفي حالاً .

والصلاة لا تفيد الصديق وهو حي فقط ، بل بعد موته ايضاً ، لان النفوس الطاهرة تشعر ببهجة روحية اثناء الصلاة ، وان كانت غير طاهـرة تشعر ذاتها مشتاقة الى الخلاص كما يشعر الغريق اذا هب اصدقاؤه الى انقاذه .

الفصل العاشر

☆ واجبات الصديق في صدق المحبة ☆

الصداقة الصادقة هي التي لا تتغير حتى النسمة الاخيرة ، وحتى بعد الموت ، يجب على الصديق الا يتكبر على اخوة صديقه او اقاربه ، او اصدقائه او تلاميذه ، واذا ايسر هو لا يجب ان يحتقره ، واذا ارتفعت به المنزلة لا يجب ان يزدريه ، قال الحكيم : اذا رئس او ايسر اخوك ، فاذا خصك بنصف المحبة الاولى فاعتبرها كثيرة . وقال احد الشعراء : الصديق الصدوق الذي بلغ السرّاء كيف ينسى من صادقه في الضرّاء ؟

★ ★ ★

الفصل الحادي عشر

واجبات الصديق في محل الاعتناء

من الاسس السليمة التي يقوم عليها صرح الصداقـة بثبات ، هي الا يحمّل الصديق صديقه اي عبء ، ولا يريده ان يتذلل له ، او يقضي حاجاته بل ليكن هدفه الاساسي الصداقة ذاتها . قال احد الاباء : واجب الاصدقاء هو إذا تناول احدهم الطعام طول الزمان الا يقول له صديقه صُـم ، واذا نام الليل كله الا يقول له ، انهض ، واذا صلّى الليل كله الا يقول له نم .

الفصل الثاني عشر

★ الفرق بين المحبة والصداقة ★

ان الصداقة اعمق من المحبة بدليل ان المعرفة العابرة اذا صدفت بين شخصين تعارفا ثم تلاطفا فتحول الى رفقة ، والرفقة اذا طالت تتحول الى محبة ، والمحبة اذا قويت اواصرها تتحول الى صداقة ثانية راسخة ، على حـد قـول الشيخ يوحنا ابي الدوالي : المحبة تؤدي الى الصداقة كالصبي الصغير الذي يترعرع فيصبح رجلا كاملا ، ان سمعان بن يونا سأله الرب يوما : اتحبني ؟ وبعد ان صرح انه يحبه رفعه الى منزلته وسامه قطيعه ، فانت ترى كيف صار الذي احب صديقا ، وقال ايضا : الذي كان يسوع يحبه ولم يقل الذي كان يوده . وقال في مريم ومرتا ولعازر : ان يسوع كان يودهم .

الفصل الثالث عشر

واجبات المؤمنين بعضهم نحو بعض

كل مؤمن يصادف مـؤمناً رفيقه واجبه ان يبادله التحية ، قبل اية كلمة ، ويذهب معه اذا دعاه واذا استشاره فليعط المشورة الصالحة ، ولا يغيبن اكثر من ثلاثة ايام عن عيني المؤمن رفيقه ، وليحسن اليه جهده ، ولا يـدخل اليه دون موافقته . وان يبر له بجميع وعوده ، ولينظر اليه نظرة اكبار واجلال اكثر من

نفسه ، وليخفِ نقائصه ويصالحه مع خصومه ، وليشفع به لدى من تقبل شفاعته فيه ، ويعزيه في كروبه ويختار له الاصدقاء من المهذبين ذوي الاخلاق السليمة ، وليزر صديقه اثناء مرضه ، وبعد ان يطمئن عنه يصلي من اجله ، ثم يدعه ويخرج دون ان يطيل الجلوس ، فاذا رقـد ذلك الصديق يشيعه الى مثواه الاخير ويزور بيته في اوقات معينة .

الفصل الرابع عشر

﴿ واجبات الجيرة ﴾

يجب على كل جار ان يحيي جاره ، ولا يطيل معه الكلام ويشاركه في احزانه ويصفح عنه وعن اهل بيته (فيما اذا بدا منهم ما يزعجه) ولا يفضح نقائصهم فيما اذا وجدت ، ولا يألو جهداً في حراسة منزله عند غيابه ، ولا يتلصص لسماع حديثه وحديث اهل بيته ، ولا يراقبه من شقوق الباب . وهذه الواجبات وما اليها تكثر او تقل طبقاً لمنزلة الجار ، لان الواجبات نحو الجار المؤمن او ذي صلة الرحم يجب ان تكون ضعف الواجبات نحو الجار المؤمن الذي لا يمت اليه بصلة القربى والواجبات نحو هذا يجب ان تكون ضعف الواجبات نحو الجار الغريب او غير المؤمن .

الفصل الخامس عشر

= واجبـات القـــرابـــة =

من المعروف ان الانجيل المقدس يؤكد اكرام الاب والام ، الامر الذي يتقبله الله اكثر من الذبائح والقرابين والمحروقات الكاملة والعشور ، وقد وبّخ الرب - تمجد اسمه - الكتبة والفريسيين المرائين بقوله : ان الله امر باكرام الاب والام ، ومن يقول شراً في الاب او الام يموت موتاً ، وانتم تقولون : كل من يقول في الاب والام هو قربان مني تقبله ، ولا تكرمون الأب والام فابطلتم كلمـة الله من اجل تقليدكم . ولا ينبغي ان نكرم الاب والام فقط بل جميـع ابناء قومنا ، والرسول بولس يؤيد ذلك بقوله : ان من لا يهتم بامر اقربائه ، وخاصة اهل بيت الايمان ، فانه يجحد الايمان ، وهو شر من غير المؤمنين .

الفصل السادس عشر

﴿ حقوق العبيد والاماء ﴾

يجب على السادة ان يشركوا عبيدهم بطعامهم وكسائهم ، والا يفرضوا اعمالاً تفوق طاقاتهم . وليكن امر فرعون السيد العاتي نصب عيونهم ومعه المصريين القساة ، الذين نالوا العقاب الصارم جزاء الظلم والاشغال الشاقة التي فرضوها على بني اسرائيل ، فغرقوا في البحر الاحمر . ولا يحتقرونهم ولا يزدرونهم بل يخضعوا للحق الالهي القائل : انظروا لا تحتقروا احد هؤلاء الصغار أقول لكم ان ملائكتهم في السماء ينظرون وجه ابي الذي في السماء ، وخاصة اذا كان العبد مؤمناً ، اي انساناً جديداً يتجدد بحسب تجدد خالقه الذي لا فرق لديه بين الذكر والانثى في سبيل خلاص النفس ، لا يوجد يهودي او وثني ، ولا ختانة ولا غرلة ، لا يوناني ولا بربري ، لا عبد ولا حر ، بل المسيح الكل في الكل ، في اكمال الايمان والمحبة . واذا غضبوا عليهم لا يغضبوا الغضب المطلق ، بل يتأنون عليهم كما يتأنى الرب على السادة انفسهم .

الفصل السابع عشر

★ الصفات الحميدة التي يجب ان يتصف بها المؤمنون ★

كل من يهمه ان يحبه الناس ، يجب ان يجمل نفسه بصفات الابرار والصالحين ، ولا يترك عمل الخير طمعاً في ارضاء الاشرار ، الذين اذا تواضع الانسان احتقروه ، وان كان ابياً قاوموه ، وان كان هادئاً وديعاً ابتلعوه ، واذا ساير البشر رموه بالزندقة ، لان الخير بذاته نعمة لا يقدره الاشرار ؛ فاذا رغبت ايها الاخ ، ان تكون اخا ادب محبوباً ؛ تمسك بما علمه القديس افرام الملفان : (مشية رزينة ، صوت هادىء ، حديث عذب ، تعليم سليم ، مظهر عف . نظرات طاهرة ، ابتسامة وادعة ، هندام بسيط ، سيرة متواضعة ، محبة كاملة ، قراءة الكتب ، ترتيل المزامير ، بفهم وعرفان ، محبة الغرباء ، نقاء الافكار ، تحمل الجوع لاهداف مقدسة ، تناول

الطعام ببساطة تشبهاً بربك الذي فرك السنبل ، تحمل المشاق ، الجهاد الحسن بصبر وسرور ، والصلاة من اجل هداية الخصوم) واني أضم صوتي الى صوت الملفان القائل : لتكن جلستك هادئة ، وكلامك مهذباً ، انصت الى حديث الحكمة ، ولا تبهرك كلمة لم تسمعها ، ولا تستعد كلاماً سمعته ، ولا تنطق باحاديث هزلية ، ولا تمل الى التبرج كالنساء ، ولا تلقِ نظرات طويلة على جسمك او ثيابك ، ولا تشبك اصابعك ، ولا تلهُ بشعر لحيتك (اذا كنت ملتحياً) وبتنظيف اسنانك ، وحتى اذا كنت جائعاً لا تكثر من التثاؤب ، ولا تبصق بطريقة يشمأز منها ، لا تحرك يديك عند الكلام ، واذا غضبت لا تتكلم حتى تهدأ سورة غضبك ، ولا تحب اموالك اكثر من محبتك لنفسك ، وفي المجالس اختر موضعاً مناسباً ، ولا تخط فوق ما يتناسب مع منزلتك ، ولا تعاشر السلطان ، وان عاشرته فلا تغتب احداً بحضرته ، واكتم اسراره ، واذا تكلم اصمت وانصت ، وان لم يأمرك لا تنطق ، وخلاصة القول : احذر الملك وتعقل لئلا تشقك نظراته كالسيف .

الباب الثالث عشر

★ ذكر الله والتأمل بمخلوقاته العجيبة ★

وفيـــه تسعة فصول

الفصل الاول

★ اقوال الاباء في فضيلة ذكر الله تعالى ★

قال الاب فومان : اخضد شوكة هواك بذكر الله تجد راحة . وقال احد الشيوخ : اذا سُئلت ، كيف يجب ان يجلس الناسك ؟ فقال : يجب ان يجلس وحيداً ليكون فكره مع الله .

وقال شيخ آخر : ان المتأمل بالله حي معه ، فقد قال (تعالى) اني امسكن فيهـــم واسير معهم ، ويكونون لي شعباً واكون لهم الهاً .

وقال الاب اوغريس : اذا خطرت للانسان فكرة ، كيف خلقه الله واوجده فليمتلىء عزاءً ، وليصمت خاشعاً ، وليسبح بحمد الله ، متهيباً قائلا : اللهم ، الحمد لنعماك ، فقد اوجدتني من العدم ، واعطيتني وجوداً خالداً ، ومنحتني حياة وشعوراً وعقلاً وحرية وسيادة . وقال ايضاً : ان ذروة الكمال هي الا ينقطع اتصال افكارك بالله ، وان انقطع فاربطه . وقال ايضاً : كما تغلب الحياة الموت والنور الظلام ، هكذا يغلب ذكر الله الضلال .

وقال يوحنا ابو الدوالي ؟ : ان ذكر الله يستأصل الاهواء من قرارة القلب ، اكثر من جميع الفضائل ، ولا يوجد اعظم منه قوة ، غير ان الراحة الناتجة عنه يقصر اللسان عن وصفها . وقال ايضاً : ان الخشوع بذكر الله يفوق جميع الفضائل فكلها ترنو اليه (الفضائل) .

وقال مار اسحق : من تذوقت نفسه عذوبة العزاء بالله يشغف فكره بحبه ، ويرف قلبه بذكراه ابداً ، ويشعر كأنه في ملكوت السماء .

الفصل الثاني

((يشتد ذكر الله في النفس بتأمل مخلوقاته))

ان كل ما كان وما سيكون انما هو بشير لحكمة الله ، على حد قول القديس اوغريس : ليس فقط السماء بل كل ذرة في هذا الكون تتحدث بمجد الله ، ومن هنا كلما توغل الانسان تأملاً بأعمال الباريء العجيبة كلما اشتد في ذكره وتسامى في ضميره ، واضطرمت نفسه بلهيب حبه ، فالتأمل بجميع الكائنات المخلوقة يظهر للعقل القوة الالهية تحيط بكل شيء ، متغلغلة في كل دقائق البرايا ، مالئاً جميع الآفاق ، متسامياً فوق السموات ، مطلاً على جميع البحار والغمار وما فيها ، فيتسامى العقل من نور الى نور ، اكثر سطوعاً وتوهجاً ، وفي لألأ النور الالهي ، يرى العقل كل نفس شعّ فيها ذلك الالق ، يرى الملائكة بروحانيتهم كما ترى هذي العيون هاتيك الجسوم .

ان النور الطبيعي يكشف الكائنات الحسية ، واذا النفس خبرت هذه الكائنات وتروضت فان الروح يظهر لها ذاته ساكناً فيها كل سر عجيب ، مجتذباً اياها

للتغلغل في سحابة عظمته الخارقة ، فتشرق بأشراق لألائه الباهر ، وتلتمع بألق نوره الوضّاء وتستنير آفاق سمائها بسطوعه المتألق ، وتتألق قرارتهـا بشعاعه الهفهاف .

الى هذا التسامي يجتذب التأمل في مخلوقات الله ، وهذه هي الثمار اليانعة التي تقتطف من الهذيذ بأعماله العجيبة ، وبما ان اعماله كثيرة ومدهشة ، فان معجزاته تفوق الحصر ، فلنأخذ في فكرنا جزءاً من الكل ، كنقطة من بحر ، ولحظة من دهر ، مما ابـدع الله في الايام الستة ، واننا نغرس شجرة عجيبة قضبانهـا ، مدهشة اغصانهـا للذين يعقلون .

الفصل الثالث

﴿ مدهشات اليوم الاول ﴾

في اليوم الاول خلقت سماء السموات والنور والنار ، والعناصر الثلاثة الباقية وهذه السماء التي تتجلى للعين كالخيمة انها لرحبة واسعة ، حتى ان هـذه الارض بجبالهـا ووهادها ، واقاليمها ومدنهـا ، ببحارها وجزرها ، ليست إلا ذرة صغيرة بالنسبة اليها ، ويمكننا ان نجد العجب العجاب في النور الذي ليس إلا قبساً من الشمس ، فقد وجد قبل وجودها .

تأمل الماء ، تره في باصرتك مستوياً ، بينما بالحقيقة هـو كـروي ، ويمكنك التأكد من كرويته بدليل وجودك في سفينة ، ترى ذرى الجبال قبل سفوحها .

تأمل الهواء ، فلكونه شفافاً يظن كأنه غير موجود ، ولو انقطع لحظة واحدة عن الكائنات المتنفسة ، لمـاتت ، وتأمل الكائنات العجيبة المتكونة فيه ، البخار الذي يتلبد في البرد ، فيصبح غيوماً ، والغيوم ، اذا دفعتهـا الرياح تهطل امطاراً واحياناً تلقي الثلج مثل الصوف النقي ، ويستحيل جليداً مثل الرقاق . ومن ذراته الصغيرة الملتهبة تتكون النيازك ، وإذا البخار برد ، في الهواء ، يثير الرياح العاصفة بهبوطه الرهيف ، فتهب الرياح . وأشعة الشمس اذا انسكبت على ذرات الهـواء المتباينة ضياء او نجهماً ، يحدث قوس قزح ، والابخرة المتصاعدة اذا فلقت الغيوم

التي تحصرها ثم تصادمت رياحها تقاصف الرعد ، ومن جزء ذلك اذا تطاحنت الرياح تلامعت البروق ، ومثل الرعد في الهواء مثل الابخرة اللاهبة تزلزل الارض ، فاذا انفجرت تحدث جلجلة هائلة مرعبة ، قد تكون احيانا كخوار الثيران ، والمياه المحتبسة في اغوار الارض تتفجر سائلا اسود ممزوجا بالرماد ، فسبح بحمد الله فقط بخلقة النار التي تحرق كل مركب وتذيبه ، غير انها تخمد امام ميوعة الماء وضعفه ، فتنطفىء

الفصل الرابع

مدهشات اليوم الثاني

خلق في هذا اليوم جلد النيران الشفاف ، وفصل بين المياه العليا والسفلى ، وقد تمردت معرفة كهذه على جميع العقول ، تعددت الاراء في ذلك فقد اعتقده العلماء عنصراً خامسا ، وحدده القديس باسيليوس بكونه كياناً ثابتاً لا تدركه العقول او الحواس ، ويسميه غريغوريوس النوسي حداً فاصلا بين الكائنات الجسمية الروحية ، ويرتأي مار افرام ، انه مكون من ماء جامد شفاف متجبن ، ويعتقده يعقوب الرهاوي ، تارة حزاما فارغا ، وطورا ماء تلبد بقدرة الخالق ، وقال النبي اشعياء : الذي كون السماء كالدخان ، . ومار ياونيس ينهى عـــن البحث فيه يقول : لا يبحثن احد ما هو الجلد او الرقيع ، وهذا هو الافضل ، فليودع الامر الى معرفة الله وليعتبر فقط محدثا بمجد الله ، مخبرا باعمال يديه .

يرتأى القديسان اثناسيوس وغريغوريوس النوسي ، ان (الماء الذي فوق السماء) هم الملائكة ، الا ان القديس باسيليوس يقول : ان الماء نعرفه ماء فقط ، ولا نصفه في صف الكائنات العاقلة لكونه يسبح بحمد الله عند النبي داود ، فقد ذكر ان (السماء تخبر بمجد الله) وهي غير عاقلة ، واما انا فاعتقد اذا كان ذلك ماء فانه شيء مادي ، وليس روحيا ، ويشبه زلال البيضة الذي يحيط بمحاحها ، وهكذا هذا الماء الذي تحت السماء وخلق في اليوم الاول ، وما فوق الرقيع ، خلق في اليوم الثاني ، اما لماذا خلقت هذه المياه محصورة من كل جانب فخالقها فقط يعرف ذلك .

الفصل الثالث

مدهشات اليوم الثالث

في هذا اليوم اذ تجمعت المياه الى منطقة واحدة ، دعي ذلك بحراً ، ويحيط بالارض مثل الحزام، وتسربت منه بحار جزئية الى بعض المناطق، على وجه الارض وما اعجب حكمة الخالق التي جعلت هذه المياه مالحة، ولو لم تكن كذلك لأسينت وافسدت الهواء ، واهلكت من يستنشقه ، ويبدأ البحر الكبير من المغرب حيث الجزر السعيدة ويمتد الى جبال الفضة التي ينبع منها النيل ، ويستمر امتداده الى الجنوب الغربي ، فيدور وراء بلاد الكوشيين ، وسبا ، الى الجنوب ، وعند امتداده الى الجنوب الشرقي ، يحيط بالهند ثم بالصين ، ثم يمتد الى جنوبي غربي بلاد جوج وماجوج ، ثم يمتد الى الشمال فيحاذي بلاد السكوتيين (الروس) والى الشمال الغربي يحاذي ارض الفرنجة والاسبان ، ويمتد لكي ينتهي حيث ابتدأ ، عند الجزر السعيدة حيث توجد هناك ترعة تقابل انصاب هرقل .

اما البحر المسمّى ببحر ادريانوس (الادرياتيك) فانه يدخل البر مثل اللسان ويمتد الى حيث يجعل سوريا من جهته الشرقية، وفي جهتيه الاخريين بيزنطيا وروما وفي جنوبي افريقيا ، وفي هذا اللسان عشر جزر شهيرة ، خمس منها كبيرة واصغرها قبرص ، وخمس صغيرة ، وهناك مئتان واثنتان وخمسون جزيرة اخرى ، وهي وان كانت غير معروفة إلا أنها خالية من السكان .

وهناك بحار اخرى غير ما ذكرنا، كبحر البنطس، وهورقانيا في الغرب ، وبحر سوف في الجنوب ، وبحر عيلام حيث تلتقي المياه الاوربية ، وهذه عند مدها تسير فيها السفن ، وعند جزرها تعود السفن الى مواقعها .

ونشاهد في الانهار ايضاً اموراً عجيبة ، فهناك نهر باطوس في اسبانيا الداخلية يصب مياهه في البحر ست ساعات فقط في اليوم الواحد ، وفي الساعات الست الاخرى يجف ماؤه ، وفيها ايضاً يوجد نهر تفيض مياهه وتجف ست سنوات

متوالية ، وفي السنة السابعة ، تفيض فيه مياه غزيرة ، وفي اسبانيا ايضاً نهر تجف مياهه ستة ايام وفي اليوم السابع تجري ، وفيها ايضاً نهر يجري فيه رمل جاف بعنف وغزارة ، لا يمكن عبوره بالسفينة ولا بالقدم ، ويتوقف عن الجريان في يوم السبت حتى غروب الشمس .

وبما ان المياه انحسرت عن وجه الارض في اليوم الثالث ، انبتت الارض خضرة وعشباً وشجراً مثمراً وغير مثمر ، وعنها نتكلم بايجاز ، ففيها ايضاً امــور عجيبة من مدهشات باريها .

تأمل بما تنبته الارض ، فقد جعل الخالق بعضها خمرية كالعنب ، والرمان ، والتوت ، ومنها مرة كالافسنتين ، ومنها عسلية كالتين والتمر ، ومنها دهنية كالجوز والزيتون والصنوبر (الارز) ومنها حادة كالخردل والصعتر ، وبعضها محفوظـــة في اشرانق كالحمص ، وبعضها في قشرة حليبية كالحنطة ، وبعضها لحمية كالتمر ، وبعضهـا في اغلفة كالبلوط ، وبعضها في قشور صلبة كالجوز واللوز ، وبعض النباتات وحيدة القشرة كالتين وبعضها متعددتها كالبصل .

والاشجار ايضاً كالكائنات الحيوانية ذكور واناث ، ففي قلب انثى التمر لو لم ينثر فيه زهر الذكر لسقطت اثماره وهي عجراء ، وهكذا التين . وانتقال اللقاح بين ذكور الاشجار واناثها يكون غالباً بواسطة الرياح ، اذ تنقل الريح القوة من الذكر الى الانثى .

اما العجائب المدهشة والاوضاع الغريبة التي وضعها الله في كيان النبات فمن يمكنه الاحاطة بها ، وما اكتشفه الاطباء بالتجربة او توصل اليه بعـــض الناس بالتصور والخيال ثم بالخبرة ، فشيء زهيد جداً ، ومعظم هذا الشيء المعروف أخفاه عارفوه ، وعلموه لاولادهم ولبعض التلاميـــذ الذين ينالون الحظوى في عيونهم ، ولم يسجلوه في سجلاتهم ، ولذلك ماتت هذه المعرفة بموت اصحابها .

★ ★ ★

الفصل السادس

مدهشات اليوم الرابع

في هذا اليوم خلقت الشمس لسلطان النهار والقمر لسلطان الليل وبقية الكواكب وباشارة من الخالق الحكيم ، جمعت فيوض النور التي خلقت في اليوم الاول الى قرص واحد ، حيث حصرت في اليوم الرابع ، وقد قيّد الباري الكواكب التي في الفضاء بحركتين متضادتين ، الاولى من الغرب الى الشرق ، وعنها تنتج فصول السنة الاربعة ، الربيع والصيف والخريف والشتاء ، والثانية ، من الشرق الى الغرب وعنها ينتج الليل والنهار ، وللكواكب السيّارة السبعة ، سبعة افلاك ، وكلها ثابتة مرتبطة بفلك واحد ، هو الفلك التاسع ، فلك سماء السموات الخالي من الكواكب وقد خلقت الافلاك تسعة على عدد الطغمات الملائكية التسع .

وميّز الخالق الحكيم الكواكب السبعة بحركة خاصة ، وقيّد الثابتة منها لتسير باتجاه واحد ، وتكون سرعتها بالنسبة الى قربها او بعدها عن الارض ، فالقمر الذي هو اقربها هو أسرعها ، والمشتري وهو ابعدها هو ابطؤها ، ويؤكد علماء الفلك ، ان اصغر الكواكب الثابتة اكبر كثيراً من الارض ، والقمر لقربه ، وان يرى كبيراً ، هو اصغر من الارض بكثير ، فالارض ، هي تسعة وثلاثون مرة اكبر من القمر ، والشمس اكبر من الارض بمئة وستة وستين ضعفاً .

والقمر يستمد نوره من الشمس ، وليس مضيئاً بطبيعته ، وذلك واضح من كونه مقابلا اذا غدا للشمس يظهر قسمه المقابل للارض مضيئاً ، واذا مر مجتمعاً مع الشمس يفقد النور الجزء المقابل للارض ، والدليل الآخر على كون القمر ليس مضيئاً بطبيعته كسوف الشمس اذا مر القمر بين الارض والشمس ، والارض ايضاً باعتبارها مظلمة تخسف القمر اذا توسطت بينه وبين الشمس ، فتحجب عنه نورها ، والكدمات التي على وجه القمر إما هي صورة انعكاس الجبال والبحار التي على سطحه ، او هي سحب ثابتة على وجهه .

ولا شك ان هذه النيرات العجيبة خلقت في السماء لتجملها ، غير ان الشمس والقمر مع هذه الغاية لهما غاية اخرى هي تكوين الازمنة وتجديدها ، واحداث تعاقب الايام والشهور والسنين . وقـــد خلقت ايضاً كعلامات على حد قول الله بفم النبي موسى ، الامر الذي يؤيده الكثيرون ببراهين كثيرة ، فقد كتب المطران يعقوب الرهاوي : ان في سنة اربع وألف يونانية (٦٩٣ م) بعد دخول العرب بلاد الروم بعشرة ايام ، كانت النيازك والحمم النارية تتصارع وتتصادم وتنطلق بصورة متواصلة في الفضاء العالي ، متجهة من الجنوب الى الشمال بصورة مستقيمة ، وكتب غيره اموراً اخرى كثيرة تشبه هذه .

الفصل السابع

مدهشات اليوم الخامس

في هذا اليوم خلقت الحيوانات البحرية والجوية ، اي الاسماك والطيور ، ومع الاسماك خلقت الافاعي ، والسراطين ، والهوام وذوات الاصداف والاسفنجات وما الى ذلك ، والسلاحف والضفادع وما يعد نظيرها ، ومع الطيور خلقت الزنابير والجراد والخنافس والذباب والوطاويط ، وهذه ايضاً تفوق الاحصاء .

وخلق الله الاسماك والطيور التي تمت بعضها الى بعض بصلات كثيرة ، كوجود الاجنحة ، وانعدام الاثداء والغدد وانتاج البيض ، وحركة العضلات .

ان السمك عديم الرقبة وهو ايضاً عديم الصوت ، ويستنشق الهواء من فمه في الماء ، ويخرجه من اذنيه ، وجميع انواع الاسماك لها اسنان حادة مقوسة ، وليس لها لسان ولا خصى ، ولها اعضاء التناسل . وفيها نوع يدعى (هنكهايس) ليس ذكراً ولا أنثى ، ولا يتناسل ابداً ، (وربما يتكاثر بطريقة نمو الحلقات وتكاثرها للابقاء على النوع) وهناك انواع من الاسماك تأكل بعضها بعضاً ، وبعضه يتغذى بما في قعر الماء والبعض الاخر يأكل العشب البحري وغيره ، والسمك اذا شاخ يكون اكبر من غيره ، فقد وجدت سمكة في عهد الشيخ (الرئيس ابن سينا) زنتها خمس عشرة وزنة ، وعرض ذنبها ذراعان وشبر واحد ، وعلى حد قول ارسطو

ان النوع المسمى (هلفينهس) وهو الدلفين يحب اطفال البشر ، وقد وجد احداها يحمل جثة انسان لئلا تأكله السمك ، والضفدع هو الحيوان المائي الوحيد الذي له لسان ، والاسفنج والاقاليفي هما حيوانان ولكنها يلتصقان بالصخور دائماً كالاشجار ويتغذيان بالحيوانات الساقطة على تلك الصخور .

والوطواط ، وهو طائر ، الا ان له اربع قوائم كالبهائم ، وتحبل اناثه في البطن وترضع صغارها من ورائها ، وله اسنان . والضفادع ، تلد صغارها كالامعاء الناعمة وهي ذرات صغيرة سوداء ، والذباب حمته في المقدمة ، والزنبور في مؤخرته والزنابير تحدث الاصوات باجسامها والبعوض بافواهها والجراد يحدث صوتاً اذا تصادمت رجلاه .

والنحل كله اناث ما عدا ملوكها التي تكون الواحدة منها بحجم نحلتين ، وفي كل خلية ملوك كثر ، ويموت النحل اذا كان بدون ملك ، وهذه لا تنتج العسل ، والنحل يقتل الاشرار من ملوكه ، والشمع يجمع من الازهار والمادة اللزجة من صمغ الاشجار ، واما العسل فمن الهواء والندى ، والنحل يمتص الازهار التي في اكمامها ، ولا تضر اياً من الاثمار ، والنحلة تجثم على بيضها الابيض ، وتفقس شبه دود ثم ينمو فيصبح نحلاً ، والنحل نظيف جداً ، وإذا لم يستطع الخروج الى الخارج ، فانه يلقي بفضلاته في قرص واحد معين .

والطيور المشقوقة الجناح ، اما أليفة تأكل العشب كالحمام والعصافير وغيرها واما جارحة تأكل اللحم كالنسور والعقبان ، او بين بين ، كالزاغ والغراب الابلق ومنها تقاد بسهولة كالكوالي ، وبعضها شيقة كالعصفور والحجل والديك ، وبعضها عفة كالغربان ، وبعضها حيية كالاوز ، وبعضها صلفة متعجرفة كالطاووس ، وقيل في طــــائر الهفيمرون *Gal. Ephémé* انه في يوم واحد يولد ويموت ، وباحتكاك جناحيـــه تقدح النار فيحترق ، ومن رماده تولد صغاره ، وطائر الفسطيقوس *Psittacus* عريض اللسان ولذلك يقلد اصـــوات البشر . واناث الحمام لا تتزاوج بذكور اخرى اذا ترملت ، والحجل يضع بيضه قسمين ، قسم يحتضنه الذكر والقسم الآخر تحتضنه الانثى ، وكل منها يحنو على صغاره ويعيلها . والبلبل رقيق الرجلين معقوفها يغرد وخاصة في نهاية حياته ، واللقالق تعيل والديها ، واذا

شاخ النسر يصبح منقاره معقوفاً فيموت جوعاً ، واذا انتصرت الديكة تصيح عالياً معلنة انتصارها ، قال القديس باسيليوس في الاوز : انها يقظة دائماً حتى طردت باصواتها المفزعة غزاة تسللوا من الاغوار لدك روما واحتلالها . والسمرمر طائر يقضي على الجراد ولا يشبع بطبيعته ، ويعتقد المفسرون ان بهيموث المذكور في سفر ايوب هو الجراد .

الفصل الثامن

مدهشات اليوم السادس

في هذا اليوم خلقت الحشرات والبهائم والوحوش والانسان ، والحشرات او الدبيب اما ذوات قائمتين وتلد من البطن كالخلد والفأر وابن عرس ، او ذوات اربع قوائم كالقمل والبرغوث ، او ذوات ثماني قوائم كالعنكبوت ، او كثير القوائم كالعقارب وام اربعة واربعين والجندب ، او عديم القوائم كالحيات والديدان ، والعقرب اذا ولد تأكله صغاره ، والعضاية تلقح من فمها فتحبل وتلد من اذنيها ، والنمل يقتات من رائحة الحبوب ، ويلقي بيوضه في ما يجمعه مؤونة في باطن الارض ، ثم تنقف صغاره ، والحيات شرهة جداً ، في الطعام وشرب الخمر ، ويمكنها ألا تأكل وقتاً طويلا ، وانثى الافاعي ليس لها فرج وتلقح من فمها وتقطع عضو الذكر فيموت ، وعند الولادة تأكل صغارها بطنها وتخرج ، اما هي فتموت ، ولذلك لقب يوحنا المعمدان اليهود بالحيات اولاد الافاعي ، لانهم قاتلو آبائهم . وعضاية السلمندر دويبة تدخل النار فلا تحترق . والعنكبوت بواسطة الاسلاك الناعمة التي يفرزها من بطنه ويرسلها نسيجاً في الهواء يصطاد الذباب لقوته ، وانثى الجراد تلقي بيوضها في قلب الارض الصلبة فيتكون في الارض شرانق وفي داخلها تتكون الحشرة .

ومن الحيوانات ، الاسد شجاع ونبيل ، والذئب معادٍ ، والثعلب مكار ، والكلب صديق ، والايل وديع . والحيوانات الكثيرة التوائم كثيرة الاثداء ، وعند الكلب والقطة اللسان للتذوق فقط ، وليس للصوت ، والدبة تلد صغارها بحجم الفئران ، واناث الثعلب تلد صغارها كقطع من اللحم ، والضأن اكثر جهلاً وغباوة من جميع

الحيوانات ، فانها تخرج حيث لا يجب ان تخرج ، وتسرح سواء في المطر او الثلج ، والابل اكثر ذكاء من جميع الحيوانات ، واذا خلع قرنيه يكون حذراً لانه يصبح اعزل من السلاح ، والاسد هادئ الا اذا جاع انه يصبح شرساً ويخاف النار ، والفيل لا يجامع انثاه اذا حبلت منه ، ولا الجمل يجامع امه

واناث جميع الحيوانات ضعيفة ، ما عدا الدب والنمرة ، والامرأة اكثر حنانا من الرجل ، ولكنها حسودة تشكو حظها ، وكذابة تحب الشتائم ، وهين اغراؤها ، ومع انها كليلة تسهر اكثر من الرجل ، وتشتغل بيديها ، وتقنع بغذاء قليل ، وتشعر بالحبل في تمام الاربعين يوماً ، واذا حاضـــت في هـــذه الفترة يكون جنينهـا ذكراً اذا القت شيئاً من دمها في ماء بارد فلا يتحلل ويظهر الجنين الذكر وهو بحجم نملة كامل اعضاء التناسل والعينين ، واما الانثى فبعد الحبل بثلاثة اشـــهر تظهر اعضاؤها .

والعظام خلقت للقوة ، والاعصاب لايصال الحس والحركة ، من المـــخ الى سائر الاعضاء ، وفي الاوردة المتفرعة من الكبد يجري الدم الى الشرايين التي تصدر من القلب قوة الحياة . والاظافر وجدت لتقوية رؤوس الاصابع ، وبواسطة الشعر ينظف الجسم من الابخرة المتصاعدة منه ، وسكنى النساء الدائمة في البيوت ضارة كثيراً ومؤدية الى الزكام لكون فكيها خاليتين من الشعر .

والرأس وهو برج لجميع الاعضاء ، وضعت في اعلى الجسم من اجل العينين ، لان الرقيب يجب ان يكون في القصة ، والجمجمة تصون المخ الهش كالخوذة ، وفي نهاية ثقبي الانف خلق عظم غضروفي لكي تتسرب الروائح من مسامه الى المخ وهو مركز الشعور وبواسطتها ايضاً تطرح الانضاح المخاطية . وخلق ثقب الاذن حلزونياً لكي يسخن فيه الهواء قليلا فلا يصل الى الطبلة الرقيقـــة الغضروفية فيتلفها ، وفوقها غشاء يابس كالجلد على الدف . والاسنان الظاهرة اصلب من العظام الخفية ، ورؤوس القوادم حادة كالسكاكين لتسهيل القطع ، والانياب قوية للكسر ، والطواحن عريضة لغاية المضغ ، والفك الاسفل يتحرك بدون الفك الاعلى ، صيانة

لبقية اعضاء الراس من الحركة واعضاء الاستنشاق والقلب والرئتان مصونة وراء الاضلاع التي تمثل السور ، وبتمدد عضلات الرئة اللدنة يدخل الهواء النقي الى القلب ، وبتقلصها يندفع الهواء المحترق .

وفي القصبة الهوائية الهابطة الى غشاء الرئة فتحة تسد بغشاء يقابل المبلع (الحلق) حذراً من هبوط الاغذية الى الرئة اثناء الطعام ، وفم القصبة مغطى بغطاء خوف ان يسقط فيه شيء من الطعام او الشراب ايضاً ، لانه اذا حدث ذلك يتسبب الاختناق او السعال العنيف .

اما الجهاز الهضمي ، فيبدأ من الحلق ، ومنه يذهب الطعام والشراب الى المعدة لهضمه ، والامعاء العليا خلقت ملتفة لئلا تقذف الغذاء بصورة فورية قبل ان يسكب عليه عصارته ، وفي الكبد عصارتان ، احداهما المرة الحمراء ، والثانية المرة السوداء والاولى تدفع الى المرارة ، والثانية الى الطحال ، فينجو الجسم من مضارهما ، والرطوبة تجتذبها الكليتان ومنها تهبط الى المثانة ، ومنها الى الخارج ، وفي هذه المنطقة ايضاً توجد الاعضاء التي تبقى على النوع ، سواء في الذكور او الاناث ، وهي ايضاً عجيبة التكوين ، إلا ان الحياء يمنع من تشريحها وان كانت حكمة الخالق لا يخجل منها .

وبما ان الاقسام العليا من الانسان اخف وزناً ، وهذه الاقسام في البهائم اثقل ُخلق الانسان معتدل القامة ، ولكونه عاقلا جعلت يداه صالحة لمختلف الاعمال ، وليس عاقلا لكونه ذا يدين كما يظن بعض العلماء ، فالنجار مثلا يجب ان يكون له فاس ، وليس كل من له فاس نجاراً .

الفصل التاسع

= يتألق العقل في التفكير السليم =

اذا تأمل الانسان في هذه الامور وما يشابهها ، فانه يتألق باستمرار الترويض والتمرين الفكريين ويصبح تفكيره نقياً فيرى حالاً في صفحته العاقلة عناية الله كامنة متغلغلة فيها ، ويشعر باشراق اشعة لا تخبو طبقاً لدرجة ترويضه وهذيذه في العمل

الروحي ، ويتوق الى التخلص من الاثقال المادية توصلاً الى العالم الروحي ، ومنه يتسامى الى النور الازلي ، الفائق كل عقل وكل تصور ، وبوحي المعرفة الروحية يشاهد مشاهدة روحية فيوض الاشعة الساطعة ، تشرق عليه هذه الاشعة من الاب مصدر كل ضياء ، واذا تمزقت سجف الظلام المسدلة على قلبه ترتسم على صفحته روعة الامجاد الخيرة .

اما القلب الجامد ، فيرتبط بالدنيا فقط ، ولا يستطيع التسامي الى باريها ، فيمكث في ظلام دامس ، مرتبكاً في حزون اعرض الله عنها ، وذلك ما يسميه اباؤنا بتشرد الافكار .

الباب الرابع عشر

نقاء الافكار

وفيه اربعة فصول

الفصل الاول

★ اقوال الاباء في الافكار ★

قال احد الآباء لشيخ تقي فاضل : ماذا اعمل يا ابت ، فان جسمي في صومعتي ، اما عقلي فانه مشرد الى كل جهة ؟ ولذلك تقلقني افكاري كثيراً ، كأنها توحي اليّ ان لا فائدة من اعتكاف جسمي في الصومعة ، قال الشيخ : اعلم يا بني ، ان هذه تجربة الشيطان فاذهب اصبر في صومعتك وحينئذ يجتمع فكرك .

قال شيخ آخر : اعرف نفسك فلا تسقط ابداً ، وافسح المجال للنفس لكي تعمل في الصلاة الدائمة وحب الله ، قبل ان يأتي غيره فيعطيها افكاراً قذرة شريرة .

وقال احد الآباء لشيخ : لماذا يتوقف عقلي عن التفكير الروحي اذا خرجت للعمل ؟ قال الشيخ : لانك لا تكمل ما قد كتب (ابارك الرب في كل حين

وفي كل حين تسابيحه في فمي) فاذا كنت في الداخل او في الخارج فلا تتوقف عن التسبيح بحمد ربك ، ليس فقط في العمل بل وفي الكلام والتفكير سبح بحمد الله ، فان الله ليس محصوراً في مكان ، ولكنه موجـــود يبسط وجوده وسلطانه في كل مكان .

كان الاب فومان قبل مغادرته الصومعة الى محل العبادة يجلس فيفحص ضميره ويستعرض افكاره ، ثم يخرج ، وكان يقول : لسنا بحاجة الى شيء حاجتنا الى قلب يقظ حي . واجاب احـد الاخوة حين قال له ان افكاري تقلقني : انك لا تستطيع ان تبسط يديك فتقبض الريح ، ومثلها لا يمكنك ان توقف افكارك عن الحركة ، فواجبك هو ان توقف تيارها . وقال ايضاً نقلاً عن الاب يوحنا الفرمي : ان ابليس عدونا لا يفرح بشيء فرحه بمن لا يكشف افكاره لمرشده . وقال ايضاً : ان الماء ما زال على النار يغلي ، فلا يقربه الذباب ، والقلب ما زال مضطرماً بالروح فالافكار الشريرة لا تقربه .

وقال شيخ آخر : لم اخطُ خطوة واحدة الى الامام ما لم افقه كيف اضع رجلي وسأل الاب آمون مرة الاب فومان في الافكار الشريرة والشهوات الباطلة الثائرة في الانسان ، قال الاب فومان : ايمتـدح الفأس بدون يد تقطع فيه ؟ فانت لا ترخ لها الحبل على الغارب تنقطع .

وسأل الاب سوسايس الاب فومان في الافكار الشريرة ايضاً ، قال الشيخ : كما ان صندوقاً مملوءاً بالثياب ، اذا تركت الثياب زمناً طويلا فيه ولا تحرك ، يأكلها العث فتتلف ، هكذا الافكار ما لم تحركها باهواء الجسد تتلاشى وتزول . وقال ايضاً الاب فومان للاب يوسف : مثلما يحبس رجل حيةً وعقرباً في جرة ويكلس فوهتها يموتان ، هكذا الافكار الشريرة تتلاشى بالصبر .

ورأى احد الاخوة الاب ارسانيوس يسأل شيخاً مصرياً بشأن الافكار ، فقال له : كيف تسأل هذا الرجل الساذج وانت الضليع بآداب اليونان والرومان ؟ قال الاب ارسانيوس : اني ضليع بآداب اليونان والرومان ، ولكني لا اعرف بعد الالف والباء التي يتقنها هذا الساذج .

سأل احدهم الأب سوسايس : ألم تبلغ ايها الاب الى الآن درجة الاب انطونيوس : ؟ قال الشيخ : لو كان لي ولو فكرة واحدة من فكر الاب انطونيوس ، لاصبحت برمتي ناراً . قال احد الشيوخ : كل خاطر يخطر لك قل له : امنا انت ام من اعدائنا ؟ وسيعترف لك بكل شيء .

وقال الاب اوغريس : كما (يتثعلب) الكلب لاختطاف قطعة خبز من صبي كذلك الخاطر الشرير ، حكمة مصدرها القلب . وقال الاب اسحق : وان كان فكرك نقياً بطبيعته ولا يحتاج الى نقاء جديد ، تكفيك مداخل الحواس لاقلاقه وتشويشه بما تستمده من كثيرين .

الفصل الثاني

* تحديد نقاء الافكار *

نقاء الافكار حالة روحية صرفة كل ميل نفسي او جسدي توجّه الانسان الى الله ، وعليه ، كل خاطر لا يهدف الى التوصل الى الله هو خاطر مقلق للافكار ولا يمكنه التآلف مع النقاء ، حتى ان النقي الفكر اذا فكّر في نقاء الفكر ذاته لا يكون نقياً فكره ، وكما ان المجد والمديح والتباهي والتفاخر والغنى والرئاسة وما الى ذلك ، امور مقلقة للافكار ، كذلك التفكير بنوال النعم الخالدة ايضاً يعتبر من جملة الامور المقلقة ، ولذلك قال احد الفضلاء : كل خلجة او سكنة في الانسان يجب ان تكون لله فقط ، دون انتظار ثواب عابر او خالد ، على حد قول مار اسحق : ان المبارك الازلي يفتح الباب امامنا الا تكون لنا غاية الا هو ، وهكذا نعرض عن كل شيء وفيه نحصر فكرنا ، فلا يكون اي كائن يحجب رؤية ربنا عن انظارنا .

الفصل الثالث

= اجناس الافكار الشريرة =

يحصر الآباء الافكار الشريرة في ثمانية اجناس هي :

الاول : الشراهة — وهذا يصور امام النفس الامراض الوبيلة الناتجة عن الزهد

وانعدم طبيب او علاج ، ويذكر بالاخوة الذين ابتلوا بهذه الامراض .

الثاني : الفهارة - يسوق الفكر الى الشرود في آفاق قذرة كثيرة ، وخاصة النساك ، حتى ان الشقي الذي لا يمكنه التوصل الى هذه الغاية يلجأ الى عادة وبيلة سرية .

الثالث : حب المال — يصور امام الفكر ، الاتعاب الناجمة عن العمل اليدوي ، ومرائر البؤس والاستجداء .

الرابع : الهم — يذكر الناسك بالاهل والبيت والاقارب ، ومتع الحياة العائلية ، فان لم يستطع العودة الى الحالة الدنيوية الاولى يغرق النفس بالهموم .

الخامس : الكسل — ويدعى ايضاً شيطان الظهيرة ، لان عمله يبدأ من الساعة الرابعة - قبيل الظهر - ويمتد الى الثامنة ، مهاجماً الناسك ، فيضطره اخيراً الى ترك الصومعة والخروج ، والنظر الى الشمس ، فيشعر ان الساعة التاسعة لم تزل بعيدة جداً ، ويثير فيه كرهاً شديداً ضد العمل او الصومعة ، ويبرهن له ان ارضاء الله ليس محصوراً في مكان معين ، بل هو ممكن في كل مكان .

السادس : الغضب — وهذا يثيره ضد من اضرّ به ويصور امام النفس ذلك الانسان المؤذي فيرغي ويزبد ويقلق الليل كله ، ويضرب الجسم بالهزال ، واذا طالت مدته انقلب الى حقد .

السابع : المجد الباطل — وهذا يسترق الكاملين على حين غرة ، ويحملهم على تصور جهادهم النسكي وعباداتهم الطويلة ، ويزيد لهم اصطياد المجد من الناس ، فيصور لهم الشياطين تولول من هيبتهم ، والمرضى يحيطون بهم طالبين الشفاء ، والجماهير تزحمهم رغبة في لمسة واحدة من ثيابهم ، ويصور له على باب صومعته كثيرين من طالبي الشفاء ، وقد يقاد البعض بالسلاسل اليه اذا رفضوا الذهاب .

الثامن : الكبرياء — وهذا يزيّن للنفس انكار قوة الله ومعونته ، وتعتقد انها توصلت الى درجة الكمال بجهدها وزهدها ، فيتعالى على الاخوة تعاليه على الجهال ، ويحسبهم قاصرين عن بلوغ مبلغه .

★ ★ ★

الفصل الرابع

★ كيف تسرق الشرور الانسان بشكل الفضائل ★

كل فضيلة يمارسها الانسان يستطيع استراقها منه بطريقة خبيثة فيظهر لـــه الرذيلة فضيلة كاملة ، واذا ظن ذو الفضيلة انه بجهده يمكنه الانتقال من جهـــة الجداء الى جهة الخراف ، يكون الشيطان قد رماه في اضداد الفضائل ، وهكذا لا يضل الشيطان بدهائه البسطاء فحسب بل الفضلاء ايضاً والاذكياء ، مثـال ذلك : اذا كان الانسان يصلي في جماعة الاخوة وابناء الشعب يزين له الشيطان التفكير بالآية القائلة (صل بخشوع لكي يعظمك ناظروك) واذا اعرض عن هذه الفكرة يظهر له كأن جميع الواقفين في الصلاة انما اليه شاخصة عيونهم ويشعر كـــأنهم جميعاً يقلدونه وعليه يقول له الفكر الشيطاني : كن قدوة صالحة لهم جميعاً ، فيقتدوا بك ، في الصلاة . واذا أعرض عن هذه الفكرة يثير اليه ان يصلي وحـــده في الصومعة ، وليتروض على تذليل عنقه وترخيم صوته والاكثار من التهجد والركوع الى الارض ، والامعان في قرع صدره بكلتي يديه ، لكي اذا رسخت فيه هـــذه العادة يطبق ذلك في العبادة العامة ، واذا اعرض ايضاً عن هذه الفكرة يتوعـــد (المجرب) كأن يقول له : انظر امام من انت واقف في وقت العبادة هذا ، ومن تناجي في الصلاة ، فيحمله على البكاء والجعير ، امام الجمهور وهو يصلي او يقدس .

ويجب ان تعلم ان شر هذه الخواطر الاربع ، الاول والثاني والثالث بالنسبة الى النساك والرؤساء ، والرابع اذا لم يحاول الصلاة السرية في المخدع فانه شر من الثلاثة الماضية ، سواء للنساك او المرؤساء ، وعليه ، فان كثيرين من الاتقيـــاء لا يمكنهم الظهور في العبادة مع الجمهور فيخطف عقولهم خشوعاً بالله ، ويتوقفون عن كل حركة مستغرقين بلذة روحية .

وربّ سائل يقول : أتوجد مكافأة للبر اذا لم يقدم بفكر نقي ؟ يقول البعض ، نعم ، ويقول غيرهم : لا . ويعتقد غيرهم ان هناك عقاباً لمن يقوم بذلك ، ولكن الصحيح هو : اذا كانت الغاية السيئة مساوية للغاية الصالحة تفوق بقيمتها الشريرة

فهناك ثواب ولا شك ، لان الرب قال : ان تقديم كأس ماء بارد باسم تلميذ لاحد هؤلاء الصغار لا يضيع اجره .

الباب الخامس عشر

— محبة الله —

+ وفيه خمسة عشر فصلاً +

الفصل الاول

اقوال الآباء في محبة الله

ذهب الاب آمون النطروني الى الاب انطونيوس وقال له : ارى ان لي فضيلة اكثر منك ، فكيف عطرت شهرتك بين الناس اكثر مني ؟ قال الاب : لاني احب الرب اكثر منك .

وقال القديس باسيليوس : ان الحب نحو فاعلي الخير يفوق الحب الطبيعي ، وهذا ليس خاصاً بالبشر فحسب ، بل ان البهائم ايضاً تمارسه ، فقد كتب (الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه) واذا كنا نجهد نفوسنا في عرفان الجميل نحو المحسنين الينا بطريقة عفوية فأي وصف بليغ يمكنه اعلان الجميل السموي الذي لله علينا ؟ فان افضال الله كثيرة علينا ولا تحصى ، وهي عظيمة القدر جداً ، حتى ان احدها فقط يفوق كل عرفان الجميل الذي يمكننا تقديمه لله ، فشروق الشمس وبزوغ القمر وعذوبة النسيم وتعاقب الفصول ومياه السحب وما تنبته الارض او يقدمه البحر ، الامور التي انما خُلقت لانماش حياتنا ، فلن نستطيع السكوت عن هذه النعم ، وان قصدنا ذلك فلا يمكننا اعلان عظمة هذه النعم مها بالغنا في ذلك ، والله تعالى صالح بحيث لا ينتظر اجراً او شكوراً ، فيكتفي عن كل هذه النعم بأن نحبه .

وقال الاب اوغريس : اذا تكامل انسان بمحبة الله تكاملا تاماً ، يظهر كأنه

ثمل ، فانه مخطوف بحب الله وكأنه لا يرى العالم بما فيه ، لان فكره مستقر في السماء ، فطوبى لمن منح هذه النعمة . وقال ايضاً : اذا كان في الانسان نعمة او نبوة او اجتراح المعجزات ، ولم يبلغ درجة الحب الكامل لله ، فان نفس لحظة يجهز عليه الشيطان لانه لم يزل طفلا معرضاً للخطر .

وقال يوحنا ابو الدوالي : ان الذين اشرق فيهم حبك ببساطة لا بتفهم ، واعرضوا عن كل حب ، واطرحوا هموم الاهل والاقارب ، وجعلوا نفوسهم غريبة عن العالم ، وراحوا يهيمون وراء حبك عراة عن كل شيء ، وصرفوا انظارهم عن كل شيء ، ولم يلتفتوا الى ما كانوا يرغبون نواله في الحياة ، انهم لا يزالون جهالاً لانهم لا يعرفون ماذا يريدون ، فهم يريدون ما لله ولم يشعروا ان الله قد اعطاهم ذاته كلها .

وقال مار اسحق : ان النفس المحبة لله ، بالله وحده راحتها ، فقطع عنك اغلال الدنيا ليمكنك ربط قلبك بالله ، ان الطفل ، بعد فطامه ، يقدمون له الغذاء ، والانسان النازع الى الله ليفطم نفسه اولاً عن الدنيا ، فطام الطفل من ثديي أمه .

الفصل الثاني

تحديد المحبة واقسامها واسبابها

المحبة نزوع النفس الى احد المدركات ، لان من لا يدرك كنه امر ولا يعقل صفاته لا ينزع الى اللحاق به ، او الحصول عليه ، والموضوع الذي يحب ، اما ان يدرك بواسطة الباصرة كالجمال الظاهر ، او بحاسة الشم كالعطور ، او بحاسة السمع كالانغام العذبة ، او بحاسة الذوق كالمآكل الشهية ، او المشروبات المنعشة او بحاسة اللمس كلمس الاجسام الناعمة ، او بالقوة العاقلة كشعورنا بلذة الفكرة في المعارف السامية التي تتضح لنا ، فالميل الى اللغة العقلية طبيعي بدليل رغبة كل انسان بسماع الامور الجديدة ، والوقوف على معرفة اعمال الآخرين ، والمعرفة تحدد خمسة اسباب للمحبة ، هي :

الاول : محبة الوجود والنزوع الى البقاء ، لان كل كائن ، يجهد في الابقاء على كيانه . وعليه فان الانسان يحب ذاته اكثر من محبته لاي شيء آخر ، ويهتم في حفظ ذاته صحيحاً معافى ، غزير الاموال ، لان فيها بقاء كيانه ، ويحب ايضاً ولده ، لانه نسله الثابت في ارضه ، وغصنه الخارج من جذعه

الثاني : محبة الخير المبين ، على حد قول القائل : ان النفوس مجبولة على حب المحسنين اليها ، وعليه نضفي حلة رائعة الجمال بارادتنا وقوتنا الطبيعية الباطنة للمحسنين الينا .

الثالث : الجمال الظاهر : وهذا ينزع لذاته كجمال لا لشيء آخر بدليل بهجة النفس لمجرد رؤية الاشجار الجميلة والازهار العبقة الرائعة ، وخرير المياه الصافية ، وهكذا يبتهج الانسان وتنتعش حواسه دون نوال شيء من طعام او شراب .

الرابع : الجمال الباطن ، ان هذا النوع من الجمال لا يدرك بالعيون بدليل ان الصوت ايضاً يقال عنه انه جميل ، ومن البدهي ان لا شيء للنظر من هذا الجمال ، فالجمال والحالة هذه كمال موضوعي واقعي ، فان تمت فيه جميع شروط الكمال ، فيكون حينئذ اشد بهاء ، ويعرف بهذه الصفة ، واذا نسب اليه موضوع من المواضيع ، فيجب ان يكون له . ونزوعاً الى هذا النوع من الجمال يحب العلوم والفنون والفضائل ، وبالنسبة اليه نحب الانبياء والرسل والملافنة والفلاسفة الثقات الاثبات ، مع ان كمالهم لا يمكننا رؤيته ولم نعاشرهم قط .

الخامس : التناغم الخفي والتشابه السري اللذان يخلقان بين البشر ، كما شرحنا في مطلع كلامنا في محبة الاخوة .

الفصل الثالث

★ كل سبب من اسباب المحبة هذه يوجب محبة الله ★

ان اسباب المحبة الخمسة التي شرحناها في الفصل السابق ، اذا امعنا النظر فيها نجدها موجهة الى الله تعالى بل لا نجد اياً منها مناسباً لغيره ، ومن هنا يجب ان يشجب

رأى الذين لا يعرفون كيف يحبون الله، ولا يفقهون اسمه فيما اذا ظهر ذلك، واليك بيان ذلك :

السبب الاول : محبة الوجود الدائم والنزوع الى البقاء يوجب محبة الله بدليل ان كل انسان انما يطمع في بقاء وجوده فيفهم منبته، ويعرف موجده، ويتأكد ان يوجد لحظة واحدة، فاذا كانت اذن محبة الله ذاته ملازمة له فيجب ان تكون محبة موجد هذه الذات اكثر ملازمة له .

السبب الثاني : محبة الخير، وهذه توجب على كل عاقل ضرورة محبة الله لانه وحده يمنحه كل خير طبيعي، وما عداه انما هو واسطة يؤدي الى الغاية، من الخير الجزئي الى الخير الكلي . مثال ذلك : المتصدق وفاعل الخير انما يفعل ذلك لثواب آني او أبدي . المعطاء السخي انما يحسن الى الآخرين لينال هو ثمرة احسانه، ومن البدهي ان من يحسن ومن يحسن اليه انما هو بالحقيقة الله، فلا يرتاب اللبيب اذن ان يحبه وحده من كل قلبه ومن كل نفسه ومن كل قوته .

السبب الثالث : الجمال الظاهر : وان كان هذا النوع من الجمال خاصاً بالكائنات المجسمة، الا ان القديسين وانقياء القلب الذين لم يتحرروا بعد من اغلال الجسد، اذا تجلى لهم واظهر لهم جماله بطريقة تفوق كل جمال، فانهم يبصرونه متشحاً بثياب نقية كالثلج، وشعره كالصوف النقي ومتربعاً على عرش من لهيب، في عجلات مشرقة، مرتفعة فوق مركبة ذات الوجوه الاربعة، والوف الوف من القوات الناطقة وربوات ربوات من الملائكة خاشعين بين يديه، وهم يسبحون بحمده، وان كان ذلك ضئيلاً بالنسبة الى العظمة الازلية ومع ذلك هم يرددون ثلاثاً ويضاعفون التسبيح وهكذا، فان من اسعده الحظ بحيازة نظرة خاطفة من هذا المجد الازلي، وان رأى ذلك من احد شقوق الباب، فانه يقطع كل سبب يربطه الى هذه الدنيا، بما فيها من اهل وعشير، ويعرض عن كل حب آخر ويتخذ اجنحة خفاقة يطير فيها للحاق بالجميل الازلي العجيب، ويعتبر اسباب الحياة الاخرى تافهة حقيرة لان رؤية ربه ملأت جوانحه وملكت عليه مجاميع قلبه .

السبب الرابع : الجمال الباطن ، الامر الذي يشعر به الانبياء والرسل وبقية الكاملين ، واننا نجد ثلاثة اسباب تجتذبهم الى النزوع نحو هذا الجمال وهي :

(١) تعمقهم في معرفة الاسرار الالهية (٢) حيازتهم قابلية لهداية الجماهير الى الصراط المستقيم (٣) استغراقهم في الفضائل واعراضهم عن الرذائل ، وتأكدهم ان معرفة المخلوقات جهالة عند الله ، وحكمتها غباوة ، وقوتها ضعف بالنسبة الى قوته وكل برهم انما هو خرقة بالية بالنسبة الى قدامته ، على حد تعبير النبي إشعيا ، فكيف لا يحبه اللبيب حباً يفوق كل ما في هذا الكون ؟ فاذا كان هذا شأن ذوي الجمال فكيف يميل اللبيب الى غير ذوي الجمال .

السبب الخامس : التناغم الخفي ، والتشابه السري ، الامر الذي يوجد خاصة بين الله والبشر ، على حد التعبير الالهي ، حيث يعلن ان الانسان مخلوق على صورة الله . فاذا كان كل نوع من الكائنات الحية والجامدة متناغماً مع بني نوعه ، فما اغبى الانسان ان يظهر اقل تناغماً وانعطافاً من الكائنات الجامدة وغير العاقلة الى حب ربه ، وقد شرّفه بصورته ؟ ؟ .

الفصل الرابع

= لذة معرفة الله تفوق كل لذة =

من البدهي ان اللذة تتولد من ادراك الموضوع اللذيذ ، ومن الواضح ايضاً ، ان في الحياة قوى مدركة كثيرة ، وعليه تكون اللذة بالنسبة الى مدى القوة المدركة التي يحوزها المدرك ، وقد رفع الله تعالى قدر الانسان البائس من حمأة البهيمية الى ذروة الكائنات الروحية اذ ميّزه بالنفس العاقلة وجعله مشابهاً ملائكة السماء لشعوره بلذة المعرفة السامية ، وبما ان المعرفة تتسامى بالنسبة الى سمو الامور المدركة وعظمتها وجلالها وطبقاً لسمو تلك المعرفة تزيد او تنقص اللذة . وكل من يعرف انه في جميع الكائنات لا يوجد اعظم جمالاً وسمواً وكمالاً ، من رب الكائنات وباريها ، لا يمكنه ان ينكر ان معرفة عظمة الخالق هي اسمى جميع المعارف ، واللذة الناجمة

عن هذه المعرفة تفوق كل لذة وسمو في الحياة ، حد تعبير الاب اوغريس : اذا كان في المذوقات لا يوجد احلى من العسل والشهد ، فان حلاوة معرفة الله تفوقها جميعاً ، بدليل عدم وجود شيء في الارض يمنح النفس لذة كلذة معرفة الله . وقال فاضل آخر : لا يوجد من اجتذب عقله بجمال الله ويمكن لكائن آخر في هذا العالم يعود فيجذبه ، ولا يوجد من وصل عقله بالله ، ويمكن ان يصله بكائن زائل . ولا يوجد انسان وجد الله وعرفه ولم ينسَ العالم بما فيه ، وقال حكيم آخر : اذا انسكب العقل في بحر معرفة الله لن يتعكر إذا بلغ ميناء الحياة ، واذا خلع رداء عبيد الهوى ينل صك الحرية الذي لا يتمزق . وقال ايضاً : منذ هتفت شفتاي باسمك الكريم شرع النشيد العذب يخلب الاب اسيرك ، ان اسيادي — في هذا العالم — اصبحوا عبيدي ، لانك صرت لي سيداً ، منذ عرفوا ذلك ولّوا هاربين الى غير رجعة .

الفصل الخامس

ان معرفة الله بعد فراق الحياة الحاضرة تسمو وتتعاظم

المدركات نوعان : **معقولة ومحسوسة** ، وكما ان المدركات المحسوسة قسمان ، الاول : وهو البعيد ، الذي يحس به بطريقة مجازية خيالية ، والثاني : وهو القريب ، وهذا يكون محسوساً لدى السمع والبصر وما اليهما بطريقة واقعية ، كذلك المدركات المعقولة قسمان ، الاول : وهو البعيد ويدرك في هذا العالم بطريقة مبهمة ، والثاني : وهو القريب ، ويدرك في عالم الروح بصورة حقيقية ، وكما ان الاجفان اذا اطبقت تحجب المرئيات عن البصر ، كذلك النفس ما زالت مغلفة بالجسد فانها تعجز عن رؤية المعقولات ، على حد قول الله لموسى : لا يمكنك ان ترى وجهي ، لانه لا يراني حي ويعيش . اي بعد ان تتخلص من الجسد ، فحينئذ تراني ، وهذا ما يشرحه الرسول بولس بقوله : اننا نرى الآن في مرآة في لغز ، وحينئذ وجهاً لوجه ، واني الآن اعرف بعض الشيء ، ولكن حينئذ اعرف كل شيء . وقال القديس غريغوريوس اللاهوتي : انني اتفق مع الفلاسفة في رأيهم ، بان النفس الصالحة المحبة لله ، تتحد في حال انطلاقها من اغلال الجسد التي تقيّدها ، وتنجو من هذه الدنيا ، وتمتلىء حالاً

شعوراً واحساساً ، بالخير الباقي لها ، لان الظلام المخيم عليها تلاشى وزال ، حقاً اني لا اعرف ماذا يجب ان يقال ، انها ستستغرق في لذة عجيبة وتبتهج .

الفصل السادس

﴿ الاسباب التي تضرم محبة الله وتقويها ﴾

يجب ان نعلم انه لا يخلو قلب واحد مؤمن من ضوع محبة الله ، فاذا كان كثيرون من المؤمنين زاهدين في التطلع الى شجرة محبة الله ، وجميل ازهارها ويانع اثمارها ، فان هناك سببين عند الحكماء بها غرس المحبة يتمالى كالنخلة في قلوب الصالحين وتتكاثف قضبانه واغصانه مثل ارز لبنان ، وهما :

(١) : ان يطوي الانسان كشحا عن كل شيء في الدنيا ، ويعرض عن كل هوى ويتسامى الى الرغبة في الواحد الاحد ، نامياً بالرجاء والايمان ، ممعناً في الزهادة والنسك وهكذا اذا ما طهر ضميره واستضاء لبه يصبح من جملة الانقياء القلوب الذين يعاينون الله ، ومن هذه الرؤية تلتهب نار المحبة .

(٢) : ان يتسامى الانسان ويستغرق في معرفة الله ليستضيء بها ويتوهج ، بعد تطهير القلب من الاهواء الرديئة ، لان معرفة الله في النفس النقية تشبه الزرع الجيد الذي يلقى في ارض صالحة ، ومن زرع المعرفة هذا تنبت المحبة وتنمو .

ويمكن اكتساب معرفة الله بطريقتين ، فاما ان يعرف الخالق اولاً ثم تعرف مخلوقاته ، عن طريقه ، او ان تعرف مخلوقاته اولاً ثم يتسامى العقل الى معرفته عن طريقها .

والطريقة الاولى ، وان كانت ضيقة شائكة ، وبالكاد يمكن سلوكها للابطال العارفين ، إلا انها الطريقة المثلى ، والوسيلة الفضلى ، وشرحها احد العارفين بقوله : اني بالهي عرفت إلهي ، ولولا إلهي لما عرفت إلهي . وقال عارف آخر : اني اعرف الله قبل معرفتي العالم ، فمعرفته التي فطرت الكائنات اشرقت في ضميري ، وسبقت معرفتي بجميع الكائنات . وقال ايضاً : اني عرفت المسيح قبل ان اعرف ذاتي ، فقد عرفته قبل ان اعرف كل معرفة فاضت عليّ من روحه . وقد أشار النبي داود الى حقيقة ذلك بقوله : معك ينبوع الحياة وبنورك نرى نوراً .

والطريقة الثانية، وهي اكثر سهولة، ويستطيع سلوكها كل من اراد، وان كان خائراً او ضعيفاً، وقد حددها المرتل بقوله: السماء تخبر بمجد الله.

الفصل السابع

درجات محبة الله

اتضح سابقاً ان معرفة الله سبب محبته، وبالنسبة الى زيادة هذه المعرفة ونقصانها تزيد او تنقص هذه المحبة، وبما ان بعض الناس انتهوا الى آراء مضادة للحـــق، بتأثير الصفات الالهية الواردة في الاسفار الالهية، وبعضهم آمنوا استناداً الى تلك الصفات عينها، وشروحها المستمدة عن تعاليم الملافنة بطريقة تقليدية بسيطة دون تفهم كامل، والبعض الآخر وهم القلة، استطاعوا توقل ذروة المعرفة، استناداً على موهبة خيّرة هبطت عليهم من فوق من ابي الانوار، بصورة كاملة، وعلى هـــذا الاساس نجد ثلاث درجات لمحبي الله.

الاولى، وهي السفلى، درجة الضالين الذين تمسكوا بالضلال تمسكهـم بالحق، وهم ابناء الشمال. والثانيـــة، وهي الوسطى، درجة المؤمنين البسطاء، وهؤلاء وان كانوا مؤمنين، بني اليمين، الا ان محبتهم عديمة الرَّوِيَّة طبقاً لمعرفتهم الضحلة، وليس لها اصل راسخ، في القلب، ولذلك هي تحت خطر الذبول. اما الثالثة، وهي العليا، فانها درجة العارفين الذين هم اسمى من بني اليمين، وهم الذين عرفوا الله كما هو، فلا يؤثر عليهم روح الضلال، فهم اسمى من قبول المعرفة بطريقة تقليدية ضحلة، وعليه لا يفصلهم عن محبة ربهم لا نار ولا سيف.

الفصل الثامن

سبب عدم معرفة المخلوقات خالقها

ان الله تعالى هو اعظم الكائنات وضوحاً واشراقاً، بدليل انه لا توجد دقيقة من دقائق الكائنات الا وفيها برهان على وجود خالقها، والى ذلك اشار المـــرنم داود بقوله: ليس قول ولا كلام ولا يسمع به صوتهم مز ١٨: ٤ وهـــذا ما

يؤيده ان معرفـــة الله بديهية وضرورية مثل سائر المعارف البدهية الضرورية والامور المجهولة لدينا تكون كذلك اما لغموضها او لسطوع اشراقها يتضاءل العقل عن الاحاطة بها ، كما يحدث للعين اذا نظرت الشمس ، وهذا السبب الاخير قد يزيغنا عن معرفة الله على حد تعبير القديس ديونيسيوس الاريوباغي حيث قال : ان السحابة الالهية هي النور الذي لا يدانى ، وفيها يوجد الله . ففي الوقت الذي هو موجود هو غير منظور ، بسبب سطوعه الاسمى ، وهذا دليل على ان عقلنا بالنسبة الى النور الازلي هو كنسبة الوطواط الى نور الشمس الطبيعي ، وفي الوقت ذاته ، اذا نال الانسان عقلا روحياً فانه يستطيع النظر الى النور الازلي ، وعليه فلسطوع الله المتوهج ، تبهر عيون النفس اذا ما تطلعت اليه ، على حد قول الشاعر : انك ساطع يا إلهي ، ومشرق اعظم من الشمس في الظهيرة ، فانها لا تخفى إلا على الاعمى الذي لا يبصر ، ففي اشراقك يتألق كل فكر ويخشع ، والعين التي لا تستضيء بضيائك لا تعرف النور . وقال ايضاً في المعنى ذاته : اذا كان النور يكشف عن جميع المرئيات ، ويجلو عنها سجوف الظلام ، فهل يمكن للعين العالقة بهذه المادة ان تبصر لماذا حجب النور عنها ؟ .

الفصل التاسع

انواع شوق النفس الى الله

ان الشوق يتبع المعرفة بداهة ، فكل من يعرف الله ويحبه يشتاق اليه ضرورة وكما ان المحبين الطبيعيين يشتاق احدهم الى رؤية الآخر ، واذا رآه يكون ذلك عن احدى الطريقتين ، اي اما ان يكون بعيداً عنه ، وقد احتفظ في مخيلته بطيف من جماله ، او هو قريب اليه ، ولكن لا يمكنه ان يرى سوى وجهه فقط ، دون التغلغل الى عواطفه القلبية الخفية التي لاتتم إلا بالوصال الكامل ، وعليه يتوق الى الوصال الكمال ليتمتع بسبر غور تلك العواطف الخفية . كذلك تنطبق هاتان الحالتان على العارفين بالنسبة لشوقهم الى معرفة ربهم ، فاما ان يبصروا جماله الروحي بالاحلام والرؤى ، وفي هذه الحال كأنهم يبصرونه على وراء ضباب شفاف فيتوقوا الى رؤيا

اكثر وضوحاً وسطوعاً ما يشبه الرؤية العيانية الواضحة ، ويهتفون مع المرتل داود القائل : ظمأت نفسي الى الله ، الى الاله الحي ، متى آتي واري وجهك ؟ مز ٤١ : ٣ . والثانية ، تنطبق عليهم ايضاً ، لان انواع الكمالات الالهية ، لا تحد ولا تقاس ولا يخفى ان ما يمكن الاحاطة به من تلك الكمالات هو اقل من القليل بالنسبة اليها جميعاً ، وعليه ، فانه يتوق دائماً الى ان ينال ما لم يمكنه نواله ، وهكذا تتوهج من الكاملين روح مستقيمة وتتجدد تجدداً مستمراً ، ويجب ان نعلم ان الحالة الاولى من الشوق تنتهي وتتلاشى في عالم الروح لان العارف هناك يتصل بمن احب اتصالاً كاملاً . واما الحالة الثانية ، فلا يمكن التفكير بانتهائها لان جمال الله السرمدي المتألق لا يحد ولا ينتهي ، وتصبح نهاية كل رغبة بداية لرغبة روحية جديدة وفي اعقاب كل رعشة من الشوق يعقب شوق جديد ، ولذلك يسمي العارفون هذا النوع من الشوق تعاقباً بينما يدعوه البشير نهاية .

الفصل العاشر

☆ ميزات محبي الله ☆

هناك عشر ميزات يتميز بها العارف محب الله ، هي :

الاولى : ان يشتاق الى رؤية ربه ، وبما ان الرؤية الحقيقية تكون بعد مغادرة هذه الحياة ، فعليه التشبه بالرسول بولس الذي كان مشتاقاً للرحيل ليكون مع المسيح .

الثانية : الا يعمل بارادته بل بارادة ربه ، لان رب الحق قال : اذا كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي .

الثالثة : ان يعرض عن العالم كله ، ويعتنق الواحد الاحد ، طبقاً لما وجدنا في كتاب عبري ، بعد ان ساد يوسف مصر ، آمنت بالله امرأة سيده التي راودته واتهمته ، ولما مات زوجها ، رغب يوسف بالزواج منها ، فامتنعت ، ولما سألها المقربون اليها ، اذن اين حبك السابق ؟ قالت : اغرمت بحبه قبل ان اعرف الهه . ولما عرفت الاله الان فقد رسخ فيّ حبه ، ولست بحاجة بعد الآن الى حب العبد .

الرابعة : ان تذكر شفتاه اسم ربه باستمرار ، لان من يحب يكثر من ذكر محبوبه ولا ينقطع عن الاشادة به ، كما كان يفعل داود ، وهو الذي احب ناموس ربه فلهج به النهار كله .

الخامسة : ان يبتهج ويتعزى بالانفراد في الصومعة الصغيرة ، معرضاً عن كل ما في الدنيا ، متأملاً خاشعاً ، فذورة الفضيلة — على حد تعبير مار اسحق - هي التأمل العميق والهذيذ العقلي الرصين بالله .

السادسة : الا يأسف على متع الدنيا التي فاتته ، بل يأسف على كل ساعة قضاها باطلاً .

السابعة : ان يشعر بعذوبة الحياة النسكية وان كانت هذه الحياة ممضة وعسيرة ، مثل الاخ الذي حدّث عنه الشيخ الفاضل يوحنا ابو الدوالي ، انه في فترة الفورة الاولى من حياته النسكية ، وكانت النعمة قد الهبت قلبه بمحبة الله ، كـأن يقف الليل كله عارياً في فصل الشتاء ، متعرضاً للثلج والمطر والصقيع ، ففي السنة الاولى كاد الدم يجمد في عروقه ، وتتلاشي الحياة في جسمه ، الا انه قاوم واستمر ، حتى لم يشعر بشدة البرد وان وارى جسدة عارياً في الثلج ، لان حرارة متوقـدة كانت تنبعث فيه .

الثامنة : ان يكون مشفقاً ، على الابرار شديداً رهيباً على الاشرار ، كما كان ربه باراً يحب البر وبالبر يرى وجهه ، وكرهت نفسه الشر والاشرار .

التاسعة : ان يصلي بدون انقطاع ، لئلا تفتر المحبة ، وتتضاءل مواهبه ، على حد قول احد العارفين : ان من كانت ليلته السابقة خيراً من الحاضرة ، فهو تعيس ، ومن تساوت ايامه هو فاشـل ، ومن كانت ليلته الحاضرة خيراً من البارحة ، فانه الغانم .

العاشرة : الا يظهر محبته جهد امكانه ، وان كانت دلائل المحبة لا تخفى . قيل ان اثنين من الاخوة مرضا مرضاً شديداً في الصحراء ولما سأل الاخوة احدهما كيف ترى ذاتك ؟ قال : ان من يشعر بتأديبه (تأديب الله) لا يحبه ومثل الثاني

لا يحبه من لا يتمتع بتأديبه . ولما سمع مرشدهما كلامهما قال : اما انا فاقول : لا يحبه من يفضح حبه ، ومنذئذ اخذ الاخوة يخفون فضائلهم .

الفصل الحادي عشر

★ التعزية بالله والدالة عنده ★

ان البهجة العذبة التي يشعر بها العارفون بفيض الوحي الالهي واستمرار الرؤى الروحية ، تدعى التعزية بالله ، وهذه التعزية اذا رسخت في محب الله السعيد ، لا يسعد الا في الخلوة الهادئة ، ولا يمكنه سماع حفيف ورقة واحدة ، والخلوة التي هذا شأنها ، يسميها الملافنة خلوة مؤلهة ، لان فيها تتحد النفس اتحاداً كاملاً بالله ، فتصبح معرفة مجده ورؤياه السامية منظورة بدون عين ، وواضحة معروفة بطريقة تفوق المعرفة ، ومن نال تلك النعمة فقد اغمض عينيه عن كل جمال في الدنيا ، واعرض عن الاصغاء الى كل نغمة بشرية ، ولجم حواسه عن التطلع الى اي هوى من الاهواء ، حذراً من الشر خوف ان يقتحمه ، معانقاً الخير لئلا يفوته ، ولا يتوقف او ينقطع عن التأمل بالله .

ومن هذه التعزية تتولد الدالة ، وهذه وان كانت خطرة ، لان روح الجسارة تمازجها ، وقد سمّاها الحكماء ريح السموم ، الا انها اذا رافقت من رسخوا في اعماق التعزية بالله ، فليست خطرة ، وتكمل هذه الدالة إذا ما ارسل الله روح ابنه الى قلوب الكاملين ، فتهتف (يا ابا الآب) على حد قول الرسول بولس : واذا حلت روح الاب واستقرت في الكاملين تناجي الاب كأن ابنه يناجيه ، فيتلاشى هناك الضعف البشري ، وتتوقف الصلاة والعبادة ، وتغيب الاشياء الحاضرة والمستقبلة ، ويعرف ابن الله الاب بعقلية الهية ، فيناجي الله بهذه الدالة كما يخاطب الابن اباه ، ويستحيل الى كائن سام ، في روحانية مطلقة وكأنه سامع لاصلوات وليس كالطالبين ، لان اباه الغني اطلق يده في كل غناه ، فاصبح وكأنه اباه ، فينسى ذاته وينسى كل شيء ، ويهتف عالياً هتافاً لا شعورياً ، (ابها الآب ابي) وما الى

ذلك من العبارات الدالة . الا انه محذور عليه تسجيل ذلك كتابة ، او تجسيده على الاوراق ، وقد يلجأ بعض العارفين الى عبارات متطرفة بدافع الدالة ، كما كان الصدّيق ايوب يحاج ربه كما يحاج الرجل صديقه بقوله : أبحرٌ انا ام لجة لتجعل حولي حراساً ؟ انك تدوس ورقة يابسة متناثرة ، وتضطهد قشة متصوحة ، ان قلت سريري يفرج غمي ، ومضجعي يخفف شكواي ، روعتني بأحلام وبرؤى ذعرتني ، ليته يوجد حكم بيننا ، فيلمس باليد حججنا اي ٧ : ١٢ . الى ما هنالك من عبارات ، متطرفة في الدالة ، والبعض ينجون من المحنة بمثل هذه العبارات ، فان النعمة الالهية لا تتحمل عبارات الدالة كهذه من جميع الناس ، على السواء ، تأمل شاول فقد نزع عنه الملك والنبوة ورذل ، لانه اشفق على اجاج ملك عماليق فلم يقتله ، واسف على جمال الثيران والحملان ولم يبدها ، وداود النبي الذي تمرغ في حمأة كريهة وسفك دم اوريا الحثي البريء غفر الله جريرته بمجرد صراخه اليه ، (قد اخطأت امامك يا رب) واكد له بواسطة النبي ناثان انك لن تموت .

الفصل الثاني عشر

﴿ الضيقات التي يقاسيها العارفون حباً بالله ﴾

يعتبر الفلاسفة ذكر الموت حكمة ، ويتفق معهم بذلك العارفون الروحيون بقولهم : ان الفضيلة هي ترداد ذكر الموت حباً بالله وبتعبير آخر ، ان الفضيلة هي ان يقاسي الانسان الضيق حباً بالله ، وقد ايدوا هذه الفكرة باسهاب ودقة فقالوا : ان المتوشح بالغيرة لا يشعر بكونه جسماً وهو في طريق الفضيلة سالك ، بل يظهر كأنه غير ذي جسم تجاه جميع الصعاب ، ويهون عليه التجرد حتى من حياته ، فلا يخيب ، وهكذا اذا تذوقت نفسه عذوبة العزاء بالله يختطف عقله اليه ، ويستغرق قلبه بذكره المستمر ، ويشعر كأنه في ملكوت السماء لا في هذا العالم ، فتتيقظ في قلبه آية الرسول بولس حيث قال : من ذا يفصلني عن محبة المسيح ، اشدة ام اضطهاد أم سيف ، ام عرى ، ويتتبع خطوات بولس بقوله : اني واثق ، ان لا موت ولا حياة ولا الامور الحاضرة برهبتها ، ولا المستقبلة بمجدها ، ولا خليقة اخرى

تقدر ان تفصلني عن محبة ربي .

ويقاسي العارفون الضيقات لسببين ، اما انهم لشدة شغفهم بحب ربهم لا يشعرون بها ، مثل الاب بنيامين الذي شفى الكثيرين من ذوي العاهات والاستسقاء ، واهمل عاهته واستسقاءه ، وسأله احدهم في ذلك فقال : يا أخي ، ان ضربة الحبيب لا تؤلم . او انهم يخضعون لارادة محبوبهم ، اذا اراد امتحانهم كما حدث لايوب الصديق الذي قاسى الآلام المبرحة القاسية بدون تذمر ، وقيل ان احد المؤمنين جلد الف مرة سبعين مرة ابان اضطهاد مكسيمينوس ، ولم يئن ولم يبكِ ، فقيل له لِمَ لم تعترض ؟ قال : كنت ارى المسيح ربي الذي جُلدَ من اجله واقفاً ينظر اليَّ ، فخجلت منه ولم ابكِ . وشجاعة هذا المؤمن الشجاع وان كانت عظيمة الا انها اقل من شجاعة القديس اسطيفانوس رئيس الشمامسة واول الشهداء ، فليس فقط لم يتذمر ، بل صلى من اجل راجميه وهو يجود بانفاسه الاخيرة ، الامر الذي كان سبباً لنواله الاكاليل .

الفصل الثالث عشر

= درجات العارفين في محبة الله =

هناك ثلاث درجات للعارفين في تنمية محبتهم لله ، الاولى والوسطى ، والثالثة ، وهي الغاية الاخيرة للكمال . ذلك ما يعلمه النساك القديسون بالاختبار فعلمونا اياه ، وهو : ان لكل من هذه الدرجات الثلاث فعلا خاصاً ، واننا نشرح كلا منها بايجاز في سطورنا القادمة استناداً الى تعاليمهم ، واليك ذلك :

الدرجة الاولى : اذا اضرمت النعمة في قلب المبتدىء باديء ذي بدء قبساً من محبة الله ، فجرت في ذلك القلب ينابيع التواضع والوداعة ، فيخال ذاته تراباً ورماداً فيذرف الدموع على ما فرط منه من المعاصي ، بحزن عميق ، ويتألق ابتهاجاً لان النعمة ، عطفت عليه كالأم الرؤوم ، ويستعذب الترنيم والترتيل والتجهد المتواصل ، وتطول تلك العذوبة مثيرة في خاطره ذكر القديسين محرّضة اياه على الاقتداء بهم او او تعلمه حب العمل في سبيل راحة اخوانه ، وتزين له العطف على البؤساء وخدمة المرضى ، والاخلاد الى السكينة ، واخماد الاهواء الثائرة في قلبه وبعضهم ، بالنسبة

الى جهاده ، تأتيه النعمة بكل ذلك كاملاً ، والبعض بعضها . ولكن تحجب النعمة احياناً ليبتلى بالتجارب فيعيد الكرة في حومة الجهاد ، فتثور فيه ضيقات صاخبة واهواء مجنونة ، حتى اذا تخطاها عادت اليه النعمة ، بعطف اعمق غوراً ، واسمى تألقاً من ذي قبل ، لان احتجابها كان اختباراً لا تخلياً ، وفي هذه الفترة الدقيقة يحتاج المبتدىء الى مرشد حكيم ، لان الكثيرين يندحرون امام هول التجربة وينسون ما كانوا عليـــه .

الدرجة الوسطى: بعد الاعمال الابتدائية تغير النعمة مفاعيلها في النفس فتنقيها وتقدسها ، وتجعلها جديرة برؤية الروحانيين ونوال الوحي ، فتشرق في العقل اولا معرفة البرايا فيتوقف العقل عن الشرود ، ويرتبط بالخالق المعبود ، ويلهج (العارف) في الكائن الاسمى ، نهاراً وليلاً ، حتى يصبح وهو يقظ كأنه نائم ، واذا نام كأنه يقظ واذا استمرت فيه حالة الاختطاف هذه بعض الوقت يتجلى له ربه ولكن كالبرق الخاطف ، ومثل نجم تحجبه السحب سريعاً ، وخاصة في وقت الصلاة وهذه الحالة العجيبة تقطع الصلاة مرات كثيرة وهو لا يعي ، فتتعذب روحه بين الخلجات الثائرة المتأججة ، وتلتهب محبة ربه في قلبه ، كالنار في الاتون سبعة اضعاف ، فتضطرم نفسه وتتلاشى قواه ويسقط على الارض مغشياً عليه ، ثم ينهض ، ويستعد لرؤيا جديدة فلا تنقطع عنه بل تظهر له مدداً اطول فاطول يوماً بعد يوم ، ويتألق العقل في رؤيا الخفايا الالهية ، ويتسامى رويداً رويداً ، الى معرفة اسرار الالوهة ، وتتضاعف لديه الرؤى الفائقة ، والعاطفة المشبوبة التي تتخذ حالة جديدة فيكتمل الحب .

درجة الكمال: هنـا يبدأ الدخول في السحب ، والتسامي في معارج الروح والعروج الى مخادع اللهيب المتألق ، وما كان يظهر للعين كالبرق الخاطف يصبح نديماً وجليساً ، ويستغرق العقل في تأملاته آمناً مطمئناً ، ان سكان هاتيك الربوع يسرحون في الانوار الوضاءة المنبثقة من جمال الملاك ، الانوار التي يخشاها الظلام ، هناك يظهر للنفس البارة جمال كيانهـا ، فتبصر ذاتها كما هي وتجد هناك صورة باريها ، وتنتقل من مشهد روحي عجيب الى مشهد روحي جديد هذه آفاق البرايا كلها غارقة في النور الازلي الذي يغلف البرايا ويبطنها ، وتتسامى النفس فوق العليين ، فتظهر املاك السماء

امام باصرة العقل ، كما تظهر المرئيات امام العين ، والعقل وهو في غمرات انواره ، يبصر الاملاك كما هم بطبيعتهم ، فتألف النفس امجادهم واجنادهم ، وجمالهم الروحي وكمالهم ، فتشعر انها اصبحت منهم ، وبرهة خاطفة واذا بها في سحابة النور ، امام العرش الازلي ، وبرهة ضيقة اخرى والمحيا الالهي يسطع ، فتخشع النفس وتذوب في تلك الغمرات اللاهبات الساطعات ، وهنا ينتهي المطاف ، ويطـــول زمن التجلي والاختطاف ، هنا الحقيقة الروحية الساطعة ، فلا ظلال ولا اطياف ، والنفس غارقة في اللذة العارمة ، تحاول العودة ، ولو لم يرخ لها ربها العنان لا "محت عن خاطـرها ذكريات الجسد ربيبها ، واذا ما الهبت اعضاءه بلظاها وسعيرها ، وشاركته العذوبة الكبرى التي ملكت عليها نواصي خلجاتها . كل ذلك والعقل الطموح لم يزل يهوى اختطافاً جديداً وعروجاً جديداً ، انه يتطلع الملأ الاعلى ، الى مخادع النــور ، والى مطالع الفجر الجديد ، واذا ما شرع بالتسامي والارتفاع يكاد الجسد — رغـــم ثقله — يرافقه في هذه الرحلة الجديدة الى تلك العوالم الروحية الجديدة ، ولكنه يتخلص منه بجهد جهيد ويأخذ في التسامي من مجد الى مجد ، وروح الرب تجذبه فينسى ، لا الامور الحاضرة وحدها ، بل ينسى كيانه العاقل ، فيجد ذاته وهو في مطافه الساطع وكأنه شبيه بالله ، ولا يحجم ان يقول : — والدالة الكبرى تحفزه — انا في الاب والاب في" ، وانا والاب واحد . الى ما هنالك من الوحيية التي لا يُنطق بها ، الا في تلك السكرة الروحية العميقة ، وربما يجرؤ العظيم (ارثيوس) والذين نظيره الى تفسير ذلك ، وعنهم يقول الروح : (واهالي وابني بيتي) محذراً اياهم ان يصمتوا الصمت العميق ولا ينطقوا بما لا ينطق به ، ان (ايريثيوس) لم يسمح لتلاميذه التعبير عن ذلك ، الا بالكلمة الحية . وهذه الحالة يسميها الفلاسفة التشبه بالله بقدر المستطاع .

★ ★ ★

الفصل الرابع عشر

حالات الكاملين

اذا بلغ الكاملون درجة الكمال فان النعمة تفتقدهم باثنتي عشرة عجيبة ، اعتباراً منذ ولوجهم فناء الازل ، حتى اختفائهم في سحائب النور ، والحظوى برؤيا الحبيب في خدره الازلي ، وهي :

الحالة الاولى : حالة معمودية العقل ، ففي اللحظة التي يتم فيها الاختطاف ، يعتمد العقل في القلب ، ويتوقف الفكر عن التفكير خاشعاً ، انه لا يتمم حتى بالتسبيح بل يخيم الصمت العميق على قوى النفس والجسد ، فيتغذى الجسد بما يحوزه العقل من نعمة ، وفي هذه المعمودية اعتمد موسى الكليم ، وفي هذه الحالة يصبح الكامل مرهف الحس رقيق الشعور لا تؤلمه فقط رؤية انسان بل يقلقه حتى حفيف الطائر .

الحالة الثانية : حالة تسامي الفهم العميق لمعاني الروح . فالعقل بعد تألقه يعرف ذاته ، ويعقل سمو منزلته وعظمة منبته ، فيستمر خاشعاً ، فلا يحيد هنا ، او هناك ، ولكن اذا ما داعبه الشرود ، لجأ الى القراءة والترتيل ، والتجهد اما المصلوب ، فينتصر بعد لحظات ، فيعود الى التألق والسطوع وهو في مخدع القلب العميق .

الحالة الثالثة : حالة الاغراق في القراءة وترتيل المزامير ، وهذا الاغراق يتسامى الى درجة الغليان في القلب ، فيستمر العقل مرتلاً حتى اثناء الطعام .

الحالة الرابعة : حالة تفجر الدموع ، بطريقة عفوية بحيث لا سلطان للارادة في تلك الدموع ، لان نار المحبة اذا ما اضرمت النفس ، في صميمها ، فتتفجر الدموع من المآقي تلقائياً .

الحالة الخامسة : حالة المعرفة ، حيث تتصور النفس رهبة الدينونة وعطف العناية الالهية ، ومن ينبوع هذه المعرفة يتفجر في النفس عطف على الانسانية فتكثر الدعاء لهدايتها ، لانها تجد جميع البشر متساوين معها ، في هذه الحالة ، لا يوجد بار ولا أثيم ، لا عبد ولا حر ، لاختانة ولا غرلة ، لا ذكر ولا انثى ، بل ترى المسيح كلاً وفي كل انسان .

الحالة السادسة : حالة تستحيل فيها نبضات القلب الى اشراقات تغمر العقل بأشعة ملائكية مؤلفة من نور ونار . ، فيتوجه للحاق بالاجواق الروحانية ، ويلتهب فيه الشوق للالتحاق بزمر الاحبيب .

الحالة السابعة : حالة الشعور الشفاف ، حيث يسمع العقل انغام المسبحين الروحانيين باصوات رقيقة ، لا يمكن تجسيدها في كلمات او الفاظ ، ولا يمكن وجودها إلا في تلك الانغام الروحانية المنعشة ، حيث منها تتألف التسبحة الجديدة في العالم الجديد وبها يصلي الروح من اجل القديسين ، على حد تعبير الرسول بولس .

الحالة الثامنة : حالة الشعور بالتشبه بالله ، حيث يتوقف العقل خاشعاً وقد تجلى له الحق المطلق الاسمى علانية فيستضيء بنوره ويتخذ صورته ، مثل السحابة الشفافة التي تتخذ نور الشمس وبهاءها اذا ما قابلتها هكذا العقل اذا تغلغل في النور الالهي يتخذ صورته ، وان كان لم يزل مرتبطاً بالجسد الكثيف .

الحالة التاسعة : حالة الالتهاب : حيث يستحيل الانسان الى كائن من لهيب ، من اخمص قدميه حتى قمة رأسه ، يلتهب الجسد كما يلتهب الحديد بالنار ، . قال القديس فلاديوس في الاب ارسانيوس ، انه كان واقفاً يصلي يوماً في الصومعة ، فرآه احد الاخوة من الكوة وقد استحال كله الى نار .

الحالة العاشر : حالة الوحدة ، ويعرفها العارفون بالحالة التي لا يمكن التعبير عنها ، الحالة التي ليس فيها اثنان او ثلاثة ، بل واحد احـــد ، متجلٍ وبين جنحيه الكائن الجديد الشفاف ، ولكليهما غذاء واحد .

الحالة الحادية عشرة : حالة البهجة : وفيها دموع لا يسبر غورها ، بل يشعر العارف انه مبتهج فقط ولكن لماذا ؟ لا يعلم .

الحالة الثانية عشرة : حالة الانفجـار في الكلام ، والتنبؤ وكشف الخفايا الـــتي كتب عنهـا في رأس الكتـاب وخطفت في سفر معرفـــة الله ، فتتجلى للعقل هنـاك فيقرأها .

الفصل الخامس عشر

★ جمع الكلمات المتفرقة في المحبة ★

سئل احد الاخوة العارفين ، ما هي المحبة ؟ قال : المحبة نار الهية تلتهب في المختارين تحرق وتذيب كل هوى منحرف في قلوبهم .

وقال غيره : المحبة هي النزول عند رغبة المحبوب . وقال غيره : المحبة قوة تنبثق من الطبيعة ، فتخضع الارادة ولا يستطيع العقل ادراكها ، ولا اللسان تفسيرها . وقال آخر : بكى حتى عمي ، ووقف حتى اعتكف ، وصام حتى ضام ، وصلى حتى علّ ، وفي كل ذلك لم يجبن ، ولم ينثن ، بل كان يقول : لقد اقسمت بذاتك ، يا رب الارباب ، لو كان بيني وبينك نهر من نار لاقتحمته اقتحامي الماء . وقال آخر : ان ان محبتي لربي جعلتني غريباً عن الانسانية وما يهمها . وقال آخر : من سلافة الحب شربت شربي من النهر ، وقد ذهلت ان النهر لم يغض ، ولم اسكر ، ارقني الشوق اليك الليل كله حتى الصباح ، ولو خشعت لما خشعت إلا بك . وقال غـــيره : اذا ثارت محبة الله في القلب ، استحال برمته ناراً لاهبة ، والتهب متوجداً ببهجة عارمة ، الى رؤيا الخفايا . كان احد الاخوة يقول : اذا ما اشرقت عليّ المحبة الابويـــة فاختطفت عقلي ، قبل ان يرتمي حائراً متهيباً ، يسبح في بحـــر من نور ، فيعتمد ، ويتسامى ، بوحيه ، ويتصاعد خاشعاً ، ويثمل بكؤوس مترعة من العظمة مبتهجاً ، ويضرم حباً وهياماً ، وفي صفحته يبصر الملائكة يشرقون وينشدون ، فينضم اليهم منشداً مسبحاً ، ثم يجمع قواه ، فيتوارى في غيابات الانوار المتألقة ، ويخشع لرؤية ذوي الجمال ، ويصعق بحب ذي الجلال ، ويستحيل كل شيء لديه الى عدم حتى ذاته ، وفي هذا المأزق المتسامي عن المعرفة والحركة ، يخشع العقل برهة تارة ، وطوراً ساعة كاملة او النهار كله ، طبقاً لارادة الروح الكلي ، وبعد اجلاء هذه اللحظات الرهيبة ، يستمر مصعوقاً لا حراك فيه زهاء اسبوع كامل . ثم يغيب العقل ايضاً ، ثم يشرق ، ويظهر اولاً كالكوكب الدري ساطع الاشعة ، رائع الجمال ، مشرقاً متألقاً ، ثم يستحيل الى عمود من

نور ، ثم يرتفع العقل ويغيب من جديد متوارياً في السحاب ، حيث تهبط عليه منح الوحي والالهـام ، والنبوة والشفاء .

وقال غيره : يبتسم الفجر مشرقاً ، ويسطع النور وهاجاً ، وينطق الحبيب باسماً ، ويتجلى العلي الخفي ساطعاً ، ويظهر ذاته متألقاً .

وقال غيره : ان لهيب الحب لا يدع من اضرمه ان يكمل فروضه ، لان في اللحظة التي يقف فيها للصلاة ، يأخذ القلب منه بالالتهاب ، حتى يشتعل ويشعل الجسم معه ، فلا يقوى على الوقوف ، فيسقط على وجهه كالميت ، ويلتوي عوده ، ويخبو رشده ، وفي حالته النارية هذه يشعر كأنه قبس من نار حية هو وما يحيط به ، من عنف القوة التي تغلغلت في كيانه ، ويؤيد صحة ذلك الرب ذاته . اني سمعت احد الاخوة مرات كثيرة يقول : اذا ثملت بحب المسيح ، لا يقوى على ضبط نفسه والنار الالهية تضطرم في كيانه ، كان يصرخ عالياً ويقول : ما اشد لهيب حبك يا ربي وإلهي ، فقد ذاب كياني حباً بك يا سيدي ، اني لا اقوى على المقاومة ، يا لجمالك الذي لا يوصف ، فادخلني ايها الملك الى حجالك ، لابتهج بجوارك ، الى ما هنالك من الاقوال .

وقيل ايضاً : ان المحبة تصفي الوجوم على الجسم وحواسه ، وترفع العقل فيتمتع بنور الجميل الازلي ، عانقته الرحمة مشرقة ، وسمت به الى مكان ما ، الى عالم لا ينطق به ، الى الملأ الاعلى ، واذا ما بلغ الناسك السحابة الالهية وانتهى الى ميناء الامان ، يرى مجد الرب وجهاً لوجه ، ويتلألأ ، ويستحيل الى كائن يشبه ربه ، وهناك تفيض منه الرحمة على الكون كما يفعل ربه ، فتمحضه الكائنات الحب العميق ، وتألفه الوحوش الضارية ، وتأنس به البهائم والطيور ، والهوام ، لانها تنشق منه عبير باريها ، وتتهيبه الكائنات الجامدة ، وحتى الابالسة الماردون يصدعون لأمره ، بدافع الرهبة التي تسودهم . فما اعجب الحب الذي يمحضه له ملائكة السماء فينشدون له الانشودة القائلة : ليبتهج قلب طالبي الرب .

وقيل ايضاً : تأمل النار التي اتحدت بالحديد ، فلا تميز هناك صفات الحديد ، اذ يستحيل الى النار باتحاده بها ، فلا ترى هناك شكلين بل شكلاً واحداً ، ولكن

الخواص الطبيعية لكل منها محفوظة ، على هذا الشكل يرى بنو الله ذواتهم شبه ربهم فيتألهون جميعاً ، نعمة وفضلا من ربهم ، وكلما نمى كيانهم بالنعمة فانهم لا يشعرون كما لا يشعر الانسان بنموه الطبيعي ، انهم يجدون فقط مجدهم يتضاعف ، وكلما تضاعف المجد فيهم كلما تألقت المحبة ونمت .

وقيل ايضاً ان من يكتب اسرار الروح ، اذ الروح لم يمل عليه فعذوبة الروح بعيدة عن انفاسه ، فيظهر لسامعيه بغيضاً ، ولقراء كلماته مقيتاً . اما من يتعلم اسرار الروح من الروح نفسه ، ويسجّل محا يملي عليه الروح ، فانفاس الروع تتضوع في عباراته ، ويأتي بالآيات البينات ، فيجد فيها سامعوها قوة الروح نفسه ، فتفيض قلوبهم بهجةً وسروراً ، وحياة ، وتخمد اهواؤهم ، وهذا هو (قلم الكاتب الماهر) يخط به سفره المقدس .

الباب السادس عشر

التفكير بالموت

= وفيه ستة فصول =

الفصل الاول

افوال الاباء في التفكير بالموت

عندما كان رئيس الاساقفة تيوفيلس يغادر هذا العالم قال : طوبى لك يا تيوفيل لانك فكرت في هذه الساعة .

والاب فومان سمع برقاد الاب ارسانيوس فقال : طوبى لك يا ارسانيا لانك بكيت على نفسك في هذا العالم ، فمن لا يبكي هنا سيبكي هناك الى الابد .

كانت الام سارة (الناسكة) تقول : عندما اضع رجلي على السلم لاصعد ، اتصور موتي قبل ان اتوقله .

قال احد الشيوخ : اني اتوقع موتي صباحاً ومساءً وفي كل يوم . وقال آخر : عندما ازل المغزل ، قبل ان ارفعه اتصور موتي نصب عيني . وقال غيره : عندما اخيط زنبيلاً ففي كل ابرة اضربها ، اتصور موتي قبل ان اعيدهـا .

وكان الاب مقاريس يقول : ان ثلاثة امور هي اساسية ، ويجب على الانسان ان يضعها نصب عينه ، الاول : ان يفكر في موته دائماً ، والثاني : ان يموت عن كل انسان . والثالث : ان يكون تفكيره محصوراً بالرب ، فان لم يضع الانسان موته نصب عينيه ، دائماً ، لا يمكنه ان يموت عن العالم ، وان لم يمت عن العالم لا يمكنه الاستمرار مع الله .

قال الاب اوغريس : اجلس في كوخك ، واجمع فكرك ، واذكر يوم موتك تصور في فكرك رهبة الديّان ، والوقوف امام العرش الرهيب ، واي خزي يكون للخطأة امام المسيح والملائكة والبشر ، تأمل الاعذبة القاسية ، النار التي لاتنطفىء ، والدود الذي لا يموت ، ولجج الهاوية وقشعريرة الموت ، والظلمة الخارجية ، واذكر ايضاً النعيم المحفوظ للصدّيقين ، والدالة لدى الله ، ومسيحه ، وملائكته ، نعيم الملكوت النعم الالهية ، البهجات والراحة ، فلتكن متأملاً في هذين النقيضين ، لكي يمكنك ان تقاســي الخلوة بارادة ثـابتـــة .

وقال ياونّي رئيس الدير : لا يمكن ان يعرف الانسان حتمية الموت ويمكنه ان يخطيء ، والوثنيون ايضاً قالوا ما يشبه هذا : ان التأمل في الموت فلسفة .

الفصل الثاني

ـ الاسباب التي تحول دون تصور الموت وعلاجها ـ

هناك سببـان يحملان الانسان على نسيان الموت وعـــدم تفكيره في امـــر زواله وهما :

(١) : الاغراق في محبة العالم لان من يحب امراً ما ، فمن البدهي ان يكره ماهو ضده ، وعليه فمن يحب الحياة الزمنية فانه يكره زوالها ، وهذا الكره يحمل الانسان على الا يفكر بالموت ، وهو الانتقال من هذه الحياة الزائلة ،

فيستمر متعلقاً بآمال فارغة متوهماً حياة طويلة .

(٢) عدم المعرفة ، لان من لا يعرف ان الانسان يشبه عشباً يذبل ، وزهراً يتفتح ثم يذوي ويتساقط ، فيعد له مؤونة نعيم زائل ولمدة طويلة كان مسيحياً الى الابد ، على حد قول الرب في الغني الذي ملأ اهراءه غلات وكان يفكر فيها ويقول ماذا اعمل فليس لديّ موضع كافٍ لا كنز فيه غلاتي ، سأعمل هكذا ، اهدم اهرائي وابني اوسع منها ، واخزن فيها غلاتي وخيراتي ، واقول لنفسي : يانفس ، لك خيرات كثيرة مكنوزة لسنين كثيرة ، فكلي واشربي وتنعمي ، قال له الله : ايها الغبي ، في هذه الليلة تؤخذ نفسك منك ، وهذا الذي اعددته لمن يكون ؟

يشفى هذان الداءان ، بان يفكر الانسان في العالم ان الصحة تؤول الى مرض ، والقوة الى ضعف ، والجبروت الى هزال ، وريعان الشبان الى بؤس الشيخوخة ، وجمال الفتوة الى بشاعة الهرم ، والخيلاء الى زوال . والنعيم الى عذاب ، والكبرياء والعجرفة الى سقوط مفاجىء ، وهكذا تخمد في القلب محبة العالم وشهواته ، ولولا الغباوة لما ضلت النفس .

الفصل الثالث

مرارة كأس الموت ومعالجتها

ان الطبيعة ذاتها تؤكد مرارة الموت ، ورهبة الساعة ، لان كل عضو يقطع انما هو رحيل الروح عنه بسبب مرض قد يصيبه ، ولا يرتابنّ احد ، ان انتقال الروح عن سائر الاعضاء بالموت ، يرافقه الم كاي ، اضعاف الالم الذي يصيب كل عضو اذا ما قطع بمفرده بالسيف مثلاً . وقد اظهر عظم تلك الالام وقسوتها ابن الله وكلمته ، اذا اتخذ جسداً مائتاً ليحيينا . وعندما كان يتهيأ ان يموت موتاً ارادياً ، من اجلنا نحن الخطاة ، وهو لم يخطىء ، قال : نفسي حزينة حتى الموت . وتألم وحزن ، وصلّى حتى كان عرقه يتصبب على الارض كعبيط من الدم ؛ فاذا كان ذلك الجسد المقدس المتحد بكلمة الله ، هذه حاله ، فكيف لا ترتاع رهبة منه هذه الاجساد الضعيفة الهزيلة ؟ وقد حدثنا الفاضل ياونيّ رئيس الدير عن احد

الاخوة ، انه روع من فكرة الموت ، حتى استولى عليه دوار شديد فسقط مغمى عليه ، وحمله الاخوة ، وكان الاب ايليا يقول : اني اخشى ثلاثة امور اذا اوشكت نفسي عن هذا العالم ، وعندما اقابل المسيح وعندما يصدر الحكم عليَّ . ولما كانت كأس الموت مُرة وقاسية بهذا المقدار ، فليذكر الانسان اخوته واصدقاءه الذين سبقوه ، وليتصور كيف كانوا و كيف اصبحوا ، وهو احدهم وشبيههم ومجانسهم ، فتخف مرارة الموت قليلاً ويقدم على تجرعها بشجاعة .

الفصل الرابع

كيفية انتقال النفس البارة والنفس الخاطئة

ان القديس فلاديوس يروي في الجزء الثالث من كتاب فردوس الرهبان ، عن احد الشيوخ قوله : اعرف اخاً كان يصلي يوماً طالباً الى الله ان يرى نفس بار ونفس خاطيء تنتقلان من الجسد ، ولم يرد الله ان يؤلمه ويحرمه رغبته هذه ، فارسل اليه وحشاً تشبث من ثيابه وسحبه حتى بلغ به ديراً من الاديار بجوار احدى المدن ، ولما دخل الدير وجد فيه رجلا اشتهر بكونه ناسكاً فاضلا ، وكان مبتلى بمرض وبيل ، فاوشك على الرحيل ، ولاحظ الاخ شموعاً وقناديل وغيرهـــا معدة لهذا الغرض . وكان سكان المدينة ينوحون عليه ، ويقولون : ان الله بدعائه كان يمنحنا الخبز والماء ، وبه انقذنا مرات كثيرة ، فان مات سنموت كلنا ، ولما دنت اللحظة الاخيرة ، كان الاخ ينظر فيرى ، واذا بحارس الجحيم ، وافى ، وفي يده كماشة نارية ذات ثلاثة اسنان ، وادخلها في قلبه ، فعذبه وقتاً طويلا ، ثم قبض روحه ، وبعـــد ذلك ، دخل الاخ المدينة ، فرأى رجلا غريباً مطروحاً في الشارع مريضاً ، وليس من يعنى بامره ، فاقام لديه يوماً كاملا ، وفي لحظة موته رأى الاخ الملاكين جبرائيل وميخائيل وفدا وجلسا بقربه ، وكانا يطلبان الى نفسه ليأخذاها ، وهي كانت متشبثة بجسدها ، ولما اراد جبرائيل ان يأخذها عنوة ، قال له ميخائيل : ليس لدينا امر ان نقبضها عنوة ، فصرخ جبرائيل بصوت عظيم وقال : ماذا تريد ان نفعل بهذه النفس

المتشبثة بجسدها ؟ فأتاه صوت يقول : سأرسل داود وقيثاره معه ، ومعه جميع المرتلين ، ولما هبطوا ، فأحاطوها ، وكانوا يرسلون انغاماً رخيمة ، قفزت النفس فخرجت ، وكانت مبتهجة بين يدي ميخائيل ، وارتفعت مسرورة .

الفصل الخامس

الندم الذي يستولي على الخاطىء لحظة موته

يقال ان رجلاً غنياً ، اذ اشرف على الموت قال لاولاده : قدموا لي اموالي لكي اراها ، ولما قدموا اليه غنى ضخماً ، خيلاً وبقراً وغنماً ، وغيرها ، وتأملها وانفجر باكياً ، وبينما هو يبكي ، تراءى له ملاك الموت يقول : ماذا يفيد بكاؤك الآن ؟ فوالذي ارسلني ، لن اخرج حتى آخذ نفسك . قال الغني : امهلني حتى اوزّع اموالي على المحتاجين ، قال ملاك الموت : كان ينبغي لك ان تفعل ذلك متصدقاً قبل حضوري ، ولكن الآن لست مأذوناً ان اتريث .

وروى القديس فلاديس ما يشبه ذلك في احد الشيوخ : وذكر انه ذهب مرة الى احدى المدن ، ليبيع نتاج عمله ، وصدفةً جلس على باب احد الاغنياء ، وكان في النزع الاخير ، فنظر واذا بخيل سوداء وفرسان سود يمتطونها ، وكانوا رهيبي المنظر ، وبأيديهم عصي من نار ، ولما بلغوا باب الدار ، تركوا خيلهم خارجاً ، ودخلوا الدار جميعاً ، فلما رآهم المريض ، صرخ فزعاً وقال : ربِ نجني ، قالوا له : الآن وقد اوشكت الشمس على المغيب جئت تذكر الله ؟ لِمَ لم تطلبه لما كان نهاراً ، فليس لنا الآن شيء من الأمل او الرجاء ، فأخذوا روحه ومضوا .

الفصل السادس

الرؤى التي تجلت لبعض الآباء لحظات الانتقال

قال الاب فرمان : سأل الاب موسى الاب زكريا ـ والاب زكريا مشرف على الرحيل ـ ماذا ترى ؟ قال ذلك الفاضل (الاب زكريا) لنصمتن ايها الاب ،

قال : نعم يا بني ، اصمت ، وفي لحظة موته ، ـ وكان الاب ايسيدورا جالساً ينظر الى السماء ـ قال : افرح وابتهج ، يابني زكريا ، فقد انفتحت ابواب السماء .

يقال ان الاب يوسف عندما أشرف على الموت ، والشيوخ جلوس بحضرته ، نظر الى الكوة ، فرأى الشيطان جالساً ، فنادى تلميذه وقال : عليّ بعصا ، ايظن هذا ، اني شخت ولا يمكنني ان اقاومه ؟ وحالما سمع الشيطان القى نفسه كالكلب من الكوة ، ورآه الشيخ هارباً .

يقال ان الاب سوسايس مرض ، وكان الشيوخ جلوساً لديه ، فسمعوه يتكلم فسألوه ، ماذا ترى ايها الاب ؟ قال : لقد جاء من يأخذني ، ولقد طلبت اليه التريث لكي اتوب ، قال له احد الشيوخ : ماذا فيك من القوة للتوبة ؟ قال : اذا عجزت عن عمل اي شيء ، اتنهد قليلاً على نفسي ، وهذا يكفيني .

كان الاب سيلونا جالساً والاخوة معه ، فخشع امام الله وسقط على وجهه ، وبعد برهة نهض باكياً ، فطلب اليه الاخوة قائلين : مابك ايها الاب ؟ فسكت . فالحوا عليه بالطلب ، فقال : خطفت الآن الى الدينونة امام الله ، ورأيت كثيرين من زملائنا ينحدرون الى العذاب ، وكثيرين من ابناء الدنيا يرتفعون الى النعيم ، وكان الشيخ حزيناً ، ولم يرد الخروج من صومعته ، وغطى وجهه بقبعته وقال : لِمَ اراني طامعاً في رؤية هذا النور الزائل ، اذ لايجد فيها الانسان اية فائدة ؟ .

ملاحظة ، للذكرى والتاريخ :

بدأنا بترجمة هذا الكتاب الجليل الى العربية في الساعة التاسعة من مساء يوم الاثنين ١٨ تشرين الاول سنة ١٩٦٥ في دمشق ، وانتهينا من الترجمة في الساعة الثانية عشرة تماماً من ليلة العاشر من كانون الاول ـ ليلة عيد مار بهنام الشهيد ـ سنة ١٩٦٥ في بغداد ، وانتهت طباعته في **مطبعة الشباب** بالقامشلي في ٨ نيسان سنة ١٩٦٧ . ولله الشكر في البداية والنهاية . **غريغوريوس**)

— محتويات الكتاب —

الموضوع	ص

الموضوع	ص

الموضوع	ص

الموضوع	ص
الفصل (٧) : واجبات الزوجة نحو زوجها	١٩٥
الباب الثالث : نظافة الجسد ـ عشرة فصول ـ لم يُعرّب ولم يُنشر	
الباب الرابع : التربية والتعليم ـ اربعة فصول	١٩٧
الفصل (١) : تربية الاطفال	١٩٧
الفصل (٢) : تصرفات الشبان والشيوخ	١٩٩
الفصل (٣) : كيفية تصرف الشبان في خدمة الملوك	٢٠٠
الفصل (٤) : حالات تصرف رجال البر مع الملوك الطغاة	٢٠١
الباب الخامس : الاعمال اليدوية ـ ستة فصول	٢٠٢
الفصل (١) : اقوال الآباء في فضيلة الاعمال اليدوية	٢٠٢
الفصل (٢) : تعطيل الاعمال اليدوية	٢٠٣
الفصل (٣) : انواع الاعمال اليدوية	٢٠٥
الفصل (٤) : الخطايا الناتجة عن البيع والشراء	٢٠٧
الفصل (٥) : إسداء المعروف في التجارة	٢٠٨
الفصل (٦) : حقيقة العدالة في التجارة	٢٠٩
الباب السادس : الصدقات ـ اربعة فصول	٢١١
الفصل (١) : انواع الزكاة واجناسها	٢١١
الفصل (٢) : اصحاب الحق في تناول الصدقة	٢١٣
الفصل (٣) : ما يترتب من الشروط على مقدمي الزكاة	٢١٤
الفصل (٤) : الشروط التي يجب ان يتقيد بها متناول الزكاة	٢١٥
المقالة الثالثة	
تنقية النفس من الاهواء الشريرة ـ اثنا عشر باباً	
الباب الاول : النفس . قواها . خصائصها . ميولها . اثنا عشر فصلاً	٢١٦
الفصل (١) : تفسير اسماء النفس	٢١٦
الفصل (٢) : القوى الخادمة للنفس	٢١٨
الفصل (٣) : اقوال الآباء في قوى النفس الثلاثية	٢١٩

الموضوع	ص

الموضوع | ص

الموضوع | ص

الموضوع	ص

الموضوع	صفحة

المقالة الرابعة
تجميل النفس بانواع الفضائل
ستة عشر بابا

الموضوع	ص

الموضوع	ص

الموضوع	ص
الفصل (٦) : مدهشات اليوم الرابع	٣٧٥
الفصل (٧) : مدهشات اليوم الخامس	٣٧٦
الفصل (٨) : مدهشات اليوم السادس	٣٧٨
الفصل (٩) : يتألق العقل في التفكير السليم	٣٨٠
الباب الرابع عشر : نقاء الافكار ـ اربعة فصول	٣٨١
الفصل (١) : اقوال الآباء في الافكار	٣٨١
الفصل (٢) : تحديد نقاء الافكار	٣٨٣
الفصل (٣) : اجناس الافكار الشريرة	٣٨٤
الفصل (٤) : كيف تسترق الشرور الانسان بشكل الفضائل	٣٨٥
الباب الخامس عشر : محبة الله ـ خمسة عشر فصلاً	٣٨٦
الفصل (١) : اقوال الاباء في محبة الله	٣٨٦
الفصل (٢) : تحديد المحبة واقسامها واسبابها	٣٨٧
الفصل (٣) : كل سبب من اسباب المحبة هذه يوجب محبة الله	٣٨٨
الفصل (٤) : لذة معرفة الله تفوق كل لذة	٣٩٠
الفصل (٥) : ان محبة الله بعد الحياة الحاضرة تسمو وتتعاظم	٣٩١
الفصل (٦) : الاسبات التي تضرم محبة الله وتقويها	٣٩٢
الفصل (٧) : درجات محبة الله	٣٩٣
الفصل (٨) : سبب عدم معرفة المخلوقات خالقها	٣٩٣
الفصل (٩) : انواع شوق النفس الى الله	٣٩٤
الفصل (١٠) : ميزات محبي الله	٣٩٥
الفصل (١١) : التعزية بالله والدالة عنده	٣٩٧
الفصل (١٢) : الضيقات التي يقاسيها العارفون حباً بالله	٣٩٨
الفصل (١٣) : درجات العارفين في محبة الله	٣٩٩
الفصل (١٤) : حالات الكاملين	٤٠٢
الفصل (١٥) : جمع الكلمات المتفرقة في المحبة	٤٠٤

الموضوع	ص



جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠	٢	لا امارة	لأمارة
«	١٠	بشفاعها	بشفائها
«	١٤	ناجحا	ناجعا
١٣	١٥	بوجود	بوجوب
١٣	الحاشية	Voll	Vol i
١٣	٧	(الواحدة)	(الواحد)
«	الحاشية	3	5
١٦	٢٣	الرهادة	الزهادة
٢٣	٤	فيقل	فيقيل
٢٥	٨	كح	كبح
«	٢٠	الجد	الجسد
٢٦	١٩	وهو ذروة مجده	وهو في ذروة مجده
٢٧	٩	تضفي	تطفي
«	١٠	فلا بعد اسم	فلا يوجد بعد اسم
«	١٤	ضد	ضدّه
٢٨	٥	يجوز	يحوز
٣٠	٥	الاتصال	الانفصال
«	٩	ا ح	الحب
«	١٠	ونزع	وانزع
«	١٧	ترفه	تعرفه
٣١	٢١	اقتفى	انتفى
٣٢	١٤	ان تهبط	ان لم تهبط
«	٢٠	المنح	المنع
٣٣	٢	يصرخ	يصرح
٣٦	١٨	اذا تالمنا معه نتجمد	اذا تالمنا معه ، معه نتجمد

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٦	١٩	لم نقاسي	لم نقاس
٣٨	٢	وجبروة	وجبروتا
٣٩	٦	تيضاعف ويتضاءل بالنسبة	يتضاعف ويتضاءل ألمها
«	١٢	يزدري	يزدرى
٤١	٤	الحضر	الحضرة
٤٣	٢٢	يحورها	يحوزها
٤٤	٥	تجمع	تجمح
٤٦	١٤	طبيعتنا	طبيعتها
٤٧	٤	كان محجوبا	كانت محجوبة
٤٩	١	تسريا	او قسريا
٥٢	١١	اعلال	اغلال
٥٣	٨	كالمرأة	كالمرآة
٥٦	٢	تراث	في تراث
٥٦		الحاشية : الرقمان المشيران في هذه الحاشية هما (١٥ و ١٦) والحقيقة يجب ان يكونا (١ و ٢)	
٥٧	١	طاهرة	ظاهرة
٥٧	٩	يفهم	تفهم
٥٩	٣	بالغاء	بالغاً
٥٩	٣	لم يختلفوا على الجوهر	رأيت المسيحيين لم يختلفوا على
٦١	٤	كالرق	كالبروق
٦١	٦	نقص	نقض
٦٢	١١	فقد	فقط
٦٣	١٣	وشده	رشده
٦٦	١٠	يجب اعتبار الهلال موجودا قبل جملة (ان السفينة المثقوبة)	
٦٧	٩	ليمضي	ليمضِ
٦٧	١٣	المكوت	الملكوت

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٧	١٣	المكوت	الملكوت
=	=	الجلى	العجلى
٦٧	١٤	يعلموا	يعملوا
٦٩	٣	تزنو	ترنو
=	٩	دنا	رنا
=	١٢	والثاني	والثانية
٧٣	٩	ضد العارفين	عند العارفين
٧٦	٧	الكائن التي	الكائن الذي
=	١١	كلها	كلما
=	١٣	ليجلوا	ليجلو
٧٩	٣	ليعني	لعيني
=	٣	وهكذا ظهر	وهكذا اذا ظهر
٨٠	١١	السوق	الشوق
=	١٤	الظاهرة	الطاهرة
=	١٨	وحياز	وحيازة
٨١	١٨	توجهها	توجهه
٨٢	٤	اغرض	اعرض
=	٧	فتصتبغان	فتصطبغان
=	١٢	والصيد	والصيت
=	١٤	واخضاعها	واخضاعهما
٨٣	٧	الفلسوف فان	الفيلسوفان
=	١٣	العارمة	العارفة
٨٣	١٦	كون	كوى
٨٤	٤	المالقة	المتألقة
٨٤	٦	رباك	وبعك
٨٤	٢٢	ويعود الفيلسوف ابن العبري ايضاح	الى ايضاح
٨٥	١٠	وحد اليه	وجد اليه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩٠	٥	من توضعه	من تواضعه
٩٨	٢١	عن كل ما الارض والسماء	عن كل ما في الارض والسماء
١٠٠	١٠	اعظم جـهاد الصلاة	اعظم جـهاد في الصلاة
١٠٠	١٩	تكتمل لصلاة	تكتمل الصلاة
١٠٣	٦	ويعرضون الصلاة	ويعرضون عن الصلاة
١٠٣	١٥	ويحني ثانيـة	ويحني راسه ثانية
١٠٧	١٣	يقض	يقيض
١٠٧	١٨	الجملة في هذا السطر ناقصة ، وصحتها هي كما يلي : قال احد الاخوة للاب تيودور الفرمي : مرت علي ثماني سنوات في الزهد ولم اجد راحة واحدة ، وقال له الشيخ ان لي سبعين سنة في الزهد ولم اجد راحة واحدة ، افتريد انت الراحة في ثماني سنوات ؟ ؟	
١١٠	٩	الاصح ان يقال في الجملة الاخيرة (ولا تنقل من حالة الى حالة)	
١١٤	٢٠	اعظم	(تحذف هذه الكلمة)
١١٤	٢٠	ان قاض للعارف	ان اعظم قاض للعارف
١١٧	٩١	الالعاب	الاتعاب
〃	٢٠	نـقول	نـقوم
١١٩	١٣	ليؤدي	ليؤدِ
١٢٠		الباب الثالث - هنا اضطراب في تنظيم الموضوع وحقه ان يكون كمايلي : الباب الثالث - السهر والنوم - وفيه خمسة فصول . الفصل الأول : اقوال الاباء في السهر .	
١٢٠	٧	يلحظاك	يلحظاه
١٢٣	١٨	طبقم	طبقة
١٢٥	٨	غلات	غفلات
١٢٨	الحاشية الاخيرة عدد ٢	العربية المسموعة	العربية اليسوعية
١٣٠	١	مقتصد	متقصد
〃	٤	مجرد من الدموع	مجردا عن الدموع
١٣٤	١	الباب الرابع	الباب الخامس

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣٤	١٨	بالمحروقات	بالمحرقات
١٣٨	٢١	لم يزلوا	لم يزالوا
١٤٠	الحاشية	طبيعة الحر ذاته	طبيعة اللحن
١٤٣	٨	اما ان من الشباب	اما ان يكونوا من الشباب
١٤٤	١٩	بالهاناته	بالهامه
١٤٥	٢٣	تكونان	يكونان
١٤٦	١٣	في كل مكان	في مكان
١٤٩	١٧	الفصل الخامس	الفصل الرابع
=	٦	وهذا يعتبر صياما	وهذا لا يعتبر صياما
١٥١	٩	ماعدى	ماعدا
١٥٢	٣ (الحاشية)	في العصر الواحد	فى العصر الحاضر
١٥٥	١٥	ولما	ولما رآه
١٥٦	٦	توافيس	توافيلس
=	٩	نحفظهما	نحفظها
١٥٧	١	ما للرهبان	مما للرهبان
١٥٨	١٥	من	عن
=	٢١	الادارة	الارادة
١٦٠	٢٤	استطال	استطاع
١٦١	١	يحصل الراهب	يحصل عليها
=	٦	يؤدي	يؤدى
=	١٢	يكتسب بمعاثرة	يكتسب عزاء بمعاشرة
=	١٩	يزورا	يزوروا
١٦٢	١٩	هدأة	هُدأة
=	٢٠	التوجه	التوجيه
١٦٣	٨	بغزيرة الحنين	بغريزة الحنين
=	١٢	المساكين	الساكنين
=	١٨	الجهاد عدو	الجهاد ضد عدو

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٤	٢١	الاغراف	الاغراق
١٦٥	٥	اما ان تكون	اما ان تكون جسدية
ـ	١٨	مسكنه	منسكه (موطن نسكه)
١٦٦	٢١	الزهاد	الزهادة
١٦٨	٢١	قدر	قد
١٧٣	١٨	السلبية	السلمية
١٧٥	٧	فوزع	توزع
ـ	١١	العي	العلى
١٢٨	١٧	اضطرر	اضطر
١٧٩	٢٠	القدس	تحذف هذه الكلمة
١٨٣	١٧	ولم يليها	ولم يابها
١٨٣	١٧	ومن يليها	ومن يابيها
١٨٤	١٢	ثم المدعون	ثم المدعوون
١٨٥	٦	الكنه	الكاي
ـ	٢٢	من بلدة	من بلدة بعيدة
١٨٦	٢٠	لان ذلك من شأن الشرفاء	لان ذلك ليس من شأن الشرفاء
١٨٩	٥	(افسس اص خا)	افسس ٥ : ٢٥ و ٢٦
ـ	٨	ينالها الرجل من الزواج الصالح	ينالها الرجل اعظم من الزواج الصالح
ـ	١٠	امثالها	امثاله
ـ	١٢	وهي تعد الحلل	وهي تعد الحلل
ـ	٢١	ولكن ينقص	ولكي ينقص
١٩٤	٥	سبع	سبعة
١٩٥	١٨	في اجل	من اجل
١٩٦	١٤	والتزين	والتزين
١٩٨	٣	ولا يحب	ولا يحب
ـ	١٣	يلجأ الكذب	يلجأ الى الكذب
ـ	١٦	فيه ميل	وكان فيه ميل

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩٨	٢٠	للرجال	لرجال
١٩٩	٩	يتساوزان	يتساوران
٢٠١	٣	مرتبة	مرتبه
=	٧	وامره	اوامره
=	٧	ان	من
٢٠٥	٢	الذين يخدمون المقدس يأكلون	الذين يخدمون المقدس فمن المقدس
=	٧	لتتقدوا	لتقتدوا
٢٠٧	٣	وتدد	وتد
٢١٠	٣	طرقات العين	طرفات العين
=	١٥	في الخرافات	من الخرافات
=	١٧	الا ان ليس جديراً	الا ان ذلك ليس جديراً
٢١١	١٧	اشارة فائقة	اشادة فائقة
٢١٤	١٧	يصرونها في فقير نائم	يصرونها في ثوب فقير نائم
٢١٥	١	المستقين	المستحقين
٢١٦	٣	فيها اثنا عشر فصلاً	فيها اثنا عشر بابا
=	١٥	داحضة الفصلات	داحضة للفضلات
٢١٧	٤	ثلاثة معاني	ثلاثة معانٍ
٢١٩	١٥	تجمع	تجمح
٢٢١	١	جمع	جمح
=	٨	بمجموع	بجموح
=	١١	يستقدم	يستقيم
٢٢٢	٤	واحتياجاتها	واحتجابها
٢٢٥	١١	ارض الواطئة	الارض الواطئة
=	١٩	اما الكنيسة القديسون	اما ملافنة الكنيسة القديسون
٢٢٦	١٤	طاهرة	ظاهرة
٢٢٧	٢٤	واذا لم احر	واذ لم احر الجواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢٨	١٥	لا يمكنه	ومن لا يمكنه
«	«	ولا يمكنه	لا يمكنه
٢٣٤	١٧	الا يقضي	الا يقتني
٢٣٦	٩	واذا اعاد يقيم	واذا عاد يقيم
«	٢٣	اذ يغربه	اذ يغريه
«	٢٣	الفضيلة الوضاء	الفضيلة الوضاءة
٢٤٠	٥	ينجو	ينج
٢٤١	٢	يزنزن	يزنون
«	٣	لا يأكلون اذا سغبوا	الا اذا سغبوا
«	٨	يؤوم	وما يؤوم
٢٤٣	٤	حر الهجر	حر الهجير
٢٤٤	١١	اناك بخفي	اناك تخفي
٢٤٥	٣	اذا اعترف الناساك	اذا عزف الناساك
٢٤٧	٦	اكله مقيد	اكله مفيد
«	١٥	من جراتها	من جرائها
٢٤٩	٣	الاب اعاثون	الاب اغاثون
٢٥٠	٥	رفيقها	رفيقتها
٢٥١	٢٥	وهو ربح السموم	وهو ريح السموم
٢٥٢	٢٢	اذن لم تقولي	اذن لِمَ لمْ تقولي
٢٥٣	١٤	كيف أتى القرية	كيف اتى الفرية
٢٥٤	٤	فتنصب نفسك كما	فتنصب نفسك حاكما
٢٥٥	٢٠	يبحث الانسان امور	امورا
٢٥٦	١٤	اذا قام الرجل امواتا	اذا اقام الرجل الغضوب امواتا
٢٥٨	٧	وقيد قيل	وقد قيل
٢٥٩	١٠	ان يحشد الانسان	ان يحسد الانسان
٢٦١	١٣	كما ينفي	كما ينقي
«	١٤	دخله كنزا	داخله

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٦١	١٥	يكون غير مأسور	ليكون غير مأسور
٣٦٢	٩	الى القسمين الآخرين	الى القسمين الأخيرين
٣٦٣	٤	لأنـــه يستهدف	لأنـه لا يستهدف
٣٦٤	٣٠	الحذر على محبة المال	الحذر من محبة المال
«	٣٣	من يهم بأمرك	من يهتم بأمرك
٣٦٥	٢٢	يكون الغني لديهم	يكون الغنى لديهم
٣٧٠	١٦	الطمع في المجد هو الباطل	الطمع في المجد هو الرغبة
٣٧٣	٢٣	يعطونها	يعملونها
٣٧٧	٣٦	فافحش ضميرك	فافحص ضميرك
٣٨١	١١	دون ان يحزن	دون ان يخزى
٣٨٤	٤	اذا يحدث	إذ يحدث
٣٨٦	١٩	نصاحة وجمالاً	فصاحة وجمالاً
٣٨٧	١٢	النهر هائج	نهر هائج
٣٩٠	٢	يعلم بالعلم	يعلم بالعمل
٣٩٣	١٦	ان صلاح الآخرين	ان اصلاح الآخرين
٣٩٤	١٨	تخرج القذى من اخيك	من عين اخيك
«	١٩	يلوم احد	يلوم احداً
٣٩٧	٢١	ان لرب	ان الرب
٣٩٩	٣٠	فقد لحمت السنة	لحمت السنة
٣٠٤	١	لا بحرفية الآية بالمعنى الخفي	لا بحرفية الآية بل بالمعنى الخفي
٣٠٦	٣	نذكر فقط اربع	نذكر فقط اربعاً
«	٢١	يكافئه	يكافؤه
٣١٠	٢٢	ان يخطىء الانسان معتمداً	متعمداً
٣١٣	١٦	على المؤمنين	من المؤمنين
«	٣	ينجو	ينج
٣١٥	١٣	وقصية الله وانكاره	وقضية بطرس وانكاره
٣١٨	٧	القريب الآتي	الآني

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣١٩	٥	ومن للصبر	ونحن يصبر
=	٢٠	البدهي	البديهي
٣٢٠	٢٠	تعني	تعنى
=	٢١	قدم	ندم
٣٢١	١٥	المثانب	المصائب
٣٢٢	٦	وشعال	واشعال
٣٢٣	١٥	بنمه	بنعمته
٣٢٥	٨	الظافر	الظفر
٣٢٦	٩	البدهي	البديهي
٣٢٨	١١	تناول بهـا	بهـا
٣٣٠	=	البدهي	البديهي
٣٣٢	١٦	اتركوهم يعملوا	يعملون
=	٢١	يأتي الشكوك	تأتي الشكوك
٣٣٣	٩	السيك	إليك
=	٧	توكلت	توكل
٣٣٤	٥	عم جبل	على جبل
٣٣٦	٨	ترعب في التقوى	ترغب في التقوى
=	١٦	فتش عن انسان لا يخشى الله	يخشى الله
٣٣٨	١٣	ان اذكر الله	ان ذكر الله
٣٤١	١٢	اشبع مسلكيها	اشبع مساكينها
٣٤٢	٣	يأخذ (مادية)	يأخذ بركة (مادية)
–	١٠	إلا الرغبة	إلا أن الرغبة
–	١٢	من البسك	من النسك
٣٤٣	١٧	يزدري	يزدرى
٣٤٤		الفصل الثالث	الفصل الخامس
٣٤٨	٢١	عداد خبز الدخن	اعداد خبز الدخن
٣٥٠	١	بل ليعتبر	ليعتبر (بدون بل)

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٥٠	١١	يجد له	يجدله
٣٥١	١٧	اذا كنت معتمداً	اذ كنت معتمداً
٣٥٢	٨	البــدهي	البــديهي
〃	١٠	حجارة لبره	حجارة لقبرة
٣٥٣	٨	ورجائي ثديي أمي	ورجائي من ثديي أمي
٣٥٤	٩	زوادة	زاداً
〃	١١	وفتشوا عمن	فتشوا عمن
٣٥٦	٧	لما كان واحداً الانسان	لما كان واجب الانسان
٣٥٧	٧	يسلمونكم	يسلبونكم
〃	١٨	ان نكون قتلة الاهواء	ان نكون قتلة الجسد بل قتلة الاهواء
٣٦٠	٧	ان اريحك	ان اريحك

٣٦١ ١ في هذا السطر جملة هامة جداً محذوفة ، وحقها ان تكون كما يلي :

من اجل ذاته او لأنه ُيعين ُ على بلوغ هدف ما جسدي او نفسي وهناك ثلاثة انواع :

(١) المحبوب الذي يحب من اجل ذاته كشخص معين وليس لسبب آخر الخ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٦١	٥	الأب جالينوس ابا الطب	جالينوس ابا الطب
٣٦٤	١٠	كان بعيداً عن	كان بعيداً عنه يثني على حكمته
〃	١٢	ويقاول مقاوميه	ويقاوم مقاوميه
٣٦٥	١١	الى انعاده	الى انقاذه
٣٦٦	٣	في حمل الاعناء	في حمل الاعباء
〃	١١	فتحول الى رفقة	تتحول الى رفقة
〃	١٢	صداقة ثانية	صداقة ثابتة
٣٦٧	١٨	المحروقات	المحرقات
٣٦٨	٩	بحسب تجدد خالعه	بحسب تجدد خالقه
٣٦٩	٤	التبرح	التبرج
〃	١٨	اذا سئلت	اذ سئل
٣٧٠	٢٤	ساكناً	ساكباً
٣٧١	٢٢	بهوطه	بهبوطه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٧٢	١	ومن جزاء	ومن جرّاء
٣٧٢	١٢ - ١٣	الجسمية الروحية	الجسمية والروحية
=	٢٢	بحاجها	بجحتها
٣٧٣		الفصل الثالث	الفصل الخامس
٣٧٥	١٧ - ١٨	واضح من كونه مقابلاً للشمس	اذا غدا مقابلاً للشمس
٣٧٧	٢٥	والديها	والديها
٣٧٨	٢٢	العصابة	العضاية
٣٧٩	٢	والابل	والايل
=	١٨	القصة	القمة
٣٨٣	١١	صرفة كل ميل	صرفة في كل ميل
٣٨٤	١	وانعدم طبيب	وانعدام طبيب
٣٨٥	١١	يثير	يشير
=	٢٤	للغاية الصالحة تفوق بقيمتها	هذه الجملة ناقصة وحقها ان تكون كما يلي : اذا كانت الغاية السيئة مساوية للغاية الصالحة في ذلك العمل لا يوجد هناك لا عقاب ولا ثواب ، واذا كانت الغاية الصالحة تفوق بقيمتها الغاية الشريرة
٣٨٧	٢١	اللغة العقلية	اللذة العقلية
٣٨٨	٥	محبولة	مجبولة
=	٨	وهذا ينزع لذاته	وهذا يُنزّع إليه لذاته
=	١٣	البدهي	البديهي
٣٨٩	١١	=	=
=	٢٣	فيها للحاق	بها للحاق
٣٩٠	١٦	البدهي	البديهي
٣٩١	٢	حد تعبير الأب اوغريس	على حد تعبير الأب
٣٩٤	١	البدهية	البديهية
=	٢٢	الوصال الكهال	الوصال الكامل
=	٢٢	على وراء الضباب	من وراء الضباب
٣٩٦	٢٤	ومثل الثاني	ومثل الثاني فقال :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٩٨	١	العبارات الدالـّة	عبارات الدالـّة
٤٠١	١٠	يتطلع الملأ الاعلى	يتطلع الى الملأ الاعلى
=	١٦	من الوحيية	من العبارات الوحيية
٤٠٢	٣	باثنتي عشرة عجيبة	باثنتي عشرة حالة عجيبة
=	١٣	والتجهد اما المصلوب	والتجهد امام المصلوب
٤٠٣	٢٢	وخطفت	وخطـّت
٤٠٥	١٠	اذا ثملت	اذا ثمل
=	١٥	تصفي	تضفي الوجوم
٤٠٦	٥	اذ الروح	اذا الروح
=	٧	محا يلي	ما يلي
=	=	الروع	الروح
٤٠٧	٢٢	البدهي	البديهي
٤٠٨	٣	مسيحياً الى	سيحيا الى
٤١١	١٦	لا يجد فيها	لا يجد فيه

ملاحظة الى القارىء الكريم :

نأسف جـداً لوقوع هـذه الاغلاط المطبعية الكثيرة في الكتـاب ، وطبعاً يعود ذلك الى عـدم وجودنا بقرب المطبعة للتدقيق في إصلاح الملزمات تباعاً ، ومع ذلك نوجه اجزل الشكر للأبنـاء الغيورين الذين بذلوا كل جهـد ممكن في تصليح الاخطاء المطبعية في حينه ، وخاصةً عزيزنا الروحي النشيط **الشماس جورج صليبا** ونشير الى القارىء اللبيب ان يصلح هذه الاخطاء طبقاً لما يجده في هذا الجدول قبل مطالعة الكتاب ، فان ذلك يحل له جميع المشكلات التي قد تصادفه في المطالعة .

غريغوريوس — المعرب



ܐܝܬܝܩܘܢ ܕܒܪ ܥܒܪܝܐ

ETHICON

CHRISTIAN ETHICS (MORALS)

WRITTEN IN SYRIAC BY

THE GREAT SYRIAN PHILOSOPHER AND AUTHOR
OF SEVERAL CHRISTIAN WORKS

MAR GREGORIUS BARHEBRAEUS CATHOLICOS OF THE EAST
(1226 - 1286)

TRANSLATED INTO ARABIC BY

MAR GREGORIUS PAULOS BEHNAM
ARCHBISHOP OF BAGHDAD AND BASRAH — IRAQ

1967

ترجمة

الإيثيقون

فلسفة الآداب الخلقية

ألفه بالسريانية

العلامة الكبير والفيلسوف السرياني الشهير

مار غريغوريوس ابن العبري مفريان المشرق

ترجمه وكتب مقدمته

الملفان مار غريغوريوس بولس بهنام

مطران بغداد والبصرة

مطبعة الشباب - مكتبة دار اللواء - قامشلي